نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الثالث عشر

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء الثالث عشر

نشر جمعية النهضة

العطف- غرداية- الجزائر

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

1435هـ / 2013م

المطبعة العربية

11 نهج طالبي احمد - غرداية

الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)

النطقة الصناعية : 34 .34 .87 (029)

الإيداع القانوني رقم 5014 / 2013

ردمك: I.S.B.N: 978-9947-845- 66-0

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة محمد ﷺ، مكية، وآياتها ٣٨

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

تسمى السّورة في التفاسير وفي السنة "سورة محمد" على الأشهر، وتسمّى أيضا بـ "سورة القتال" وقد تسمّيها العامّة باسم الجملة التي بدئت بها: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

فأما تسميتها بـ "سورة محمد" فلذكر اسم النبي "محمد" في الآية الثانية منها. ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ علما بأن الرسول ذكر باسمه في القرآن أربع مرات:

أ)- في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (١٤٤).

ب)- في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ (٤٠).

ج)- في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ (٢٩).

د)- وفي هذه السورة: ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ (٢).

وأما في غير هذه المواضع الأربعة فيذكر بصفة النبي أو الرسول، وذكر في سورة "الصف" باسم "أحمد". وأما تسميتها بـ "سورة القتال" لأن الله بيّن فيها أحكام القتال ولقوله فيها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ (محمد:٢٠).

وهي مدنية بالإجماع، لأن القتال لم يفرض على المؤمنين إلا في المدينة، إلا ما روي عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (محمد:١٣) أنها نزلت في مكة في طريق هجرة

الرسول[1]. وآياتها كما في المصحف الشريف ثمان وثلاثون آية، وهي في ترتيب نزول سورة القرآن السادسة والتسعون والسابعة والأربعون في ترتيب سورة المصحف.

ومناسبتها لما قبلها جلية واضحة إذ قال عنها الإمام الألوسي في تفسيره: روح المعاني: "لولا البسملة لاعتقد الناس أنها سورة واحدة".[2]

فقد قال تعالى في ختام سورة الأحقاف: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقال في أول سورة محمد: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ب)- المحاور الأساسية للسورة:

الموضوع الرئيسي للسورة هو الدعوة إلى قتال الكفار وبيان أحكام ذلك في أثناء المعارك وبعد انتهائها.

- افتتح الله السورة بحكمه على الكافرين بضلال أعمالهم، وحكمه على المؤمنين بالهداية وإصلاح بالهم وعلل ذلك باتباع الكافرين الباطل واتباع الذين آمنوا الحق من ربهم.

- يتولى الله المؤمنين ويعدهم بالنصر على أعدائهم بينما المشركون لا سند لهم من الله وسيحبط أعمالهم.

- تحريض المؤمنين على قتال الكفار بضرب أعناقهم وبالأسر حتى نهاية المعركة وأن لا يدعوهم إلى السلم وهم الأعلون والله مؤيّدهم وناصرهم، مع إنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم.

١- الطبري، جامع البيان، رقم ٢٤٢٧٧: ٢١/٧٤.

٢- روح المعاني: ٢٦/٣٦.

- وصف الله لألوان من نعيم الجنة للمتقين ترغيبا لهم في الإقبال على الإيمان والطاعة، وقابل ذلك بوصف المنافقين والمرتدين، وأنه تعالى سيكشف للرسول سيماهم حتى لا يروج على المسلمين أمرهم.

- وختم الله السورة بالتحريض على الجهاد ويدعو المسلمين إلى إعداد عدته سيما بالإنفاق في سبيل الله وليحذرهم من البخل ومن الفساد وقطيعة الأرحام.

- ويؤيّد ما ترجح من أنّ السورة مدنية ما ورد فيها من الحديث عن المنافقين، و لم يكن النفاق قد ظهر من قبل في مكة، لأن دوافعه لم تكن موجودة هناك، فالناس كانوا إما كافرا صريحا وإما مؤمنا ثابتا لا يداهن ولا يخاف.

بيان حكم الله على الكفار والمؤمنين.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: كلتا الجملتين صدرتا بالموصول والصلة وهما في موضع رفع

بالابتداء ويومئ الموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي الذين كفروا لأجل كفرهم، والذين آمنوا لأجل إيمانهم. والبال: هو الشأن وقد يطلق على القلب، وبين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ طباق. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾: في إعرابه وجهان: يجوز أن يكون ذلك في موضع رفع على إضمار مبتدأ ويجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبر. والجملة بيان لسبب تضليل الكفار وإصلاح شأن المؤمنين. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾: تذييل لما قبله: أي مثل ذلك البيان يبين الله للناس أحوالهم حتى لا يبقوا في غفلة، والمراد بالناس عمومهم مؤمنين وكافرين. والأمثال: جمع "مثل"، أي الحال التي تمثل صاحبها.

ج) - البيان والتفسير:

مما هو ثابت من السيرة النبوية أن الله تعالى لم يأذن للرسول والمؤمنين بالقتال إلا بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة إذ نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩). فكانت نفوس المؤمنين تتشوق إلى الدفاع عن أنفسهم، فنزلت هذه السورة الكريمة لتأمرهم بالقتال وتبيّن أحكامه فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾.

إن هذا المطلع الكريم للسورة يعدّ من براعة الاستهلال والتمهيد المناسب لشحذ عزائم المؤمنين وتحريك نخوتهم لقتال أعدائهم، ولبيان غضب الله ونقمته على الكافرين وأنه تعالى سينصرهم عليهم، وحسب الكافرين مقتا عند الله أن يضفي عليهم ثلاثة أوصاف، الكفر بالله أي عدم الاعتراف بوحدانيته وسلطانه وجحود آياته، ثم صدّهم للناس عن سبيل الله بالمكر والإيذاء، وضلال أعمالهم وإن كانت في ظاهرها أعمال برّ وإحسان مما كان من أخلاقهم المتوارثة كإكرام الضيف، ونجدة الملهوف وسقاية الحاج...إلخ.

لأن مناط القبول عند الله هو الإيمان الصحيح إذ يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣). فهذا الوصف وإن كان ينطبق على كفار قريش فهو عامّ على كل من اختار ذلك من غيرهم من البشر. وفي مقابل ذلك بيّن الله حال المؤمنين وذكر جزاءهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

وبنفس الصيغة بالموصول وصلته يصف الله المؤمنين، ويقابل كل صفة بنقيضها، فالإيمان بالله مقابل الكفر به، وزيادة جملة: ﴿وعملوا الصالحات﴾، تأكيد للإيمان الحقيقي الصادق بأنه اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان باتباع الأوامر واجتناب النواهي والالتزام بأحكام شرع الله ظاهرا وباطنا، والإيمان بما نزل على محمد هو مقابل الصدّ عن سبيل الله، أي الإيمان بصدق الرسالة والنبوءة، والقرآن المنزل على رسول الله هو الحق الثابت من الرّبّ تعالى -والإضافة تشريفية-، وما أروع هذه الجملة المعترضة في التنويه بشأن القرآن. وفي الجزاء نجد الإصلاح مقابل الإضلال، كما نجد التخلية قبل التحلية، فكفارة السيّئات بمعنى غفرانها لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله، فإذا استنار القلب بنور الإيمان، فإن الجوارح كلها تنشط في الميرات والقربات فينعكس ذلك على صاحبه طمأنينة ورضى نفس بما يكون به صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة. والتعبير بإصلاح البال جامع لكل الحالات النفسية التي يشعر فيها الإنسان براحة الضمير وهناء القلب بما يصدر عنه من التصرفات الخيرية ومن أعمال البرّ، ويقال: هذا أمر ذو بال، إذا كان ذا قيمة وقدر، وتذكر الروايات أن المقصود بهم المهاجرون والأنصار كما روي ذلك عن ابن عباس، غير أن العموم أولى، والتخصيص للإيمان بما نزل على محمد هو لنفي ما يدّعيه أهل الكتاب بقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران:٧٣). أي اكتفاؤهم بالتوراة والإنجيل وعدم اعترافهم بالقرآن، فالتخصيص على شرط الإيمان بما نزل على محمد

هو لبيان أن شريعة الإسلام قد نسخت ما قبلها من الشرائع وهيمنت عليها.

ثم بين الله سبب جزاء الفريقين فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، الإشارة إلى ما تقدم من جزاء الفريقين ليبّين الله السبب الحقيقي في ذلك فليس هو للمال والجاه ولا للحسب والنسب أو غير ذلك من الاعتبارات الأخرى التي يتعامل بها الناس وإنما هو لسبب عادل أصيل هو الإيمان بالله والإخلاص لعبادته واتباع الحق، ووصفه بأنه من ربهم هو تشريف لهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾: وضرب الأمثال هو من الكلام الحكيم ولكل أمّة أمثالها، كما للعرب أمثال اعتنى بعض العلماء بجمعها وتفسيرها، والمعنى: كذلك التبيين المتقدم يبيّن الله بضرب الأمثال ليبيّن للناس أحوالهم المختلفة وكيف يكون الحكم لها أو عليها فلا تختلط عليهم الأمور ولا يغفلون عن شؤونهم، علما بأن مجتمع المدينة قد تولّد فيه النفاق مما يصعب معه على المؤمنين التمييز بين الصادق في إيمانه والكاذب، والله أعلم.

تحديد أحكام القتال وما بعده من أحوال الأسرى والقتلى.

أ)- النصّ:

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾: اللقاء هنا بمعنى مواجهتهم في الحرب ويقال فيه يوم اللّقاء. ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾: منصوب على المصدرية، والتقدير: اضربوا الرقاب ضربا. وهو كناية على القتل سواء بضرب السيف أو بطعن الرمح. ولما كانت: ﴿إذا﴾ متضمنة معنى الشرط فإن الفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿حَتَّىٰ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾: ﴿حَتَّى﴾: ابتدائية تفيد الغاية، والإثخان المبالغة بضرب الأعناق، لأنها تترك المغلوب كالشيء الثقيل الصلب. وشدّ الوثاق: كناية عن الأسر؛ لأنه يستلزم وضع القيد. والشدّ: الربط المحكم. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: "منًا" و"فداء" منصوبان على المصدر، والتقدير: إمّا تمنون عليهم بالإنعام عليهم بالسراح وإمّا يفدون أنفسهم بالمال. يقال: وضعت الحرب أوزارها مجاز عن انتهاء الحرب، والأوزار: هي أثقال السلاح وأنواع العدة، والضمير في: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ يعود إلى الحرب نفسها، ويرى بعض المفسّرين أن المعنى: تضع آثام الشرك والضلال. ﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: أي لَوْ يَشَآءُ اللّٰهُ لكفاكم أمرهم بغير قتال ولكن أراد أن يختبر المؤمنين بقتال المشركين حتى يثيبهم. ﴿وَالذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾: ضمن الله للمجاهدين في سبيله ثلاثة منن: الهداية إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وإصلاح البال -وقد تقدم معناه-، وإدخالهم الجنة التي وصفها لهم فعرفوها وتمنّوا دخولها. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: معنى نصرهم لله هو نصر دينه واتباع رسوله. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾: مجزوم في جواب الشرط، أي يكتب لكم النصر على عدوكم. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: تمثيل للحصول على اليقين والثبات لأن الأقدام هي مرتكز الجسم كله. ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾:

والتعس: الشقاء والهلاك، منصوب على المفعولية المطلقة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالذِينَ قَاتَلُوا﴾: قرأ الجمهور: ﴿قَاتَلُوا﴾ بصيغة المفاعلة فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿قُتِلُوا﴾ بالبناء للنائب فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء، فإصلاح بالهم وهدايتهم كائنان في الآخرة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذلك التمهيد ببيان صنف المؤمنين والكافرين وحال كل منهما عند الله من الإصلاح والإضلال ذكر الله تعالى حكم القتال عند قيام الحرب وما يكون بعده فأرشد المؤمنين إلى كيفية التعامل مع الأسرى فقال: **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾**.

فرّع الله على ما سبق من إذكاء الحماس والنخوة في قلوب المسلمين لقتال أعدائهم، وذلك بعد أن تهيأ الجوّ في المدينة وأذن الله لهم بذلك، وبعد أن خاض المسلمون أول مواجهة مع أعدائهم في غزوة بدر وما وقع بعدها من اجتهاد الرسول وأصحابه بحكم الفداء لأسراهم، وهم ما يزالون قلة فعاتبهم الله على ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ اَنْ يَّكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الاَخِرَةَ﴾ (الأنفال:٦٧). ويرى المفسّرون أن هذه الآية من سورة "محمد" نزلت بعد آية الأنفال، لما ورد فيهما من لفظ: "الإثخان" ومعناه أن يستحرّ القتل في الأعداء حتى تخضد شوكتهم ويهون شأنهم. والمقصود بلقاء الذين كفروا لقاء الاحتراب والقتال. و﴿إذا﴾ تفيد

الاستقبال وتتضمن معنى الشرط والذين كفروا مصطلح قرآني يعمّ كل مشرك من كل من خرج لقتال المسلمين حتى من النساء والصبيان والرهبان كما ذهب إلى ذلك العلماء. وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي قطعها بالسيف ونحوه فهي كناية عن القتل بأيّ وسيلة كانت قديما وحديثا كما تقتضيه طبيعة الحرب بلا تردّد ولا هوادة، بل غلظة وقساوة حتى تخضد شوكة الأعداء وتوهين قوّتهم ثم وقوعهم أسرى في أيديكم وقد انتهت الحرب، فأحكموا وثاقهم بوضع القيود في أيديهم وأرجلهم لئلا ينفلتوا أو يهربوا.

ثم بيّن الله حكم الأسرى بعد انتهاء الحرب فقال: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، وقبل بيان حكم الأسرى كما استنبطه الأئمّة من هذه الآية، نوضّح معنى: ﴿حَتَّىٰ﴾ من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، فهي في معنى التعليل وليست للتقييد، أي افعلوا ذلك لأجل أن تضع الحرب أوزارها، والمقصود بها الأثقال من المعدّات والأسلحة والمؤن والآليات...إلخ، فالغاية هي إنهاء الحرب والقتال وإذعان الكفار إلى السلم والموادعة.﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال:٦١). وكما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٩٣). وفي هاتين الآيتين أقوى دليل على أن الإسلام قد تمّ انتشاره بالحجة والإقناع وبالاختيار الحرّ إذ لا إكراه في الدين.

ويستفاد من الآية التخيير بعد الأسر بين المنّ والفداء، ولكن القيد: ﴿بَعْدُ﴾ يدلّ على أن الأسر لا يكون إلا بعد الإثخان في القتل. ويبقى السؤال بعد ذلك في حكم الأسير أينحصر في التخيير بين المنّ عليه بإطلاق سراحه أو يفتدي نفسه بقدر من المال أو يضاف إليه جواز قتله أو مبادلته بأسرى

المسلمين وفق ما تقتضيه المصلحة التي يراها الإمام؟. خلاف بين العلماء، نلخّصه في ما يلي:

أ)- الإمام مخيّر في المنّ والفداء والقتل ولبعض المصالح.

ب)- الإمام مخيّر في المنّ والفداء لا غير هما وإنّ القتل مستفاد من فعل النبي في قتله لبعض أسرى بدر وأحد.

ج)- يرى بعض العلماء بأن استرقاق الأسير من المنّ وهو مشروع.

د)- ذهب آخرون أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (النساء:٨٩). فلا يرى إلا القتل للأسير.

هـ)- ويرى البعض أنه لا بأس أن يفادى أسرى المشركين بأسرى المسلمين، لأن في ذلك استمالة لهم إلى الإسلام.

وبما أن الأمر بالقتال مما تكرهه كثير من النفوس الضعيفة وقد تخفى عليها حكمة الله من وراء ذلك وهو القادر على قهر خلقه لما يريده منهم فقد بيّن الله تعالى الحكمة في شرع القتال فقال: **﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾**.

كرر الله الإشارة وهي خبر لمبتدأ محذوف في جملة معترضة وتأتي الجملة الشرطية بعده لبيان حكمة الله في مشروعية القتال، حالة كونه تعالى قادرا على إهلاك أعدائه والانتقام منهم بأنواع من العذاب كما فعل بأمثالهم من الأمم السابقة. فلا تحسبن الله -حاشاه- عاجزا عن ذلك، بل اقتضت حكمته أن يختبر بعضكم ببعض حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلو أخباركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢). والاختبار هو محك التكليف وهو مجاز

بالنسبة إلى الله إذ يراد به ظهور إرادته تعالى في واقع الناس ليميزوا الخبيث من الطيّب فيجازي الله كلا بما يستحق، وفي معنى هذه الآية: ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:١٤).

ثم أثنى الله على المجاهدين والشهداء وذكر ما لهم من أجر وثواب: ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، التفات من الخطاب إلى الغيبة ليظهر مكان الإضمار وللإتيان بالموصول ولتكون صلته: ﴿قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علّة لما ورد بعدها من الأخبار المنوّهة بشأنهم.

أ)- ﴿**فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾: فعلى قراءة: ﴿قَاتَلُوا﴾ في سبيل الله في ماضي حياتهم فإن الله لا يحرمهم أجرهم في المستقبل فلا تضيع جهودهم سدى. إذ يكون لهم أجر المجاهدين يجازيهم الله بالعزة والتمكين في الدنيا وبالجنة في الأخرى، وأما على قراءة المبني للمجهول: ﴿قُتِلُوا﴾ فإنّ أجر الشهداء معلوم المنزلة عند الله والشرف عند الناس.

ب)- ﴿**سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ**﴾: بأن يوفقهم إلى طريق الخير ويثبتهم على النهج القويم كما يغمرهم بالرضى والطمأنينة بحياة قلوبهم وسعادة نفوسهم.

ج)- ﴿**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾: والتعريف بالشيء هو تجلية أوصافه وبيان حقيقته، وقد تفنن القرآن الكريم في وصف نعيم الجنة للمتقين فهم يتمنون دخولها ملتزمين بكل ما يوصلهم إليها بطاعة الله ورسوله، فهم أهدى إليها في الآخرة من منازلهم في الدنيا، كما جاء في الأثر: "لهم أعرف

بمنازلهم فيها من منازلهم في الدنيا التي يختلفون إليها في عمر الدنيا".[1]

ومن المفسّرين من فسّر: ﴿عَرَّفَهَا﴾ بمعنى طيّب رائحتها من قولهم: عرف العود، أي عود البخور، كقول الشاعر أبو تمام في حكمته:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار في ما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال شاعر الثورة مفدي زكرياء في وصف قسنطينة:

فكم تحرّق عود في مقاصرها وكم تحرّك في أفيائها العود

وإذ يشوق الله عباده لنعيم الجنة وذكر الحكمة من ابتلاء الناس بعضهم ببعض حرّض المؤمنين على نصرة دينه ووعدهم بنصره فقال: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

إنه النداء الرباني لعباده المؤمنين لإشعارهم بالمسؤولية التضامنية أزاء نصرة دينهم، فقد اشترط في تحقيق النصر الموعود لهم أن ينصروا الله -والله غنيّ عن النصر- ولكن المراد أن يلتزموا بما أمرهم الله به من تطبيق شرعه الحنيف واتباع نبيه الشريف. وبذلك يضمنون معية الله بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم وإمدادهم بالروح المعنوية التي انتصروا بها في بدر وغيرها من المشاهد وقد عطف الله تثبيت الأقدام على تحقيق النصر، وهو كناية عن قوة اليقين ونفي الوهن كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (١٢). وما غاب النصر اليوم عن المسلمين في صراعهم المرير مع أعدائهم إلا لانعدام ذلك الشرط بقعودهم عن نصرة دينهم وتوليهم عن تطبيق

١- رواه الطبري عن بعض الصحابة، جامع البيان: ٢٢/١٦٠.

أحكامه في واقعهم المعيش قال الإمام البوصيري: ومن شرط كل شرط جزاء.

وفي مقابل جزاء الذين قاتلوا في سبيل الله، ذكر جزاء الكفار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وما أبلغ التعبير بالمصدر، والتعس: هو الخزي والشقاء، وقد يراد به الدعاء عليهم بالشرّ، وجملة: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ هي في معنى ما تقدم في أول السورة. وقد بسطنا القول عنها هناك.

ثم بيّن الله سبب تلك العاقبة المشؤومة لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، الإشارة إلى تعاستهم وإضلال أعمالهم، بأنهم هم الذين تسببوا فيهما لأنفسهم بكرههم لما أنزل الله في كتابه من أصول الدين وأحكامه، وإحباط الأعمال هي إبطالها وإن كان ظاهرها خيرا كما تقدم، والله أعلم.

النظر في آثار الأمم السابقة للتأمّل والاعتبار.

أ) - النصّ:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾: الاستفهام تقريري. ﴿فَيَنظُرُوا﴾: إما مجزوم بالعطف على: ﴿يَسِيرُوا﴾. أو هو في موضع نصب على جواب الاستفهام، وعلامة الجزم أو النصب حذف النون، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿عَاقِبَةُ﴾: اسم كان، و﴿كَيْفَ﴾: خبرها. ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾: ﴿دَمَّرَ﴾: أهلك، وهو يتعدى بنفسه ولكن عدّي بحرف ﴿عَلَى﴾ للاستعلاء والمبالغة للدلالة على قوة التدمير. أي ما يختصّ به الإنسان من أموال وأولاد. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾: جملة معترضة، والضمير يعود إلى العاقبة. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُم﴾: ﴿مَوْلَى﴾: الوليّ والناصر، ويأتي بمعنى: المالك، أي المتصرف في شؤونهم. قال الرسول لأصحابه في غزوة أحد: «**قولوا للمشركين: الله مولانا ولا مولى لكم. إذ قالوا: يوم بيوم، لنا العزّى ولا عزّى لكم**»[1]. ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾: التمتع الانتفاع بالمتاع وقد وصف الله متاع الدنيا بالقليل وأنه مؤقت إلى حين. ﴿كَمَا تَاكُلُ الأَنْعَامُ﴾: أي همّهم بطونهم وفروجهم كالأنعام، والمثوى: مكان الإقامة. والتعليق باللام: ﴿لَّهُمْ﴾ عوضا عن الإضافة للدلالة على التمكن. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: ﴿كَأَيِّن﴾: للدلالة على الكثرة، والمراد بالقرية أهلها، وهي مكة. ولذلك قال: أهلكناهم. واختيار ضمير القرية: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ لإفادة الإحاطة بجميع أهلها سواء من قام بالفعل ومن رضي به. ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ

١- رواه البخاري في حديث طويل من حديث البراء بن عازب، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (١٦١) ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، رقم ٢٨٧٤: ٣/١١٠٥.

لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: الاستفهام لإنكار المماثلة. والبينة: الحجة والبرهان مما اشتمل عليه القرآن. وإنكار المشابهة يدل على تفضيل المؤمنين، وإنكار زعم المشركين على أنهم خير منهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَأَيِّن﴾: قرأ الجمهور بهمزة بعد الكاف وبتشديد الياء، وقرأ ابن كثير بألف بعد الكاف وتخفيف الياء مكسورة، وهما لغتان صحيحتان.

د)- البيان والتفسير:

بعد تنويه الله بشأن المؤمنين وتثبيتهم في نصرة الله، والتنديد على الكافرين وتهديدهم بإحباط أعمالهم أعقب ذلك بالتحريض على النظر في مصائر الأمم المتقدمة كيف دمّر الله عليهم، وأنه تعالى ناصر المؤمنين وخاذل الكافرين في الدنيا ومنعم على أهل الإيمان بالجنة، والكافرون مثواهم النار. قال تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾**.

فرّع الله على ما سبق من أحكام القتال ومصير الأسرى بعده، فرّع هذا الاستفهام التقريري لدعوة الكافرين إلى السير في الأرض للتأمّل والاعتبار، فالضمير عائد إلى المتحدث عنهم من أول السورة من الذين كرهوا ما أنزل الله، علما بأن كفار قريش يسافرون بقوافلهم التجارية إلى جنوب الجزيرة وشمالها، فيمرّون على مضارب القرى المدمّرة من قوم تبّع وعاد وثمود ولوط وغيرهم ممن كانوا أشدّ منهم قوة وأكثر عددا، وعاقبة الشيء هو ما ينتهي إليه حاله خيرا أو شرّا، وعاقبة الطغاة والظلمة لم تكن إلا شرّا ودمارا ماحقا شديدا، وهذا ما يفيده التعبير: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بينما الفعل: ﴿دَمَّرَ﴾ يتعدّى

بنفسه، فعدّي هنا بـ"على" لإفادة الاستعلاء مبالغة في شدة التدمير لكل ما يخصّ بهم إذ نزل العذاب عليهم من فوق رؤوسهم، كما تفعله الطائرات اليوم، ولله المثل الأعلى، ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، وهذا تهديد للكافرين لما يسلطه الله عليهم من أمثال ذلك العذاب، والضمير في: ﴿أَمْثَالُهَا﴾ يعود إلى عاقبة الذين من قبلهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

والإشارة إلى المذكور من العذاب المثلي. إذ يكون في ذلك انتصار للمؤمنين، والله ناصرهم ومؤيدهم على أعدائهم، فالولاية هنا من النصرة وليست بمعنى الملك والتصرّف إذ الله وليّ الخلق كلهم بالمعنى الأخير. بينما الذين كفروا هم مخذولون بما أشركوا فلا يجدون من الله وليًا ولا نصيرا، وقد تقدمت قولة المؤمنين للكفار في غزوة أحد: "الله مولانا ولا مولى لكم".

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾:

هذه الجملة المتشابهة هي لمزيد البيان عن أحوال المؤمنين والكافرين، فولاية الله للمؤمنين لا تقتصر آثارها على ما يمنحهم في الدنيا من النصر والتمكين بل هناك النعيم الأبدي في جنات الخلد تجري من تحتها الأنهار ينتظرهم في دار المقامة بينما الكافرون ليس لهم إلا ما يتمتعون به في الدنيا متاعا حيوانيا لا قيمة له ولا وزن إذ هم في ذلك كالأنعام محرومون من نعمة الإيمان، ومآلهم في عالم الخلد عذاب النار هي مثواهم لا يجدون عنها محيصا، والمؤمن وإن فاته نعيم الدنيا -وهو إلى زوال- فإنه يستشرف ما عند الله من نعيم الخلد. وما يضرّه ما فاته من نعيم الدنيا كما قال الإمام أبو نصر في نونيته رحمه الله:

وما ضرّني ما فاتني من نعيمها إذا نعمت عيني غدا وعفى عنّي

وفي معنى هذه الآية في شأن الذين كفروا قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩٦-١٩٧).

ولما كان هذا البيان يتركز على كفار قريش فقد تهدّدهم الله تعالى بإهلاكهم كما أهلك من هم أشدّ منهم قوة فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

جاء هذا التهديد مؤكدا لقوله تعالى بصفة عامّة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، وهناك يؤكد ذلك التهديد بـ"كأين" الدالة على الكثرة للقرى التي أهلكها الله. ثم يخصّص بالذكر أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله وأصحابه ظلما وعدوانا إلا أن يقولوا ربنا الله، وإسناد الإخراج إلى القرية -والمراد أهلها- هو لإفادة إلقاء التبعة والمسؤولية على جميع أهلها سواء منهم من باشر الإخراج بالفعل أو من رضي بذلك، فهم مشتركون كلهم في الجريمة، وقد تهدّدهم بالإهلاك كما أهلك من هم أشدّ قوة منهم فلم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وإن كان الله قد رفع عن أمة الرسول عذاب الاستئصال فإن ما دون ذلك من عذاب الدنيا بالقتل والأسر واقع بهم -لا محالة- بحيث لا يجدون من ينصرهم من غيرهم من العرب إطلاقا.

ثم بيّن الله سبب التفرقة بين جزاء الفريقين فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

بعد بيانه تعالى لجزاء الفريقين: الذين آمنوا والذين كفروا، فرّع عليه هذا الاستفهام الإنكاريّ للمشابهة بين الفريقين، ففضّل الفريق الأول من

المؤمنين ووصفهم بأنهم على بيّنة ويقين بأنهم على الحق الذي هداهم ربّهم إليه، فأقرّ أعينهم وأصلح بالهم، أهؤلاء خير أمّن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا، وهو لا يعدو أن يكون عبدا لهواه وقرينا للشيطان، منهمكا في المعاصي والضلالات، ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فلا يستوي الفريقان عند الله ولا عند العقلاء ذوي الفطرة السليمة.

وهذا الاستفهام الإنكاريّ للمشابهة بين الفريقين سببه هو ما يعتقده الكفار ويردّدونه في شأن المؤمنين من مثل قولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ (الأحقاف:١١).

وقولهم إذا مرّ عليهم المسلمون في مجالسهم سخرية منهم:

أ)- ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ (الأنعام:٥٣).

ب)- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ (المطففون:٣٢).

وشبيه بهذه الآية الآية الأخيرة من النصّ قوله تعالى:

أ)- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ (السجدة:١٨).

ب)- ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الرّعد:١٩).

ج)- ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ (الحشر:٢٠).

د)- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم:٣٥- ٣٦).

والله أعلم.

صفة نعيم الجنة وعذاب أهل النار.

أ)- النصّ:

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: ﴿مَّثَلُ﴾: أي الوصف العجيب، والمِثل -بسكر الميم وسكون الثاء- هو للمثلية والتشابه فيقال: هذا مثل هذا أي هما متشابهان. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: في ما يتلى عليكم مثل الجنة، ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: في موضع الحال. ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: يقال: أسِن الماء يأسَن، أي هو متغيّر الطعم والرائحة لطول ركوده. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾: ﴿لَّذَّةٍ﴾: مؤنث لذّ بمعنى لذيذ، نعت لخمر، أو هو وصف بمصدر، كرجل عدل، أي لا تحدث سكرا ولا صداعا كما قال تعالى: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات:٤٧). ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: أي خال من الشمع وفضلات النحل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: أي أنواع الفواكه مما يلذّ أكله تمتعا وتلذذا. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: وتلك لذة روحية هي أعظم من اللذات الحسية كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢). ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾: والتقدير: أمن هو في تلك الجنات متمتعا

كم هو خالد في النار؟، والماء الحميم أي شديد الحرارة، والأمعاء: جمع "معي" وهو يذكّر ويؤنث، وهي المصارين، وجلّ آلام الأحشاء تكون بسببها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿آسِنٍ﴾: قرأ الجمهور بالألف على وزن "فاعل"، وقرأه ابن كثير: ﴿أَسِنٍ﴾ بدون ألف بعد الهمزة، على وزن "فعِل" للمبالغة.

د)- البيان والتفسير:

بعد ذكر الجنة والنار في جزاء المؤمنين والكافرين مع الوصف الإجمالي للجنة بأنها تجري من تحتها الأنهار وذكر النار مجردة عن الوصف، يأتي هذا البيان التفصيليّ لأنهار الجنة مما يشوّق السامع إلى معرفة تنوعّها بمختلف المشروبات المستطابة، والتي هي من متع المترفين المنعمين، نافيا التسوية بين تلك النعم الخالدة، وما يكون للكفار من الخلود في النار. وسقياهم من الماء الحار الذي يقطّع أمعاءهم، فقال تعالى: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ**﴾.

فسّر "المثل" بالحال العجيب من أوصاف الجنة، وفي إعرابه ترد احتمالات للنحويين أبرزها:

أ)- مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: ما يتلى عليكم أو نحوه.

ب)- مبتدأ والخبر هو قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾.

ويكون ما بينهما جملًا معترضة، وهو ما اختاره الزمخشريّ فتكون

الجملة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ بيان تفصيليّ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وعلى ذكره النار مثوى للكفار مجرّدة من كل وصف يأتي هذا الاستئناف البياني المفصّل لنوعين من الجزاء لكل من الفريقين، في تركيز أكثر على وصف نعيم الجنة لزيادة التشويق لها عند السامع، فقد ذكر للمؤمنين نوعين من الجزاء: ماديّ ومعنويّ، ونوّع الجزاء الماديّ إلى مشروب ومطعوم.

ففي المشروب: ذكر أنواعا من المشروبات على الترتيب الذي تدعو إليه المنفعة المطلوبة أكثر، فبدأ الله بالماء وقال: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، والماء هو أصل الحياة المادية المألوفة في الدنيا، وكونه غير آسن: أي هو طاهر صالح للشرب، لم يتعفّن بطول الركود، علما بأن المخاطبين أو العرب بصفة عامة يندر عندهم الماء القراح، إذ يعتمدون على مياه الجوابي والغدران ولا يتوفر الماء الزلال إلا عند المترفين المنعمين، وكونه يجري أنهارا في الجنة كحالته في الدنيا لعله للحقيقة والله أعلم بكيفية ذلك، وثنّى الله باللّبن ووصفه بأنه لم يتغيّر طعمه، واللبن في المرتبة الثانية في المنفعة بعد الماء فهو الغذاء الضروريّ للبشر ولكل الثدييات من الحيوانات فهو كامل الغذاء ما كان طازجا جديدا بعد الحلب، أما إذا استُبقي فهو يتغيّر إلى خثورة وحموضة. وكثير من الناس لا يستسيغ اللّبن الحامض، يقول تعالى: ﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ (النحل:٦٦).

وثلث الله بالخمر ووصفه بأنه لذّة للشاربين، والخمر في الأصل هو عصير العنب التي يترك حتى يتخمّر أو هو ماء تنقع فيه بعض الثمار حتى تتخمّر، فالعرب يشربون أنواعا من ذلك، فهي لذيذة الطعم طيّبة الرائحة، وليست كخمرة الدنيا مرّة المذاق.

وقد قال يوما عبد الملك بن مروان لشاعر بلاطه الأخطل الكبير: كيف

تشرب الخمر وأوّلها مرّ وآخرها سكر، فأجابه إنّ بين المرارة والسكر لحظة دولها ملكك الطويل العريض يا أمير المؤمنين ثم أنشد يقول:

إذا ما غلام علّني ثم علّني ثلاث زجاجات لهنّ هدير

خرجت أجرّ الذيل حتى كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

ويقول تعالى في وصف خمر الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأسٍ مِّن مَّعِينٍ، بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ، لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصّافات: ٤٥-٤٧).

ولا تكون الخمر إلا على موائد المترفين فهي من حيث الأخذ والاستعمال في المرتبة الثالثة.

ويأتي العسل في آخر الترتيب، وهو محدود في المشروبات لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأكُلُونَ﴾ (المؤمنون:٢١).

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٦٩).

ووصفه "بالمصفى" لاستخراجه من خلايا النحل مخلوطا بالشمع والنفايات الأخرى، فهو وإن تعددت منافعه الشفائية -كما وصفه الله- فليس من المشروبات الضرورية. يقول الدكتور الزحيلي في سبب هذا الترتيب:

"وإنما ذكر الله تعالى هذه الأجناس الأربعة من "الأنهار"؛ لأنها جمعت بين الضرورة "الماء"، والحاجة "اللبن"، والمتعة "الخمر غير المسكرة"، والعلاج "العسل"".[1]

١- التفسير المنير: ٢٦/١٠٣.

قلت: بناء على مقولة ابن عباس ﷺ: ليس في الآخرة مما عرفناه في الدنيا إلا الأسماء، وقول العلماء: "وأحكام تلك الدار ليست كهذه"، وبناء على الحديث القدسيّ: «**أعددت لعبادي المتقين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، فإننا نؤمن ونجزم بكل ما وعدنا الله به عن ظهر الغيب ونكل إدراك حقائق ذلك إلى قدرة الله الذي قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠-٦١).

ثم ذكر من المطعومات قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، فالتعريف للجنس يشمل كل ما خلق الله تعالى من الثمار مما علمناه وما لم نعلمه، فنحن اليوم في الدنيا قد نعجب لنوع من الثمار يأتينا من قارات أخرى لم نألفه في منطقتنا فيصبح من أغلى مشتهياتنا فكيف بثمار الجنة؟، أذاقنا الله منها.

وفوق الملذات الحسّية، مغفرة من الله ورضوان، فهي أعظم من كل ما تقدم من المتع الحسية لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

ثم قابل الله بين جزاء المتقين وجزاء الكافرين بصيغة التشبيه المفيد لإنكار التسوية بين حال الفريقين فقابل تلك المشروبات الطيّبة لأهل الجنة بالماء الحميم، أي الشديد الحرارة، يسقى به أهل الجحيم فيقطع أمعاءهم، والمعهود من آلام الأحشاء أنها تتسبّب كلها من مغص الأمعاء بنوعيها الرقيق والغليظ. وفعل: ﴿سُقُوا﴾ يدلّ على أنهم يستغيثون ويطلبون السقيا فيسقيهم ملائكة العذاب من ذلك الشراب الحارّ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ

١- رواه البخاري، كتاب (٦٣) بدء الخلق، باب (٨) باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٧٢: ٣/١١٨٥. ورواه مسلم، كتاب (٥١) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤: ٤/٢١٧٤.

كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩).

وشتان بين الخلود في درجات النعيم والخلود في دركات الجحيم، والعياذ بالله، ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥-٦٦)، والله أعلم.

الكشف عن سرائر المنافقين، ودعوة الرسول إلى الثبات على ما هو عليه.

أ)- النصّ:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۖ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: ﴿وَمِنْهُم﴾: الضمير يعود إلى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المتحدث عنهم من أول السورة. ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: أي المنافقون الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ويتظاهرون بالإسلام. ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾: أي إذا خرجوا من مجلس الرسول سألوا علماء الصحابة سؤال سخرية واستهزاء. ومعنى: ﴿آنِفًا﴾، أي الوقت القريب من زمن التكلم وهو منصوب على الظرفية. و﴿قَالَ﴾: أي

الرسول. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الطبع على القلب تمثيل لحرمانهم من الهدى. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾: أي الذين شرح الله صدورهم للهدى. يزيدهم الله توفيقا وثباتا وينمّي تقواهم. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾: الاستفهام للإنكار. ﴿يَنظُرُونَ﴾: بمعنى ينتظرون مجيء الساعة. الأشراط: جمع شرط -بفتحتين- العلامة والأمارة وهي كثيرة منها: خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾: ﴿أَنَّىٰ لَهُمْ﴾: خبر. ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر، والمعنى كيف تحصل لهم الذكرى إذا جاءهم الساعة؟. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: مصدر من التقلّب، أي انصرافكم لأشغالكم في الدنيا. والمثوى: المرجع، والمآل، أو مكان الإقامة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ءَانِفًا﴾: قرأه الجمهور بصيغة: "فاعل"، وشذّت رواية عن البزّي عن ابن كثير أنه قرأه: ﴿أنفا﴾: بوزن: كتِف، فهو حال من ضمير: ﴿مَن يستمع إليك﴾، أجري على الأفراد رعيا للفظ "مَن"، فيكون معناه: يستمع إليك وهو شديد الأنفة أي التكبّر.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تلك الجولة العنيفة في بيان حال الكافرين ومقابلته بحال المؤمنين في الدنيا والآخرة ينتقل السياق إلى وضعية المنافقين الذين ظهروا في المدينة مما تمخضت عنه الأحداث بتأسيس الدولة الإسلامية وتنامي قوة المسلمين بعد انتصارهم في غزوة بدر، ولم يكن المجتمع المكيّ يعرف تلك الظاهرة حيث كان المسلمون في موقف ضعف، ولما كان هؤلاء المنافقون في ظاهرهم مع المسلمين يعاملون بنفس المعاملة فتلتبس حقيقتهم على كثير من الناس، فإنّه

تعالى كشف حقيقتهم وفضح دسائسهم في كثير من سور القرآن كما ورد في هذه السورة الكريمة، مع تحذير الرسول والمؤمنين من دسائسهم ومكرهم سيما في تظاهرهم مع اليهود في عدائهم وكراهيتهم لرسول الله وأصحابه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الضمير في: ﴿وَمِنْهُم﴾ يرجع إلى الذين كفروا المتحدث عنهم من أول السورة، وهو نفس التعبير الوارد في سورة التوبة حيث وصفهم الله بالنفاق فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة:١٠١).

وهنا يفضح الله مواقفهم من رسول الله، إذ يحضرون مجالسه ويستمعون إلى كلامه كما يفعل الأصحاب الأوفياء فهم يتظاهرون بأنهم يستمعون في تدبّر وإمعان، ولكنهم في الحقيقة غير واعين ولا مستوعبين لما يسمعون من كلام الله على لسان رسوله، لأنهم إذا خرجوا من ذلك المجلس المنعقد في المسجد بحضور أصحاب الرسول وفيهم العلماء أمثال ابن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الأصحاب فإذا بأولئك المنافقين يسألونهم سخرية واستخفافا: ماذا قال الرسول آنفا؟، -أي قريبا من زمن المتكلم-، فهو منصوب على الظرفية، فهم مع الاستهزاء والسخرية يريدون أن يدّعوا أن كلام رسول الله غير واضح في دلالته وأنهم لم يفهموا منه شيئا، ذلك لأن خبث بواطنهم قد ران على قلوبهم فلا يفقهون بها، كما جاء في التعقيب الإلهي: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

واسم الإشارة للتشهير بهم وذمّ موقفهم الشائن، فهم ممن صبغ الله على قلوبهم فكانوا عبيدا لأهوائهم. وعلى النقيض من ذلك حال المؤمنين الأوفياء

إذ قال الله في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

جاءت هذه الآية معترضة في سياق وصف المنافقين جريا على أسلوب القرآن في مقابلة أصناف الخلق أزاء اتباع سبيل الرشد أو الغيّ، فنلاحظ إثبات النية والقصد في طلب الهداية أوّلا من طرف المهتدين ثم يأتي بعد ذلك توفيق الله مكمّلا لذلك السعي، بتثبيتهم على طريق الهدى والزيادة فيه، تتويج كل ذلك بصيغة التقوى وتيسير أسبابها لهم وهي صفة نفسية تجعل المؤمن مرهف الحسّ أزاء عظمة الله وهيبته تدفعه إلى طلب مرضاته واستنزال مغفرته ورحماته بحيث يختصون بتلك الصفة فلا تفارقهم.

ثم يعود السياق إلى التخويف والتهديد بما ينتظر الفريقين الذين كفروا والمنافقين من قيام الساعة وما بعدها من الحساب والجزاء فقال تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾.

فرّع الله على ما مضى من أوصاف الكافرين والمنافقين هذا الاستفهام الإنكاريّ في معرض التهكّم من أولئك الغافلين، وفعل: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هو بمعنى ينتظرون، ففي هذا الكلام تهديد ووعيد بأنهم غير منفلتين من قبضة الله فلا يغرّهم رتابة نظام الكون وإمهال عقابهم إلى موعد قيام الساعة، أي قيام الساعة الكبرى بفناء العالم، فهم يرون ذلك بعيدا، غير أن علامات قربها قد ظهرت ببعثة رسول الله وختام الرسالات السماوية وهو القائل: «**بعثت أنا والساعة كهذه من هذه أو كهاتين. وقرن بين السبابة والوسطى**».[1]

١- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد، كتاب (٧١) الطلاق، باب (٢٣) اللعان، رقم ٤٩٩٥: ٥/٢٠٣١.

أضف إلى ذلك ما ذكره الله من علامات أخرى كخروج الدابة وفتح سدّ يأجوج ومأجوج...إلخ.

وقد أكد الله إتيانها بغتة في غير ما آية، ذلك بالنسبة لقيام الساعة الكبرى وأما قيام الساعة الصغرى فيكون بموت كل شخص حين ينكشف له الغطاء فتشهد روحه مصيرها في الحياة الأبدية فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، فكيف للكافر أن يتذكر في ذلك الموقف، وقد أغلق باب التوبة وقضي الأمر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (الفجر:٢٣). وذلك بعد أن أقام الله الحجة على خلقه بالرسل والكتب وبالعقل والتدبّر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالثبات على دعوته الصادقة وإدامة الاستغفار له وللمؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

فعلى ذكر أشراط الساعة وقرب إتيانها فرّع الله على ذلك الأمر لرسوله بالثبات على ما له من علم بوحدانية الله وهي الحقيقة الأولى التي يتحتم العلم بها لأنها الأساس الصحيح الذي تنبني عليه الأعمال الصالحة، وخصّص بالذكر الاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، فدعاء الرسول لهم هو تحصين لعقيدتهم وصمام أمن يقيهم من لوثات الكفر والنفاق.

وأما استغفاره ﷺ لنفسه فهو مما هو خلاف الأولى من بعض الغفلات ونحوها إذ هو معصوم من السّيئات، فيكون تسمية ذلك بالذنب تجاوزا وتطابقا مع ما كان يقوله كثيرا: اللهم اغفر لي خطيئتي. ولقوله ﷺ: «إنه

ليران على قلبي، وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة».[1]

وقد استنبط العلماء من هذه الآية فضل العلم قبل القول والعمل، إذ بدأ الله به هنا، وفي لطائف التعبير القرآني أن فصل الله بلام الجرّ بين ذنب الرسول وذنب المؤمنين والمؤمنات، وحذف المضاف للتلويح إلى كثرة ذنوبهم.

وفي هذه الآية الكريمة في الإيماء إلى قرب الساعة ما فهمه بعض الأصحاب من الإيماء الخفيّ بنعي رسول الله ﷺ عندما نزلت سورة "النصر" بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا إذ أمره الله هناك -أيضا- بالتسبيح والاستغفار.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾: تذييل شامل لكلّ ما تقدّم ذكر فيه علمه تعالى بنشاطكم الدنيوي في النّهار ومثواكم للراحة والسكون في الليل، أو المثوى بمعنى الرجوع إلى الله للحساب والجزاء وفي ذلك تحذير شديد، والله أعلم.

نزول الآيات العملية هو المحكّ الصّادق

لبيان حال المؤمنين والمنافقين.

أ)- النصّ:

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ

١- رواه مسلم من حديث الأغر المزني، كتاب (٤٨) الذكر والدعاء، (١٢) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم ٢٧٠٢ ٤/٢٠٧٥.

لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: ﴿لَوْلَا﴾: في الأصل للتحضيض وهي هنا تفيد التمني. ﴿سُورَةٌ﴾: حذف وصفها لدلالة ما بعدها عليه وهو قوله: ﴿سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾: و﴿مُحْكَمَةٌ﴾: بمعنى مبينة الأحكام واضحة يقابلها وصف متشابهة، وقوله: ﴿ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾، أي من جملة أغراض أخرى. والمراد بها هذه السورة نفسها لقوله تعالى فيها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: ﴿إِلَيْكَ﴾: الخطاب للرسول، أي ينظرون إليك نظر المغمي عليه أو المحتضر لا يحرك بصره. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: يحتمل معنيين، مستعمل في ظاهره بمعنى الأولوية والتفضيل، فيكون المعنى: أولى لهم من ذلك الخوف أن يقولوا سمعنا وأطعنا، ويحتمل أن يكون بمعنى التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (القيامة:٣٤). فقيل هو مشتق من الويل، أصله: "أويل" أي أشدّ ويلا، فوقع فيه القلب، وعلى هذا يكون: ﴿أَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ مبتدأ وخبره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾. مبتدأ والخبر محذوف أي طاعة وقول معروف خير لهم على أن يكون جملة مستأنفة. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: ﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾: أي جدّ الجدّ وهو مجاز عقلي، لأنه نسب فيه العزم إلى الأمر وهو لأهل العزم. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا﴾: الجملة بشرطها وجوابها جواب: ﴿إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾. والمعنى: إذا تحقق الأمر بالقتال. ﴿لَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾: أي تطابقت أقوالهم

بأفعالهم لكان خيرا لهم. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾: التفات من الغيبة إلى الخطاب والاستفهام: ﴿فَهَلْ﴾ مستعمل في التكذيب. والتولّي: الرجوع عن الوجهة، وخبر عسى هو قوله: ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. وعسى: هنا تفيد التحقق في علم الله لا التوقع لأنه تعالى عالم بما كان وما يكون أي ترجعون إلى جاهليتكم بالإفساد في الأرض وقطع الأرحام. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾: ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الإشارة إلى: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، استعير لهم الصمم والعمى لعدم انتفاعهم بما يسمعون من القرآن وبما يشاهدونه من أخلاق الرسول. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: الاستفهام للتعجيب. وتدبّر القرآن هو حسن التأمل والنظر لإدراك ما يخفى من معانيه. ﴿أَقْفَالُهَا﴾: والأقفال: جمع "قفل"، ما تغلق به الخزائن والأبواب استعارة شبهت فيها بالقلوب بالأبواب المغلقة لا تتفتح لوعظ ولا نصح.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾: قرأ نافع بكسر السين، وقرأه بقية العشرة بفتح السين، وهما لغتان في فعل: "عسى"، إذا اتصل به ضمير.

د)- البيان والتفسير:

يتابع السياق بيان أحوال الفريقين المؤمنين المهتدين، والكافرين المنافقين، وذلك ببيان موقف كلّ منهم عند نزول الآيات الداعية إلى الجهاد في سبيل الله، وكيف أن المؤمنين يترقبون ذلك بشغف بينما يضيق الأمر بالمنافقين، إذ يكونون في حرج من ذلك لأن تظاهرهم بالإسلام يلجئهم إلى الخروج مع المسلمين، وليس ذلك بالأمر الهيّن عندما تفتضح نواياهم، قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ**

رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

لقد كان المجتمع المسلم في مدينة الرسول موصول الأسباب بالسماء والرسول ﷺ هو المحطة الشريفة لاستقبال الأنوار الربانية المتمثلة في هدي القرآن الكريم، وإذ كان التجاوب على أتمّه بين قلوب المؤمنين وآيات القرآن المنزلة، إذ أخذت توجيهاتها وإرشاداتها تتبلور في تكييف الواقع المعيش، فإن المؤمنين كانوا يترقبون في شغف نزول آيات القرآن علّها تحمل جديدا في مجال الإصلاح والتغيير ويتمنون أن لا يطول انتظارهم لذلك، وإذ كان المسلمون لم يشفوا غيظهم من ظلم أعدائهم وبغيهم عليهم، فإنهم بدافع غيرتهم وحماسهم لنصرة دينهم كانوا يستشرفون إلى تلك الآيات التي تأمرهم بجهاد أعدائهم في بيان واضح وهي تفصّل أحكام القتال بما لا لبس فيه كما ورد في هذه السورة الكريمة، تلك هي الحالة النفسية للمؤمنين وذلك هو موقفهم أزاء أوامر الله وأحكامه في القتال، وأما الذين في قلوبهم مرض من الرياء والنفاق فهم على النقيض من ذلك تردّدا وروغانا وإذلالا أمام رسول الله وأصحابه وقد وصفهم الله بما لا مزيد عليه من حالة الخوف والاضطراب فشبههم في نظراتهم المفزوعة بالذي يغشى عليه من الموت، وذلك بشخوص أبصارهم في شخص الرسول وهو يتلو عليهم آيات القتال حيرة واضطرابا. ونظير هذا التشبيه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (١٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، هو في المعنى على الاحتمالين المذكورين في التحقيق اللغويّ:

أ)- إما بمعنى التهديد على أن "أولى" مشتق من الويل فهو بمعنى الدعاء بالهلاك فيكون الوقف عنده.

ب)- ويجوز أن يكون بمعنى الأولوية والتفضيل فيكون متصلا بقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي كان الأولى بهم عند نزول الأمر بالقتال أن يقولوا سمعنا وأطعنا -أي بأسلوب التحفيز والتشجيع- لأن ذلك خير لهم كما قال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾: بمعنى إذا جدّ الجدّ وفرض القتال فأولى لهم أن يصدقوا الله في أقوالهم ويخلصوا في نواياهم لأن ذلك خيرا لهم وأقوم من النفاق والعصيان، فجواب الشرط الأول: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ يستدلّ عليه من الجملة الشرطية الثانية: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا﴾، فهم لم يصدقوا عندما عزم الأمر، بل خالفوا وتخلفوا، ولذلك وبخهم الله بقوله: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾.

وهذا الردّ الإلهي الدال على تكذيبهم في الشبهة التي تعلقوا بها في تخلفهم عن الجهاد كما قال رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول في غزوة "أحد" قال: علام نقتل أنفسنا هاهنا، وكيف نقاتل قريشا وهم مِن قومنا؟.

فـــ"عسيتم" يدل على المقاربة، وقوله: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تحتمل معنيين:

أ)- التولّي: أي الإعراض عن القتال مع الرسول.

ب)- هو من ولاية أمر الأمة، أي الإمارة والحكم.

ولكن المعنى الأول أنسب بالموضوع، أي إنكم عند إعراضكم عن القتال مع رسول الله سوف تقعون في ما تحاشيتموه من الإفساد في الأرض وقطيعة أرحامكم أي تعودون إلى ما كنتم عليه في جاهليتكم، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**﴾.

الإشارة إلى الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، واللعنة هي الطرد من

رحمة الله، واستعير الصمم والعمى لعدم الانتفاع بسماع آيات الله الناطقة بالحق وعدم التجاوب مع الواقع المعيش بصحبة رسول الله والانتفاع بهديه وبسيرته، وذكر الأبصار مع العمى لأنّ العين هي آلة البصر بعينيها، بينما لم يذكر الآذان مع الصمم، لأن الأذن مجرّد غطاء للغشاء السمعيّ الداخليّ، وتخصيص قطع الرحم بالذكر بعد عموم الفساد في الأرض دليل على ما لها من حرمة عند الله.

ثم فرّع الله على ذلك الوعيد قوله بصيغة الاستفهام التعجيبي: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾: الاستفهام تعجيب من موقف هؤلاء المرضى القلوب من القرآن إما بالإعراض عن سماعه تماما وإما بسوء الفهم وفساد التأويل -أحيانا-، وقد حرّض الله في غير ما آية بحسن التدبّر والإنصات لفهم آيات القرآن والتجاوب معه كما فعل المؤمن الوفيّ فقال عزّ وجلّ:

أ)- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

ب)- ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩).

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي بمعنى: بل، وتنكير: ﴿قُلُوبٍ﴾ للدلالة على شدة قساوتها، أي هي من ذلك النوع الشديد القساوة المشبّهة بالخزائن أو الأبواب المغلقة بإحكام، فلا ينفذ إليها نور الهداية.

وإضافة الأقفال إليها، للدّلالة على أنها مخصوصة بها ولذلك وصفها الله بالمرض مرّة وبالطبع والختم أخرى، نعوذ بالله من عين لا تدمع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع.

يقول الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه: "إشراقة آية" تحت عنوان: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾، يقول: "إنّ حاجة المسلمين ستظل ماسّة لتدبّر جميع القرآن الكريم وسوره والمؤشرات الوقتية والظروف الحاضرة قد تملي علينا أن يركز على بعض المحاور القرآنية فقها وتأمّلا وتدبّرا على نحو ما يصفه الطبيب من الأدوية في أوقات مختلفة.

وتواجه أمتنا اليوم نوعا من الركود الحضاريّ حيث ضعفت إنتاجيتها وطاشت أوزانها في المعايير الدولية وصارت نهبة لكل طامع، وهذا يفرض علينا أن نقوم بتحديد الأسباب والعوامل التي أدت بنا إلى هذه الحال مع وزن تأثير كل عامل من تلك العوامل ثم توصيف الحلول والعلاجات وبيان أولويات استخدامها...".

إلى أن يقول بعد اقتراحه لبعض الحلول: "إن حاجتنا إلى مدارس وحلق لتدبّر كتاب الله تعالى لا تقل عن حاجتنا إلى مدارس حفظ القرآن الكريم، وإننا نتطلع إلى أن ينهض بعض أهل الخير في هذا المجال من أجل ترسيخ قيم التدبّر وفضله وعلى الله قصد السبيل".[1]

قلت: ليس التدبّر المطلوب هو ما تدعو إليه الحركة المعروفة في منطقة الجنوب الجزائريّ التي تحمل عنوان "التدبّر"، إذ تركز هذه على الجوانب الروحية وعلى الغيبيات، وتهمل الجوانب الأخرى من الدعوة إلى النظر في أسرار الكون والعمل لحسن الانتفاع بما سخّره الله لبني آدم في البرّ والبحر كما تفعله الأمم المتقدمة.

والله أعلم.

١-إشراقة آية: ص ٢١٧-٢٢٠.

تصوير حال المنافقين بعد ردّتهم وعند قبض أرواحهم، والتهديد بكشف أمرهم للرسول والمؤمنين.

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾: الموصول وصلته في موقع نصب اسم: ﴿إِنَّ﴾، وخبرها قوله: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾. ﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾: تمثيل لرجوعهم إلى ما كانوا عليه من الكفر. ﴿سَوَّلَ﴾: التسويل هو تسهيل الأمر وتزيينه. ﴿أَمْلَىٰ﴾: والإملاء بمعنى مدّ له في العمر و لم يعاجله بالعقوبة. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾: هم اليهود في المدينة، وإما هم أهل مكة من المشركين. ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾: في التظافر على عداوة رسول الله، أو القعود عن الجهاد معه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: ﴿كَيْفَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: كيف حالهم؟. قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: الجملة في موضع نصب حال، وهي تصوير لميتتهم الفظيعة تضربهم ملائكة العذاب على وجوههم وأدبارهم إذ يقعون فيما يخافون منه عند القتال. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: ﴿ذَلِكَ﴾: الإشارة إلى فظاعة توفيهم لبيان السبب، وهو اتباعهم للكفر وكرههم لما يرضي الله من اتباع رسوله، وإحباط الأعمال هو إبطالها. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة في معنى "بل" للإضراب الانتقالي. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: كناية عن الكفر، والأضغان جمع ضِغن، بكسر الضاء، الحقد الشديد، وإخراجه هو إبرازه لينكشف أمرهم. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: السيما هي العلامة. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: هو الكلام المحال به إلى غير ظاهره فلا يفطن به إلا من يراد أن يفهمه، فهو إلهام من الله لرسوله لمعرفة ذلك في أشخاص المنافقين. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾: البلو: الاختبار. وتعرّف حال الشيء والمراد به هنا تشديد الأمر والنهي في التكليف. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾: "حتى" للغاية، وهي هنا في معنى التعليل، أي لتظهر حقيقتكم في عالم الشهادة؛ لأن علم الله سابق لذلك.

ج) - أوجه القراءة:

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: قرأ الجمهور بفتح همزة ﴿أَمْلَى﴾، على صيغة المبني للفاعل، وقرأه أبو عمرو بضمّ الهمزة وكسر اللام وفتح التحتية، على صيغة المبني للمجهول. وقرأه يعقوب بضمّ الهمزة وكسر اللام وسكون التحتية، على أنه مسند إلى المتكلم، فالضمير عائد إلى الله تعالى. ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾: قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع: سِرّ، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف، قرأوا بكسر الهمزة،

مصدر: أسرّ. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ﴾: قرأ الجمهور بالنون في الأفعال الثلاثة، وقرأ أبو بكر عن عاصم تلك الأفعال بياء الغيبة، والضمير عائد إلى اسم الجلالة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿وَنَبْلُوَ﴾ بفتح الواو عطفا على ﴿نَعْلَمَ﴾، وقرأه رويس عن يعقوب بسكون الواو.

د)- البيان والتّفسير:

ما يزال السّياق يتناول حال المنافقين، فبعد أن صوّر الله حالتهم النفسية عند سماعهم للآيات القرآنية الآمرة بالقتال، وبعد أن حرّضهم على تدبّر آيات القرآن وحفّزهم على الصّدق مع الله ورسوله، أخبر الله هنا بأنّهم ارتدّوا إلى الكفر بعدما عرفوا حقيقة الإسلام وتبيّن لهم هداه بالأدلة الواضحة، وأوضح سبب ذلك بأنّه تآمرهم مع اليهود ووعدهم لهم بالتعاون فيما يدبّرون للرسول وأصحابه، ثم ذكر الله ما يلاقونه من أهوال عند قبض أرواحهم، وأنه تعالى قادر على كشف أحوالهم وفضح مؤامراتهم، وأن من حكمته أن يبتلي الأمة الإسلامية بأمثالهم ليتميّز في عالم الشهادة المجاهدون والصابرون، فقال جلّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ**﴾.

الارتداد على الأدبار تعبير تصويريّ للرجوع إلى الكفر بعد الإيمان، والسائر إذا رجع سار إلى الجهة التي تركها وراءه أي وراء دبره، وقد كان سيرهم إلى الأمام حيث اتّضح لهم طريق الهدى واضح المعالم بما بيّن لهم الرسول من الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة، وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم ومنّاهم بطول الأجل ودلاّهم بغرور، ويصدق هذا الوصف بصفة عامّة على كل من تحققت صفة النفاق من جماعة عبد الله بن أبي بن سلول وغيره ممن أخفى أمره، وكذلك في اليهود الذين عرفوا الحق وأنكروه حسدا من عند

أنفسهم.

ثم يذكر الله كيفية ذلك التسويل من الشيطان في الارتداد إلى الكفر فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾.

فهؤلاء المنافقون هم ممن زيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم، فقد استدرجهم الشيطان إلى الضلال فسوّل لهم أن يداهنوا أهل الكفر من مشركي مكة أو اليهود ممن كرهوا ما أنزل الله على رسوله من الحق، وكان الفريقان يتألبان على الإسلام ويتآمران عليه بالمكر والكيد، فرأى المنافقون أن يكون لهم يد معهم بموافقتهم في بعض الأمر، كعدم الخروج إلى القتال ومخالفة بعض ما يأمر به الرسول استبقاء للخيط الواهي الذي يجمعهم به في تظاهرهم بالإسلام، وكان المسلمون لا يعرفون المنافقين بأشخاصهم وأسمائهم، فاعتقد هؤلاء المنافقون سفاهة بأن هذه الوسيلة تجعلهم في مأمن من كشف أسرارهم ولكنه تعالى يعلم أسرارهم، وقد بيّن الله الأمر الذي يطيعون فيه أهل الكفر، فقال في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١١).

ثم فرّع الله على ما تقدم بيان مما سيلحقهم من العذاب والهوان عند الموت فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

الاستفهام للاستفظاع والتعجيب، والتقدير: كيف يكون حالهم إذا جاءتهم ملائكة العذاب لانتزاع أرواحهم، وهم في الفزع يتعذبون ويهانون بضرب وجوههم وأدبارهم، تلك الحالة التي يخشونها إذا خرجوا للقتال، فيهربون منها ويتخلفون، وهاهم يلاقونها على يد جند الله من ملائكة العذاب في ميتة فظيعة تظهر ملامحها على كل ميت ساء مصيره -والعياذ بالله- وما

ينتظرهم من عذاب البرزخ هو أنكى من ذلك إلى يوم يبعثون. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (الأنفال:٥٠).

ثم بيّن الله سبب ذلك الجزاء العادل فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾، أي ذلك النوع من الموت الفظيع الذي سلّطه عليهم ملائكة العذاب كان بسبب اتباعهم ما فيه سخط الله وغضبه من الضلال والكفر، وتجافيهم عن طلب مرضاة الله بعدم طاعته واتّباع الحقّ الذي أنزله على رسوله، فأحبط الله أعمالهم كلها، وإن كان البعض منها في ظاهرها برّا وإحسانا؛ لأنه تعالى لا يقبل إلا ما يكون مستندا على عقيدة صحيحة من ألوهيته وربوبيته.

ويلاحظ في السورة الكريمة التركيز على بيان أسباب إضلال الأعمال وإحباطها عدة مرات من أول السورة حتى آخرها، ونهيه تعالى للذين آمنوا أن يبطلوا أعمالهم، ذلك لأن الإنسان من طبعه يريد الاستفادة من جهده وعمله، ويحرص أن لا تضيع جهوده سدى مهما كانت عقيدته ومهما كان توجّهه، ذلك في الأعمال الدنيوية العاجلة، فكيف بتلك الأعمال التي لا ينظر فيها إلى صورها وظواهرها مما يتعلق بعبادة الله وطلب مرضاته؟. فإن معيار القبول فيها هو إخلاص النية وإسلام الوجه لله والخلوص من شوائب الشرك مهما كان نوعها، ولما كانت صفة النفاق خداعا ومراوغة قد ينخدع به كثير من الناس فإنه تعالى يحذر المؤمنين من سوء عواقبها بمثل ذلك التكرار لبيان الأسباب والمواقف التي تبطل الأعمال.

ثم أنذر الله المنافقين بأنه يفضحهم بأن يطلع رسوله على ما يضمرونه من الحقد والمكر والكيد وغير ذلك من أسرارهم التي لا تخفى على الله فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى الإضراب الانتقالي، وهو يتضمن استفهاما إنكاريًا، وجاء التعبير عن النفاق بمرض القلب تعبيرا تصويريا بجامع الإضرار بصاحبه، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، فهو عليم بما في ثناياها قادر على إبراز ما تحمله من دباغ السوء لخلقه، فتنكشف حقائقها للناس، يقول الحكيم زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦). فالله تعالى كشف لرسوله أولئك المنافقين، فعرفهم من خلال سلوكاتهم، وتخبّط أقوالهم: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

الخطاب لرسول الله، وقد كان المنافقون يحرصون على إخفاء حقيقة أمرهم على المسلمين بما يتقنونه من أساليب المراوغة والنفاق، وفي هذه الآية يهدّدهم الله بأنه يكشف أحوالهم، ويقول للرسول: لو نشاء لأريناك أشخاصهم فتعرفهم بعلاماتهم التي يتستّرون بها، وكان ذلك قبل أن يعلمه الله بأسمائهم واحدا واحدا، ولكنه تعالى ستر الكثير منهم على الصحابة فكانوا لا يعرفون أحدهم حتى إذا مات قال: «صلّوا على صاحبكم»، بعد أن نهاه الله عن الصلاة على المنافقين، فيعرفون بذلك أنه منافق، ولم يخبر الرسول أحدا من أصحابه بهم إلا لحذيفة بن اليمان ﷺ صاحب سرّه، وكان الرسول يعرفهم -أيضا- بانحراف منطقهم عندما يخاطبونه، وقال أنس ﷺ: ما خفي على رسول الله بعد نزول هذه الآية شيء من أمر المنافقين.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾: جاء هذا التذييل بكاف الخطاب لجميع أفراد الأمة ليتضمن الوعد والوعيد بالجزاء على جميع الأعمال ما حسن منها وما ساء، فإنه تعالى يحيط علمه بما لا تخفى عليه منها خافية.

ثم بيّن الله حكمته في ابتلاء خلقه بالتكاليف الشرعية ليتميّز المخلصون الأوفياء وينكشف المنافقون الأدعياء فقال: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾، جاء الإخبار باللام المشعرة بالقسم وبنون التوكيد لبيان حكمة التكليف وأنها لإظهار أثر علم الله بأحوال الناس في عالم الشهادة حتى تتمحّص حقائقهم لديهم فتصبح أحوالهم معروفة فلا يقع الالتباس في معادن الناس، وإلا فإن الله يعلم خبايا النفوس وحقائقها ويعلم ما هو كائن من أحوالها وما يكون. والمراد بالابتلاء الأوامر والنواهي في التكليف، فهي بمثابة المحك الذي يكشف الخالص من الزائف، ورؤية الناس لها على ما تدركه مداركهم المحدودة هو الذي يقويّ عزائمهم ويوجّه حياتهم لدفع الفساد ومقاومة الشّر، وموقف المؤمن من الابتلاء هو كما وصفه الرسول هو تحليه بالصبر والشكر في حالتي السراء والضراء، ويرجو من الله عاقبته كما دعا الرسول ربّه في محنة الطائف فقال: «**ولكن عافيتك أوسع لي**»[1]، إذ لا يأمن المؤمن العثار في حلبة الابتلاء، فاللهم يسرنا لليسرى وانشر علينا رحمتك وألبسنا عافيتك، والله أعلم.

بيان حال بعض من كفار أهل الكتاب، وحال بعض المؤمنين.

أ) - النصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ

١- رواه الطبري في التاريخ من حديث محمد بن كعب القرظي، ٢/٨٠.

فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: قيل: إنهم كفار قريش، كما ذكروا في أول السورة، والأرجح أنهم بعض أهل الكتاب في المدينة وهم بنو قريظة وبنو النضير؛ لأنهم هم الذين تبيّن لهم الهدى بمعرفة الرسول الخاتم. ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾: أي خالفوا، بأن ساروا هم في شق من الطريق، بينما الرسول في الشق الآخر. جواب: ﴿إِنَّ﴾ هو قوله: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾. وحاشا لله أن يضرّه أحد، وإنما المراد إضرار دين الله ورسوله. ﴿شَيْئًا﴾: منصوب على المفعول المطلق. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي يبطلها، ومعنى إبطالها أنها لا تقف حجر عثرة في سبيل انتشار الإسلام ونصره. ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: النهي عن إبطال الأعمال، نهي عن أسباب ذلك من كل ما بينه الدين أنه مبطل للأعمال كالرياء والنفاق وارتكاب الفواحش...إلخ. ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: خبر لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ارتبط بالفاء لوجود الموصول وصلته وهو يشابه الشرط. ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: ﴿تَهِنُوا﴾: الأصل: فلا توهنوا، حذفت الواو. ﴿وَتَدْعُوا﴾: عطف عليه، والوهن هو الضعف في مواقف القتال. ﴿السَّلْمِ﴾: الميل إلى موادعة الأعداء. ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: في موقع النصب حال، و﴿الْأَعْلَوْنَ﴾: المبالغة في العلوّ، أي تحققت لهم الغلبة والنصر. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾: يقال: وتَره يتره وترا، إذا نقصه أي لن ينقصكم ثواب أعمالكم.

ج)- البيان والتفسير:

بعد الإفاضة في ذكر أحوال الكفار والمنافقين من أول السورة يجيء في

أواخرها ما يسمّى في الكلام البليغ: ردّ العجز على الصدر، أو العود على البدء، فينطلق الشوط الأخير في بيان موقف الكفار من دعوة رسول الله بمشاقتها وصدّ الناس عنها، إذ جاء الوصف عامًا بـ"الذين كفروا"، فيحتمل أن يكون المراد بهم هم كفار قريش أو المنافقون كما ورد ذكرهم في أول السورة. غير أن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ يرجّح أن يكون المراد بهم فريقا من أهل الكتاب وهم بنو قريظة وبنو النضير لمعرفتهم بأوصاف الرسول الخاتم، فمن المفسّرين من رجح هذا، ومنهم من رجّح ذلك، وكلاهما محتمل، والله أعلم.

ثم حرّض الله المومنين على الطاعة والثبات على دين الله وأن لا يضعفوا أمام أعدائهم بالميل إلى موادعتهم من بعد أن حقق الله لهم النصر والغلبة فقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَآقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾**.

الجملة المؤكدة بـ"إن"، هي على الاستئناف الابتدائي، وهي عود على بدء لبيان حكم الله في الذين كفروا. وقد عدّد الله أفعال الصلة وبصيغة الماضي فقال: ﴿ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَآقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾، ويبدو أنهم هم المذكورون في أول السورة من أولئك الذين لم تنشرح صدورهم للإسلام ابتداء، وسعوا لعرقلة مسيرة الإسلام لصدّ الناس وإفتانهم عن اتّباع دين الله، وعاندوا الرسول وحاربوه، وجاء التعبير بمشاقاته أي مخالفته بسيرهم في شق من الطريق يخالف الشق الذي يسير فيه رسول الله وصحابته.

ولكن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ يرجّح عند بعض المفسّرين أن المراد بهم أهل الكتاب من يهود المدينة بنو قريظة وبنو النضير، إذ كانوا على يقين بأوصاف الرسول الخاتم كما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة

والإنجيل، وكان من منكر هؤلاء للتشويش على المسلمين وتشكيكهم في أمر دينهم أنهم قالوا لبعضهم البعض: ﴿ءَامِنُواْ بِالَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران:٧٢).

وليس أشق على الأتباع لفكرة ما من هذا التذبذب في المواقف ممن كان في قلوبهم مرض ممن وصفهم الله بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج:١١). فعلى ذكر المنافقين ومواقفهم المانعة، هناك من المؤمنين من كفر بالله من بعد إيمانه وارتدّ عن الإسلام لمصيبة أصابته أو لمنفعة أغرته، فبيّن الله تعالى أن هذا الصنف من الناس لن يضرّوا الله شيئا، والمراد إضرار دينه، لأنه تعالى قاهر فوق عباده لن يبلغوا ضرّه فيضرونه فهو القويّ العزيز، وجاء التذييل بقوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، هكذا بحرف الاستقبال وصيغة المضارع ليدلّ على الحاضر والمستقبل، وإبطال أعمالهم يكون بردّ إذايتهم عن رسول الله والمؤمنين والتمكين للإسلام بالنصر والغلبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: ما يزال حكم الله على الذين كفروا يتوالى فيجيء هذا النداء للذين آمنوا معترضا بين الجملتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وجّه فيه الأمر الإلهي إلى الذين آمنوا بالثبات على طاعة الله وطاعة رسوله ونهاهم عن إبطال أعمالهم، ومن بلاغة التعبير مقابلة تلك الأوصاف الدنيئة للذين كفروا بما يضادّها للذين آمنوا، يقول الإمام ابن عاشور في تلك المقابلة: "فوصف الإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقابل وصف الكفار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وطاعة الله مقابل الصدّ عن سبيل الله، وطاعة الرسول ضدّ مشاقّة

الرسول والنهي عن إبطال الأعمال ضدّ بطلان أعمال الذين كفروا".[١]

فطاعة الله تتمّ بإخلاص العبادة إليه كما أمر وبالاستقامة على نهجه القويم على وجه الثبات والاستمرار حتى الرمق الأخير من عمر الإنسان. وأما طاعة رسول الله فتكون بامتثال أمره واجتناب نهيه في كل ما هو من أحكام الدين في إطار التشريع. وأما ما وراء ذلك من أمور الدنيا فطاعته فيها طاعة تقدير وأدب، وهو يقول: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».[٢]

والنهي عن إبطال الأعمال يتم بالابتعاد عن أسباب ذلك الإبطال وهي تتفاوت في أحجامها وأنواعها، أعظمها الكفر والردّة، ثم ارتكاب المعاصي والكبائر، والرياء، والمن والأذى، وأدنى الإبطال: هو إبطالها بأي شيء مهما كان حتى قال العلماء لا يجوز إبطال العمل ولو كان نفلا، فإذا نويت أن تصوم يوما نفلا فلا يجوز أن تبطله بالإفطار في وسط النهار، فإن فعلته فعليك قضاؤه، فقد روى أبو سعيد الخدريّ ﷺ أن رجلا أضاف رسول الله مع أصحابه، وكان فيهم رجل صائم فقال له الرسول: «**أجب أخاك، وأفطر، واقض يوما مكانه**».[٣]

ثم بيّن الله مصير الذين كفروا من الذين شاقوا الرسول وأصرّوا على ذلك حتى أدركهم الموت فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾.

هذه الآية تتمة لسابقتها في حكم الله على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل

١- التحرير والتنوير: ٢٦/١٢٧.

٢- رواه مسلم من حديث أنس وعائشة، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (٣٨) وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، رقم ٢٣٦٣: ٤/١٨٣٦.

٣- رواه البيهقي في السنن الكبرى بنحوه، كتاب (٤٠) الصداق، باب (٣١) من استحب الفطر إن كان صومه غير واجب، رقم ١٤٩٢٩: ٧/٢٦٣.

الله ثم لم ينتهوا عن ذلك حتى أدركهم الموت، فلا توبة لهم ولا رجاء في مغفرة الله، وأرى أن المنافقين يندرجون في هذا الحكم لأنه تعالى قال في شأنهم بمثل ما ورد في هذه الآية إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الجمعة:٣). إلى أن قال في سورة المنافقون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (٦). فيكون في هذه الآية إنذار لمن أراد أن يتدارك أمره قبل فوات الأوان وتحذير للمؤمنين من كل أسباب إبطال الأعمال أو الوقوع في شرك النفاق وهذا ما يشي به النهي التالي للمؤمنين من كلّ ضعف أو وهن وميل إلى موادعة أعدائهم تحت أيّ مبرّر كان فقال تعالى: **﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾**.

الفاء للتفريع على كل ما تقرر في الآيات السابقة من إحباط أعمال الكافرين والمنافقين وكيف دمّر الله أمثالهم من الأمم المكذّبة برسلها، وما وعد به المؤمنين من النصر، فبعد تلك الجولة الحادة اللهجة، يأتي هذا النهي عن الوهن في صفوف المؤمنين ولا تزال المعركة محتدمة بينهم وبين أعدائهم، فإن النفوس البشرية مهما قوي إيمانها بما تعتقد فيه الخير والصلاح، فإنّ وعثاء الطريق وتكاليف المجاهدة والثبات والصمود قد توهن العزائم وتضعف جذوة الحماس، سيما إذا تدخلت بعض العوامل النفعية أو وشائج القربى في دغدغة العواطف واستمالة الضمائر فتميل النفوس إلى الموادعة والسلم مع خصومها، فها هي توجيهات الله تعالج تلك الظاهرة بما يحدّ من خطر تلك الوساوس بمثل هذه اللهجة القوية التي تضع المؤمنين في المقام الأعلى ارتباطا بالملإ الأعلى واستنادا إلى معية الله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾، ومن كان الله معه، فأية قوة تقف أمامه؟. فعلام يهن ويضعف أمام عدوّه، وعلام يميل إلى موادعته وهو المنتصر الغالب، فإن العدوّ لا يرحم ولا يؤمن غدره، اللهم إلا إذا كان طلب السلم

من العدوّ لشعوره بالانكسار فحينئذ يقول الله لرسوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال:٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي كل أعمالكم محسوبة لكم يجزيكم الله عليها ولا ينقص من أجوركم شيئا. يقول الدكتور الزحيلي: "فأما إذا كان الكفار في حال قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله حين صدّه كفّار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح وإلهاء الحرب بينه وبينهم عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك"[1]، والله أعلم.

تأكيد الحث على الجهاد بالتزهيد في الدنيا والترغيب في الإيمان والتقوى.

أ)- النصّ:

إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا

١- التفسير المنير: ٢٦/١٣٣.

وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾، تشبيه بليغ، شبهت فيه أحوال الحياة باللعب واللهو، في انتفاء الفائدة من ورائهما لأنها زائلة فانية. ﴿وَإِن تُومِنُوا وَتَتَّقُوا يُوتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾: جواب الشرط قوله: ﴿يُوتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، و﴿يُوتِكُمْ﴾: ينصب مفعولين: الأول كاف الخطاب، والثاني: ﴿أُجُورَكُمْ﴾. وفسّر الأجر هنا بثواب الجنة. وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، معطوف، أي لا يطلب منكم جميع أموالكم، وما يطلب منكم لا يكون إلا لفائدتكم وإصلاح أموركم. ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾: ﴿يَسْأَلْكُمُوهَا﴾: ﴿يَسْأَلْ﴾: يتعدى إلى مفعولين: الأول: "كُم"، والثاني: "هَا". وهو مجزوم فعل الشرط. ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾: من الإحفاء، أي الإلحاح في طلب الشيء، وهو مجزوم بالعطف. ﴿تَبْخَلُوا﴾: مجزوم في جواب الشرط. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾: أي أحقادكم، وهو مجزوم بالعطف على: ﴿يُحْفِكُمْ﴾. والمعنى لو شاء الله لشدد عليكم في إخراج المال، ولأخرج ما في قلوبكم من كراهية وبغض للإنفاق. ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ﴿هَا﴾: حرف تنبيه، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿هَؤُلَاءِ﴾: موصول بمعنى: "الذين"، وصلته: ﴿تُدْعَوْنَ﴾، وهو خبر أو هو إشارة، فتكون جملة: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ في موضع الحال من اسم الإشارة. ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾: شرط، وجوابه، والمعنى: البخيل يعود ضرر بخله عليه. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾: اللام في "الغنيّ" و"الفقراء" للجنس، أي لا يكلفكم ما لا تطيقون، ودعوته لكم لبذل الأموال هو لما يكون في مصلحتكم. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾: أي إن أعرضتم عن نصرة دين الله ورسوله يأت بقوم آخرين بدلا منكم. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا﴾: مجزوم بالعطف على جواب الشرط: يستبدل، وهو معطوف بـ"ثم" أي لا يكون أولئك القوم المبدَلون أمثالكم في التولّي والإعراض، ويجوز في المعطوف على جواب الشرط، الرفع على الاستئناف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَيُخْرِجَ أَضْغَانَكُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُخْرِجْ﴾ بياء التحتية في أوله، وقرأ يعقوب بنون في أوله.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أمر الله بالثبات والصمود ونهيه المؤمنين عن الميل إلى مهادنة أعدائهم وهم في موقف القوة والغلبة، حرّضهم في نهاية السورة الكريمة على الجهاد ببذل الأموال والإنفاق في سبيل الله إيمانا وتقوى وطلب ما عند الله من الأجر والثواب لأن الدنيا لعب ولهو متاع، وإن ما يبذلونه يعود بالفائدة عليهم فإن الله غنيّ عن العالمين، ثم هدّد الله المعرضين عن البذل والجهاد والتقوى بأنه يستبدلهم بقوم آخرين يكونون أفضل منهم في إقامة دينه ونصرة دعوته فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾**.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: تجيء هذه الجملة تعليلا للتحذير من موادعة المؤمنين لأعدائهم جنوحا إلى السلم وترك الجهاد وهم الأعلون نصرا وغلبة، وهم المؤيدون بمعية الله، فالنفس البشرية مهما كانت قوّة تربيتها، ومهما تمكنت العقيدة الصحيحة منها فإنما قد تناوشها خواطر الميل إلى الدعة والراحة، ويستميلها المتاع الدنيويّ العاجل، سيما وجماعة المنافقين يتحرك أخطبوطها المؤذي في صفوف المؤمنين بوخزاته وسمومه، وفتنة الدنيا تفعل أفاعيلها في النفوس، ولعل الكثير منها لم يتحرر كلية من رواسب الماضي الجاهلي، فكانت لتلك التحذيرات الإلهية أثرها البليغ في تلك النفوس المؤمنة،

وقد تكررت في القرآن الكريم تلك التحذيرات من فتنة الدنيا وأنها متاع قليل بالنظر إلى سرمدية الحياة الأخروية، ووصفها باللعب واللهو هو للتهوين من شأنها وذمّ الحرص عليها، ولعلنا نحن اليوم في هذا العصر الغارق في المادية والنفعية أكثر الناس إدراكا لمعنى هذا التشبيه البليغ للحياة الدنيا وتفاهتها، ولا أدلّ على ذلك مما نشاهده في وسائل الإعلام المختلفة من برامج رياضية وترفيهية أغلبها لهو وسفاهة ومما نسمعه من ميزانيات ضخمة ترصد لهذا الشأن، ويتفنن دعاة التفسخ والانحلال في اختراع المزيد منها، فإذا كان الشاعر الحكيم أبو العلاء المعريّ في عصره يتذمر من لهو الدنيا وعبثها فقال:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدّي إن دهرك هازل

فماذا عسانا نقوله نحن في دنيانا الزاهية اللاهية؟، فاللهم عفوك ولطفك.

ومما أنه لا مناص للعبد المؤمن المستشرف للحياة الباقية، لا مناص له من العبور إليها على جسر الدنيا ومفاتنها، فإنه تعالى يعالج تلك الخواطر المناوشة -أحيانا- من الوهن والبخل يعالجها بحكمة بتقديم المصل الواقي من الإيمان والتقوى فيقول: ﴿وَإِن تُؤمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

جمع الله الإيمان إلى التقوى لاستكمال أسس التربية الإسلامية الصحيحة من الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح مما ينفي عن الدنيا صفة اللعب واللّهو ويجعلها مطية ذلولا للحياة الأبدية: ﴿يُؤتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، فالله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، وهو يتقبل من المتقين، ومع هذا فإنه تعالى يريد أن يخفف عنا التكاليف، فلا يطلب منا ما لا نطيقه من بذل أموالنا كلها، لا في الزكوات المفروضة ولا في الطاعات الأخرى، وما فرضه علينا إنما يعود بالنفع على مجتمعنا وعلى فقرائنا وهو الغنيّ عن عباده، وهو تعالى يعلم طبيعة النفوس في الشح بالأموال فلو طلب منّا أموالنا كلها وألح في طلبها لشحّت النفوس

وامتنعت عن الامتثال لما فطرت عليه من حبّ المال. فجواب الشرط لقوله: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾، هو قوله: ﴿تَبْخَلُوا﴾، على أن الضمير المستتر في ﴿يُخْرِجَ﴾ عائد إلى اسم الجلالة، والمعنى تظهرون الكراهية والعصيان وذلك من صفات المنافقين، إذ قال الله في شأنهم:

أ)- ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة:٦٧).

ب)- ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ (المنافقون:٧).

﴿هَآنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

الدعوة الإسلامية إلى البذل والإنفاق في سبيل الله من أولويات العناصر التربوية للمجتمع المسلم، وكان ذلك قبل فرض مقادير للزكاة، وقد سجلت الوقائع التاريخية من حياة بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- مثل أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، سجلت الوقائع صحائف من ذهب قل نظيرها في التاريخ البشريّ، غير أنه تعالى يرسم في هذه الآية ما هو واقع في الجماعة المسلمة يومئذ، وهو واقع لا تخلو منه آية بينة، واقع البخل بالمال عند بعض النفوس.

﴿فَمِنكُم مَّنْ يَبْخَلُ﴾: ﴿مَّنْ﴾: تفيد التبغيض، فالشح أو البخل مرض اجتماعي عالجه الإسلام بلطف كما ورد في هذه الآية.

﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾: أي يحرم نفسه من الأجر المذخور له عند الله يوم لا يكون فيه درهم ولا دينار.

ثمّ إنّ البخل مدعاة لانفلات الأمن الاجتماعي بتشجيع الجريمة وإغراء العدوّ بالاستيلاء على مقدرات البلاد وغير ذلك من المصائب الأخرى ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥).

ثم إن ذلك البذل للأموال إنما يعود بالنفع عليكم وحدكم لأن الله الغنيّ وأنتم الفقراء، هكذا بصيغة القصر، فإن الغني الحقيقي المطلق هو لله تعالى، فهو الذي رزقكم تلك الأموال، ولو شاء لحبسها عنكم، وهو الغنيّ عن أجوركم التي يدّخرها لكم إن أطعتموه في البذل، وخصّ الله تعالى الأموال بالذكر من متاع الدنيا لأنه شريان الحياة؛ ولأنه المحك الصادق لاختبار مصداقية الإيمان.

ثم يأتي في ختام السورة ما يعدّ القول الفصل في تمحيص الجماعة المسلمة إذ امتن الله عليها بحمل هذه الرسالة الخاتمة، فإمّا أن يكونوا أهلا لها في القيام بحقها وتحمّل أعبائها، فلهم من الله العون والتوفيق، وإن فرّطوا في حقها بخلا بالأموال والأنفس للجهاد في سبيل الله، فإنّه تعالى قادر على أن يضع أمانة هذا الدين في يد غيركم ممن لا ينقض عهدا ولا يخلف وعدا، ثم لا يكونون مثلكم في التقصير والتخلّي، وهذا كقوله تعالى:

أ)- ﴿إِنْ يَّشَا يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَاتِ بِئَاخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ ذَالِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء:١٣٣).

ب)- ﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم: ١٩-٢٠).

وإنه لتحذير رهيب لا يشعر به إلاّ من ذاق حلاوة الإيمان، وعرف قيمه ذلك التكريم الإلهي في جعله الإنسان خليفته في الأرض يحمل بين جنبيه ذلك النور الإلهي ويسري في كيانه روح الوجود متصلا بالملإ الأعلى عبر آيات

القرآن تدبّرا وفهما وتجاوبا.

فاللّهم ارحمنا وارفع درجاتنا بالقرآن العظيم، واجعله لنا إماما ورحمة وهدى ونورا، يا أرحم الراحمين، والله أعلم.

تمّت

سورة الفتح، مدنية، وآياتها ٢٩

سميّت سورة الفتح، لأنّها تضمنت بشرى الله لنبيّه بالفتح المبين بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، إذ قال تعالى في مفتتحها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مغفّل قال: «**قرأ الرسول ﷺ عام فتح مكة في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجّع فيها**»، قال معاوية بن قرّة: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءتها.[1]

وهي مدنية على اعتبار أنّ القرآن المدني هو كل ما نزل على الرسول بعد الهجرة، ولو كان نزوله في مكان غير أرض المدينة، إذ نزلت السورة على المشهور من الروايات في موضع بين مكة والمدينة يقال له: كراع الغميم، وهو واد من أرض مكة، وذلك بعد منصرف النبي من صلح الحديبية وقبل غزوة خيبر، وقيل نزلت ليلا.

وهي مدنية كما تقدم، وآياتها تسع وعشرون آية، وهي الرابعة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور، والثامنة والأربعون في ترتيب السور بالمصحف الشريف.

وفي فضلها جاء في ما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: "نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نُسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال رسول الله: «**لقد أنزلت عليّ آية أحبّ إليّ من الدنيا وما**

١- رواه البخاري، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٢٢) سورة الفتح، رقم ٤٥٥٥: ٤/١٨٣٠.

فيها»[1]، وفي رواية: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحبّ إليّ مما على الأرض»[2]، وقال مرة أخرى: «ما يسرّني بها حمر النعم»[3]. فهي أقوال متعددة يبدو أن الرسول قالها في مواقف مختلفة، تنمّ على فضل هذه السورة وقدرها.

- بعض مضامين السورة:

- تُعنى السور المدنية بذكر أحوال المنافقين وفضح مواقفهم، مع تثبيت المؤمنين وإنزال السكينة عليهم، كما تعنى بالتشريع لأحكام الجهاد والعبادات والمعاملات. افتتحت السورة ببشارة المؤمنين بثمرات صلح الحديبية وأنه إرهاص للفتح الأعظم وانتشار الإسلام، وقد غمرت تلك البشارة قلوب المؤمنين سكينة وأزاحت ما بها من كآبة وحزن بصدّهم عن الاعتمار، كما توعدّ الله الكافرين والمنافقين بدائرة السوء وبالغضب واللعنة.

- التنويه بشأن الرسول والثناء على المؤمنين بأنهم عزّروه ونصروه.

- ذكر بيعة الرضوان تحت الشجرة والإشادة بأهله وتسجيل رضوان الله عليهم ووعد الله لهم بالنصر ومغانم كثيرة يأخذونها.

- ذم المنافقين من الإعراب الذين تخلّفوا عن الخروج مع رسول الله مع فضح نواياهم وتلفيق الأعذار.

- إعفاء أصحاب الأعذار من فريضة الجهاد والاكتفاء منهم بطاعة الله ورسوله.

١- رواه مسلم من حديث أنس، كتاب (٣٢) الجهاد والسير، باب (٣٤) صلح الحديبية في الحديبية، رقم ١٧٨٦: ٣/١٤١٣.

٢- رواه الترمذي من حديث أنس، كتاب (٤٨) التفسير، باب (٤٨) سورة الفتح، رقم ٣٢٦٣: ٥/٣٨٥.

٣- أورده ابن كثير في تفسيره من حديث مقاتل بن سليمان، ٩/٤٢.

- الإيماء إلى فتح خيبر وما يكون فيه من الغنائم يعقبه فتح أعظم منه وهو فتح مكة.

- التذكير بفضل الله في إبرام صلح الحديبية وما ينتج عن ذلك من الآثار الإيجابية في انتشار الإسلام، وكيف وفق الله المؤمنين إلى طاعة الله ورسوله في كفّهم عن قتال المشركين الذين غلبت عليهم الحمية الجاهلية.

- البشرى بتحقق رؤيا النبي ﷺ أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين.

- شهادة الله بأنّ محمدا رسول الله بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، والتنويه بشأن أصحابه إذ وصفهم بالرحمة بينهم وبالشدة على أعدائهم، وأن الله قدّم مثلهم في التوراة والإنجيل، ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم.

- سبب نزول السورة:

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرفه ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ستّ من الهجرة، لما صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام. وحالوا بينه وبين أداء عمرته، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم الرسول إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب ﷺ، فلما نحر هديه حيث أحصر، ورجع، أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل هذا الصلح فتحا لما فيه من المصلحة ولما آل إليه، فقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "إنكم تعدّون الفتح فتح مكة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية".[1]

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي عن بنود الصلح: "وتمّ الصلح على أن يكف

١- تفسير المراغي: ٨١/٩.

الفريقان عن الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس دون قتال ولا اعتداء على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا من أصحابه محمد لم يردوه عليه. وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فسارعت خزاعة فدخلت في عقد محمد ﷺ وحالفته، وتوانت بنو بكر فدخلوا في عهد قريش، وعلى المسلمين الرجوع عن مكة هذا العام، وإذا كان العام القادم خرجت قريش من مكة ودخلها المسلمون بثلاثة أيام معهم سلاح الراكب".[1]

والله أعلم.

فضائل صلح الحديبية على الرّسول وأصحابه.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾: الأصل: ﴿إِنَّنا﴾ حذفت النون لاجتماع النونات، والنون والألف في: ﴿إِنَّا﴾ في موضع نصب اسم: ﴿إِنَّ﴾، وفي ﴿فَتَحْنَا﴾ في موضع رفع فاعل، والفتح أصله: إزالة الأغلاق عن الباب أو الخزانة، ويطلق على النصر وعلى دخول الغازي البلاد عنوة. والمراد به هنا هو صلح الحديبية كما صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وأنس بن مالك وغيرهم، وعليه الجمهور، على اعتبار أنه آل إلى فتح مكة، واللام في: ﴿لَكَ﴾ هو للعلة،

١- التفسير المنير: ٢٦/١٤٦.

بمعنى: فتحنا لأجلك. و﴿مُبِينًا﴾: بمعنى واضحا جليا، لما خلّف من آثار عظيمة في مسار الإسلام. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: قيل: اللام في: ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للتعليل، وقيل: للغاية، وقيل: للعاقبة، وقال المحققون: لا يكون الفتح سببا المغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة، وهي مغفرة الذنوب، وإتمام النعمة، والهداية، والنصرة. والتقدم والتأخّر يراد به العموم ليغفر جميع الذنوب، ولقد أغرق بعض المفسّرين في تحديد المتقدم من الذنوب والمتأخر بما لا دليل عليه، وأمثل ما قيل في ذلك أنهم قالوا: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة وما تأخر ما كان بعدها، ولا يصح نسبة الذنوب إلى الأنبياء إلا باعتبار ما يصحّ أن يعاقبوا عليه لأنهم في رأي الجمهور معصومون من الكبائر والصغائر. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: أي بالفتح المذكور. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: وهو نهج الله القويم مما أنزله عليه من الدين وأحكامه يطبقها ويبلغها لأمته. ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾: أظهر اسم الجلالة في فتح النصر للاهتمام بنوعية ذلك النصر ووصفه بالعزة مجاز عقلي إذ المنصور هو الرسول.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا الافتتاح المؤكّد بـ"إن" ونون العظمة وتوجيه الخطاب فيه لرسول الله يعكس ما حلّ بالمسلمين من الحيرة والحزن والكآبة عند صلح الحديبية، فهذا التأكيد روعيت فيه تلك الحالة الكئيبة للسامعين على طريقة التعريض والإيحاء، وأما رسول الله فقد كان واثقا بما يتولّد عن صلح الحديبية من الخير والنصر المرتقب لفتح مكة، وتظهر تلك الثقة النبوية في إجابته ﷺ لعمر بن الخطاب عندما قال: لِمَ نعطي الدنيّة في ديننا؟. فيجيبه الرسول: «**أنا عبد الله**

ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيّعني»[1]، فآية طمأنينة كانت تغمر قلبه الشريف وهو يستقبل هذا الفيض الإلهي في افتتاحية هذه السورة.

﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾: وقد اختلفت أقوال المفسّرين حتى في عهد الصحابة في المقصود بالفتح المبين، أهو صلح الحديبية، أم هو فتح مكة أم فتح خيبر؟.

غير أن الأرجح -والله أعلم- أن يكون المراد به هو صلح الحديبية لما ترتب عنه من النتائج العظيمة للدعوة الإسلامية، ومن أعظمها أنه كان إرهاصا وتوطئة للفتح الأعظم بفتح مكة، وعن تلك المرجحات.

يقول الإمام ابن عاشور: "على أن قرائن كثيرة ترجح أن يكون المراد بالفتح المذكور في سورة الفتح:

أ)- أنه جعله مبينا.

ب)- أنه جعل علته النصر العزيز، ولا يكون الشيء علة لنفسه.

ج)- قوله: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

د)- قوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

هـ)- ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾".

قلت: وقد روي عن بعض الصحابة أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية، فعن جابر بن عبد الله قال: "ما كنّا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية"، وعن عمر ﷺ: «**أنه لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. قال: أو فتح هو يا رسول**

١- رواه البخاري من حديث أبي وائل، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٢٢) سورة الفتح، رقم ٤٥٦٣: ١٨٣٢/٤.

الله؟. قال: نعم. والذي نفسي بيده إنه الفتح».[1]

ومما قاله الرسول في هذا الشأن لطمأنة أصحابه: «**بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، ولقد أظفركم الله عليهم وردّكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح**».[2]

﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا، وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا**﴾:

تبيّن أن اللام للتعليل لمجموع الأمور الأربعة المذكورة بعدها، والتقدير: فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لكي يجتمع لك مع غفران الذنوب تمام نعمة الله عليك بالفتح، والهداية إلى الصراط المستقيم وتحقيق النصر العزيز.

ومغفرة الذنوب بالنسبة لرسول الله ما تقدم منها وما تأخّر يقصد بها عموم الذنوب مما قد يؤاخذ الله على مثله رسله، مما هو خلاف الأولى بالنظر إلى مقامهم العالي عند الله على قاعدة: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ لأن الرسل والأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عند جمهور الأئمة.

ولهذا كان الرسول يطيل الصلاة في قيامه الليل حتى تتفطر رجلاه فتقول له عائشة ﷺ: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر فيقول الرسول: «**أفلا أحبّ أن أكون عبدا شكورا**».[3]

١- رواه البخاري بنحوه من حديث أبي وائل، (٦٢) أبواب الجزية والموادعة، باب (١٧) إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣٠١١: ٣/١١٦٢.

٢- أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، رقم ١٥٠٦: ٤/٢٣٥.

٣- رواه البخاري، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٢٢) سورة الفتح، رقم ٤٥٥٧: ٤/١٨٣٠.

قال الإمام البوصيري في هذا المعنى:

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

فإن كان القرآن قد نسب بعض الأخطاء إلى بعض الأنبياء والرسل، وعاتب الله رسوله في بعض المواقف، فإنّ جمهور الأمة أجمعوا على أن الأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر سواء قبل النبوءة أو بعدها، ومع ذلك فهم لا يستغنون عن الاستغفار كما أمرهم الله.

وإتمام نعمة الله على الرسول تتمثل في اصطفائه للرسالة الخاتمة وإرساله للناس أجمعين ونصرته على أعدائه سيما إكمال الدين ومعجزة القرآن وجعله مهيمنا على كل الكتب المنزلة وقد أكّد الله إتمام تلك النعمة بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣).

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: التنكير في: ﴿صِرَاطًا﴾ للتعظيم، وهو مستعار للنهج الرباني الحق المتمثل في الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق.

﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾: يلاحظ إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار للاهتمام بهذا النصر أنه من عند الله وحده، فهو نصر كامل حقيقي بالعزة والتمكين وبالغلبة والقهر.

فباكتمال هذه الخصال الأربع لرسول الله: مغفرة الذنب، وإتمام النعمة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والنصر العزيز، يكون قد تحقق لرسول الله الفلاح الدنيوي والأخروي، هذا هو الحظ الأوفى والفيض الربّاني لرسول الله من افتتاحية السورة الكريمة، فيا للبشرى، ويا للكرامة، ويليه حظ المؤمنين، والله أعلم.

آثار صلح الحديبية على المؤمنين، والمنافقين، والمشركين.

أ)- النصّ:

هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هُوَ الذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُومِنِينَ﴾: أي الله وحده المالك لزمام القلوب، خلق وأوجد أسباب الطمأنينة وبرد اليقين في قلوب المؤمنين بعد القلق والاضطراب مما اعتراهم في صلح الحديبية، والتعبير بالإنزال من علوّ للدلالة على رفعة شأنه. ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾: فالإيمان بالله ورسوله كان موجودا من قبل في تلك القلوب وإنزال السكينة يزيدهم إيمانا بقضاء الله ويقينا بما وراء ذلك من الخير لهم. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: الجنود: هي كل أسباب النصر مما ظهر ومما خفي، شبهت بالجنود الذين يباشرون القتال، ومنها الملائكة الذين يثبتون قلوب الذين آمنوا كما حدث في غزوة بدر، واللام في: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾: للتعليل. ﴿لِيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: اللام علة للتعليل الأول، فقال: ﴿وَيُكَفِّرَ﴾. وَ﴿يُعَذِّبَ﴾: معطوفة على: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ في موضع نصب. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: الدائرة في الأصل

هي الحادثة التي تحيط بمن وقعت عليه، ويكثر استعمالها في المكروه و﴿السَّوْءِ﴾: المكروه والضرّ، والمراد عليهم ما يظنونه ويتربّصونه بالمؤمنين. ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾: أي سخط الله عليهم وطردهم من رحمته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: اختلفت الصفة الإلهية هنا بالعزة أي المنعة والقهر لأن المقام في تعذيب الكافرين والمنافقين يقتضي القوة والغلبة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿السَّوْءِ﴾ بفتح السين، أي القراء العشرة. وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ فقرأه الجمهور -أيضا- بفتح السين، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بضم السين، والمضموم والمفتوح مترادفان مثل: الضُّعف والضَّعف، والضُّرّ والضَّرّ.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان حظّ رسول الله من أفضال الله عليه وما قدّره من خير بصلح الحديبية انتقل السياق إلى ذكر نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح وكيف غمر قلوبهم بالسكينة والاطمئنان وما ادّخره لهم في الآخرة من مغفرة ورضوان، إلى جانب ما توعّد به الكافرين والمنافقين من السخط عليهم وطردهم من رحمته والانتقام منهم بالعذاب والحرمان، لأنّ له جنود السماوات والأرض تحقق النصر وتقهر أعداء الله وفق ما يقتضيه علمه وحكمته، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾**.

لقد سبق ذكر لفظ الجلالة في الآية من قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، ومن الأسباب القوية لذلك النصر العزيز إنزاله السكينة في قلوب المؤمنين، وهم من جنده الغالبين، وهم العدّة التي يتحقق بها النصر، ألم يمتن الله

على رسوله بقوله: ﴿هُوَ الذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُومِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوَ اَنفَقْتَ مَا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣).

وقد كان المؤمنون بعد صلح الحديبية في حالة نفسية محتنقة بما صدموا به من موقف قريش المتصلب في صدّهم عن المسجد الحرام بعد ما ساقوا هديهم وشارفوا البيت، وفي ذاكرتهم تلك الرؤيا الصادقة التي رآها رسول الله وهم يدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصّرين. تلك الحالة الكئيبة التي كان عمر بن الخطاب ﷺ المعبّر الصادق المخلص عنها حين قال لأبي بكر: لم نرضى بالدنية في ديننا، وذلك الذهول الذي أصابهم في تباطئهم في النحر والحلق بعدما أمرهم بذلك رسول الله ثلاث مرات، ولم يفعلوا حتى رأوه يفعل ذلك بنفسه.[1] وهم من هم في طاعة رسول الله وامتثال أمره، تلك هي الحالة النفسية للمؤمنين بعد إتمام صلح الحديبية، فمَن غير الله تعالى لطمأنة تلك القلوب، لتهدأ وتسكن ولتثوب إلى رشدها وتفيء إلى حكم ربّها؟.

فلا أشدّ على الإنسان من القلق والهمّ والحزن، سيما مع ضعف الوازع الإيماني فقد يفضي إلى السقم وإلى الهلاك بالانتحار -أحيانا-، فهذا يعقوب النبي قد ابيضت عيناه من الحزن على ولديه، وحتى رسول الله -وهو من هو- في قوة إيمانه ويقينه بربّه قد اعتزل أصحابه شهرا كاملا عند الأزمة التي وقعت بينه وبين نسائه في طلب الإنفاق.

فما ألطفك يا ربّي بعبادك المؤمنين إذ أنزلت على قلوبهم تلك السكينة، فما أسعد تلك القلوب وقد سكنت بعد اضطراب، وانشرحت بعد اكتئاب، وهي لم تحزن ولم تضطرب لجاهلية ولا لأنانية وغرض دنيويّ، بل للغيرة الدينية والحمية الإيمانية، فها هي تكتسب شحنة إيمانية جديدة تزداد بها يقينا ورضى

١- تقدّم تخريجه: ص ٦٣.

وإذعانا لحكم ربها وحبًا وطاعة لرسوله تمثلت في بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان ثوابهم على ذلك رضوان الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقديم المسند على المسند إليه لإفادة الحصر، والجنود جمع جُند، وهم العدّة في إحراز النصر على وجه الأرض، والمراد بهم من يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، ومن جنود السماوات الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر وأمرهم بتثبيت قلوب الذين آمنوا، ومن جنوده الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، ومن جنوده الريح والأعاصير والزلازل بل حتى ميكروبات الأوبئة والفيروسات...إلخ. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر:٣١).

والتذييل بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، مناسب فهو العليم بأسباب النصر وبالأحوال التي تكون عليها قلوب عباده ومتى تستحق إنزال السكينة وهو القائل في ما بعد: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨). وهو الحكيم في وضع مقتضيات علمه في مواضعها كيفية وزمانا، فلا صدفة ولا عفوية في أمر الله.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾:

اللام للتعليل -أي تعليل إنزال السكينة في قلوب المؤمنين- وذكر المؤمنات مع المؤمنين في ترتيب هذا الجزاء الأخرويّ له أهميته في هذا المقام لأنهن يشاركن الرجال في تلك الشدائد ثكلا ويتما لأولادهن إذ افتقدن أزواجهن، وقد يخرجن مع الرجال لإسعاف المرضى والجرحى، وإن تخلفن في البيوت فهن يعانين وحشة الغربة وألم الفراق، وللمرأة دورها الفعّال في رفع معنويات الرجال، ومقامات الجنة للمجاهدين في سبيل الله هي من الامتياز والمنزلة عند الله ما يعدّ بحق فوزا عظيما، سيما تبشيرهم بتكفير ذنوبهم كما بشر بذلك

رسول الله.

ثم عطف الله ما يكون للمنافقين والمشركين من العذاب ومن سخط الله ونقمته فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

جمع الله في الآية بين نوعين من أعداء الإسلام، ولزّهم في قرن واحد، فهم وإن كانوا يختلفون في ظواهرهم أزاء مشاهدة المسلمين، فإنهم في الخفاء تجمعهم دوافع واحدة في إذاية المسلمين، وربما كان المنافقون والمنافقات أخبث وأنكى في ذلك من المشركين الصرحاء، وكلهم تجمعهم صفة واحدة وهي سوء الظن بالله، إذ ظنوا أنه تعالى يتخلى عن نصرة رسوله والمؤمنين معه، وأنهم سوف لن يعودوا من مكة؛ لأن قريشا وأحلافها سوف تبيدهم عن آخرهم، ولذلك آثروا القعود والتخلف عن رسول الله ملفقين الأعذار لذلك كما سيأتي.

وقد تهدّدهم الله بأن تدور عليهم دائرة السوء وبغضب الله عليهم وطردهم من رحمته، وبالتالي فإن مثواهم جهنم وساءت مصيرا.

وقد تكرر نفس التذييل المتقدم في الآية السابقة: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

غير أن الأنسب هنا من الصفات الإلهية هو العزة التي تدلّ على القهر والغلبة، فليس هؤلاء الأعداء بمعجزين لله في الأرض ولا في السماء، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

والله أعلم.

مهامّ النبي ﷺ، وجزاء المبايعين.

أ)- النصّ:

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: الخطاب بنون العظمة لرسول الله تشريفا له. ﴿شَاهِدًا﴾: المخبر بتصديق أحد أو تكذيبه فيما ادّعاه، أي تشهد أيها الرسول على أمتك يوم القيامة بالتبليغ، وقد ذكر المتعلق في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣). وفي قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ (النحل:٨٩). وهو منصوب على الحال، والبشارة والنذارة بينهما طباق. البشارة تكون بالجنة للطائعين، والنذارة تكون بالتخويف للكافرين والعاصين من عذاب النار. ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: يجوز في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أن تكون اللام للتعليل مرتبطة بما سبق والخطاب فيها للرسول وأمة الدعوة، ويجوز أن تكون اللام للأمر على أن ينتهي الكلام عند قوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾، وتكون الجملة معترضة، وضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة في: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تكون عائدة إلى اسم الجلالة. بدليل قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾. والتعزير: النصر والتأييد، أي نصر دين الله، والتوقير: هو التعظيم، والتسبيح: تنزيه الله على كل النقائص. بكرة وأصيلا: في كل الأوقات. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: أكدت الجملة بـ"إن" للاهتمام، والمقصود بيعة الرضوان تحت الشجرة، المعنى: يعاهدون الرسول بالموت في سبيل الله. وفي

التعبير استعارة تصريحية تبعية لأنّ الأصل في المبايعة مبادلة المال بالمال، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: استعارة مكنية، والمراد أن الله مطّلع على مبايعتهم؛ لأنه تعالى منزه عن الجوارح وصفات الأجسام. ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: بين: ﴿نَّكَثَ﴾ و﴿أَوْفَى﴾ طباق، نكث العهد بمعنى نقضه، وأوفى به بمعنى التزم بإتمامه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾: قرأ الجمهور الأفعال الأربعة بالمثناة الفوقية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيها والضمائر عائدة إلى معلوم من السياق. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عامر ورويس عن يعقوب بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى المتكلم، وقرأ الباقون بياء الغيبة، عائد ضميره على اسم الجلالة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد وعد الله لنبيه بالفتح والنصر وما كان من فضله عليه وعلى أصحابه في صلح الحديبية، وقبل الانتقال إلى بيان ما جرى في تلك الحادثة التاريخية الهامّة مهّد الله لذلك بذكر مراده من بعثة رسوله وبيّن مهامّه الثلاث ليرتب عليها ذكر بيعة الرضوان وأشاد بإخلاص المبايعين وكيف يكون جزاؤهم عند الله وجزاء الناقضين للعهد، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

الخطاب لرسول الله -بنون العظمة- لبيان مهامّه والتنويه بوظيفته الشريفة وبيان الغاية منها، فهو الشاهد الأمين على البشرية جمعاء بأنه بلغها رسالة الله كما تلقاها منه بكل نزاهة وإخلاص، وأن حجة الله قائمة على خلقه بما كلفهم به من تبعات الإيمان وواجبات العبادة، فكان في أمّة الدعوة

مؤمنون مستجيبون وكافرون جاحدون ومنافقون مراوغون. ولذلك فهو مبشر بالخير والمغفرة والجنة للمؤمنين الطائعين ومنذر بسوء العاقبة وبالويل والثبور للكافرين والمنافقين والعصاة المصرّين على ذنوبهم. تلكم هي مهمة رسول الله وإخوانه الرسل من قبله كما قال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥). فما أعظم وقعها على قلب رسول الله إذ حملته على البكاء وهو يسمع من عبد الله بن مسعود ﷺ يتلو قوله تعالى من سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(٤١). فقال له الرسول: «**أمسك**»[1]، فلا عجب، إنه النعمة المسداة والرحمة المهداة.

ثم يلتفت الله إلى المؤمنين ليبيّن لهم ما يجب عليهم أزاء رسالة ربهم: **﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**.

إنّ واجبهم الأول هو الاستجابة لتلك الدعوة الإيمانية في مبادئها الأساسية من الإيمان بالله ورسوله، ثم القيام بمستلزمات ذلك بنصرة دين الله واتباع منهجه كما أمر، وإجلال عظمته بما يستحقه من التقدير والحبّ والإجلال، مع تنزيهه من كلّ النقائص بالتسبيح واستشعار هيبته في كل وقت من نهار أو ليل، حتى يبقى قلب المؤمن موصولا بربّه مطمئنا بذكره مشرقا بأنواره القدسية، وقد أتيحت تلك التربية المحمدية ذلك الجيل الرائد في إخلاصه لله ولرسوله، وهم يبايعون الرسول تحت شجرة الرضوان على الموت عندما سمع بقتل الكفار لعثمان بن عفان رسولهم إليهم قبل صلح الحديبية، فقال: «**لا بدّ أن نناجز القوم**»[2]، ثم كان ما كان من عقد الصلح.

١- رواه البخاري، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٨٨) ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾، رقم ٤٣٠٦: ٤/١٦٧٣.

٢- أخرجه الطبري من حديث عبد الله بن أبي بكر، جامع البيان: ٢٢/٢٢٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أكّدت الجملة بحرف التأكيد: ﴿إِنَّ﴾، وجيء بالمضارع: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستحضار تلك الحالة من المبايعة المخلصة، وجاء خبر: ﴿إِنَّ﴾ بأداة الحصر: ﴿إِنَّمَا﴾ للدلالة على أن المؤمنين لا يبايعون إلا الله، وأنّ غاية بيعتهم إنما هي نصرة دين الله، وما الرسول إلا الوسيط الأمين بينهم وبين الله. ثم بأسلوب التمثيل أثبتت اليد لله -حاشاه-، فهي تؤكد تلك المبايعة وتباركها في أروع مشاكلة لفظية، والله منزه عن صفات المخلوقات، فإن جملة: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي لزيادة تقدير لمضمون سابقتها: ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، لتجعل تلك المبايعة هي في واقعها لله تعالى.

ثم فرّع العمل على ذلك قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، والنكث: هو نقض تلك البيعة، كمن ينقض الحبل بعد فتله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل:٩٢)، فقد بيّن الله تعالى قيمة تلك البيعة وخطرها على مستقبل الإسلام، بحيث أن من يرجع عنها ويخونها فإنّ ضرر ذلك يعود عليه بالدرجة الأولى، فإن الله غنّي عن خلقه، بينما من وفّى بذلك العهد وثبت عليه فقد برهن على صدق إيمانه فإن الله تعالى يثيبه بالأجر العظيم دينا وأخرى، وحسبه في ذلك حصوله على رضوان الله كما ورد خلال هذه السورة، لقد وفّى صحابة رسول الله بمتابعتهم ولم يتخلف عن البيعة إلا رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، كما تخلف المسمى جدّ بن قيس الذي فرّ واختبأ تحت بطن جمله ولم يبايع، وأما البقية فكانوا ألفا وأربعمائة فقد تمّت بيعتهم بوضع يدهم على يد النبي ﷺ لمبايعته على السمع والطاعة، وإنه لموقف عظيم كان فيه لأصحاب رسول الله

فضل من الله ومنة أن هداهم للإيمان وحماهم من نزغات الشيطان، ومتعهم بالسكينة والاطمئنان، والله أعلم.

أحوال المتخلّفين عن الحديبية وجزاؤهم.

أ)- النصّ:

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾: الخطاب لرسول الله يخبره تعالى بما يقع في المستقبل من أمر الأعراب النازلين حول المدينة، إذ جاء الفعل مقترنا

بالسين التي تدل على التنفيس وبصيغة المضارع. و﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: -بفتح اللام- أي غيرهم خلّفهم وراءه. ﴿مِنَ الأَعْرَابِ﴾: أي هم من الإعراب من النازلين في بادية المدينة وهم ست قبائل: غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وهذيل. استنفرهم الرسول للخروج معه إلى العمرة، فاعتذروا بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، أي نحن خائفون على الأهل والمال ليس لدينا من يقوم على حمايتهم، وطلبهم من الرسول الاستغفار لإظهار أنهم مؤمنون مصانعة، إذ كشف الله حقيقتهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: حكم الله عليهم بالكذب في بيان سبب التخلف، إذ كانوا يعتقدون أن سيقع قتال بين الرسول وقريش وهم لا يريدون قتال قريش. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوَ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾: الاستفهام للنفي، والملك يعني به القدرة والاستطاعة، أي لا أحد يقدر أن يغيّر ما أراد الله، لجلب نفع أو دفع ضرّ. ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّنْ يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾: أي أنهم يعتقدون أن المشركين يستأصلون الرسول وأصحابه فلا يعود أحد منهم إلى أهله. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: و﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾: هو ما توقعوه من شرّ للرسول وأصحابه، و﴿بُورًا﴾: جمع بائر، أي هلكى بعقاب الله لسوء نيتكم. ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾: إعلام من الله للرسول بما يطلبه أولئك المخلفون عندما عزم على غزو خيبر وقدر أن لا يشارك في تلك الغزوة إلا من حضر الحديبية. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾: الجملة في موضع الحال، وتبديل كلام الله هو مخالفة ما جاء به وحيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾: نفي تأكيد للنفي لقطع أطماعهم في الخروج إلى خيبر. ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾: تكرر وصفهم بالتخلف للمبالغة في الذم، أمر الله رسوله أن يتحداهم بدعوتهم إلى قتال قوم أشدّاء يقاتلونهم حتى يستسلموا، قيل إنهم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب من المرتدين. ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى

الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: أي لا ذنب ولا إثم لأصحاب الأعذار في ترك الجهاد وهم العمي والعرج والمرضى، فهم مستثنون من الوعيد، إلا إن رغبوا في ذلك لخدمة المجاهدين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ضَرًّا﴾: قرأ الجمهور بفتح الضاد، وقرأه حمزة والكسائي بضمّها، وهما بمعنى واحد. ﴿كَلاَمَ اللهِ﴾: قرأه الجمهور بصيغة الفرد، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿كَلِمَ اللهِ﴾: اسم جمع "كلمة". ﴿نُدْخِلْهُ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْهُ﴾ بنون العظمة، على الالتفات من الغيبة إلى المتكلم. وقرأ الجمهور: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء التحتية، جريا على أسلوب الغيبة، ويعود الضمير إلى اسم الجلالة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الترغيب في الوفاء بعهد الله والتحذير من النّكث وبيان ما ينجرّ عن كلّ منهما من الخير أو الشرّ، أتبع الله ذلك بذكر حال المتخلفين عن الخروج مع رسول الله وأصحابه إلى أداء العمرة لظنهم أن قريشا ستستأصلهم فلا يرجعون إلى ديارهم، فاعتذروا عن الخروج وهم كاذبون، وقد ذكر الله عنهم ثلاثة أحوال:

أ)- اعتذارهم عن الخروج لانشغالهم بأهليهم وأموالهم.

ب)- طلب مشاركتهم في غزوة خيبر للمشاركة في الغنائم.

ج)- دعوتهم إلى قتال قوم أشدّاء على وجه التحدّي.

ثم استثنى الله أصحاب الأعذار ورفع عنهم الحرج في ترك الجهاد، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ

لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أعلم الله رسوله بما سيكون من أولئك الأعراب النازلين حول المدينة، وقد استفزهم للخروج معه إلى أداء العمرة، وهم ست قبائل من سكان البادية غفار، وأسلم، وجهينة، ومزينة، وأشجع، وهذيل. وصفهم الله بـ"المخلفين" عوضا عن "المتخلفين" للدلالة أن ذلك من حكم الله عليهم لسوء نيتهم وقصدهم.

فالمخلّف -بفتح اللام- هم من تركته وراءك، هؤلاء اختاروا ذلك لضعف إيمانهم وعدم ثقتهم بوعد الله في نصر رسوله، والتمسوا لذلك مبرّرا بالانشغال في حراسة أهليهم وأموالهم، ويبدو أن هؤلاء لم ينحدروا إلى دركة المنافقين، ولكنهم تلكؤوا عن الخروج لا عن عصيان أو تمرّد ولكن عن سوء ظن وخذلان، ولذلك واجهوا الرسول بعد عودته من الحديبية بتلك الأعذار الواهية على وجه المصانعة ولعلهم يندرجون في صنف من قال الله فيهم من أنواع المنافقين في سورة التوبة: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢).

ولكن الله كشف بواطنهم إذ قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، إذ كان طلبهم الاستغفار من رسول الله وهما منهم أن ذلك يغطي ما في خبيئتهم من هواجس الظن السيئ، وذهلوا عن علم الله بحقيقة ما يضمرونه، فبيّن أنهم غير صادقين في ذلك الاعتذار، إذ هم في الواقع لا يخافون على أهليهم ولا على أموالهم سوءا، فجاء الرّد الإلهي بأمر الرّسول أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوَ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

فالجواب الإلهي جاء عامّا ليشمل كلّ الخلائق بأن يرّدوا الأمر إلى الله وحده، فلا يمنع أحدا من الله إن أراد به ضرّا أو نفعا وفق ما سبق في علمه،

فاستغفار الرسول لهم لا يغيّر من إرادة الله شيئا، وفي ذلك تخويف لهم من نزول العقاب عليهم إن تخلفوا عن رسول الله، ثم أكد الله إبطال عذرهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي لذلك الادّعاء، إذ كانوا يقولون عن رسول الله وأصحابه لما خرجوا إلى مكة: "إن هم إلا آكلة رأس"، وهو مثال لقلة عددهم، فهم مغرورون لا يستطيعون مواجهة قريش وأحلافها، وقد كشف الله خبيئة نفوسهم فقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّنْ يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

لقد تغلّب عليهم الظن السّيئ ووجد من نفوسهم قبولا ورضى بأن الرسول وأصحابه هالكون لا محالة في مواجهة قريش، وفي ذلك سوء ظن بوعد الله، مما يتنافى مع صدق الإيمان بقدرة الله ووعده الحق، وقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، أي إن ذلك هو الغالب على أحوالهم كلها لا بخصوص عدم رجوع رسول الله وأصحابه، وقوله تعالى: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لإفادة تمكّن ذلك المرض من نفوسهم، بحيث يودّون تحقق ما ظنوه في الواقع بما يرديهم في حمأة النفاق، ولذلك حكم الله عليهم بالهلاك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، أي هلكى.

وزادهم تحذيرا من ذلك المصير بهذا الحكم العامّ لمصير الكفار فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾، أي إيمانا راسخا لا يعتريه شك ولا يخالجه سوء ظن بقدرة الله كما هي حال أولئك الأعراب، لتحذيرهم مما يفضي بهم إلى دركات الكفر بعد الإيمان، ولذلك أظهر في مقام الإضمار ليجعل من الكفر سببا لدخول النار.

﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: بعد التحذير والتخويف يأتي أسلوب الإطماع

والاستمالة إلى التوبة والندم، في حكم عامّ للخلائق كلها، وهي ضمن ملك الله الواسع والعريض في السماوات والأرض، يتصرّف فيه كيف يشاء رضى ومغفرة لمن يشاء من عباده المخلصين، وسخطا وعقابا لمن لا يحسن الظن في ربّه، فلا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه.

ولإثبات ما وصف الله به المخلّفين من تلفيق الأعذار الكاذبة أعلم الله نبيّه بما يكون من موقفهم أزاء الخروج مع الرسول إلى غزوة خيبر حيث الشقة قريبة والمغانم كثيرة فقال تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾: أي المذكورون من قبل، وهذا القول منهم صادر عن رغبة نفسية منهم تعكس مدى تقلّبهم في مواقفهم وعدم إخلاصهم في موقفهم الأول من الخروج مع رسول الله إلى الحديبية، وقد وعد الله المؤمنين الذين عانوا ما عانوه من مشاق السّفر والحرمان من بلوغ غايتهم في أداء العمرة، وجزاء لإخلاصهم في بيعة الرضوان، وعدهم الله بمغانم كثيرة يأخذونها وحدهم دون سواهم ممن تخلف من أولئك الأعراب، وهكذا ازداد المخلّفون افتضاحا حين طلبوا الخروج إلى غزوة خيبر، ولكن الله لا يبدلّ القول لديه إذ حكم أن تكون الغنائم لمن حضر الحديبية، فأنّى لأحد أن يغيّر حكم الله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾، فهو قرار من الله لا هوادة فيه، فكان ردّهم انعكاسا لما في قلوبهم من دباغ السوء.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾: لأنهم ماديو النظرة إلى أمور الدين، سطحيو الفهم لمقاصده لا يفقهون إلا قليلا، وحاشا لرسول الله أن يتصف بالحسد في حرمانه لهؤلاء من المشاركة في الغنائم لولا أنه أمر الله بذلك جزاء للمخلصين الأوفياء وعقابا للمترددين، ولذلك جيء بالإضراب الإبطالي لذلك

الإدّعاء، ونعتهم بعدم الفقه والتدبّر، إذ كانوا ينظرون إلى من هم أكمل عقلا وأقوى إيمانا بمنظار ما يحسّون به في أنفسهم من عوامل الشك والتردّد على المثل القائل: "رمتني بدائها وانسلّت". ولإزالة انكسار خواطرهم من حرمان غنائم خيبر أخبرهم الله بأنهم سيدعون إلى قتال قوم آخرين ذوي بأس شديد كما يدعى سائر المسلمين، وحينئذ يكونون على محك الاختبار، فتتاح لهم الفرصة لاستدراك ما فاتهم من التخلّف فقال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾.

تكرار وصف المخلّفين هو لمزيد من تنفير المسلمين من الوقوع في ذلك المحذور في تبكيت للذين وقعوا فيه، وإن كان ما وقعوا فيه لا يخرجهم من دائرة الإسلام كلية، ولكنه الأسلوب الحكيم في الاستئناس والاستمالة لأناس غلاظ الطباع فلنستمع إلى ذلك في قوله تعالى بسورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٠-١٢١).

وهنا يستدرجهم الله ويفتح لهم باب الأمل مستقبلا ليبرهنوا عن مدى توبتهم وندمهم مما فرط منهم، وقد اختلف المفسّرون في تعيين القوم الموصوفين بالبأس الشديد، فقال بعضهم: هم الروم والفرس، وقال آخرون: هم هوازن وثقيف يوم حنين، ولكن الأقربون -كما يدل عليه حرف

التنفيس: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾- أن يكونوا هم بنو حنيفة قوم مسليمة الكذاب في حروب الردّة على عهد أبي بكر الصديق ﷺ وهم أبطال أشداء أبلى المؤمنون معهم بلاء حسنا، إذ قتل فيها أغلب القراء. ويرجّح ذلك قوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، أي لا تفرض عليهم الجزية، وأيا كان القوم المعنيون فإن طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله طويل يتطلب من هؤلاء وغيرهم من المسلمين الاستعداد التام والنية الصادقة، ولذلك جاء التعقيب بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾. يلاحظ حذف متعلق: ﴿تُطِيعُوا﴾ ليشمل طاعة الرسول وخلفائه من بعده، ومع الوعد الوعيد في حالة التخلّف كما حدث من قبل، وجاء الشرط بـــ"إن" التي تفيد الشك.

﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: كان من رحمة الله ولطفه بذوي الأعذار من المؤمنين أن يرفع عنهم الحرج في عدم خروجهم إلى الجهاد وهم: العمي والعرج والمرضى المزمنين أو مرض مؤقت يمنع من الخروج وقاس الفقهاء على هؤلاء من يكون على حالتهم كالطفل والمجنون والمرأة، ومن لم يجد السلاح لفقره، ولكن الآية لا تنصّ على المنع من الخروج لمن استطاع منهم ذلك كما فعل عبد الله بن أمّ مكتوم، إذ يستطيع هؤلاء القيام بأعمال غير القتال كإعداد الطعام ومداواة الجرحى...إلخ.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: الحكم عامّ يشمل كل من تقدم ذكره من الخارجين مع رسول الله والمتخلفين وأصحاب الأعذار، فمدار القبول عند الله هو إخلاص الطاعة لله ولرسوله، وثواب ذلك جنة الخلد، وفي المقابل تكون نار جهنم هي جزاء التولّي والإعراض، والله أعلم.

رضوان الله على أهل الحديبية.

أ)- النصّ:

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾: الرضى ضدّه السخط، والمؤمنون: هم الذين بايعوا الرسول على الوفاء والإخلاص بخلاف من لم يبايع فهو غير مؤمن، ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾: "أل" للعهد، أي التي قام تحتها رسول الله لأخذ البيعة، وهي شجرة السَّمُر، بفتح السين وضم الميم. ﴿إِذْ﴾: ظرف للزمان الماضي جاء بعده المضارع: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، لاستحضار تلك الحالة المباركة. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أجمل الله تعالى ما كان في قلوب المؤمنين وقد تنازعتها عواطف الحبّ والإخلاص لله ولواعج الأسف والحنق لصدّهم عن المسجد الحرام، ودوافع الغيرة والحماس للدفاع عن حقوقهم. ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: ﴿السَّكِينَةَ﴾: هي الطمأنينة والثقة الكاملة بوعد الله. ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: أي عوّضهم عن كآبتهم وحزنهم. ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: هو فتح خيبر. ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾: وكونها كثيرة لتعدّد أنواعها. وجملة: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ هي للبشارة بأن ذلك يقع عما قريب بحيث ينال منها كل المبايعين.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد تقدم الحديث عن شرف مبايعة الرضوان وأنها في الواقع مبايعة لله، وبعد إفاضة الحديث عن المتخلفين ترهيبا وترغيبا عاد السياق إلى بيان ما

جازى الله به أصحاب الرضوان في الدنيا والآخرة من الجوائز المادية والروحية، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

صدرت الجملة باللام المشعرة بالقسم و"قد" التي تفيد التحقيق لتأكيد الحكم بعد الإشارة إلى الحادثة في أول السورة وإطالة الحديث بعدها عن المخلصين بما لله بالجزاء العظيم تأكد الحكم والأمر كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢). ووصف المبايعين بالمؤمنين للدلالة على إخلاصهم ووفائهم، وللإيماء بأن الذين لم يبايعوا من الخارجين يومئذ مع رسول الله لم يكونوا من المؤمنين. وتقول الرواية أن المبايعين كانوا ألفا وأربعمائة رجل تخلف منهم جدّ بن قيس وعبد الله بن أبيّ وقد بايع الرسول لعثمان بن عفان بوضع يده على اليد الأخرى، بايعوه على الموت، وفي رواية على أن لا يفرّوا، وسمّيت بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾: و﴿إِذْ﴾ ظرف للزمان الماضي جاء المضارع بعدها لاستحضار تلك الحالة المباركة الحاسمة، التي قدّرها الله أن تكون عند إشاعة مقتل عثمان ﷺ فقال الرسول إثرها: «**لابد من مناجزة القوم**»[1]، ثم نادى مناديه بالبيعة وهو واقف تحت الشجرة، فكان في ذلك الخير العميم للمؤمنين مما بينه الله تعالى بقوله: ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾.

علم الله بما في قلوب عباده أزليّ كان قبل البيعة وقبل الرضى عنها، ولكنه تعالى يمهّد لكلّ شيء سببه، وقد اختلف المفسّرون في بيان ما كان يعتمل في قلوب المؤمنين آنذاك، وكلها أشياء محتملة من الآمال والآلام تتصارع في نفوسهم وهم في ذلك الموقف وقد جاؤوا لغاية محدّدة وشارفوا بلوغها، واستعدّوا لتحقيقها مهما كلّف لهم ذلك من ثمن.

١- تقدم تخريجه: ص ٧٥.

ولكن الرسول عازم على عقد الصلح مع أعدائه المشركين ليرجع إلى المدينة دون أداء العمرة، ولا مندوحة لهم من طاعة رسول الله بعد أن ضحّوا واغتاظوا فلا منفذ لهم إلا ما يترله الله من سكينة وطمأنينة في تلك القلوب وهي ثمرة ذلك الرضوان الإلهيّ فتثوب لرشدها وتذعن لحكم ربّها، وكان ثوابها العاجل ذلك الفتح القريب لحصون خيبر، وقد خصّصها الرسول بأمر الله لأصحاب الحديبية كما تقدم.

ثم عطف الله على ذلك مغانم أخرى كثيرة: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، إنّها مغانم خيبر، وهي كثيرة بذاتها لما فيها من بساتين وأجنة وأموال كثيرة، ثم تتلوها فتوحات أخرى على عهد رسول الله وعلى عهد خلفائه الراشدين من بعد وفاته.

وجاء التذييل بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ جاء مناسبا لجوّ الفتح والمغانم؛ لأن قوة المؤمنين في الفتح والنصر هي من قوة الله القاهر ذي العزة والغلبة، وهو الحكيم في تدبير شؤون خلقه بما يصلح معاشهم ومعادهم بضع الأشياء في مواضعها بحكمة وتقدير، والله أعلم.

بشارة المؤمنين بما سيفتح الله به عليهم، وأن يخذل أعداءهم.

أ)- النصّ:

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ

تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾: الخطاب لرسول الله والمؤمنين، والمغانم الكثيرة التي يأخذونها هي ما سيتحقق بالفتوحات الإسلامية المقبلة إن في هوازن وفتح مكة أو في بلاد فارس والروم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: الإشارة إلى غنائم خيبر. عبّر بالماضي: ﴿عَجَّلَ﴾ مجازا تنبيها لتحقيق الوقوع. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾: أي كف أيدي المشركين عنهم في الحديبية وكفّ حلفاء اليهود من بني أسد وغطفان عند غزوة خيبر. ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: ﴿أُخْرَى﴾: إما معطوف على ﴿مغانم﴾، فهو في موضع نصب، ويجوز أن يكون مبتدأ، و﴿تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: صفة لها، وخبرها قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾. وقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: أي لم تتوفّر لكم بعد القدرة على حصولها، وهي غنائم بلاد فارس والروم سوف تكون لكم. ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾: أي عند الحديبية لو قدر الله أن يكون قتال بينكم لانهزموا أمامكم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾: ﴿سُنَّةَ﴾: منصوب على النيابة للمفعول المطلق وهي أنه كتب الغلبة لأوليائه. ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾: أي داخل الحرم المكيّ، وهم الجماعة المشركة المناوشين لمعسكر المسلمين، قبض عليهم وأتي بهم إلى رسول الله فعفا عنهم، وهم حوالي ثمانين رجلا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأه أبو عمرو وحده بياء

الغيبة، وفي كلتا القراءتين اكتفاء، أي كان الله بما تعملون ويعملون بصيرا.

د)- البيان والتّفسير:

على بيان وعد الله للمؤمنين في صلح الحديبية بما يجازيهم به من مغانم بعد اطمئنان قلوبهم وسعادتها برضوان الله، أردف الله هنا بذكر أنواع من الغنائم والنعم الأخرى يحظون بها، فأشار إلى ثلاثة أنواع:

أ)- نوع منها قريبة الحصول يختصون بها وحدهم وهي غنائم خيبر.

ب)- نوع مرجوّ كثيرا غير محدّد الوقت، كغنائم حنين وما بعده من الغزوات.

ج)- نوع عظيم لا يخطر ببالهم قد أعدّها الله للمسلمين مستقبلا كغنائم بلاد الروم وفارس، مع امتنانه تعالى على المؤمنين بكفّ أيدي المشركين عنهم فقال تعالى: ﴿**وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُومِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾.

الخطاب للمؤمنين يفصّل الله فيه ما أجمله في قوله من قبل: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا﴾، فبعد تلك البشارة الإجمالية تحقق فتح خيبر وحصلوا على غنائمه، وبما أن الوصف للغنائم الموعود بها جاء: بـ﴿كَثِيرَةً﴾، فقد يتطلع المؤمنون إلى غيرها، فكان هذا الجواب الإلهيّ لبعث الأمل في نفوس الذين حرموا من غنائم خيبر بأن هناك غنائم أخرى تحصل لهم، وأشار إلى غنائم خيبر إذ اقتضت حكمته تعالى أن يعجّل لهم بها جزاء ما عانوه في موقف الحديبية، وأنّه تعالى جعلهم في حرز من أمان إذ كفّ عنهم أيدي الناس من مشركي مكة على ما عانوا به من الاستفزازات، كما كفّ أيدي حلفائه اليهود من غطفان وبني أسد فلم يهبّوا لقتال المؤمنين عند

حصارهم لحصون خيبر، وفي كل ذلك آيات وعبر لنعم الله عليكم فتزدادون إيمانا بوعد الله وبألطافه عليكم، وتصديقا ونصرة لرسوله، فتشكرون الله على ما حباكم من فضل، وأعظمه تثبيتكم على الصراط المستقيم على ما تعرضتم إليه من تمحيص واختبار، فإنّ الإنسان قد لا يثبت في المواقف الصعبة ما لم يكن له من الله عون وتوفيق.

حقًا إنّ ما حدث في الحديبية وما أعقبه من نصر وفتح هو آية وعبرة للمؤمنين.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: وهذا هو النوع الثالث من الغنائم في ضمير الغيب وفي علم الله، قدّرها أن تكون لكم مستقبلا؛ لأنكم غير متهيئين لها الآن، وهذه مثل غنائم هوازن وغيرها في المستقبل القريب، وغنائم الروم وفارس في المستقبل البعيد، فإذا كنتم أنتم الآن لا تقدرون عليها، فإن الله كان على كلّ شيء قديرا في جعل الصعب ممكنا والمستعصي طيّعا ذلولا بأن يمهّد له ويوفّر أسباب حصوله.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾: لقد تعرّض المسلمون لاستفزازات المشركين في الحديبية، وهفت قلوبهم للقتال، وحدث ما حدث من الإرباك في صفوفهم، ولكن الله أراد أن يتمّ الصلح فلا تكون مواجهة ولا قتال، ولو ركب المشركون رؤوسهم وبادروا المسلمين بالقتال لانهزموا أمامهم بمعونة الله؛ لأنه تعالى لا يخذل أولياءه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧٣). ولا يجد الكافرون من دون الله وليًا ولا نصيرا، وتلك سنّة الله في تدبير شؤون خلقه، بدحر الباطل وأعوانه ونصرة الحقّ، مهما قلّ أنصاره وطال أمد الصراع، فإنّ ذلك من سنن الله التي

لا تتغيّر على مرّ الأحقاب والعصور.

﴿وَهُوَ الذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: يمتن الله على المسلمين بما هيأه في جوّ الحديبية من بواعث الموادعة والهدنة بين الفريقين، بالرغم من دواعي الانفجار والتصادم، سيما تلك المناوشات التي قام بها المشركون على معسكر المسلمين والكلّ إلى جوار الحرام، مما عبّر الله عنه ببطن مكة، وقد مكّن الله المسلمين من القبض على أولئك المناوشين، وإن كان الرسول قد أخلى سبيلهم إظهارا لحسن النية، ولنا أن نتصوّر الحالة النفسية للمسلمين وهم يعيشون تلك اللحظات المتوترة المشحونة بالغيظ والهيجان، فمن غير الله بعث السكينة في تلك القلوب -وهو العليم بما في ثناياها-، وكان الله بما تعملون بصيرا، وما أروع التعبير بكفّ الأيدي، وقد كانت مهيّئة للتشابك والضرب، وها هي تتقيّد بلطف الله وإرادته، إن ربّي لطيف لما يشاء، والله أعلم.

ذمّ المشركين على موقفهم، وبيان حكمة المصالحة.

أ)- النصّ:

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هُمُ الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾: الإتيان بضمير الغيبة: ﴿هُم﴾ والإخبار عنه بالموصول مع صفة الكفر في الصلة هو لزيادة التشنيع والذم لهؤلاء بصدّهم المسلمين عن المسجد الحرام، ﴿وَالْهَدْيَ﴾: منصوب بالعطف، على ضمير: ﴿صَدُّوكُمْ﴾. ﴿مَعْكُوفًا﴾: حال بمعنى محبوسا من الوصول إلى محله، ﴿اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾: يقدر فيه حرف جرّ، والتقدير: عن أن يبلغ. ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّومِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَن تَطَئُوهُمْ﴾: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُم﴾ في موضع رفع صفة للرجال والنساء، أي هم مسلمون موجودون مع المشركين في مكة، ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾: من الوطء، أي الدوس بالأقدام، والمراد به إهلاكهم. ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي تلحقكم مذمة لتقصيركم في البحث عنهم، وجواب ﴿لَوْلاَ﴾ محذوف. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذِينَ كَفَرُوا﴾: ﴿تَزَيَّلُوا﴾: أي لو تميّزوا وتفرقوا عن الكفار لعذبنا أهل مكة من الكافرين. ﴿إِذْ جَعَلَ الذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾: ﴿الْحَمِيَّةَ﴾: الأنفة من الشيء. و﴿إِذْ﴾: بمعنى: اذكر يا محمد. أي هي ظرف، ﴿لَعَذَّبْنَا﴾: أو هو متعلق بـ﴿صدوكم﴾. ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: منصوب على البدلية، وإضافتها إلى الجاهلية لبيان نوعها وأنها من المعاونة على الباطل. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كلمة التقوى هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: هي بسم الله الرحمن الرحيم، ألزم الله محمدا وصحابته الثبات والوفاء بها، وأضيفت الكلمة إلى التقوى؛ لأنه يبقي الشرك بها وهم أهل لها والمستحقون لها.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد امتنان الله على المؤمنين بكفّ أيديهم عن المشركين وكف أيدي

المشركين عنهم وإبرام عقد الصلح بينهم، بيّن الله هنا حكمة تلك المصالحة مما لم يعلمه المسلمون من درء الشّرّ عن إخوانهم المستضعفين ممن بقي مع المشركين في مكة مضطرا، ومن فسح المجال للناس للدخول في دين الله، وتبديد آثار الحمية الجاهلية من نفوس الكفار، وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين بإثباتهم على كلمة التقوى وهم أهل لها فقال تعالى: ﴿**هُمُ الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّومِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا**﴾.

جاء الافتتاح بضمير الغيبة: ﴿هُم﴾، والإخبار عنه باسم الموصول: ﴿الذِينَ كَفَرُوا﴾، وقد ورد ذكرهم في قوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الاَدْبَارَ﴾، فيفيد التعبير معنى قصر صفة الكفر في هؤلاء بأنهم بلغوا بموقفهم كمال الكفر إذ صدّوكم عن المسجد الحرام، فارتكبوا بذلك مذمة وعارا وهم يزعمون أنهم سدنة البيت والقائمون على زواره، ولا حق لهم في أن يمنعوا أحدا عن بيت الله، كما منعوا الهدي عن أن يبلغ محلّه بنحره في الحرم المكيّ. والهدي هو ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، والمعكوف بمعنى المحبوس في مكانه، وقيل: إنّ هدي المسلمين كان سبعين بدنة، فلما حصروا في الحديبية رخّص الله لهم بجعل ذلك الموضع منحرا لهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّومِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، لم يكن المسلمون يدركون الحكمة من وراء منع القتال بينهم وبين المشركين سيما من بعد أن بلغ تعنّت المشركين مداه في الصدّ عن المسجد الحرام، فبين الله الحكمة من وراء ذلك مما قد يخفى عليهم فأعلمهم أن بمكة رجالا ونساء مستضعفين هم مؤمنون مرتبطون

بالمشركين مضطرين، لا يعلمهم المسلمون، فلو تواجهوا بقتال مع أعدائهم لأصابوا هؤلاء خطأ فيندمون على ما فعلوه ويشيع المشركون بأن أصحاب محمد يقتل بعضهم بعضا وفي ذلك سبّة ومعرّة، وجواب الشرط بـ"لولا" محذوف يفهم من المقام ومما جاء بعده بقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي ليفسح الله مجال رحمته لهؤلاء فينقذهم من الضائقة التي هم فيها وليهدي الكثير إلى دعوة الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، والحديث عن المستضعفين بأنهم لو فكّ ارتباطهم بالمشركين وانفصلوا عنهم لكان الله قد سلّط العذاب الأليم على الذين كفروا منهم، وهكذا فإن حكمة الله اقتضت تحقيق تلك الفوائد من وراء تلك الموادعة والصلح وهو أعلم بمن خلق. ولكن الناس يستعجلون.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، الأنسب أن تكون: ﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل: ﴿صَدُّوكُمْ﴾، أي كان ذلك الصدّ من المشركين بدون مبرّر معقول أو مشروع، إذ كان بدافع الحمية الجاهلية التي عظمت على قلوبهم. والحميّة هي الأنفة والاستنكاف من أمر يراه سبّة عليه وبواعث ذلك هي الحقد والحسد والضغينة، ولذلك جاءت الإضافة إلى الجاهلية لقصد المبالغة والتشنيع. قال الشاعر في الجانب الإيجابي للحمية:

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما وأنفا حميًا تجتنبك المظالم

وماذا كان في قلوب المؤمنين؟. قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، في مقابل تلك النار المتقدة في قلوب الكفار بالحمية الجاهلية متّع الله المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، فهدأت واطمأنت

لحكم الله، وأذعنت لأوامر رسول الله في موقف تطيش فيه الأحلام وتزلّ الأقدام، وللشيطان صولاته في الاستفزاز ونشر البلبلة، ولكن كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر:٤٢)، فألزمهم الله كلمة التقوى لا تفارق قلوبهم، وقد اختلفت الروايات في تفسيرها فمن قائل: إنها لا إله إلا الله. وقد قال ﷺ: «**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**».[1]

ومعنى الإلزام فيه معنى التمسك بقوة، وذلك باستحضار معناها في قلوبهم وتطبيقها في واقع حياتهم، ويا للمفارقة بين فعل: ﴿جَعَلَ﴾، بالنسبة للذين كفروا، إذ لهم في ذلك كسب واختيار، في حين أن الله أنزل السكينة في قلوب المؤمنين. وربط فعل الإنزال بـ"الفاء" حتى تحتوي السكينة في قلوب هؤلاء ما كان من الغيظ والحقد في قلوب أولئك، وزيادة قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ لتأكيد أهليتهم واستحقاقهم لتلك الكرامة مما سبق في علم الله، وفي ذلك تعريض بمن لا ينطقون بتلك الكلمة ليسوا بأهل لها في واقع أمرهم.

ويجب علينا -نحن المسلمين- أن نزيد لتلك الكلمة: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ﴾. يقول القطب: "والصحيح ما عليه الجمهور، وهو المرويّ، أن كلمة التقوى: لا إله إلا الله، ولا بد في قبولها من قول: محمد رسول الله. وأضيف للتقوى لأنه بها يتقى الشرك، قال ابن عبّاس: هي رأس كل تقوى".[2]

والله أعلم

١- رواه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، كتاب (٤٩) الدعوات، باب (١٢٣) في دعاء يوم عرفة، رقم ٣٥٨٥: ٥/٥٧٢.

٢- تيسير التفسير: ١٣/٣٧٩.

تصديق رؤيا رسول الله عام الفتح.

أ)- النصّ:

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾: ﴿صَدَقَ﴾: يتعدى لفعل واحد، فيقال: صدق زيد في قوله، ويتعدى لمفعولين كما في الآية فيقال: صدق الناس زيدا قولهم. ﴿الرُّؤْيَا﴾: ما يراه النائم في قومه. ﴿بِالْحَقِّ﴾: إما صفة لمصدر محذوف، التقدير: صدقا ملتبسا بالحق، أو حال من ﴿الرُّؤْيَا﴾. ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾: جواب قسم محذوف: والله لتدخلن، ﴿إِن شَآءَ اللهُ﴾: تعليق لوعد الله بمشيئته. ﴿محلقين﴾، ﴿مُقَصِّرِينَ﴾، ﴿لاَ تَخَافُونَ﴾: في موضع نصب بالحال، والحلق والتقصير يكون بعد فك الإحرام بعد رمي جمرة العقبة في عيد الأضحى. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: أي من دون فتح مكة، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو فتح خيبر. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: أي ليجعل الإسلام مهيمنا على كل الأديان ظاهرا منتصرا. ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾: على أن يتحقق ما وعد به، وعلى صدق نبوءة رسول الله.

ج)- البيان والتفسير:

كانت الرؤيا التي رآها رسول الله في أنه سيدخل وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلّقين رءوسهم ومقصّرين، كانت مثار جدل في صفوف الصحابة وتولّى كبرها المنافقون، بعد وقوع صلح الحديبية حتى قال بعضهم: أين رؤيا رسول الله؟، والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا البيت، ففي ذلك الجوّ من الحيرة والشك أنزل الله هذه الآيات ليبدد ظلمات الريب والظنون بإخبار الله على صدق تلك الرؤيا فقال جلّ من قائل: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾.

مراعاة للحالة النفسية التي كان عليها المخاطبون فإنّ الإخبار الإلهي جاء مؤكدا باللام المشعرة بالقسم و"قَدْ" التي تفيد التحقيق بأنه تعالى صدق تأويل رؤيا رسوله التي رآها تصديقا ملتبسا بالحق بأنكم ستدخلون المسجد الحرام -بمشيئة الله- وأنتم آمنون، محلّقون رؤوسكم ومقصّرون، وتأكيدا لحالة أمنهم التام زاد فقال: ﴿لاَ تَخَافُونَ﴾، واقتصر تعالى على ذكر التحليق والتقصير لأنهما يلزمان للحج والعمرة وأنهما آخر ما يفعله الحاج أو المعتمر. والله تعالى لم يحدّد المكان الذي حدثت فيه تلك الرؤيا، أهو في المدينة قبل أن يخرج؟، أم هو في الحديبية بالذات قبل عقد الصلح؟، اختلفت الروايات في ذلك. غير أنّ تلك الحالة من التوتر التي أصابت الصحابة ترجّح أن يكون الإخبار عن تلك الرؤيا في المدينة ورؤيا الأنبياء نوع من الوحي كما تقدم ذلك في سورة الشورى، والرؤيا الحق هي التي يصدّقها الواقع، وقد يراها حتى بعض الصلحاء من المؤمنين، كما ثبت في الحديث الصحيح، أنّ: «**الرؤيا الصالحة جزء من**

ستّ وأربعين جزءا من النبوّة».[1]

ومن دقة التعبير ومطابقة الواقع له، تأكيده تعالى على الأمن وعدم الخوف، وذلك ما عايشوه في عمرة القضاء سواء في خروجهم من المدينة أو في طريقهم إلى مكّة وعند أدائهم مناسك العمرة، وقد أحلى المشركون لهم مكة كلها. وقوله تعالى في غضون خبره: ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾، فإنّ تعليق شؤوننا نحن بمشيئة الله أمر واجب بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ﴾(الكهف:٢٣-٢٤). وأما أن يكون هذا الحكم لله في ذات كلامه هو فما معنى ذلك، وهو علام الغيوب؟.

فقيل: إن ذلك من الله تعليم لنا وإرشاد حتى لا نغفل عن تعليق شؤوننا بمشيئة الله. وأنه تعالى يقضي بإرادته ومشيئته كل ما أمر وفق ما قدّره في الأزل لا واجب عليه في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، "الفاء" للترتيب الذكري، إذ أنّ علمه لا يتعلّق بزمان ولا مكان، وبمقتضى علمه بما لم تعلموه من ملابسات حادثة الحديبية، فأجّل دخولكم إلى المسجد الحرام، وقدّر لكم قبل ذلك فتحا قريبا، وهو فتح خيبر، فلو كنتم أدركتم الحكمة من عقد ذلك الصلح لما ضاقت صدوركم، ولحمدتم عاقبة أمركم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: تقع هذه الآية الكريمة موقع الخلاصة لكل ما تقدم من أول السورة من البشارات المتوالية سواء ما تعلق منها برسول الله أو ما تعلق بصحابته الكرام، فبعد أن شهد الله بصدق رؤيا رسول الله وأنها حق يؤيّدها

١- رواه البخاري من حديث أبي سعيد، كتاب (٩٥) التعبير، باب (٤) الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، رقم ٦٥٨٨ : ٦/٢٥٦٣.

الواقع كما وعد الله بذلك أعقب ذلك التصديق الخاصّ بهذا التصديق العامّ للرسول في كل شيء، فقال بصيغة الحصر: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾، أي هو لا غيره أرسل محمدا بالهدى، وهو يعني العلم النافع والعمل الصالح مما يرشد إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، عطف عليه قوله: ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ليشمل كل ما جاء به الدين من الأحكام أصولها وفروعها، ثم بيّن الله الغاية من ذلك فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. والظهور: هو النصر والغلبة. أي ليجعل هذا الدّين حجّة على كل الأديان السابقة مصدقا لها ومهيمنا عليها.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: تذييل مناسب لشهادة الحق من الله على صدق رسوله، وعلى رفعة دينه ونصرة أوليائه.

والسؤال المطروح: هل تحقق وعد الله في ما مرّ من تاريخ الإسلام؟ أم يستمرّ هذا الوعد إلى يوم القيامة؟. إذ ما تزال الأمة الإسلامية باقية على مسرح التاريخ البشريّ، وقد تحقق لها من وعد الله الشيء الكثير بالنظر إلى امتداد رقعتها وكثرة أتباعها، واحتواء كثير من أعدائها الذين حاولوا القضاء عليها، فهي وإن غلبت عليها الغثائية اليوم، وافتُكّت عنها قيادة العالم من حيث الازدهار الحضاريّ والتقدم العلمي والتكنولوجي، فهي من حيث الحياة الروحية والفعالية الإيمانية أوفر حظا من خصومها وأعدائها.

ودين الله الذي وعد بإظهاره وغلبته على كل الأديان، لا ينظر إليه من خلال وضعية أتباعه من حيث تطبيق أحكامه أو عدمه، لأن ذلك لا يقدح في صميم حقيقته ومصداقيته كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد:٣٨)، فوعد الله قائم ما دامت الأرض والسماوات، وهو الذي يهيئ الأسباب لإنجاز وعده، ولو كره الكافرون، والله أعلم.

أوصاف رسول الله وأصحابه.

أ)- النصّ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. أو﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو محمد، إذ المقصود هو بيان رسول الله من هو، وهو تنويه بشأن رسول الله ردًا على إنكار الكفار إثبات ذلك في وثيقة الصلح. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿أَشِدَّآءُ﴾: خبره. و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثان. ومعنى: ﴿مَعَهُ﴾ المصاحبة الكاملة، والمراد الصحابة كلهم لا خصوص أهل الحديبية. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: الرؤية بصرية، وصيغة المضارع للتجدّد والتكرار، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: جمع راكع وساجد، منصوبان على الحال، أثنى الله عليهم بالانشغال بالصلاة في أكثر أوقاتهم لابتغاء رضوان الله. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: السيما العلامة التي ترتسم في جباههم من كثرة السجود. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾: الإشارة إلى المذكور من صفات المؤمنين. والمثل يطلق على الحالة العجيبة أو المشابه مما ذكر في التوراة من تلك الأوصاف

العجيبة. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾: ابتداء كلام وهو مبتدأ. ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبره. و﴿شَطْأَهُ﴾: فراخ الزرع وفروع الحبة. ﴿فَآزَرَهُ﴾: بمعنى قوّاه، أي قوي الشطء، أصل الزرع. ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾: غلظ غلظا شديدا، والسوق: جمع ساق، والضمير راجع إلى الزرع، تشبيه لجماعة المؤمنين في كثرة عددهم ونماء قوتهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿شَطْأَهُ﴾: قرأه الجمهور بسكون الطاء وبالهمزة، وقرأه ابن كثير بفتح الطاء بعدها ألف على تخفيف الهمزة ألفا، ﴿فَآزَرَهُ﴾: قرأه الجمهور بهمزة ممدودة، وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿فَأَزَرَهُ﴾ بدون ألف بعد الهمزة. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: قرأه الجمهور بالواو بعد الضمّة، وقرأه ابن كثير: ﴿سُؤُقِهِ﴾ بهمزة ساكنة بعد السين المضمومة، وهي لغة ضعيفة.

د)- البيان والتّفسير:

لما بيّن الله صدق رسوله في رؤياه وشهد بصدق رسالته وطمأن نفوس المؤمنين، أعقب ذلك في أواخر السورة، وأكّد ما ورد في مفتتحها تنويها بشأن الرسول وثناء على صحابته بما أضفى عليهم من صفات حميدة عجيبة ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم قال تعالى: **﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾**.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ﴾: إنها الشطر الثاني المكمل لمعنى كلمة التقوى التي هي أساس الإيمان: اعتقادا ونطقا وعملا. وللمفسّرين وجوه محتملة في إعراب الجملة، كما تقدم في التحقيق اللغويّ، ولعلّ أصوبها أن نعتبر أن: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو محمد، والضمير يعود إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ

الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾، ذلك لأن المقصود -كما يراه الإمام عاشور- وغيره من المفسّرين المقصود هو بيان رسول الله من هو، بعد إضفاء تلك الأوصاف عليه مما يثير فضول السامعين لمعرفة من هو هذا المتحدث عنه، فيقال: هو محمد رسول الله. وفي هذا الإعلان الإلهي إبطال جحود المشركين كتابة ذلك في مقدمة وثيقة الصلح".[1]

﴿وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: تعتبر هذه الجملة مستقلة عن سابقتها، وهي تتألف من مبتدأ وخبر، وهي تنويه بشأن أصحاب رسول الله، واختيار صفة المعية لهم دون وصف آخر يفيد كمال صحبتهم له بالطاعة والتأييد وبالملازمة والوفاء، وصفهم الله بأوصاف عجيبة هم أحق بها وأهلها كما قال عنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

فما أروع المقابلة بين الشّدّة والرحمة، فشدّتهم على الكفار نابعة من غيرتهم على دينهم، ومن قوة إيمانهم وحبّهم لله ورسوله، وهم في ذلك مهتدون برسول الله في غلظته على الكفار والمنافقين بمقتضى توجيه الله له بقوله: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة:٧٣). ومن قوله في الإرشاد العام للمؤمنين: ﴿قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة:١٢٣).

وفي معاملة الكفّار تختلف الأحكام الفقهية وفق ما تقتضيه المصلحة العامة للمسلمين، وفي إبرام صلح الحديبية أفضل مثال على ذلك، بينما يتعامل المؤمنون بينهم بالمودّة والرحمة، وأسوتهم في ذلك -أيضا- رسول الله ﷺ كما وصفه الله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

١- التحرير والتنوير: ٢٠٣/٢٦.

وليست الشدة التي وصف بها المؤمنون شدة طبع وقساوة مزاج، بل هي شدة يتكيّفون معها وفق ما تقتضيه مصلحة الأمة ولا تندّ بهم تلك الشدّة إلى التعسف والظلم حتى مع أعدائهم وهم في ذلك ملتزمون بحدود الله في العدل والإحسان، وكذلك صفة الرحمة باعثها الحبّ في الله ولا شيء وراء ذلك من نخوة الدم والقرابة أو منفعة عاجلة وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٥٤).

تلك هي معاملتهم لخلق الله على معيار الإيمان والكفر فكيف هي علاقتهم بربّهم وكيف يؤدون له حقه؟.

قال تعالى: ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾، هم فرسان النهار ورهبان الليل، كما جاء وصفهم في الأثر، وخصص الركوع والسجود بالأكثر من أعمال الصلاة، لأنهما يعكسان مبلغ التذلل والخضوع لله، كما خصصت الصلاة دون سائر العبادات لأنها الصلة الوثقى بين العبد وربّه، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والدوام، لأن ذلك من ركائز الصلاة لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(المعارج:٢٣).

وتظهر آثار تلك المداومة على جباههم بعلامات السجود، وليس المقصود علامة مادية يتكلفها المصلّي بطول الضغط على الأرض أو حكّ البشرة بمادة تحدث تلك العلامة كما يفعل الكثير من المرائين اليوم، وإنما هي علامات نور ووقار، ترى بالحدس الباطنيّ، فإن المقصود من الآية هو ما يكون من أثر العبادة والإخلاص لله، قد يظهر على وجه المؤمن، فيحسّ به من صلحت علاقتهم بالله، وذلك في الدنيا، وأما في الآخرة فقد جاء في الحديث:

«إنّ أمّتي يدعون يوم القيامة غرًا محجّلين من آثار الوضوء».[1]

وليس للصلاة المقبولة عند الله إلا الحصول على مغفرته ورضاه.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لصحابة رسول الله، وكون ذلك الوصف جاء في التوراة والإنجيل أنّه كان من جملة البشارات التي أشادت بالرسول الخاتم وصحابته مما أخبر الله به في الكتابين المقدّسين كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧).

شبّه الله الرسول وصحابته بزرع أخرج فروعه على جوانب ساقه لينمو ويتقوى، ويكثر خيره، وكذلك بدأ المجتمع المسلم نبتة زرع طيّبة تتمثل في شخص رسول الله امتدت فروعها وكثرت شمائلها فتجذرت سيقانها فاستقام على أعواده مما يهيج الزّراع لوفرة خيراته.

وكلما ازدادت قوة الإسلام ازداد غيظ الكفار وتمالئوا عليه بالمكر والكيد قديما وحديثا، فلا مطمع في مودّتهم ولا موادعتهم، والله تعالى يبارك كلّ عمل وكلّ تحرّك يكون فيه ما يغيظ الكافرين، بل ويجزي به أجر المحسنين كما ورد في سورة التوبة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾:

وتختتم السورة الكريمة بما افتتحت به من وعد الله لرسوله ولصحابته

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٤) الطهارة، باب (٣) فضل الوضوء والغر المحجّلون من آثار الوضوء، رقم ١٣٦: ١/٦٣.

ولسائر المؤمنين من بعدهم وعده الصادق بالمغفرة للتخلية من الذنوب بمنّه وكرمه ثم بالتحلية ثوابا ومغفرة ورضوانا، لكل من توفّر فيه الشرطان الأساسيان من الإيمان الخالص والعمل الصالح.

وما أحوجنا إلى هذه الكرامة من مولانا وهو الرؤوف الرحيم، فاللهم وفّقنا لما تحبه وترضاه من قول وعمل ونية واعتقاد، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، آمين، والله أعلم.

لقمان

سورة الحجرات، مدنية، وآياتها ١٨

- بين يدي السّورة الكريمة:

نحن بإزاء سورة مدنية من نوع المفصّل أو المحكم لا تتعدّى آياتها ثمان عشرة آية، وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، والتاسعة والأربعون في ترتيب سور المصحف الشريف، سمّيت بالحجرات، أي حجرات أزواج الرسول التي ورد ذكرها في أول السورة في قصة وفد بني تميم كما سيأتي التفصيل.

ففي السنة التاسعة من الهجرة -وفيها نزلت السورة- عرف المدّ الإسلامي في جزيرة العرب توسّعا كبيرا انداحت دائرته إلى أطراف حدود الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وقد دانت أمّ القرى مكة المكرمة لحكم الإسلام بعد الفتح المبين ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ولئن تبلورت النقلة النوعية الجديدة بالتربية الفضلى في ذلك الرعيل الأول من صحابة رسول الله، وتجسّدت في واقع حياتهم اليومية أحكام الدين الحنيف، وتمثلت الأخلاق القرآنية في إيمانهم الراسخ وسلوكهم الصالح كما وصفهم الله في أواخر سورة الفتح، فإنّ من سمّاهم المؤرخون "مسلمة الفتح" ما يزالون مثقلين بذلك الركام من التقاليد والعادات الجاهلية، يرزحون تحت وطأة العنصرية القبلية بكل ما تعنيه من الحمية والنخوة الطائفية، مما يتطلب مزيدا من الإرشاد الحكيم والتوجيه السليم.

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة إرشادات وآدابا في تنظيم شؤون المجتمع، وتحديد الروابط والعلاقات بين جميع أفراده، وذلك بإزالة أسباب البغضاء والشحناء، مما ينزغه الشيطان وأعوانه بين الناس، ثم صيانة تلك العلاقات بالأخوّة الدينية وتأمينها من الانصداع عقدا للصلح بين المتنازعين، وقتالا وردعا

للبغاة المتجبرين.

والسورة على قلة آياتها تضع المعالم المحدّدة لمجتمع فاضل لا تتصادم فيه العلاقات، ولا تندّ فيه الرغبات عن حدود الآداب مع الله ورسوله أوّلا، ثم مع الخلائق في ما بينها، مهما انداحت دائرة المجتمع الإنساني من المستوى المحلّي إلى المستوى العالميّ.

إنها روابط تضمن ذلك القدر من الكرامة الإنسانية في إطار الإخاء والمساواة والتكافل الإجتماعيّ محصنة بالإيمان والعقيدة الراسخة في القلب والضمير تحب الخير والفضيلة، وتكره الشّر والرذيلة، تحدو بها النداءات الإلهية على طريق الاستقامة، وتستحيش الضمائر لترعى تلك المسؤولية التضامنية في المجتمع المسلم، وهو يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تحقيقا للخيرية التي وصفه الله بها.

وكم تخيّل الحكماء والفلاسفة النموذج المثالي لمجتمع فاضل، وكم اجتهدوا في رسم معالمه، وتخطيط نظمه وأعرافه، ولكن أنّى لهم أن يبلغوا في ذلك ما حققته رسالة الله في تلكم الجماعة المختارة من صحابة رسول الله وهو يزجي صفوفها، ويتولاها بالإرشاد والتهذيب والتشذيب، وهي تنمو رويدا رويدا حتى غدت دوحة فينانة تظلل الآفاق، وتغدق الخيرات والبركات، وكم من أقوام انجذبت إلى ظلها، وفي طبعهم جفوة البادية وقساوة طبيعتها، ولكن سرعان ما لانت تلك الطباع، وانصقلت تلك النفوس ثم انصهرت في بوتقة الجماعة الخيّرة، فتعززت بها قوة الإسلام واندفعت كالسيل الجارف يطهّر مسار الإنسانية، ويفتح مسالكها نحو الخير والصلاح، وأخيرا فإن السورة الكريمة تضع معايير العقيدة الصحيحة وتحدّد مسؤولية المؤمنين في تركيز تلك العقيدة وتجسّدها في واقع الحياة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

تلكم هي المحاور التي عالجتها السورة الكريمة سوف نفصّلها بيانا وتفسيرا -بعون الله-، والله وليّ التوفيق.

الآداب الواجبة مع الله ورسوله.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾: فيه قراءتان، ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾: بفتح التاء من التقدّم، وأصله: لا تتقدموا، حذفت إحدى التاءات للتخفيف، و﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾: بضمّ التاء، من التقديم أي لا تتقدموا بقول أو فعل أو حكم. ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾: فيه تعبير تمثيلي، تشبيه لحال الذين يبدون آراهم أمام النبي بحال من تقدم في السير أمام ملك عظيم. لم يذكر معمول: ﴿تُقَدِّمُوا﴾ للدلالة على العموم. بعد النهي أمرهم بالتقوى، اتقاء غضب الله بمخالفة أمره ونهيه، فهو السميع العليم يراقب أعمالكم ويعلم نواياكم.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أورد المفسّرون روايات مختلفة في أسباب النزول لهذه الآية وما يتبعها من الآيات الآخرى التي ترشد إلى آداب الحديث بحضرة رسول الله ﷺ جمعت بينهما الحادثة التي رواها عبد الله بن الزبير. قال: إنّ ركبا من بني تميم قدموا

على رسول الله فنادوه بجفوة من وراء الحجرات، فلما قضى معهم قال أبو بكر: أمّر عليهم القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر ما أردت خلافك، فتماديا حتى ارتفعت أصواتها فنزلت الآية"[1]، وتقول رواية أخرى: "إنها نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذّبح".[2]، فتفرّع عن هذه الآية بحث طويل للعلماء، في جواز تقديم الطاعات عن أوقاتها أو عدم جواز ذلك إلا في بعضها...إلخ. وأيّا ما كان سبب النزول، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

افتتحت السورة بالنداء الحبيب إلى المؤمنين، وهو يستجيش شعورهم الإيماني، ويسترعي انتباههم لما سيلقى عليهم، فرتب الله على ذلك النداء نهيا وأمرا يرسمان الأدب الرفيع الذي يجب على المؤمنين أن يلتزموه مع رسول الله وهم في مقام القدوة الصالحة لغيرهم، فحذّرهم أن يتعجّلوا القضاء في قول أو فعل قبل إبرام الرسول له بأمر من الله، إذ الواجب يقتضي منهم أن يقفوا موقف المنتظر الشغوف لما يقضي به الله في ما سبيله أن يؤخذ عن رسول الله من أمور الدّين والدنيا. كما روي هذا التفسير عن مجاهد إذ قال: "لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه".

قلت: وقد التزم الصحابة تلك الآداب مع الرسول، حتى لكأن يسألهم عن أشياء يعلمونها فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. ولما كانت التقوى هي لحسن الإنصات والإتباع فقد أمرهم الله بها بعد ذلك التحذير إيذانا على أن ترك إبرام شيء دون إذن رسول الله هو من تقوى الله وحده، ثم جاء

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير، كتاب (٦٨) المغازي، باب (٦٤) وفد بني تميم، رقم ٤١٠٩: ١٥٨٦/٤.

٢- رواه عبد الرزاق في تفسيره من حديث الحسن: ٢٢٨/٣.

التذييل بصفتي السميع العليم للذات العلية لتأكيد معنى الأمر والنهي في الآية، أي فإن الله السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم أحق أن تمتثلوا أمره وتجتنبوا نهيه، والله أعلم.

أدب الحديث بحضرة الرسول ﷺ.

أ) - النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾: أي لا تجهروا بأصواتكم إذا كلّمتم الرّسول؛ لأن رفع الصوت لا يكون إلا عند المتاجرة، أو إبلاغ الصوت إلى مكان بعيد. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: أي احفظوا أصواتكم على صوته إذا حدّثتموه بحيث لا يكون مساويا لحديث بعضكم لبعض. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾: الفعل: "حبط" مأخوذ من قولهم حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فانتفخت بطونها، وربما هلكت بذلك، وحبطت الأعمال بمعنى بطل ثوابها وتقدّر فيه لام التعليل: "لئلا". ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾: أي يخفضونها حتى تميل إلى الإسرار. ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾: بمعنى اختبر، أي محّض قلوبهم للتقوى، من قولهم: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت، أو من قولهم: محنت الأديم محنا حتى أوسعته فيكون بمعنى

شرح قلوبهم للتقوى. ﴿الْحُجُرَاتِ﴾: مفرده حجرة، وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط أو مفرده "حُجر" فيكون جمعا للجمع. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: يجوز فيه معنيان، أن يكون خبر اسم تفضيل أي انتظارهم أفضل من تعجّل النداء، ويجوز اسما ضدّ الشر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْحُجُرَاتِ﴾: قرأ الجمهور بضمتين، وقرأه أبو جعفر بضم الحاء وفتح الجيم، وهي تسع حجرات لأزواج النبي ﷺ.

د)- البيان والتّفسير:

ذكر الرّواة في سبب النزول ما تقدم من تلاوم أبي وعمر أمام الرسول في قصة وفد بني تميم. وقد روى البخاري عن أبي مليكة قوله: «**كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند رسول الله عندما قدم عليه وفد بني تميم** ....»، إلخ.[1]

وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، كان خطيبا مفوّها جهوري الصوت، قيل: إنه خطب خطبة بليغة فغلب وفد تميم حين طلبوا المفاخرة أمام رسول الله على عادة العرب.[2]

وعلى هذه الرواية تكون قصة بني تميم قد جمعت بين الآيتين الأولى والثانية في سبب النزول.

١- رواه البخاري، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٢٨) تفسير سورة الحجرات، رقم ٤٥٦٤: ١٨٣٣/٤.

٢- رواه أبو نعيم، معرفة الصحابة، رقم ٩٨٥: ٢٧٣/٣.

قال تعالى:﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ، إِنَّ الذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

تصدّرت كلتا الآيتين الأولى السّابقة وهذه الآية تصدرتا بالنّداء الحبيب إلى المؤمنين، وللإيمان بالله ورسوله التزاماته ومقتضياته، وتكرار النّداء للاهتمام بما يترتّب عليه من إرشاد وتوجيه، وقد اختير أسلوب النّهي عن تلك المعاملات السّيئة الجافّة، لأنّ ذلك أفيد في أسلوب التربية والتهذيب، لأن التخليّ قبل التحلّي كما يقول الحكماء. ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع، فأي أدب يجب أن يتحلّى به المؤمنون أمام رسول الله، وأي تشريف لمقام النبوءة ترشد إليه هاتان الآيتان، لأنّ رفع الصوت والجهر به لا يذمّ في كل مقام ولا مع كل شخص، غير أن المستوى الحضاريّ في التربية ينمّي في الإنسان الحسّ المدنيّ في علاقاته الاجتماعية فينـــزل الناس منازلهم.

والحديث إلى الناس أو أمامهم هو المحكّ الذي يمحّص المستوى المدني للإنسان، فقد نهى الله المؤمنين عن رفع الصوت فوق صوت النبي لأن ذلك ينمّ عن عدم التقدير والاحترام أوّلا، ثم نهاهم عن أن يكون حديثهم للرسول مساويا لحديث بعضهم لبعض، لأن التساوي يسقط الكلفة، وقد يجرّ ذلك إلى عدم التوقير والاحترام، وفي عدم التوقير والاحترام لرسول الله حبط للأعمال، قد يؤدي إلى الكفر سيما إذا كان مقرونا بالهزء والاستخفاف.

وبعد ذلك التحذير عن رفع الصوت قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بعد ذلك التحذير يجيء الترغيب اللطيف مؤكدا بـ"إن" للاهتمام بمضمونه معبّرا عن الثناء عليهم لمبادرتهم في الأخذ بهذا الأدب الرفيع الذي يستحقّون الجزاء عليه، فقد وردت روايات تدلّ على مدى إشفاقهم من الوقوع في هذا المحذور. فقال أبو بكر ﷺ: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السّرار. وكان عمر بعد ذلك ما حدث يوما رسول الله فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض.

أمّا قصّة ثابت بن قيس فعجيبة في هذا الباب، إذ كان شديد الصوت من طبعه، فخاف أن يكون قد حبط عمله فيكون من أصحاب النار، فانعزل في بيته مغموما لذلك حتى افتقد رسول الله، ولما علم خبره طمأنه ﷺ قائلا: «**لست منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير**».[1]

فأي أثر تركه في قلوبهم ذلك الإرشاد الإلهي؟، إنّها القلوب المفعمة بالتقوى بعد تمحيص واختيار. وقد علم الله ما في قلوبهم فاستحقّوا هذا الجزاء من المغفرة على ما بدر منهم، فما كان رفع الصوت منهم استخفافا برسول الله -حاشاهم- ولا لعزّة نفس أو كبرياء كما يفعل المنافقون، ولكنها العفوية والسذاجة والطيبة بل هو الحبّ المكين لرسول الله الذي يحملهم -أحيانا- إلى إسقاط الكلفة بحضرته ﷺ مع ما كان يحبوهم به من الحنان والرحمة واللين والإحسان في المعاملة.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

أورد الله هذا المثال للجهر المنهي عنه في الآية السابقة مما صدر من وفد

١- تقدم تخريجه: ص ١١٠.

بني تميم حين قدموا إلى رسول الله سنة تسع للهجرة والتي سميت "بعام الوفود" فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد أخرج إلينا، فإنّ مدحنا زين وذمّنا شين، نحن أكرم العرب. وذلك على عادتهم في المفاخرة والتباهي، وروي أنهم وفدوا إليه في وقت الظهيرة وهو راقد فاستيقظ وخرج إليهم فنزلت، وصف الله أكثرهم بقلة العقل و لم يعمّم الحكم عليهم جميعا، إذ ربما كان فيم من لم يناد، فكأنهم في جفوتهم وغلظتهم هم أدنى إلى صراخ الحيوانات العجماء منهم إلى حكمة الإنسان العاقل أمام من يستحق التقدير والاحترام.

وقد نعى الله رفع الصوت بكيفية منكرة في ما جاء على لسان لقمان الحكيم فقال جلّ من قائل: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان:١٩).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وبما أن خلق الصبر في الإنسان وتوطين النفس عليه هو من أساس المكرمات في التحلّي بالإخلاق الفاضلة كانت مناسبة في هذا المقام أولى من فعل: "انتظروا" مثلا، والصبر خير كله، وهو عدّة المؤمن في كل الأحوال، والخير الذي يحصلون عليه هو شرف التوقير للرسول بعدم إزعاجه في خلوته، وهو الذي لا يحتجب عن الناس إلا عند الانشغال بضروراته القصوى.

ثم إنّ مراعاة هذه الآداب الرفيعة مع كافة الناس تكسب صاحبها قدرا واحتراما في قلوبهم، فما بال علية القوم وساداتهم، وفوق ذلك جلال النبوءة ووقارها، والتذييل بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دون أمرهم بالتوبة ينمّ عن رحمة الله وفضله، إذ لم يحص عليهم ذنبا، وأنهم جروا على عادتهم الجاهلية على قاعدة: من جاء على أصله فلا لوم عليه.

والله أعلم.

في الآداب العامة: وُجوب التثبّت من الأخبار .

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَاسِقٌ﴾: هو المتصف بالفسوق إذا ارتكب منكرا كالكذب واشترط بعضهم أن يعلن ذلك. ﴿بِنَبَإٍ﴾: الخبر الذي تكون له أهمية كبرى. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: من التبيّن، قوة إبانة الشيء بتكلف ذلك. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: لها مفهومان: إما ضدّ الحلم أو ضدّ العلم. ﴿نَادِمِينَ﴾: إظهار الأسف على ارتكاب مخالفة ما. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾: أي يعمل ما تشيرون به عليه وترغبون فيه. ﴿لَعَنِتُّمْ﴾: جواب الشرط "لو" من العنت إما بمعنى الإثم والذنب، وإما الوقوع في أمر شاقّ. ﴿زَيَّنَهُ﴾: زين الشيء من التزيين، أي جعله زينا ضدّ الشين. ﴿الرَّاشِدُونَ﴾: الرشد، الرشاد الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه. ﴿الْعِصْيَانَ﴾: عدم الامتثال والانقياد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: قرأ الجمهور بفوقية فموحدة فتحتية فنون، من التبيّن، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بفوقية فمثلثة فموحدة ففوقية، من التثبّت، واللفظان

متقاربان، فالتبيّن: تطلب البيان وهو ظهور الأمر، والتثبت: التحرّي وتطلب الثبات وهو الصدق.

د)- البيان والتّفسير:

هذا هو النّداء الثالث المحبوب عند المخاطبين، صدّر الله به هذا الإرشاد الكريم في قضية حسّاسة تتعلق بها صدور أحكام على النّاس في علاقاتهم ومعاملاتهم وفي الحقوق المتبادلة، ويكثر فيها التسرّع، والعجلة بدوافع مختلفة تخضع للأهواء -غالبا- وتتحكم فيها المنافع والمصالح عند ضعف الوازع الديني أو غياب الوازع السلطاني.

قال تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾.

وعن سبب النزول هناك روايات تذكر أنّ حادثا وقع بين الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله جابيا لصدقات بني المصطلق فخرجوا إليه تحت السلاح، فهابهم ورجع إلى المدينة يخبر الرسول بأنهم منعوا الزكاة، فهمّ الرسول بتأديبهم لولا أن بعث إليهم خالد بن الوليد ليتثبت من ذلك فوجدهم يقيمون الأذان والصلاة، فأخبرهم بما بلغ رسول الله عنهم وقبض زكاتهم، ولما رجع إلى المدينة علّق رسول الله على هذه الحادثة بقوله: «**التثبت من الله، والعجلة من الشيطان**»[1]. رواه الترمذي بلفظ: «**الأناة من الله**»[2]، لكن الإمام الفخر الرازي علّق على هذه الرواية بقوله: "هذه الرواية ضعيفة، لأن إطلاق لفظ "الفاسق" على الوليد بعيد؛ لأنه توهّم وظن فأخطأ، والمخطئ

١- رواه ابن جرير من حديث قتادة، جامع البيان: ٢٢/٢٨٨.

٢- رواه الترمذي من حديث سعد، كتاب (٢٨) البر والصلة، باب (٦٦) ما جاء في التأني والعجلة، رقم ٢٠١٢: ٤/٣٦٥.

لا يسمّى فاسقا، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المنافقين:٦)".

قلت: أيّا كان سبب النزول فحكم الآية عامّ يقيم مبدأ التمحيص والتحرّي في الأخبار قبل نشرها وإشاعتها؛ لأنّ مصادر الخبر -وإن تعددت أنواعها اليوم- فالعمدة فيها على الإنسان، وهو إمّا أن يكون ثقة لما يشتهر به من صلاح وتقوى فيؤخذ بخبره، وإمّا فاسق بلغ حدّ الاستهتار والمجاهرة بفسقه فلا بدّ في أخذ خبره من التثبت والتمحيص، وإلاّ فإنّ التّسرّع في تصديق الإشاعات يفضي إلى اضطراب ميزان العدل والإنصاف في حقوق الناس ويوقع كثيرا من الأبرياء تحت طائلة القانون، والمؤمن الوفيّ لأخلاقيات الإسلام إذا لم يتحرّ ويتثبت في ما يتداول من الإشاعات فإنه يتحسّر ويندم مما قد يصيب أولئك الأبرياء من أضرار.

وللإمام ابن عاشور ملحظ جيّد في تفسير هذه الآية إذ قال: "وهذا الخطاب الذي اشتمل عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، هو موجّه ابتداء للمؤمنين المخبَّرين (بفتح الباء) كل بحسب أثره مما يبلغ إليه من الأخبار على اختلاف أغراض المخبِرين (بكسر الباء)، ولكن هذا الخطاب لا يترك المخبِرين (بكسر الباء) بمعزل عن المطالبة بهذا التثبتين فيما يتحملونه من الأخبار، ويتوخى سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقات، ولكن هذا تبيّن وتثبت يخالف تبيّن الآخر وتثبته، فهذا تثبت من المتلقي بالتمحيص لما يتلقاه من حكاية أو يطرق سمعه من كلام، والآخر تمييز وتمحيص لحال المعبر".[1]

وقد فرّع الفقهاء عن هذه الآية كثيرا من الأحكام، تطلب من

١- التحرير والتنوير: ٢٦/٢٣٢- ٢٣٣.

مصادرها، غير أنهم متفقون على عدالة أصحاب رسول الله ممن قال فيهم ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

ويستثنى من هذا الحكم عند بعض العلماء، أولئك الذين رأوا الرسول أو زاروه لماما.

أمّا عن الخلاف الفقهي في كون الأصل في الناس العدالة حتى يثبت العكس أم أنّ الأصل في مجهول الحال عدم العدالة حتى يعرف وتثبت عدالته، فأحسب أن روح الآية تؤيّد القول الثاني، لأنّ المناخ الذي يعيش فيه مجتمع ما له تأثير كبير في آراء المجتهدين الأئمة حين يميلون إلى رأي ما.

فهذا سيّدنا عمر ﷺ قد اختلف موقفه في قبول الشهادة فقال مرّة: المسلمون عدول بعضهم عن بعض، ولما بلغه ظهور شهادة الزور رجع فقال: لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول.

وتنكير كلمتي: ﴿فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ في سياق الشرط بـ"إن" يفيد العموم، والفسّاق من الناس تتفاوت درجاتهم في الفسق، كما أن الأنباء تختلف في درجات الخطورة، وبما أن معرفة الناس وتقييم سلوكاتهم شيء صعب، وهو شيء نسبيّ يتفاوت من شخص إلى آخر، فإنّ أسلوب التعميم في الآية الكريمة هو أنسب لأخذ الحيطة والحذر، والتعليل بالندم على الفعل لإمكان إصابة أحد يدعو إلى التثبت والتبيّن أكثر في نوع الأنباء التي تتعلق بها حقوق الغير حتى لا يتساهل فيها سواء من المخبِرين (بكسر الباء) أو المخبَرين (بفتحها) وبذلك تصان حقوق الناس وأعراضهم كما أرشد الله إلى ذلك في قصة الإفك إذ قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور:١٢).

ثم ذكّر الله المؤمنين بوجود رسول الله بينهم ليعظموه ويتقيّدوا بتوجيهاته ولا يتعجلوا فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

عطف الله جملة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ على التشريع السابق في وجوب التثبت والتحرّي في الأخبار. وفعل: "علم" يفيد اليقين، وهذا العطف يدلّ على الاهتمام بما يتضمنه التركيب الذي تعدّى إليه الفعل من "أن" واسمها وخبرها المقدم.

فالإخبار بشيء معلوم لديهم بالمعايشة والواقع إنما المقصود منه هو تحفيزهم وتحسيسهم بما قد يغفلون عنه، فلا يولونه من الاهتمام والتقدير ما يلزم، فالذين عايشوا تلك الفترة الوضيئة بأنوار النبوءة، وعاينوا شخص الرسول الكريم وهو بين ظهرانيهم نور وهدى يمشي على رجلين ربما يغفلون -أحيانا- عن هذه الحقيقة سيما عندما تندّ رغباتهم وهم يريدون أمرا فلا يقدرون عاقبته، ومن ثم جاء هذا التنبيه للمؤمنين بذلك الأسلوب المؤكّد ليستصحبوا في أنفسهم تصوّر هذه الحقيقة، لأن المعاشرة حجاب، كما يقول الحكماء. ويستروح من تركيب النّصّ أن من المؤمنين من تعجّل في الحكم ورغب من الرسول أن يتخذ موقفا من قوم بني المصطلق بمجرّد سماع الخبر غيرة على الدين. ولئن كان النداء لجميع المؤمنين في أول الآية فإن المخاطبين فيها يتوزعون على فريقين:

أ)- فريق يرغب في إطاعة الرسول لهم في بعض الأمور يحذرهم الله من العنت الذي يقعون فيه من جرّاء ذلك. ويرشدهم إلى الإذعان لتدبير الرسول والرجوع إليه لأنه لا يتصرف إلا بوحي من الله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ

تَعْلَمُونَ﴾ (النور:٢٣٢). والرسول في مثل تلك المواقف يعزّ عليه أن يتحمّل المسلمون العنت والمشقة كما قال تعالى في شأنه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ب)- والفريق الثاني مذعن منقاد؛ لأن الإيمان متغلغل في قلبه وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾.

يقول الإمام الرازي في اختلاف صفة المؤمنين المخاطبين في هذه الآية: "ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ خطابا مع بعض المؤمنين غير المخاطبين بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾"، قال الزمخشري: اكتفى بالتغاير في الصفة واختصر ولم يقل: حبّب إلى بعضكم الإيمان، وقال أيضا: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾، دون: أطاعكم، يدل على أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ودوام النبي ﷺ على العمل باستصوابهم. ﴿وَلَكِنَّ﴾ يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها، وهاهنا كذلك، وإن لم تحصل المخالفة بتصريح اللفظ، لأن اختلاف المخاطبين في الوصف يدلنا على ذلك، لأن المخاطبين أوّلا بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ هم الذين أرادوا أن يكون النبي يعمل بمرادهم، والمخاطبين بقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبي ﷺ. هذا ما قاله الزمخشري واختاره، وهو حسن".[1]

قلت: إن الله تعالى -وهو خالق هذا الإنسان- قد كشف في وحيه الكريم عن كثير من الصفات النفسية للإنسان فقال عنه أنه ظلوم جهول، جحود كنود، هلوع جزوع، منوع، وقال عنه في سورة الإسراء: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (١١). وقال في سورة الأنبياء: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧). غير

١- مفاتيح الغيب: ٢٨/١٢٢.

أن المؤمن القويّ في إيمانه يكون متوازنا في تصرفاته فلا تندّ به الطبيعة البشرية إلى الغلوّ والشطط، بل هو كما قال عنه رسول الله: «**المؤمن بخير على كلّ حال**».[1]

ومن ثمّ كان من طبيعة الأشياء في أتباع دعوة ما أو مستشار زعيم ما أن تختلف رغباتهم ومشاربهم بين رزانة واعتدال أو طفرة واستعجال.

ورسول الله ﷺ مع أصحابه لم يخرجوا عن هذه القاعدة الاجتماعية، فكان بعض الأصحاب قليلي التبصّر في العواقب وهم يذهلون -أحيانا- عما هم فيه من خصوصية عظمى بوجود رسول الله بين ظهرانيهم،ومن ثم فهم في فورة الاستعجال قد ينسون تلك الحقيقة العظمى.

وهل أقوى إيمانا وأصدق حبّا ووفاء لرسول الله من عمر بن الخطاب ﷺ ومع ذلك فقد ندّ به الإستعجال في موقفه من رسول الله يوم الحديبية حتى أخذ أبو بكر ﷺ يذكّره ويخفف من حدته بقوله: "ويحك إنه رسول فاستمسك بغرزه". ثم ما وقع في غزوة حنين من موقف بعض الأنصار حين قسّم الرسول الغنائم فأعطى منها بعض المؤلفة قلوبهم، فرأى أولئك الأنصار أنهم لم يستوفوا حقهم من تلك الغنائم فوجدت نفوسهم لذلك حتى قام رسول الله يستلطفهم ويقنعهم بمقصوده فقال لهم في ما قال: "يا معشر الأنصار: أوجدتم في أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا".

١- رواه النسائي في السنن الكبرى، من حديث ابن عباس، كتاب (٢٣) الجنائز، باب (١٣) في البكاء على الميت، رقم ١٩٧٠: ١/٦٠٥.

﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: ما أنسب موقع هذا الاستدراك بـ"لكن"، فإن الاستعجال في الحصول على المرغوب دون مراعاة ما يرضي الله ورسوله قد يفضي إلى العنت، وقد يجرّ إلى الفسوق والعصيان، ولكن الله بفضله ومنّته عليكم حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم، واختير أسلوب الخبر وصيغة الماضي للدلالة على أن ذلك أمر واقع، وأنه من إرادة الله في أن يغمركم بفضله ونعمته علما منه بما يصلح لكم وحكمته في ما يختاره لكم. ويا له من فضل.

ويا لها من نعمة حين ينشرح صدر الإنسان إلى الإيمان وهو يحسّ بجماله ويتذوق حلاوته، ثم هو يكره أن يعود إلى الكفر والفسوق كما يكره أن يقذف في النار كما ورد في الحديث الشريف: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

وأية عاطفة هي أقوى وأصدق من عاطفة الحبّ والكره؟، غير أن مصداقيتها وفعاليتها تكون وفق متعلقها شرفا وقدرا أو حطة وشرّا.

وفي الآية ترغيب وتحسيس لمراعاة مقتضيات الإيمان وتحذير من مغبّة الفسوق والعصيان، والذين يجدون في قلوبهم تلك العاطفة هم الراشدون الموفقون وهم المحظوظون بفضل الله ورحمته.

فليجتهد من ضعفت فيه عاطفة الإيمان أن يلتحق بالركب على سبيل الهدى والرشاد، والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب (٢) الإيمان، باب (٨) حلاوة الإيمان، رقم ١٦: ١/١٤.

الأخوّة الإيمانية، وكيفية الفصل في المنازعات الداخلية.

أ) - النصّ:

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿طَآئِفَتَانِ﴾: الطائفة: الجماعة من الناس، وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٢). قال: الواحد فما فوق، والطائفة من الشيء القطعة منه. ﴿إِن﴾: حرف شرط يخلص الماضي للاستقبال وارتفع: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ بفعل مضمر يفسره قوله: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، وجواب الشرط قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ويعود ضمير: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ على ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ باعتبار المعنى للطائفة. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾: من البغي، وهو التطاول والفساد بحيث تجاوزت الحدّ في الظلم. ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾: أي ترجع إلى الحق و﴿حَتَّى﴾ للغاية، أي يستمرّ قتالها إلى غاية رجوعها إلى أحكام شريعة الله. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾: أي يكون التصالح بالتراضي وإنصاف حق المظلوم. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾: أي اعدلوا برفع الظلم والجور، لأن قسط بمعنى: جار، وأقسط بمعنى: عدل، قال تعالى: ﴿قائما بالقسط﴾. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، أوثرت صيغة التثنية: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بدل: إخوتكم، مراعاة لكون الكلام جاريا على طائفتين، فجعلت كل طائفة كالأخ للأخوين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: قرأ الجمهور بلفظ تثنية الأخ على تشبيه كل طائفة بأخ للأخرى. وقرأ يعقوب: ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾ بتاء فوقية بعد الواو، على أنه جمع "أخ" باعتبار كلّ فرد من الطائفتين.

د)- البيان والتفسير:

ذكر المفسّرون عدّة روايات تحكي عن بعض الخصومات وقعت بين أفراد من الأوس والخزرج أو بين طائفتين، تفضي الملاحاة بينها -أحيانا- إلى التشابك بالأيدي والنعال وحتى بالسلاح -أحيانا-، وأخص ما قيل في ذلك هو ما رواه ابن جرير عن الحسن قال: كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعون إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله: ﴿**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُومِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ**﴾.[1]

لا نعجب أن تقع مثل تلك الخصومات في مجتمع فاضل من صحابة رسول الله ﷺ؛ لأن الإنسان مجبول على العجلة -كما تقدم-، فما يزال تدافع الناس واختلافهم هو المحرّك الأساسي في استمرار العمران البشري، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١).

وكان فضل الله على ذلك المجتمع الممتاز أنه سريع الاستجابة لداعي الله والرسول، نزّاع إلى الخير ميّال للفضيلة عندما تعترضه المشاكل وتقدم له الحلول، والإسلام يعتمد في منهجه التربوي على مبدأ الوقاية ثم يقدم العلاج

١- جامع البيان: ٢٢/٢٩٤.

الشافي للحالة المرضية.

فبعد أن حذّر الله المؤمنين من الاغترار بنبإ الفاسق وأمرهم بحسن التبيّن والتبصّر، وقد ينفلت الزمام من أيديهم فيقعون في المحذور بإشعال نار الفتنة. والشاعر العربيّ يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أوّلها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهَام

وعندما يتعطل منطق العقل وتتأجج العواطف فإن الفتنة عمياء لا تبقي ولا تذر، وتفضي -أحيانا- إلى البغي والطغيان حين يصبح السلاح هو الحكم. وليس إلا الإيمان القويّ عاصما من الانزلاقات الخطيرة، ومن مقتضياته التكافل بين المؤمنين.

والتقاتل بين المتخاصمين -وإن كان شديد الوطأة عليهم- فهو لا ينفي صفة الإيمان، والصلح خير، وهو سيّد الأحكام، وظاهر النصّ أن محاولة الصلح بين الطائفتين تكون بعد التقاتل، وذلك على خلاف قاعدة: "الوقاية خير من العلاج"، غير أن الإمام ابن عاشور حسم هذه الإشكالية بالتحليل اللّغوي للعبارة. إذ قال: "والوجه أن يكون فعل: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ مستعملا في إرادة الوقوع مثل: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُم﴾ (المائدة:٦). ومثل: ﴿وَالذِينَ يَظُهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ (المجادلة:٣). أي يريدون العود، لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال، وذلك عند ظهور بوادره، ثم قال: "وبذلك يظهر وجه تفريع قوله: ﴿فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾، على جملة: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، أي فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا

الباغية".[١]

إنّ واجب الصّلح منوط بالطائفة المؤمنة المحايدة، وهو منوط بالإمام عند قيام الدولة الإسلامية سيما إذا أفضى الأمر إلى قتال الفئة الباغية.

وإذا تعذر الصلح بين الطائفتين وأفضى التّعنّت إلى البغي من إحدى الطائفتين، وقد يكون من كليتهما باعتبار جانب من جوانب شروط الصلح، فقد أمر الله المؤمنين بقتال الطائفة الباغية حتى تذعن إلى أمر الله ولكن ما هو ضابط البغي الذي بمُوجبه يقاتل المؤمنون إحدى الطائفتين؟.

وفي تحديد ذلك الضابط اختلف العلماء بين الإفراط والتفريط، وبين التيسير والتشديد.

ويلخص الإمام ابن عاشور بعض الضوابط بقوله: "ويتحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أن الفئة بغت على الأخرى أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور، ولم تخش من عصيانه فتنة، لأن ضرّ الفتنة أشدّ من شدّ الجور في غير إضاعة المصالح العامّة من مصالح المسلمين، وذلك لأن الخروج عن طاعة الخليفة بغي على الجماعة الذين مع الخليفة".[٢]

قلت: حبّذا لو أنّ هذه الضوابط كانت محلّ اتّفاق بين الطوائف الإسلامية، إذن لكفيت الأمة شرّا مستطيرا ذهب بآلاف الضحايا قديما وحديثا، ومرجع الخلاف هو في مبدأ الحكم السياسي في الإسلام ومرتكزه في شروط الإمامة، ولعلّ الأحداث العالمية اليوم والتغيّرات الجذرية في أساليب الحكم وأنماطه كفيلة بفض هذا المشكل الذي ما يزال مطروحا في كثير من

١- التحرير والتنوير: ٢٦/٢٣٩.

٢- المصدر نفسه: ٢٦/٢٤٠.

البلدان الإسلامية.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي يجب أن يستمرّ قتال المؤمنين للفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو الإذعان إلى أحكام شريعته الغرّاء في الحقوق والواجبات.

وتفاديا من الانحياز وغلبة الهوى فإن الله أتبع أمر القتال بأمره بالعدل والإنصاف في الإصلاح بين الطائفتين قطعا لدابر الفتنة في تلك القضية المتنازع عليها، وأردف ذلك بقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، تأكيدا للعدل الخاصّ بعدل عامّ يتوخّاه المؤمنون في كلّ علاقاتهم ومعاملاتهم للفريقين، حتى لا يشعروا بأحاسيس الغالب والمغلوب، لأنّ انكسار الخواطر وكوامن الشحناء والبغضاء لا يعفّى عليها إلا بالعودة إلى رفرف الإيمان واللياذ إلى من له بحقّ العزّة والسلطان، وهو الذي قضى بالأخوّة الإيمانية فقال: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾.

وعندما يتقوّى الشعور الإيماني في مجتمع ما فإنّ بواعث الشّقاق تضعف وتزول، وعندما تندّ فيه بعض البواعث -وذلك من سنن الله في خلقه- فإنّ التكافل والتعاون بين المؤمنين يفرض عليهم حتما الإسراع إلى إصلاح ذات البين، وقد تقررت بحكم الله في هذه الآية الكريمة الأخوّة الإيمانية التي هي أقوى من رابطة النسب حين يكون حبّ الله ورسوله هو أشدّ الحبّ عند المؤمنين كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(البقرة:١٦٥). حتى قال قائلهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميـــم

وقد أكّد الله تلك الأخوّة بقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، والعدول إلى الظاهر موضع الضمير هو لزيادة تقرير معنى الأخوّة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وأية رحمة هي أعظم من رحمة الأمن والعافية، ومن تبادل الثقة والاحترام بين أفراد المجتمع، تلك الرحمة التي وصف الله بها أصحاب رسول الله في ما تقدم من سورة الفتح.

والتقوى هي ملاك الأمر في تصرفات المؤمن، تجعله متوازنا في مواقفه وفي كل أحواله، وأعظم رحمة يكون عليها المجتمع المسلم هي التي توفّر عليه الأمن والاستقرار وتشحذ طاقاته لتحقيق الرفاهية والرّخاء والازدهار، والله أعلم.

آداب حسن المعاملة بين أفراد المجتمع المسلم.

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾: السخرية الاستهزاء، يقال: سخرت منه، أسخر سَخرا أو سُخرا، ويقال: هزأت منه وهزأت به. ﴿قَوْمٌ﴾: القوم: اسم جمع، وهو خاصّ بالرجال، وقد يدخل فيه النساء تغليبا أو مجازا. ﴿تَلْمِزُوا﴾: اللمز: اختلف اللغويون في تحديد معنى الهمز واللمز، فقال الطبري: اللّمز باليد والعين واللسان والإشارة،

والهمز لا يكون إلا باللسان، وزاد بعضهم فقال: اللمز هو ذكر عيب أحد مواجهة، أي مباشرة في وجهه. ﴿تَنَابَزُوا﴾: والنبز هو لقب السوء، وجمعه: الأنباز قال الشاعر:

أكنّه حين أناديه لأكرمه ولا ألقّبه، والسّوأة اللّقب

فاللقب قد يشعر بالخسّة كأنف الناقة، وقد يشعر بالشرف كتاج الدين.

﴿الظَّنِّ﴾: ما يحصل في خاطر الإنسان نحو شخص أو شيء في الحكم له أو عليه، وهو إما مذموم أو محمود. فالمحمود: ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه، والمذموم ما كان ضدّ ذلك. ﴿اجْتَنِبُوا﴾: من الاجتناب، وهو الابتعاد عن الشيء بحيث تكون منه في جانب آخر قال تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ (القصص:١١). أي من بعيد، وقال الشاعر:

وإذا رأوني مقبلا عن جنابة يقولون: مَن هذا؟، وقد عرفوني

﴿تَجَسَّسُوا﴾: التجسّس: البحث بوسيلة خفية عما هو مكتوم عنك والتحسّس: "بالحاء" هو طلب الأخبار والبحث عنها. ﴿يَغْتَب﴾: من الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره وإن ذكرته بما ليس فيه فهو: بهتان.

ج- البيان والتّفسير:

هذا نداء رابع يتضمّن الإرشاد الإلهي لما ينبغي أن يكون عليه المسلم مع أخيه المسلم من حسن معاملة تقتضيها الأخوة الإسلامية، التي أشاد الله بها في الآية السابقة وأحاطها بسياج من الوفاق والصلح، وهي منازل عليا تتطلب حسّا اجتماعيا مرهفا يدرأ عن الجماعة كل أسباب المهاترات ودواعي التلاحي والتنافر.

قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ

﴿يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ذكر المفسّرون عدّة روايات لسبب النزول، فقيل: إنّ بني تميم قد سخروا من بعض الصحابة الضّعاف كعمّار وبلال وصهيب، وذلك عند وفادتهم إلى رسول الله وندائهم من وراء الحجرات، وما تزال فيهم الشنشنة الجاهلية، أما ابن عباس فروى أنها نزلت في ثابت بن قيس عندما تخطّى رقاب الناس في مجلس الرسول، ليوسّعوا له إلى جانبه إذ كان ثقيل السمع، و لم يفسح له رجل كان بينه وبين رسول الله، فجلس ثابت من خلفه مغضبا، ثم سأل عن الرجل فقيل له: فلان، فقال ثابت ابن فلانة، وذكر أمّا له كان يعيّر بها في الجاهلية، فاستحيا الرجل فنزلت. وقيل: نزلت لما عيّرت بعض أزواج النبي أمّ سلمة بالقصر، وصفية بنت حيي باليهودية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[1]

ونلاحظ تناسبا عجيبا بين هذه الإرشادات ووجوب إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، والسعي إلى الصلح بين المتقاتلين، وذلك بالنهي في هذه الآية الكريمة وما يتلوها من أسباب التوتّر والخلاف، ودواعي التنابذ والكره.

والأخوة الإيمانية في المجتمع المسلم هي السياج الواقي وجهاز المناعة في جسم الأمّة، لأن للجاهلية رواسبها في مجال العلاقات الاجتماعية يجب القضاء عليها، ولذا جاءت تلك الإرشادات الربانية بأسلوب النهي الصارم مع التعليل الحكيم بعدم الاغترار بالمظاهر وسوء التقدير للمفاهيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونُوا

١- أنظر: الطبري، جامع البيان: ٢٢/٢٩٨، وما بعدها.

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾:

واختيار كلمة: ﴿قَوْمٌ﴾ مع تنكيرها في مقام النهي عن السخرية هو لاعتبار ما كان شائعا عند الجاهليين من الملاحاة الجماعية بمثل هذه الأمور المنهي عنها، وهو يشمل النساء بطريق التغليب، وخصّصهن الله بالذكر في الآية لغلبة هذه الصفة عليهن أكثر، ولأنّ المرأة أكثر حبّا لذاتها حريصة على أن تكون أكثر فتنة من غيرها في أعين الرجال، فهي بذلك تصطاد المعايب لكل امرأة تعتقد أنها تنافسها في الجمال، والنساء أكثر شغفا بالقيل والقال، وجملة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، تعليل للنهي يشمل عموم الأحوال للناس أفرادا كانوا أم جماعات.

ولما كان دافع السخرية عند الساخر هو الخطأ في تقدير قيمة نفسه وقيمة غيره، جاء التعليل لتصحيح ذلك الخطأ بأن لا يغتر الإنسان بالصور والأشكال، لأن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأعمال الظاهرية، ولكن ينظر إلى ما في القلوب، كما قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه**».[1]

وكما قال الشاعر الحكيم:

لا تحتقر كيد الضعيف، فإنما أرقى الكواكب ما استبان ضئيلا

وقال آخر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾: نهى الله المؤمنين عن اللمز، وهو أن تعيب أحدا مواجهة بما يكره، ولذلك أساليب مختلفة كما قال الطبري: فيكون باليد

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة، رقم ٧٩٣٢: ٣٦٤/٤.

وبالعين واللسان وبالإشارة تعاظما وكبرياء، والقرآن يضفي هذه الصفة الخسيسة على الأثرياء الكبراء المتغطرسين فيقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة:١-٣). وقال في سورة القلم: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ، أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٠- ١٤).

فإذا كان المال أكثر فتنة للناس كما ورد في القرآن الكريم فإن الحظوظ الدنيوية الأخرى لا تقلّ فتنة لبعض الناس، يحتقرون من دونهم في المنصب والجاه والحظوة.

وهذه الأخلاق الدنيئة لا تجد مرتعا خصبا لها إلا عند الجماعات المتخلفة حيث تسود الروح الانفرادية عند أغلب الناس، ولذا جاء التعبير القرآني بما يبعث على الروح الجماعية في المجتمع المسلم، إذ جعل لمز النفس الواحدة فيه لمزا لنفوس المؤمنين جميعا تأكيدا لمعنى الأخوّة الإسلامية.

﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾: التنابز بالألقاب عادة جارية بين الناس قديما وحديثا، ومنها ما يسوء ويغيظ، وإن كان المنبوز قد رضي بالأمر الواقع.

والإسلام يحافظ على كرامة كل إنسان برفع العلاقات الإنسانية والاجتماعية إلى المستوى الحضاري الرفيع، ومن الألقاب ما يدلّ على الشرف والرفعة، والنهي بلفظ "التنابز" ينصبّ على الألقاب التي تشعر بالخسّة والمهانة وتسوء المنبوزين، ولذا فلا حرج في الألقاب التي اشتهر بها أصحابها بحيث لا تسوء أحدهم كما لقب سيّدنا عثمان ﷺ بذي النورين، وخالد بن الوليد بسيف الله، وسيّدنا عمر بالفاروق.

﴿بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾: الأرجح أن يكون هذا التذييل لكل المنهيات المتقدّمة بأنّها كلّها مذمومة عند الله، وإنها فسوق عن الصراط

السّويّ، وظلم للغير في حقه وكرامته، وقيل المعنى: بئس أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان قال ابن عبّاس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يعيّر بما سلف، ويدلّ عليه ما روى أنّ النبي ﷺ قال: «**من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله**».[1]

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: والتوبة لا تكون إلا من معصية، وقصر الظلم على مرتكب هذه المعصية دليل على فظاعتها يقول الرسول: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب المرء من الظلم أن يحقر أخاه المسلم**».[2]

ومهما يكن حجم المعصية فإنّ التوبة إلى الله بصدق هي البلسم الشافي الذي يزيل آثار الظلم في نفس الظالم بالإنصاف والاعتراف، ومن نفس المظلوم بالكف عما يغيظه ويسيئه، ومن تاب كمن لا ذنب له.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

نتساءل لم أعيد النداء للذين آمنوا، والسياق ما يزال ينهى عن الآفات التي تعكّر صفو العلاقات الاجتماعية؟. ويبدو لي -والله أعلم- أنّ خاطرة الظّنّ هي من الآفات النفسية الخفية التي تدفع إلى الآفات الظاهرة على الحواس إذا لم يجتنبها صاحبها بحمل نفسه على حسن الظّن وطيّب الاحتمال، كما

١- رواه الترمذي، كتاب (٣٨) صفة القيامة، باب (٥٣)، رقم ٢٥٠٥: ٦٦١/٤. قال أحمد بن منيع (راوي الحديث عند الترمذي): من ذنب قد تاب منه.

٢- رواه الترمذي من حديث سالم عن أبيه، كتاب (١٥) الحدود، باب (٣) الستر على المسلم، رقم ١٤٢٦: ٣٤/٤.

قال الله تعالى في حديث الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور:١٢).

ولما كان الظن خاطرة قلبية قد تميل بصاحبها إلى اتهام غيره والتجسّس عليه واغتيابه، صدر الله النهي بالنداء المحبوب لدى المؤمنين، وذيّلت المنهيات الثلاثة بالأمر بالتقوى لمزيد من الاهتمام البالغ في التحذير من هذا المنزلق الخطير.

والرواية التي ذكرها المفسّرون على أنها سبب للنزول نجدها قد جمعت المنهيات الثلاثة: سوء الظن، والتجسّس، والاغتياب.

وملخّصها أنّ رسول الله ﷺ قد ضمّ سلمان الفارسي إلى رجلين موسرين ليخدمهما في سفر، فلم يهيئ لهما طعاما لغلبة النوم عليه، فأمراه بالذهاب إلى النبي ليلتمس عنده طعاما وإداما، فأحاله النبي إلى أسامة بن زيد خازنه، وعندما رجع إلى صاحبيه بخفي حنين ظن الرجلان أن أسامة قد بخل، فبعثاه إلى بعض الصحابة فلم يجد عندهم شيئا، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسّسان على أسامة فرآهما النبي فقال: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟. فلما نفيا أنهما أكلا لحما قال لهما الرسول: ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة، فنزلت الآية.[1]

ومهما تكن تفاصيل الحادثة فإنّ الله قدّر أن تجري مثل هذه الحوادث حتى في مثل ذلك المجتمع الفاضل من خيرة أصحاب رسول الله لتكون سببا لتشريع الأحكام وهم القدوة الحسنة للأمة من بعدهم.

يقول الدكتور الشرباصي في تعريف الظّنّ: "إنّ الظّنّ ما يحصل عن أمارة، وهو بهذا شك، ولكنه قد يلحقه تدبّر فيصير ضربا من اليقين، ولكنّه

١- أورده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣٣٠.

دون يقين المعاينة، وقد تضعف الإمارة فيكون الظّنّ توهّما، وفي هذه الحالة يكون الظن مذموما، ثم يقول: والظن الحسن هو تغليب جانب الخير على جانب الشرّ، وتجنب المسارعة بالاتهام دون برهان".[1]

والآية الكريمة لا تنهى عن مجرّد الظن، لأن ذلك أمر متعسّر، ولكنها تحرّض المؤمنين على اجتناب كثير من الظن، ولم تذكر متعلق الظن ليشمل كل أنواع الظنون الآثمة، وهي ما يتعلق بأحوال الناس، وحتى يبقى المؤمن سليم القلب طيّب النفس يجب عليه أن يتمحص ويتثبت في الأمارات التي تبعث على الظن أهي صادقة أم كاذبة؟. وذلك ما عناه الرسول بقوله: «**إذا ظننت فلا تحقّق**»[2]، كما حذر المؤمنين من الوقوع في وسوسته فقال: «**إياكم والظّنّ، فإنّ الظّنّ أكذب الحديث**».[3]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، يدلّ على أن بعض الظّن ليس فيه إثم، ولذا قال بعض العلماء: "إنّ الظّنّ القبيح بمن ظاهره القبح"، غير أنّ الرجل الصالح أو العالم التقي، بل كل من كانت له منـــزلة مرموقة بين الناس يجب على هؤلاء الاحتراز من التهمة والابتعاد عن مواطن الشبهة، فإنّ غلطة الأمير بلقاء مشهورة كما يقول المثل، وهذا رسول الله يعلّم أمّته كيف يجب أن تحترز من التهم، فقد روت زوجته صفية بنت حيي، أنّ النبي كان معتكفا في المسجد فذهبت إليه وتحدثت معه، فلما أمست انصرفت، فقام رسول الله يمشي معها، فمرّ بهما رجلان من الأنصار، فسلّما وانصرفا فناداهما النبي وقال: إنها صفيّة بنت حيي، فقالا: يا رسول الله، ما نظنّ بك إلا خيرا، فقال

١- أخلاق القرآن: ٤/٤٤٢.

٢- رواه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان، المعجم الكبير، رقم ٣٢٢٧: ٣/٢٢٨.

٣- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب (٢٨) البر والصلة، باب (٥٦) ما جاء في ظن السوء، رقم ١٩٨٨: ٤/٣٥٦.

الرسول: «**إنّ الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم في الجسد، فخفت أن يقذف في قلبيكما**».[١]

فإذا قال الحكماء: الزّقّ يرشح بما فيه، فإنّ هذه القاعدة تنطبق على أكثر الناس في هذا الموضوع، لأنهم -غالبا- ما يقيسون غيرهم بما في بواطنهم إن خيرا أو شرّا، فخبيث الباطن لا تراه إلا سيّئ الظن بغيره، وهو إذ يمشي في الناس بقاذوراته يفاخر بها يسعى إلى تكثير رفاقه حتى تعمّ البلوى، يقول المتنبيّ:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم
وعادى محبّيه لقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

فإذا كان الحذر مطلوبا من المسلم كما أمره الله فإن تغليب حسن الظن بالناس في الأوساط الموبوءة قد تسبّب للإنسان مشاكل كثيرة إذ يؤتى الحذر من مأمنه وفي الحديث: «**احتجزوا من النّاس بسوء الظّنّ**».[٢]

أمّا حسن الظن بالخالق تعالى فهو من كمال الإيمان لما جاء في الحديث القدسي: «**أنا عند ظنّ عبدي بي**»[٣]، ولا يظن بالله سوءا إلا الكافرون والمنافقون، يقول تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح: ٦).

---

١ - رواه البخاري بنحوه من حديث صفية، كتاب (٦٣) بدء الخلق، باب (١١) صفة إبليس وجنوده، رقم ٣١٠٧: ٣/١٩٩٥.

٢ - رواه الطبراني من حديث أنس، المعجم الأوسط، رقم ٥٩٨: ١/١٨٩.

٣ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (١٠٠) التوحيد، باب (١٥) قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، رقم ٦٩٧٠: ٦/٢٦٩٤.

﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّـتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾:

وفيه قراءة بـ"الحاء": ﴿ولا تحسّسوا﴾، وهما قرينان في المعنى، وقد جمعهما الرسول في حديث: «**إيّاكم والظن فإنّ الظّنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا**».[1]

وقد فرّق اللغويون بينهما بقولهم: التجسّس هو البحث عما هو مكتوم بطرق خفية، والتحسّس -بالحاء- هو تسقّط الأخبار والبحث عنها، والواقع إنّ الدافع لذلك هو سوء الظن سيما إذا تمكّن من النفس، فإنّ صاحبها لا يهدأ له بال وقد طغى عليه الوهم والشّكّ، فلا ينفك عن تتبع عورات الناس والتماس عيوبهم. والجاسوس لا يكتفي بمعرفة ذلك لنفسه بل يفعل ذلك لغيره كما أصبح ذلك متعارفا عليه لدى الأمم.

فالآية الكريمة تنهى عن كشف عورات الناس وتتبع سقطاتهم في زواياهم وخباياهم، فهذا رسول الله المؤيّد بالوحي تعامل مع المنافقين بحسب ظواهرهم بين جماعة المسلمين، وكان من توجيهاته ﷺ الدعوة إلى التصوّن والتستر. كما في حديث: «**لا يستر الله على عبد في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة**».[2]

وفي حديث آخر: «**لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ولا تطلبوا**

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨١) الأدب، باب (٥٧) ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٥٧١٧: ٥/ ٢٢٥٢.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٥) البر والصلة، باب (٢١) بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة، رقم ٢٥٩٠: ٤/٢٠٠٢.

عوراتهم، فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».[1]

ولسيّدنا عمر ﷺ أيام خلافته قصص مع كثير من الأصحاب تجسّس عليهم من شدة حرصه على أمور الرعية، ولكن هؤلاء ألزموه الحجة بهذه الآية الكريمة، من ذلك أنّه حدث أن أبا محجن الثقفي كان يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلاّ رجل، فقال أبو محجن: إنّ هذا لا يحلّ لك، فقد نهاك الله عن التجسّس، فخرج عمر وتركه.

وجدير بالملاحظة في هذا المقام أنّ التجسّس المنهي عنه هو الذي يضرّ المسلمين فردا أو جماعة، أمّا ما هو ضروريّ لدرء الأخطار عنهم مما يكيد به أعداؤهم فلا يشمله هذا النهي، إذ كان النّبيّ يبثّ عيونه للاطلاّع على تحرّكات العدوّ، ومن هذا النوع الجائز لضمان أمن المجتمع تعقب قوات الأمن لجماعات المجرمين.

قال تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّـتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، نهى الله عن الاغتياب، وهو أن تذكر أحدا في غيبته بما لا يحبّ أن يذكر به، والاسم منه الغيبة، وفرّق بعض العلماء بين الغيبة والإفك والبهتان وكلها ورد في كتاب الله، فقالوا: الغيبة: أن تقول في أخيك ما هو فيه. والإفك: أن تقول فيه ما بلغك عنه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه.

وجاء التعبير: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، ليكون شاملا، ولم يقل في

---

١ - رواه أبو داود من حديث أنس، كتاب (٤٠) الأدب، باب (٣٥) في الغيبة، رقم ٤٨٨٠: ٦٨٦/٢.

هذا النهي: لا تغتابوا أنفسكم، كما تقدم في اللمز، وقد علّله الإمام الرازي بقوله: "وأمّا من اغتاب، فالمغتاب أولا يعلم عيبه، فلا يحمل فعله على أن يغتابه، فلم يقل: ولا تغتابوا أنفسكم، لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه، والعيب حامل على العيب".[1]

قلت: إن اختيار البعضية المشتركة: ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، مع ذكر الأخوّة في التشبيه اللاحق يوحي بوجوب مراعاة حق هذه الأخوّة التي أحاطها الإسلام بسياج من الكرامة، والتقدير: فلا تدنس بما يخدش كرامتها، ففي هذا التشبيه التمثيلي بُعد الشبه، وهو اغتياب البعض للبعض يقابله في المتشبه به أكل الأخ للحم أخيه الميّت، فإذا كان أكل اللحم الآدمّي فظيعا لا يرتكبه عاقل سليم الفطرة، فهو أفظع وأشدّ وحشية إذا كان المأكول لحمه أخاك الميّت، ولذا عقب الله على هذا التشبيه بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي إذا حصلت عندكم الكراهة بأكل لحم أخيكم الميّت فاكرهوا غيبة الناس، وقال المفسّرون: "إنّ اللفظ وإن جاء على صيغة الخبر فهو في المعنى أمر، وما أبلغ الاستفهام التقريري في أول الخبر: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُم﴾، يمهّد للجواب في آخره بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، ثمّ يأتي الأمر بالتقوى معطوفا على قوله: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ ليتناول المنهيات الثلاثة، وهي مفتتحة بالنداء الإيماني للمجتمع المسلم، وختمه بأمره بتقوى الله التي تدفعه إلى التوبة والاستغفار كلما بدرت منه بادرة بإحدى تلك المنهيات.

ولعلماء الأمة خلاف في حكم الغيبة، أهي من الكبائر أم من الصغائر؟. بل هي من الكبائر عند أغلب علماء الأمة، ومنهم علماء الإباضية، وفرّعوا عن ذلك الاختلاف كيفية التوبة من ذلك الذنب؟. أيجب فيه استحلال المغتاب بعد التوبة إلى الله أم لا؟. فمن قائل بوجوب الاستحلال، ومن قائل

١- مفاتيح الغيب: ٢٨/١٣٤.

بعدم وجوبه لأنها خطيئة بينه وبين ربّه، ولأن المظلمة لا تكون إلا في البدن والمال، ومن قائل إن كفارة ذلك أن يستغفر لصاحبه الذي اغتابه.

والأرجح أنها مظلمة يجب أن يتحللها لقوله ﷺ: «**من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال فليتحلّله منه من قبل أن يأتي يوم ليس فيه دينار ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئاته صاحبه فزيد على سيئاته**».[1]

وليست الغيبة محرّمة في كلّ حالة ولجميع الناس، إذ فصّل علماء الأمة بعض الأحوال والأشخاص لا تحرم الغيبة معهم، منها:

أ)- التظلّم: وهو أن يشكو المظلوم لمن يظن أنه في مقدوره أن يزيل ظلامته لقوله تعالى: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ (النساء:١٤٨).

ويقول عليه السلام: «**لصاحب الحق مقال**»[2]. ويقول: «لَيّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته».

ب)- المغيّر لمنكر يستعين بمن يظنّ قدرته على إزالته فيذكر له ذلك المنكر.

ج)- التشهير بالفاسق المجاهر والمتباهي كما جاء في الأثر: "اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس".

د)- المستفتي يذكر لمفتيه ما يعينه على الإفتاء الصحيح كما فعلته هند

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٥١) المظالم، باب (١١) من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته، رقم ٢٣١٧: ٢/٨٦٥.

٢- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٥) الوكالة، باب (٦) الوكالة في قضاء الديون، رقم ٢١٨٣: ٢/٨٠٩.

بنت عتبة مع رسول الله حين وصفت زوجها أبا سفيان بالشّح فرخص لها أن تأخذ من ماله بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف.[١]

ومن هذا الباب ما يكون من الاستشارة إذا كان في ذكر المغتاب بالسوء فائدة، كما أشار رسول الله لفاطمة بنت قيس حين خطبت للزواج فقال لها ﷺ: «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**».[٢]

هـ)- ما يكون لتجريح الشهود والرواة ومن إليهم كرجال الإعلام حتى لا يغترّ المسلمون بهم. وأخيرا يقول الإمام ابن عاشور في عموم البلوى بالغيبة كما هو شأن الناس اليوم، يقول: "وأمّا عموم البلوى فلا يوجب اغتفار ما عمّت به إلا عند الضرورة والتعذر".

ثم يقول: "وعندي أنّ ضابط ذلك أن يكثر في الناس كثرة بحيث يصير غير دالّ على استخفاف بالوازع الديني، فحينئذ يفارقها معنى ضعف الديانة الذي جعله الشافعية جزءا من ماهية الغيبة".[٣]

والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٧٢) النفقات، باب (٩) إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف، رقم ٥٠٤٩: ٥/٢٠٥٢.

٢- رواه مسلم من حديث فاطمة بنت قيس، كتاب (١٨) النفقة، باب (٦) المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، رقم ١٤٨٠: ٢/١١١٤.

٣- التحرير والتنوير: ٢٦/٢٥٧.

مبدأ المساواة بين الناس.

أ) - النصّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿شُعُوبًا﴾: مفرده شَعب، بفتح الشين، مجمع القبائل التي ترجع إلى جدّ واحد، وذلك لتشعبهم واجتماعهم كأغصان الشجرة. والشِّعب، بكسر الشين، الطريق في الجبل جمعه: شعاب. ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: مفرده قبيلة، ما تحت الشعب مثل تميم من مضر، ونسّابة العرب يقسّمون نسلهم إلى سبع شعب: كمضر، وربيعة. قبيلة: ككنانة. عمارة: كقريش، بطن: كقصيّ. فخُذ: كعبد مناف، فصيلة: كهاشم. عشيرة: كعباس. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾: الأكرم هو الأشرف والأنفس والأتقى، الأفضل في التقوى.

ج) - البيان والتّفسير:

بعد المنهيات المتقدمة والتي من شأنها أن تفكك أواصر الجماعة المؤمنة إن لم يتذرّع بالإيمان والتقوى لمحاربتها، يختتم الله تلك التوجيهات بهذا النداء العامّ: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾، لمناسبة الإرشاد إذ يتناول أصل الخلقة البشرية كلها فلا فرق بين مؤمن وكافر، قال تعالى: **﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**.

ومناسبة هذا النداء بالنسبة للتوجيهات السابقة هي محاربة ما بقي من الرواسب الجاهلية بالتعاظم بالآباء والتفاخر بالأنساب، تلك الشنشنة التي سرعان ما ينجم قرنها كلما عرت رياح التلاحي -أحيانا- على بقاياها سيما ونحن في عام الوفود بعد فتح مكة، والمسلمون الجدد قريبو العهد من العادات والتقاليد الجاهلية. ولذلك نجد رسول الله يركز على هذا المبدأ "مبدأ المساواة" في وصاياه بحجة الوداع حيث قال: «**يا أيها الناس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟. قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب**»[١]، كما قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**».[٢]

وتذكر الروايات بعض الأحداث التي كانت سببا للنـــزول، وهي توضح أثر تلك الرواسب الجاهلية من تحقير وسخرية بين قبيلة وأخرى أو بين فرد وآخر بسبب اللون أو الجنس أو النسب، وما كان من رسول الله وهو يلمس آثار تلك الرواسب بعد فتحه لمكة إلا أن يعفي على تلك الآثار بإرشاده الحكيم فيقول: «**أيّها النّاس، إنّ الله قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، ورجل فاجر شقيّ هيّن على الله، ثم قرأ الآية: ﴿يَآ أَيـــُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾**».[٣]

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي نضرة، رقم ٢٣٤٨٩: ٥/٤١١.

٢- رواه البخاري من حديث جرير، كتاب (٣) العلم، باب (٤٣) الإنصات للعلماء، رقم ١٢١: ١/٥٦.

٣- رواه الترمذي من حديث ابن عمر، كتاب (٤٨) التفسير، باب (٤٩) سورة الحجرات، رقم ٣٢٧٠: ٥/٣٨٩.

والمقصود بالذكر والأنثى أبونا آدم وأمّنا حوّاء، أو هما صنف الذكر والأنثى اللذين يتكوّن منهما الفرد البشري على سنة الزوجية التي تنتظم الخلائق كلّها كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩).

وفي التقسيم الاجتماعي للمجموعات البشرية تذكر الآية نوعين منهما: الشعوب، والقبائل، وذلك وفق ما كان معروفا لدى العرب، لأنّ "الشعب" هو مجمع القبائل التي ترجع إلى جدّ واحد، ككنانة وقيس وتميم من شعب: مضر، والأوس والخزرج من شعب أزد.

ولما كان الواقع المرير الذي عاشته الجاهلية أن كان ذلك التقسيم مثار الحمية والعصبية والتنافر جاءت علة جعل الله إيانا شعوبا وقبائل على خلاف ذلك الواقع حتى يكون سببا للتكامل والتعارف، وهو يحتضن الهرم الاجتماعي من قاعدته إلى قمّته انطلاقا من الأسرة إلى مجمع الأمة بكاملها تدرّجا واستشرافا إلى وحدة الإنسانية التي جاءت الدعوة الإسلامية تنادي بها، وترفع شعار المساواة بين الأجناس والألوان، إذ جعل الله ذلك الاختلاف مجلى لعظمته وقدرته وآية لتدبيره وحكمته، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الرّوم:٢٢).

فإذا كانت خطبته ﷺ في حجة الوداع بمنزلة الدستور الحكيم للأمة الإسلامية، فإنّ من بنوده الأساسية مبدأ المساواة بين الناس كما تقدّم النصّ على ذلك.

ولئن افتخرت الحضارة الحديثة بالثالوث الجريء الذي رفعته الثورة الفرنسية حين نادت بالحرية والإخاء والمساواة، واعتبرته أوروبا فتحا مبينا بانتصارها على سلطة الكنسية والملوكية، فإنّ للأمة الإسلامية أن تعتز وتفتخر

بأن كانت السبّاقة إلى تركيز تلك المبادئ وتطبيقها في الحياة الواقعية، ورسولها الأعظم هو القدوة في كلّ إصلاح دعا إليه، وفي كلّ مبدأ نادى به، ألم يكن من حاشيته الخاصّة بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسيّ؟.

وكان يقول لأصحابه كلما تحركت فيهم الحمية بتحريض من اليهود والمنافقين، «**دعوها فإنها منتنة**».[1]

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: والتفاضل بين الخلائق من سنن الله في خلقه، ولكن المعيار الذي يعرف به فضل الناس وتضبط به قيمتهم هو تقوى الله، فعلى قدر تلك التقوى تكون كرامتهم عند الله، وبذلك ينهار ذلك السدّ الذي وضعه البشر من الفوارق الاجتماعية المزيفة وبنوا عليها ارتباطاتهم المختلفة، فنشأت عنها تلك الصراعات الدامية قديما وحديثا.

ويوم يحتكم الناس إلى ذلك المعيار الإلهي ويقيمون منازلهم وحظوظهم وفق مقاييسه فسوف تتقلّص من حياتهم ظواهر التشنج والتوتر.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: عليم بما فيه كرامتكم وبما تستقيم به أموركم، وهو خبير بشؤون عباده عليم بدخائلهم يزنهم بميزان الحق والعدل فينالون من كرامته على قدر ما لهم من التقوى، وهو أعلم بمن اتقى.

والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٧٥) قوله: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾، رقم ٤٦٢٢: ٤/١٨٦١.

الرّدّ على امتنان الأعراب، وبيان أصول الإيمان الصحيح.

أ)- النصّ:

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الأَعْرَابُ﴾: هم من في طبعهم جفاوة وغلظة كأهل البادية، ليس له مفرد، ويضاف إلى ياء النسبة إذا أريد به الأفراد، و"أل" للعهد الذهني. ﴿أَسْلَمْنَا﴾: أي خضعنا واستسلمنا. ﴿لاَ يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾: أي لا ينقصكم من أجر أعمالكم شيئا من فعل: لات، يليت. ويقال: ألَت، ألَتا، والمعنى واحد. ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾: أي لم يشكّوا في إيمانهم و لم يتردّدوا. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنَ اَسْلَمُوا﴾: "أن" والفعل في موضع نصب، والتقدير: يمنّون عليك إسلامهم، أو في موضع جرّ بنزع الخافض، أي يعدّون إسلامهم منّة عليك. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: جواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، أي المنة لله وحده.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَلِتْكُم﴾: من لات يليت، قرأ به الجمهور، ويقال ألَته مثل أمَره، وهي لغة

غطفان، قرأ بها أبو عمرو ويعقوب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (الطور:٢١). ﴿تَعْمَلُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأه ابن كثير بياء الغيبة.

د)- البيان والتفسير:

بعد إعلان مبدأ المساواة بين البشر في أصل الكرامة الإنسانية، وأن التقوى وحدها هي معيار التفاضل عند الله، والتقوى لا تكون إلا بالإيمان الصحيح.

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُومِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: جاءت هذه المقولة لأعراب قيل إنهم بنو أسد بن خزيمة، جاؤوا لرسول الله -وكانت سنة جدب ببلادهم-، وقد أسلموا وامتنّوا على رسول الله بقولهم: جئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب، وكانوا يردّدون ذلك المنّ على رسول الله ليصرف إليهم الصدقات.

وكان هذا الموقف الجافي منهم مناسبا لما تقدم في الآيات السابقة من جفاء بني تميم في ندائهم للرسول من وراء الحجرات، فنزلت هذه الإرشادات الإلهية لتبين للمؤمنين كيف يرتفعون إلى المستوى الحضاريّ في علاقتهم بالله ورسوله، وعلاقات بعضهم ببعض. وفي سورة التوبة نجد ذلك التصنيف الدقيق لهؤلاء الأعراب في سنة الوفود، على أساس من صدق الإيمان وهلهلته، لينبين الرسول حقيقة واقعهم في التعامل معهم بما يناسب كل صنف.

قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فأنبأهم الله بحقيقة ما في قلوبهم من التردّد والشك، وبيّن لهم الفرق بين حقيقة الإيمان والإسلام، وأن ما أظهروه للرسول هو الإسلام، أي الخضوع والاستسلام لدافع منفعة عاجلة في

الحفاظ على أنفسهم وأموالهم.

ولم يعنفهم الله تعالى في الخطاب بتكذيبهم في ما قالوه، بل أعلمهم بحقيقة أمرهم، ثم عرفهم بحقيقة الإيمان المطلوب وأن مستقرّه القلب، فأية حكمة في هذا الأسلوب الإلهي، وهو يتألف قلوب هؤلاء الأعراب؟. ويدعوهم إلى حظيرة الإيمان الصحيح. فحسب الإنسان أن يخطو الخطوة الأولى إلى ساحة الله ورسوله بالإذعان والخضوع فيتخطى بذلك عتبة الكفر والشرك، فإنه بذلك يغرس البذرة الأولى للإيمان في قلبه تتفتق عن شجرة طيّبة.

قد يقول اللسان ما ليس له معتقد في القلب بدافع من بعض الظروف، وهو يتقلب معها لينال مطلبا أو يحقق هدفا، ولكن الله العليم بذات الصدور لا ينظر إلى الصور والأشكال، ولا تخفى عليه الدوافع والأحوال، والقلب وحده هو مستودع الأسرار، ومصدر المقاصد والنّوايا، والإيمان الصادق هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل كما جاء في الأثر، وحين قال الأعراب بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ أجابهم الله بحقيقة ما في قلوبهم من الشك والارتياب، وأن المظهر الذي بدوا عليه أمام رسول الله إنما هو الإسلام، فهم في أوّل السلم يتدرجون، فلماذا جاؤوا يمنون؟. ومع ذلك فإنه تعالى يأخذ بأيديهم في رفق ولطف إلى حظيرة الإيمان الصحيح.

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إنه الإرشاد الإلهي الهادئ الذي لا ينفرّ، فهو تعالى العادل، فلا تضيع عنده مثقال ذرّة من صالح الأعمال عند التوبة والإنابة وصدق الطاعة والامتثال، فهو الغفور الرحيم لكلّ ما بدر منهم في حالة الضعف الإيماني، ثم إنّه تعالى يبيّن حقيقة الإيمان الصادق ومقتضياته في سلوك المؤمن يبيّنها بصيغة الحصر خلال وصفه لموقف أولئك الأعراب أزاء دعوة رسول الله فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

تتشوّق نفس السامعين إلى معرفة حقيقة الإيمان بعد ذلك النفي الذي طال أولئك الأعراب، تتشوّق النفوس لمعرفة الإيمان الحقيقي عند الله، وما هي مقتضياته على سلوك المؤمن، وقد جاءت الإجابة بصيغة الحصر: ﴿إِنَّمَا﴾ لتأكيد تلك الحقيقة كما قرّرها الله، واختير الموصول في الخبر عن المؤمنين حتى يكونوا أحرياء بتلك الصفات التي تبيّنها الصلة، ولم يقتصر الإخبار بوقوع الإيمان بالله ورسوله في القلب ابتداء كأول خطوة في الاستجابة لداعي الله، بل جاءت تلك الجملة الاعتراضية بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي إن ذلك الإيمان لا يكون كاملا تامّا عند الله إلا إذا استمرّ راسخا في القلب مع ترامي الزمان وامتداده لا يعتريه شك ولا ارتياب في أي حال من الأحوال ولا بأي سبب من الأسباب؛ لأن الإنسان معرّض لكثير من الضوائق والفتن، ومعرض لوساوس الشيطان وخطرات النفس الأمّارة بالسوء، وقد يتزعزع إيمانه فيضعف يقينه في الله ويفتن في إيمانه كما وصف الله تعالى هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ (العنكبوت:١٠).

وفي معنى هذه الآية في التعبير بـــ"ثم" قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (٣٠). أي هم ثابتون على الطريق المستقيم مدى حياتهم مهما تغيرت أحوالهم، وهنا يذكر الله العلامات السلوكية الدالة على الإيمان الحقيقي للقلب ويقول: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، أي يبذل أغلى ما يملكه في نصرة دين الله وإعلاء كلمته من روحه وماله عندما ينادي داعي الجهاد في سبيل الله، فلا يبخل ولا يضعف ولا يتخلف، فتلك هي علامات الإيمان الصادق الحقيقي في ميزان الله وحكمة.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: أي لا غيرهم من أدعياء الإيمان بألسنتهم.

أكّد الحكم بتعريف الطرفين وبضمير الفصل، فذلك هو المحكّ الصادق الذي يعطي حكم الإيمان الصادق عند الله، يصلح لكلّ أصناف الناس من أدعياء الإيمان في كل زمان ومكان، تلك هي وسيلة الاختبار عند الناس، وأما الله تعالى فهو أعلم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فقد أمر رسوله أن يقول لأولئك الأعراب بصيغة الاستفهام: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قل يا محمد لأولئك الأعراب بصيغة التوبيخ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾، ﴿تُعَلِّمُونَ﴾: بالتضعيف للمبالغة في إيصال العلم، مما يدلّ على أن أولئك الأعراب قد ألحّوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم لإقناع رسول الله بذلك، ولكن الله العليم بذات الصدور هو أعلم بحقيقة ما في قلوبهم وأنها ما تزال في شك وارتياب، فمن الغباء والجهل أن يعتقدوا أن الله لا يحيط بكل شيء علما، وهو الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه بكلّ شيء عليم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

المنّ والامتنان هو ذكر النعمة والإحسان ليراعيه المحسَن إليه للذاكر، أو إظهار المزيّة على أحد بما قمت به نحوه، وقد نهى الله عنه في سورة البقرة إذ قال: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالاَذَى﴾ (٢٦٤).

فهؤلاء الأعراب جاؤوا إلى الرسول ممتنين عليه بإسلامهم كأن لهم على النبي مزيّة بذلك وقد جعل الله المنّ مبطلا لثواب الصدقات، ولذلك كانت صدقة السرّ أحظى ثوابا عند الله، فلفت الله رسوله أن يجيب أولئك الأعراب بقوله: ﴿لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم﴾، فلم يذكر الله هنا الإيمان؛ لأنه قال لهم من قبل: ﴿لَمْ تُومِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، فإسلامكم هو لأنفسكم، ولئن كنتم صادقين في إيمانكم حقا فيجب أن تعتقدوا أنّ الفضل والمنّة لله أن هداكم

للإيمان، لأن ذلك هو أعظم منة منه تعالى، إذ هي أعظم من نعمة الإيجاد والخلق.

يقول عنها سيد قطب رحمه الله: "إنّ الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع، إنها المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة، وتجعل له في نظام الكون دورا أصيلا عظيما".

إلى أن يقول: "وصدق الله العظيم، فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر وعاش بهما ومعها، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها".[1]

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يأتي هذا التأكيد لعلم الله الشامل المحيط لما في السماوات والأرض لا في الظواهر والأشكال وإنما في الحقائق والأسرار والماهيات، ويعلم مشاعر النفوس وسرائر الضمائر، ويبصر أعمال خلقه ويحصيها عليهم إن خيرا أو شرًا، والله أعلم.

١-أنظر: في ظلال القرآن: ٢٦/١٤٤-١٤٩.

سورة ق، مكيّة، وآياتها ٤٥

- بين يدي السّورة الكريمة:

هذه السورة مكية بإجماع، سمّيت سورة "ق" باسم الحرف الوحيد الذي افتتحت به، وهو الاسم الغالب عليها، وقد ورد في كتاب "الإتقان" أنها تسمّى: "بالباسقات" إشارة إلى قوله تعالى فيها: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ (١٠). وآياتها خمس وأربعون آية في لفظ جزل وسجع بديع.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور كما رواه الإمام جابر بن زيد، وهي الخمسون في ترتيب سور المصحف الشريف.

ورويت عدة روايات عن رسول الله في بيان فضلها، فقد روى الإمام مسلم عن جابر بن سُمرة: «**أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾**»[1]، أي في صلاة الصبح جماعة في المسجد، كما روى مسلم عن أمّ هشام بنت حارثة النعمان قالت: «**ما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأها كلّ يوم على المنبر إذا خطب الناس**»[2]، وهي تشبه سورة "ص" إلى حدّ بعيد في افتتاحها بحرف واحد، وفي التنويه بشأن القرآن الكريم بدءا وختاما، يقول عنها سيد قطب في التمهيد لتفسير آياتها: "إنها سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها، تأخذ على النفس أقطارها وتلاحقها في خطواتها وحركاتها، وتتعقبها في سرّها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها، تتعقبها برقابة الله التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات، إلى البعث إلى الحشر، إلى الحساب، وهي رقابة

١- رواه مسلم، كتاب (٤) الصلاة، باب (٣٥) القراءة في الصبح، رقم ٤٥٨: ١/٣٣٧.

٢- رواه مسلم، كتاب (٧) الجمعة، باب (١٣) تخفيف الصلاة والخطبة، رقم ٨٧٣: ٢/٥٩٥.

شديدة دقيقة رهيبة". إلى أن يقول: "وكلّ هذه حقائق معلومة، ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة تروع الحسّ روعة المفاجأة، وتهزّ النفس هزا، وترجّها رجّا وتثير فيها رعشة الخوف وروعة الإعجاب، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب".[1]

قلت: إن مثل ذلك الأسلوب الرهيب هو الذي يتناسب مع المحور الأساسيّ الذي ركزت عليه السورة في بيان الإيمان باليوم الآخر وأثر ذلك على سلوك الإنسان، أي عنصر الإنذار والتخويف الذي ركزت عليه في بيان مهمة رسول الله، إذ قال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ (٢)، وقوله تعالى في ختام السورة: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥).

الرّد الدّامغ على منكري البعث.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ⑪

١- في ظلال القرآن: ١٥٢/٢٦.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾: ﴿قَ﴾: من جملة الحروف الهجائية المقطعة في أوائل بعض السور والتي جاء فيها حرف واحد: وهي ثلاثة: قَ، صَ، ن. ﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾: قسم مجرور. ﴿الْمَجِيدِ﴾: نعت وجواب القسم إما محذوف تقديره: ليبعثن. وقيل: جوابه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أو يدلّ عليه الإضراب في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق. ووصف ﴿الْمَجِيدِ﴾، أي الشريف الكامل العالي القدر. ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب. ﴿عَجِبُوا﴾: الضمير عائد إلى غير مذكور وهو معلوم من السياق، أي المشركين الذين تحدّاهم الله أن يأتوا بمثل سورة من القرآن، والمفهوم من افتتاحية السورة. ﴿مُّنذِرٌ﴾: المنذر من الإنذار، وهو التخويف من شرّ متوقع. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾: الاستفهام إنكاريّ للبعث، والتقدير: أنبعث من جديد إذا متنا؟. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾: أي رجوع بعد الموت هو في غاية البعد عن التصديق. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾: أي إنه تعالى يحصي عدد الأموات منهم ويعلم ما أكلت الأرض من أجسامهم فلا يصعب عليه جمعها، ﴿كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾: والكتاب الحفيظ هو علم الله الأزليّ المدوّن في اللّوح المحفوظ والعندية مستعارة للرعاية والحفظ. ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾: الضمير يرجع إلى المكذبين بالبعث وبالرسول في أمر، أي الحال المتلبسون بها في معتقدهم، ﴿مَرِيجٍ﴾: أي مضطرب ومختلط. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾: ﴿فُرُوجٍ﴾: جمع فرج، أي ليس بها شقوق ولا خروق. ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: بسط الأرض وامتدادها هو بحسب نظر الإنسان المحدود، إذ الأرض كروية الشكل في مجملها، ﴿رَوَاسِيَ﴾: والرواسي هي الجبال الشامخات تحفظ الأرض من الاهتزاز. ﴿زَوْجٍ﴾: الزوج، أي أصناف النبات.

﴿بَهِيجٍ﴾: البهيج: صفة من فعل: بَهُج الشيء، إذا حسن وأبهج الناظر. ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾: ﴿جَنَّاتٍ﴾: أي بساتين الأشجار المختلفة. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: الزرع المحصود كالبرّ والشعير والذرة وخصّص النخل بالذكر لأهميتها، والباسقات الطويلات الفرع، وهو منصوب على الحال. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾: والطلع هو الشمروخ، أول ما يظهر من ثمر النخلة، ﴿نَضِيدٌ﴾: والنضيد: المصنّف بإتقان بعضه فوق بعض. ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: مفعول لأجله. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾: "به": الضمير يعود إلى "الماء"، البلدة: القطعة من الأرض. ووصفه بالتذكير على تأويل "البلد" أو المكان. الخروج: أي الخروج من القبور ليوم البعث والنشور.

ج- البيان والتفسير:

يقول الدكتور الزحيلي في بيان مناسبة سورة "ق" لما قبلها يقول: "أخبر الله تعالى في آخر سورة الحجرات المتقدمة أن أولئك الأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ لم يكن إيمانهم حقا، وذلك دليل على إنكار النبوءة وإنكار البعث فافتتح هذه السورة بوصف إنكار المشركين نبوءة النبي وإنكار البعث ثم ردّ عليهم بالدليل القاطع".[1]

قال تعالى: **﴿قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.**

﴿قَ﴾: حرف هجاء ينطق باسمه، أي بقاف بعدها ألف بعده فاء، ويقال فيه ما تقدم في نظائره من الحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وأنها لتحدّي العرب بأن يأتوا ولو بأصغر سورة من مثل القرآن في نسجه وبلاغته

١- التفسير المنير: ٢٦/ ٢٧٥.

وهي -أيضا- للتنبيه إلى أهمية ما يأتي بعدها، وهو في أغلبه تنويه بشأن القرآن أو إشادة بالمنزل عليه، وللمفسّرين تخريجات أخرى لتلك الحروف لم تؤيّد بأدلة قاطعة، بل إن بعضها يعتبر ضمن الإسرائيليات التي لا يؤبه لها، كالرواية المنسوبة إلى ابن عباس بأن "ق" اسم لجبل عظيم محيط بالأرض، والأولى أن نقول مع كل تفسير لها: الله أعلم بمراده.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾: أقسم الله بالقرآن للتنويه بشأنه، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، فالمقسم -وهو الله- عظيم، لا يكون قسمه إلا بما هو عظيم عنده. ولذلك أتبع المقسم به بوصف المجيد، هكذا بصيغة المبالغة، من المجد وهو الشرف الكامل وعلوّ المنـــزلة، توصف به الأشياء مجازا لأن المجد الحقيقي هو لله تعالى وحده فهو ذو العرش المجيد، فعال لما يريد، فالقرآن في نوعيته يفوق كل كلام أوجده الله بقدرته من نوع الوحي المنزل من السماء على مختلف رسله، وذلك هو معنى الهيمنة التي وصف الله بها القرآن في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨). وبالتالي فهو أعلى وأشرف من كل كلام صاغه البشر لمحادثاتهم نثرا كان أو شعرا أو سجعا أو غيره، والمقسم عليه في الآية مطويّ محذوف يحاول المخاطبون أن يستدلّوا عليه من خلال السياق سيما ما جاء بعد الإضراب في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. فيكون التقدير للمقسم عليه: والقرآن المجيد إنك لرسول الله تنذر الناس بالحق.

وهذا المعنى هو ما صرّحت به افتتاحية سورة يس في قوله تعالى: ﴿يَسٓ، وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (١-٦).

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ﴿بَلْ﴾: للإضراب عما سبق، ﴿عَجِبُوا﴾: الضمير عائد إلى معلوم من السياق،

أي المشركين ممن تحداهم الله في مفتتح السورة، وقد حصل لهم العجب من أمرين:

أ)- من أن يجيئهم منذر منهم، وصف الله الرسول بصفة النذارة، وهي الإخبار بشرّ متوقع، أي البعث والنشور فهم ينكرون ذلك إلى حدّ إحالة وقوعه.

ب)- كون ذلك المنذر من نوع البشر، وتلك شبهة طالما ردّدوها بمختلف الأساليب كقولهم:

أ)- ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (التغابن:٦).

ب)- ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء:٩٤).

ثم بيّن الله مناط تعجيبهم بعد أن أظهر في مقام الإضمار بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، ومناط تعجيبهم هو عودهم إلى الحياة مرة ثانية بعد أن صاروا ترابا، قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، هم ينكرون عودهم إلى الحياة بعد أن يصيروا ترابا وقد تبعثرت أجزاؤهم. ووصف رجوعهم بالبعيد، أي في تصوّر العقل، وفي العادة المألوفة، والمستفهم عنه في الآية محذوف والتقدير: أرجع إلى الحياة بعد زوالها وانعدامها.

فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾، الله الذي خلق الموت والحياة يعلم دبيب الحياة في أجسام المخلوقات وكيف تتطوّر وتنمو، كما يعلم همود الموت والفناء فيها وهي تتآكل وتتبعثر أجزاؤها ويعلم أين تستقرّ تلك الأجزاء، وكل ذلك مسجّل محصيّ مضبوط في كتاب حفيظ، فلا يضيع منها جزء مهما انفصلت عن بعضها البعض، أما ماهية ذلك الكتاب وكيف تسجّل فيه تلك المعلومات فذلك ما لا نقدر على إدراكه، لأنه من أمور الغيب التي نؤمن بها لورودها في

نصوص قطعية من القرآن وليست إعادة الحياة إلى تلك الأجزاء وجمعها كما كانت من قبل فقد أتمّها الله في الخلقة الأولى، وليست إعادتها للخلقة الثانية بأصعب على الله من الأولى، وفي ذلك دليل على قدرة الله في تقدير يوم البعث والنشور.

ثم يبيّن الله حقيقة أولئك المنكرين للبعث ويكشف الدوافع التي تبقيهم على الكفر والتعنّت فيقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

تكرر الإضراب في هذه الآية ليدلّ على أن المشركين قد أتوا بأفظع من إنكارهم للبعث –وهو أساس عظيم من أسس العقيدة الإسلامية- وذلك بأن كذبوا بالحق أصلا، أي بما جاء به القرآن الكريم، والتعبير بـ"لما" الشرطية هو للدلالة على مبادرتهم للتكذيب بالقرآن دون تأمّل ولا تدبّر ولا نظر فيما جاء به، فمعرفة الحق والإيمان به هو نقطة الارتكاز على أرضية صلبة في مأمن من العثار والإضطراب، وما سوى الحق فهو مهزوز ومضطرب، ولذلك وصف الله المشركين سواء منهم من كانوا في وقت التنزيل أو من يكون على شاكلتهم في كل زمان ومكان، وصفهم بأنهم في أمر مريج، أن شأنهم وحالهم أنهم يعيشون في قلق واضطراب، لا يستقرون على فكرة معينة. وذلك المرج والاضطراب يبدأ من العقيدة إذا كانت ممسوسة بأفكار ملحدة فإن صاحبها يكون كالريشة في مهبّ الرياح، فخذ مثلا من الذي قال:

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني و لم أدر كيف جئت، أين المقرّ؟.

نعم هو في حيرة واضطراب، ليس له قرار لأنه ليس له تصوّر صحيح لمعنى وجوده، وبالتالي لا يعرف مصدره، ولا يدري مصيره، فكيف يرجى لأمثال هؤلاء ملاذا آمنا يطمئنون إليه؟.

وفي الردّ على مواقف هؤلاء المكذبين، وإثباتا للحق الناصع المستقر فرّع الله هذا الاستفهام التقريريّ لبيان قدرته على البعث، وعلى ما هو أعظم منه من خلق السماوات والأرض فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

إن في السماء لآيات للموقنين، يقول سيد قطب في خلال تفسيره لهذه الآيات الكونية مما هو تحت مشاهدة الإنسان يقول في التعليق على قوله تعالى بعد ذكره لخلقة السماء والأرض: "﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: تَبْصِرَة تكشف الحجب، وتنير البصيرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب، تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب. وهذه هي الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، هذه هي الوصلة التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثرا في القلب البشري، وقيمة في الحياة البشرية".

ثم يقول: "فالناس قطعة من هذا الكون لا تصحّ حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير".[1]

قلت: وفي هذا المعنى يقول الشاعر في شأن الإنسان:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وفي معرض مناقشة المشركين في اعتراضهم على حقيقة البعث وفي التدليل على قدرة الله على ذلك دأب أسلوب القرآن على لفت الأنظار إلى بعض المظاهر الكونية التي تقوم على الحق والقسط وتناسقهما وتكاملهما في خلق الله، فالسماء متماسكة البناء وهي سقف محفوظ ليس فيه من فطور ولا

١- في ظلال القرآن: ٣٦/١٥٦.

فروج، وهي إلى ذلك مزينة بزينة الكواكب تشبع الحاسة الجمالية في الناظرين وهي تتناسق مع الأرض في امتدادها وثباتها وبهجة نباتها.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: وكلّ من السماء والأرض في حياة الإنسان جزء ضمن هذا الكون العظيم الذي يجسّد ذلك الثبات لنصاعة الحق الذي هو صفات الذات العلية مما نزل به القرآن وبلغه الرسول الكريم، وهو المدد الروحاني لحياة النفوس والقلوب، نزل بأمر الله كما أنزل من السماء الماء المبارك لضمان حياة الأبدان.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

وهل من ظاهرة طبيعية تشرح الصدور وتحيي موات القلوب أقوى من نزول الغيث، يستقبله الناس كبارا وصغارا بفرح وسرور وأمل فياض لضمان أقواتهم وأرزاقهم ويصف الله الماء هنا بالبركة من فيوض رحمة الله.

ثم تسري قدرة الله حياة وازدهارا في الأرض الموات، فإذا هي تهتزّ وتتفتّق تربتها عن جنات وزروع ونخل باسقات بطلعها النضيد الحامل لأنواع التمور والبادي في منظر جميل في تراكمه وتناسقه مما تتوفر به أرزاق العباد.

إنّ مثل هذه المشاهد الطبيعية تتكرّر لمشاهداتهم وهم يلمسون دبيب الحياة بقدرة الله في الأرض الموات، أفلا يستدلون من ذلك على قدرة الله الخلاقة في إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

والله أعلم.

التذكير بحال المكذبين الأولين.

أ)- النص:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾: ﴿الرَّسِّ﴾: بئر لم تطو، أي لم تبن. ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾: لم يوجد نصّ يحدّد من هم، فقيل: هم من بقايا ثمود، وقيل: هم قوم من اليمامة، وقيل: فرع من قوم شعيب. ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾: فهم لم يكونوا من قبيله، بل هم أصهاره. ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾: ﴿الْأَيْكَةِ﴾: هي الشجر الملتف، وهم من قوم شعيب. ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾: من ملوك حمير في اليمن. قيل: كان مؤمنا بينما قومه كانوا كفرة. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾: ضمير: ﴿كَذَّبَ﴾ عائد إلى ﴿كُلٌّ﴾ باعتبار لفظه، والجملة مؤكدة لجملة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾. ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: الاستفهام للإنكار ﴿عَيِينَا﴾: عجزنا، أي ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان، فكيف نعجز عن إعادة خلقه. ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي. ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي في شك وحيرة [illegible]

ج)- البيان والتفسير:

بعد بيان تكذيب المشركين بالحق لما جاءهم وعرض الله لآيات قدرته في صفحة الكون وعلى وجه الأرض بالخصوص أعقب ذلك بذكر مثال المكذبين

أمثالهم في مجرى التاريخ البشري إذ كذّبوا رسلهم كما كذّب هؤلاء فحقّ عليهم وعيد الله الذي لا يتخلّف، ثم أكّد الله قدرته على البعث بدليل خلقه الأول الذي يعترفون به فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

جاء التذكير مختصرا بما هو معلوم عند المخاطبين من تاريخ أولئك الأقوام المذكورين لغرضين اثنين:

أ)- تسلية رسول الله مما يعانيه من تكذيب قومه إياه سيما في قضية البعث التي واجهوه فيها بالهزء والسخرية.

ب)- تهديد المشركين بأن يعاقبهم الله بمثل ما عاقب به تلكم الأمم الخوالي وهم لا يجهلون ما فعل الله بهم.

اكتفى الله بذكر من اشتهر من الأقوام البائدة ومنهم من جنس العرب المخاطبين، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبّع، وأمّا قوم فرعون وقصتهم مع موسى عليه السلام فقد أخذت من قصص القرآن الحيزّ الأعظم، ولها في نفوس المخاطبين الاهتمام الكبير، تبعثهم على الموعظة والاعتبار، وأمّا أصحاب الرّسّ، فلم يحدّد المفسّرون أصلهم وموطنهم، وإضافتهم إلى: ﴿الرَّسِّ﴾ من إضافة الشيء إلى موطنه، لأن: ﴿الرَّسِّ﴾ هي البئر غير المطوية، كإضافة أصحاب الحجر، كل هؤلاء هم ممن كذّبوا بالحق لما جاءهم. أكّد الله ذلك الموقف منهم بقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: وصفهم الله بتكذيب رسلهم وفرّع على ذلك قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، أي حقت عليهم من الله كلمة العذاب، كلّ بحسب جريرته إذ اختلفت أنواع العذاب ولكنه عذاب المحق والاستئصال. والتنصيص على سبب ذلك بتكذيب الرسل، وهو القاسم المشترك بينهم، فيه إرشاد وإيماء إلى وحدة العقيدة في أصولها ووحدة

الرسالة في دعوتها، فكلّ من كذّب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

ولما كانت قضية البعث هي من أبرز القضايا التي بها يكذبون عاد السياق إليها ليعرضها في حجة جديدة فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الاستفهام للإنكار أن يكون الله تعالى قد أتعبه الخلق الأول للكون، فاستراح بعد خلقه ليتركه للصدفة كما يدّعيه الملحدون، وقد نفى الله عن ذاته العلية تلك الصفة الناقصة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف:٣٣). وقال في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

وفي هذه الآية لم يأت بالجواب على ذلك الاستفهام، لأن الخلق على اختلاف معتقداتهم لا يستطيعون أن يدّعوا بأنه تعالى قد تعب وعجز بعد الخلق الأول الذي يعترفون بأنّ الله هو القائم به، فكيف يعجز بعد ذلك وهم يشاهدون آثار قدرته تعالى في استمرار نظام الكون واتساقه عبر ملايير السّنين، فذلك الاتساق في النظام والاطّراد في التسيير يدلّ على كمال قدرته تعالى، فإذا كان المنكرون للبعث قد لزمتهم الحجة بما يشاهدونه في صفحة الكون، فما هو سبب إنكارهم؟. وذلك ما بيّنه الله بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه أي نفي العيّ بالخلق الأول، وإنما هو فساد التصوّر وخلط في الفهم وقعوا فيه، إذ يعلمون أن الخلق الأول هو أكبر وأعظم من إعادة الخلق للمرة الثانية، ولكن اختلطت عليهم المفاهيم

فغشيت أبصارهم عن إدراك الحق والصواب، وهكذا تتمكن العقائد الزائفة في القلوب ويزيدها الشيطان إغراء وفتنة، لأن إنكار الحساب الأخرويّ يفتح لهم أبواب الفواحش والمعاصي على مصراعيه فتطمئن نفوسهم على ما يأتون منها لا يخشون حسيبا ولا رقيبا.

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطـــم

والله أعلم.

خلق الإنسان وإحاطة علم الله بأحواله.

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾: التقدير: ونحن نعلم، فالجملة في محل نصب حال. ﴿تُوَسْوِسُ﴾: من الوسوسة وهي الصوت الخفيّ، والمراد بها حديث النفس الذي يخطر ببال الإنسان. ﴿بِهِ﴾: الهاء تعود على "ما" أو على الإنسان، أي ما توسوس إليه نفسه. ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: ﴿الْوَرِيدِ﴾: هو حبل العنق أي العرق الذي يغذي الرأس وهما عرقان يكتنفان صفحة العنق، يقطعان لذبح الحيوان، والإضافة بيانية،

أي الحبل الذي هو الوريد، وفيه استعارة تمثيلية. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: فيه حذف للإيجاز، إذ المعنى: عن الشمال قعيد وعن اليمين قعيد. ولذا لم يقل: قعيدان. وبين ﴿اليمين﴾ و﴿الشمال﴾ طباق، والتلقي: أخذ الشيء من يد معطيه، والتثنية للإشارة إلى الملكين الموكلين بكل إنسان لتسجيل أقواله وأفعاله، والقعيد: أي المتقاعد كالمجالس والجليس وهو مبتدأ. ﴿عن اليمين﴾: خبر. ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: ﴿ما﴾: نافية، وهي مع الاستثناء بـ"إلا" تفيد الحصر، ﴿مِن قَوْلٍ﴾: ﴿مِن﴾: زائدة في مفعول الفعل المنفي لإفادة الاستغراق. والتنصيص على القول دون الفعل للدلالة على المؤاخذة على الأقوال والأفعال من باب أولى. ﴿رقيب﴾: أي ملك حافظ يحفظ أعماله. ﴿عَتِيدٌ﴾: بمعنى مهيأ حاضر. ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾: ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾: شدتها وغلبتها على فهم الإنسان إذ يكون كالسكران مختل الإدراك. ﴿تَحِيدُ﴾: تفرّ وتهرب منه. والخطاب للإنسان. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: النفخ في الصور، أي النفخة الثانية للبعث، الله أعلم بكيفيته، والإشارة إلى ما وعد الله به الكفار من عذاب النار. ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: ﴿سَآئِقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مَعَهَا﴾: خبره، والتقدير: ومعها سائق، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي يصحب كل نفس ملكان، أحدهما يسوق النفس إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما في صحيفتها. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: كشف الغطاء تمثيل لحصول اليقين بالشيء بعد إنكار وقوعه، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ﴾ (التكاثر:٦-٧)، وحدّة البصر بمعنى شدّته وقوته، أي يدرك هناك من أحوال الآخرة ما كان ينكره في الدنيا، والخطاب لكل مكلّف.

ج)- البيان والتّفسير:

بما أنّ السّورة الكريمة تركّز على قضية البعث وإقامة الأدلة على وقوعه

بالخلق الأول، وكلّ ذلك في مفتتح السورة بكيفية مجملة، وهنا يأخذ ذلك بالتفصيل وبأسلوب مؤثر رهيب يخاطب به ذلك الإنسان الناكر الغافل وهو يواكبه في رحلته الوجودية من ميلاده إلى احتضاره عند سكرة الموت إلى نهايته في موقف الحساب والجزاء.

فكم كان هذا النصّ الكريم شديد الوقع في نفسي، وأنا أتدبّر معانيه ولا تكاد العبارات تطاوعني لأفسّر مضمون الآيات التي كانت تهز كياني وأنا في خريف العمر قاب قوسين أو أدنى من سكرة الموت متأرجحا بين الخوف والرجاء مما ينتظرني بعد ذلك من الحساب والجزاء. وإن كنت -بفضل الله- ممن لا ينكر الحق الذي نزل من السماء.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

تصدير الخبر باللام المشعرة بالقسم و﴿قَدْ﴾ للتأكيد، لأن المخبَرين -بفتح الباء- هم في شك من علم الله بجميع أحوالهم، وإن كانوا يؤمنون بأنه هو خالقهم، وكلمة الإنسان، تعمّ كل الناس، فإن الكثير منهم يجهل مستلزمات الخالقية لله تعالى، فإنّ الخالق الصّانع ليعلم من خلق، إذ المخلوق معلوم الكنه عنده فهو عليم بمصدره خبير بحقيقته ظاهرا وباطنا، مكشوف الخبيئة والسرّ حتى من الخواطر الخفية في أغوار نفسه، هي معلومة عند الله محصية عليه ليوم الحساب.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: وحَبْل الْوَرِيد هو أحد الشريانيين اللذين يمران بالعنق إلى الرأس يقطعان عند ذبح الحيوان فيموت، فالتعبير تصويري لشدة القرب، والمقصود به إحاطة علم الله الشاملة لكل أحوال الإنسان الخفية منها والظاهرة، فكيف يتجرأ هذا الإنسان الذي يؤمن بتلك الحقيقة أن يصدر منه ما يسخط الله قولا أو عملا، إذ هو موكول بملكين

رقيبين عليه عن اليمين وعن الشمال يجمعان عليه كل حركة أو سكنة بل كل خاطرة من هواجس النفس.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾:

﴿إِذْ﴾: يتعلق بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ إلى الإنسان، وهو بمعنى: حين، وتلقّى: بمعنى أخذ الشيء من الله معطيه، فإنّ الملكين القعيدين عن اليمين وعن الشمال يسجّلان الأقوال والأعمال الصادرة عن الإنسان المقاعد لهما، فحذف مفعول يتلقّى، لإفادة العموم، ويلاحظ في التعبير أمرين:

أ)- لم يأت في النص لفظ: "قعيدان" باعتبار التثنية: ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾، لأن أصل العبارة: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فدلّت الثانية على الأولى.

ب)- جاء في الآية تخصيص القول بالتسجيل، وذلك لدفع توهّم أنّ الإنسان لا يؤاخذ بما يقول، كما جاء في حديث معاذ عندما قال لرسول الله: «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم». فقال له الرسول: «**ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يكبّ النّاس في جهنم على وجوههم سوى حصائد ألسنتهم**»[1]، فإذا كانت الأقوال تسجّل فالأعمال من باب أولى.

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: فهما وصفان للملكين بأنهما شديدا المراقبة، قويان مهيّئان للقيام بواجبهما، ونحن لا نعلم كيفية ذلك ولا نحسّ بالملكين؛ لأنّ ذلك من أمور الغيب التي نكل فيها الأمر إلى الله، وليس تصوّر ذلك بصعب علينا نحن اليوم وقد عرفنا دقة آلات التسجيل التي تسجّل حتى الزفرة تخرج من صدر الإنسان.

١- رواه الترمذي من حديث معاذ، كتاب (٤١) الإيمان، باب (٨) ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦: ٥/١١.

وهنا الأمر الغيبيّ قد ذكره الله في آيات أخرى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:١٠-١١). وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٢-١٦).

وحين يستنفذ الإنسان أجله على ظهر هذا الكوكب كما قدّره الله، فإنّ الموت لا محالة مدركه فيكون مصيره إلى الله، وللموت شدّته ووطأته على الأحياء فهم يحاولون الانفلات منها ولكن هيهات قال تعالى: ﴿**وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾.

إنها النّقلة الحتمية للإنسان حين تحضر ساعته الصغرى بوفاته، جاء الإخبار عنها بصيغة الماضي لتحقق الوقوع، وجاء التعبير بسكرة الموت لإدخال الروع في نفوس الناكرين الجاحدين، وإن للموت سكرات، نسأل الله أن يخففها عنا، وهذا رسول الله في فراشه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات**»، وكانت آخر كلماته: «**اللّهم الرفيق الأعلى**».[1]

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، الباء للملابسة أو للتعدية، أي جاءت سكرة الموت التي هي الحق الذي لا يتخلف، وهو ما يوقن به كل إنسان، فيرى الحق الذي كان يكذب به قبل الموت من وحدانية الله ومن الرسالة ومن البعث، فيرى مع سكرة الموت إذا كان مؤمنا يرى مكانه في الجنة ويرى الكافر مكانه من النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، الإشارة إلى الموت أو إلى الحقّ، والمخاطب هو الإنسان على وجه الالتفات، وحاد عن الشيء بمعنى

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٦٧) المغازي، باب (٧٨) مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم ٤١٨٤: ٤/١٦١٦.

هرب وتجنّب. فأنّى للإنسان أن يهرب من قبضة الموت؟.

وعندما تنتهي فترة البرزخ ينتقل الحديث إلى المرحلة الثانية من البعث والحشر وموقف الحساب والجزاء، يقول تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾.

والنفخ في الصور، الله وحده أعلم بكيفيته، وقد ذكر لنا في سورة الزمر أنهما نفختان، الأولى للصعق، أي فناء العالم، والثانية للبعث، وهو المراد بهذه الآية، إذ يقوم الناس لربّ العالمين في موقف الحساب لذلك اليوم الموعود، وإضافة "اليوم" إلى "الوعيد" هو من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، فهو يوم الوعد والوعيد، غلّب فيه الوعيد مراعاة لجوّ النصّ من التخويف والتهويل للكفرة الجاحدين.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: ودائما اختيار صيغة الماضي في هذه الآيات لتحقق الوقوع -كما تقدم- والتعبير بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يشمل كلّ نفس بشرية مكلّفة مؤمنة أو كافرة، غير أن وجود "السائق" يناسب أهل الجرائم والمتمردين، على الله لقوله تعالى:

أ)- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٥-٨٦).

ب)- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر:٧١).

ويؤيّد كون المقصود بهم أهل الشرك والعناد ما تدلّ عليه الآية اللاحقة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، وهل هما ملكان أحدهما سائق والآخر شهيد، أو هو ملك واحد يقوم بالعملين؟، والله أعلم بما يكون في ذلك اليوم. وما من شك أنّ الشاهد على

الإنسان يكون من الملائكة الحفظة المكلّفين بتسجيل أعماله.

ويتوجّه الله بالخطاب التوبيخي للذين حقت عليهم كلمة العذاب: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾، إذ المؤمن لم يكن غافلا عن ذلك اليوم. وقوله: ﴿كُنتَ فِي غَفْلَةٍ﴾ للدّلالة على تمكّن الغفلة من نفس الكافر حتى شبهت بغطاء على العينين يحجب عنه رؤية الحقيقة في الدنيا، وكان كشف ذلك الغطاء عنه تمثيلا لحصول اليقين لديه بعد الإنكار، مثلما يحصل لحادّ البصر في رؤية الأشياء، وحينئذ يقول الكافرون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة:١٢). ولكن هيهات، والله أعلم.

حوار الكافر مع قرنائه، ومصير الفجّار والأبرار.

أ)- النصّ:

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ
رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ
هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾: الواو للحال من قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي

غَفْلَةٍ﴾، وضمير الهاء في: ﴿قَرِينُهُ﴾ للإنسان. والقرين في أحد الأقوال هو الملك الموكل بالإنسان. ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾: ﴿هَذَا﴾ مبتدأ وخبره: ﴿مَا﴾. و﴿عَتِيدٌ﴾: إما خبر ثان أو صفة لـ"ما"، وهو بمعنى: مهيأ حاضر. ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾: الخطاب للملكين: السائق والشاهد، أو هو لخازن النار، على عادة العرب بمخاطبة الواحد بلفظ الاثنين، وقيل: القرين للواحد والاثنين وللجماعة. ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: صيغ مبالغة لما يتصف به الكافر من الصفات الذميمة. والخير: هو معناه العام، ولا يقتصر على الزكاة كما قال البعض. ﴿مُرِيبٍ﴾: الذي يريب غيره، أي يجعله شاكا. وبين لفظي ﴿عَتِيدٌ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ جناس. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾: ﴿الَّذِي﴾: إما في موضع نصب بدل من ﴿كل﴾، وإما مبتدأ خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾. أو خبر لمبتدأ محذوف: هو الذي. ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾: والقرين هنا هو الشيطان المقيّض له في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ (فصلت:٢٥). ﴿أَطْغَيْتُهُ﴾: جعلته طاغيا متجاوزا للحدّ في الكفر. ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾: أي لا تتجادلوا وقد قامت عليكم الحجة. ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: أي قضيت بحكمي العادل فلا تغيير لذلك الحكم. ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: العامل فيه ﴿ظَلَّامٍ﴾، القائل هو الله تعالى، والسؤال للتعريض بأهل العذاب زيادة في التنكيل بهم. ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: الاستفهام للتشويق والتمني، أي تتلهف للمزيد من المجرمين. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: ﴿أُزْلِفَتِ﴾: بمعنى: قربت. و﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: ﴿غَيْرَ﴾: نعت لمصدر محذوف هو مفعول مطلق. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾: الأواب الراجع إلى الله بالتوبة. الحفيظ: كثير المراقبة لأعماله.

ج- أوجه القراءة:

﴿يَقُولُ﴾: قرأ نافع وشعبة بضمير الغائب، وقرأ باقي القراء بضمير المتكلم العظيم. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾: قرأ الجمهور بضمير المخاطبين، وقرأ ابن كثير

بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكامل.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان رحلة الإنسان من ميلاده إلى احتضاره عند سكرة الموت إلى نهايته في موقف الحساب وفصل القضاء يذكر الله تعالى ما يجري من حوار بين الكافر وقرنائه يوم القيامة إمعانا في عذابه النّفسي، وهو يلقى في نار جهنم بعد الحكم الإلهيّ العادل في الإدانة وقيام الحجة عليه، وعلى ذكر نار جهنم يبيّن الله حال المتقين في نعيم الجنة مشيدا بما كانوا يمتازون به من الصفات الحميدة التي أهّلتهم لذلك المقام الرفيع فقال تعالى: ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ، الذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا -اخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾.

اعتبرت الواو للحال من جملة: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾، أي عندما يسمع الكافر التوبيخ وهو يرى عذاب جهنم ينبري قرينه وهو الملك الموكل به والشهيد عليه، ينبري ليقدّم سجل أعماله صاحبه الكافر التي يدان بها قائلا في قناعة وإصرار: هذا ما لدّي عتيد. والإشارة إلى سجلّ الأعمال المعدّ والمهيّأ بالكامل دونما زيادة ولا نقصان. وبما أن ذلك السجلّ لا يحتاج إلى ضبط أو مراجعة فقد ترتب عليه توقيع الحكم وتنفيذه مباشرة إذ يقول الله للملكين الحافظين: السائق والشهيد يقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ، الذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا -اخَرَ﴾، جاء أمر الله بإلقاء كل من ثبتت عليه الصفات التالية المذكورة في عذاب جهنم بعد محاكمته وإدانته، هي كالتالي:

أ)- ﴿**كُلَّ كَفَّارٍ**﴾: صيغة مبالغة من الكفر، وهو الستر والإخفاء، مما يدلّ أنه قد عرضت عليه أدلة الإيمان واضحة جلية ولكنه أعرض عنها

وجحدها.

ب)- ﴿عَنِيدٍ﴾: صفة مبالغة من العناد، أي أنه قد عرف الحق واتضحت له أدلته ولكنه ردّها بجرأة.

ج)- ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: لا يقتصر معنى الخير على المال ولا على الزكاة، بل يشمل كل أنواع الخير مما ينفع الناس ماديًا أو معنويا، فهو يبخل به لأنه لا يؤمن بالجزاء العاجل أو الآجل.

د)- ﴿مُعْتَدٍ﴾: أي يعتدي على حقوق الغير، ولا يقتصر شرّه على نفسه، فهو ظالم لنفسه ولغيره.

هـ)- ﴿مُّرِيبٍ﴾: من فعل: أراب غيره، إذا أوقعه في شك وارتياب، فهو ينشر الفكر الإلحاديّ ويعيث فسادا في الأرض، ليستكثر من أمثاله كفرا وتحدّيا.

و)- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا -اخَرَ﴾: والشرك بالله هو الإطار المدنّس الخبيث الذي يجمع كل تلك الرّذائل، والمتصف بها هو حريّ بعذاب النار، ولذلك جاء التأكيد من الله تعالى بأمر الملكين بإلقائه في النّار، وكان من الطبيعي في الإنسان وهو يواجه مصيره في العذاب الأبديّ أن يحاول الخلاص بمختلف الوسائل والمبرّرات، وكثيرا ما يرد في القرآن ذكر تلك الحوارات التي تحدث بين الكبراء والمستضعفين، أو بين الشيطان ومن استطاع أن يجرّهم إلى حزبه.

وهنا يذكر الله باختصار ذلك النوع من الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان وقد جرّ الجميع إلى جهنم فيقول: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، لقد طوى النصّ كلام صاحب القرين -أي الكافر العنيد- وتقديره أن ذلك الكافر لما صدمه الواقع بجره إلى جهنم أراد التنصّل

من كفره وعناده بإلقاء تبعته على من كان يزيّن له الكفر فيذكر أنه هو الذي أطغاه، فيردّ عليه قرينه من الجن أو الإنس ويقول: ربنا ما أنا الذي زيّن له وأطغاه، بل كان هو في نفسه ضالاً قابلا للوسوسة والإغراء، إذ دعوته فاستجاب لي كما فصّل الله ذلك في قوله على لسان الشيطان: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾ (الحشر:١٦-١٧).

وجاء الردّ الإلهي حاسما لأنها الخصومة والملاحاة: ﴿قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وضع الله تعالى حدّا لتلك الملاحاة بقوله للمتخاصمين: لا تتجادلوا عندي، فإنكم اليوم في موقف الحساب، وقد أنذرتكم من هذا الوعيد وأقمت عليكم الحجة برسلي وكتبي فلات حين خصام، وقد قضيت بما هو حق وعدل وأنفذت حكمي فلا رادّ لقضائي ولا معقّب لحكمي، وقد وفّيت حسابكم بميزان العدل، فلا ظلم لأحد اليوم.

وبهذه اللفظة ينتهي ذلك الحوار في مشهد رهيب، فلم يبق إلا تنفيذ الجزاء الأبديّ، وقد تهيأت جهنم بغيظها وزفيرها يسمعه المجرمون، فيأمر الله ملائكة العذاب بقذفهم في سعيرها وهي تتلمّظ وتلتقم في شره.

وبما أن القضاء الرّباني قد قضى بأن تملأ جهنم من الجنّة والنّاس أجمعين، فإنّ الله يوجّه السّؤال إليها تنبيها وتعريضا بأهل الكفر وإمعانا في إهانتهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

إنه سؤال وجواب يحتمل أن يكونا حقيقتين؛ لأنه تعالى قادر على أن

ينطق كل شيء، ويحتمل أن يكونا تعبيرا عن لسان الحال بأسلوب التمثيل و﴿يَوْمَ﴾: متعلق بقوله: ﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، فهي أقوال ربانية تتلاحق في ذلك الموقف الرهيب فتأتي الإجابة: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، أي إنها تتمنّى المزيد من وقود الناس يلقون فيها ففي أطباقها فراغ لاحتواء المزيد، والعياذ بالله. والبعض قال: إن المعنى أنها قد امتلأت ولم يبق فيها فراغ وبنو ذلك على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣). ولا يتسق هذا التفسير مع سياق النصّ في تصوير المشهد الرهيب، والقول الأوّل هو الأرجح والأنسب.

وفي مقابل ذلك مشهد رضيّ كريم، مشهد جنة النعيم تقرّب للمتقين حيث يقفون في المحشر تكريما لهم بحيث تتراءى لهم عن قرب: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾.

عطفت الجملة على سابقتها، وجيء بصيغة الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع، ومن مظاهر التكريم للمتقين أنّ الجنة تقرّب إليهم احتفاء وتكريما فلا يعانون من مشقة السير إليها، فهم يشاهدونها من قريب بقدرة الله فتزداد نفوسهم شوقا إلى دخولها، وللشوق وإشراقات الأمل هزّة في النفس تكسيها رضى وسعادة، ويدلّ تقريب الجنة إلى المتقين أنّ الله قد أعدّها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيقول لهم ملائكة الرحمة تشريفا وتكريما: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

﴿هَذَا﴾: الإشارة إلى نعيم الجنة، أي هذا هو ما كنتم توعدون به على ألسنة الرسل، مما كنتم تستمعون إليه وهو يتجدّد ويتكرر على مسامعكم

فتتلقونه بالتصديق اليقينيّ وتقدمون ثمنه بعباداتكم وقرباتكم إلى الله وأنتم تتحلون بما يلي:

أ)- ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾: أي للراجعين إلى الله بالتوبة والندم والاستغفار، فلا يصرّون على كبيرة ولا يتمادون على معصية، بل هم شديدو المراقبة لله كثيرو العناية بحقوق الله واقفون عند حدوده.

ب)- ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾: هي خشية المحبة والإجلال للمعبود، إذ اختير له صفة: ﴿الرَّحْمَنَ﴾، وخشية الله بالغيب هي ملاك الصلاح والتقوى.

ج)- ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: أي رجع إلى الله بقلب سليم طاهر من كل ذنب مليء بحب الله شاعر بجلاله وعظمته، فيقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، إنها تحية الإكرام يتلقاهم بها الملائكة، فهم في رفرف الرضوان في أمن وسلام يزيده علوًا وقدرا أنه الخلود الذي لا آخر له، والذي لا موت بعده ولا فناء.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: أي هم منعمّون بكلّ ما تشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم، ولله المزيد مما لا يخطر على بالهم زيادة في إكرامهم ومضاعفة لأجرهم، فاللهم الرفيق الأعلى في جنة الخلد مع أوليائك الصالحين، والله أعلم.

تهديد منكري البعث وتوجيهات إلهية للرّسول ﷺ.

أ)- النصّ:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَكَمْ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: ﴿كَم﴾: للدلالة على الكثرة. ﴿قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: أي قبل قومك من مشركي قريش. والقرن: الجيل من الناس. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: ﴿نَقَّبُوا﴾: بمعنى طوّفوا وبحثوا وساروا في الأرض. ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: أي لم يجدوا مهربا من الإهلاك، والاستفهام إنكاريّ بمعنى النفي. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ اَوْ اَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: ﴿لَذِكْرَى﴾: التذكر والتفكر في تدبّر الأحوال التي قضت عليهم. والقلب: يراد به العقل المدرك للأشياء، ﴿اَوْ اَلْقَى السَّمْعَ﴾: أي أصغى لما في القرآن من المواعظ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: الجملة في موقع نصب حال، أي متفهّم لما يصغي غير غافل. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: اللغوب: التعب والإعياء. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: تسلية لرسول الله، مفرعة عما سبق من إنكار قومه لرسالته وإنكارهم للبعث. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: المقصود من التسبيح الصلاة وهو من أسمائها، فقد ذكر الله أوقات الصلوات المفروضة كلها، ثم ذكر: ﴿إِدْبَارَ السُّجُودِ﴾، أي بعد الصلوات المفروضة أمره الله بالإتيان بالرواتب والنوافل. ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: الأمر بالاستماع لصوت المنادي فيه وعيد للكفار المنكرين للبعث

من خلال شخص الرسول. كما قيل له: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ (الدخان:١٠). ﴿وَانتَظِرْ﴾ (السجدة:٣٠). و﴿الْمُنَادِي﴾: هو إسرافيل لنفخة البعث، وقرب المكان استعير لإبلاغ الصوت بحيث يسمعه كل الناس للخروج من قبورهم، الله أعلم بالكيفية. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: في كل من الآيتين بدل، الأول من قوله: ﴿اسْتَمِعْ يَوْمَ﴾. والثاني أيضا بدل من: ﴿يَوْمَ﴾، أو هو ظرف منصوب متعلق بقوله: ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. و﴿يَسِيرٌ﴾: نعت، وتقديم الجار والمجرور: ﴿عَلَيْنَا﴾ للاختصاص، أي ذلك الحشر للخلائق كلها سهل في جانب قدرتنا. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾: أي سنجازيهم على أقوالهم الكاذبة. ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾: تكرههم على الإيمان بك، وإنما أنت مبلّغ غير مسؤول عن عدم إيمانهم، وفي ذلك تطمين للرسول.

ج- أوجه القراءة:

﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: قرأه ﴿إِدْبَارَ﴾ نافع وابن كثير وأبو جعفر وحمزة وخلف بكسر الهمزة، وقرأه الباقون بفتح الهمزة، على أنه جمع: "دُبُر، بمعنى العقب والآخر. ﴿الْمُنَادِ﴾: قرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بدون ياء، كما كتب في المصحف، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف بحذف الياء وصلا ووقفا، اعتبارا بأن رسم المصحف قد يخالف قياس الرسم، فلا يخالف قياس اللفظ لأجله. ﴿تَشَّقَّقُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَشَّقَّقُ﴾ بفتح التاء وتشديد الشين، وأصله: تَتَشَّقَّقُ، بتاءين، فأدغمت الثانية في الشين بعد قلبها شينا لتقارب مخرجيهما، وقرأه أبو عامر وعاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الشين على حذف تاء التفعّل لاستثقال الجمع بين تاءين. ﴿وَعِيدِ﴾: قرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف، وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء في الوصل، وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

د)- البيان والتفسير:

بعد الاستدلال على إمكان البعث بالأدلة القطعية الدالة على علم الله انتقل السياق إلى التذكير بما حلّ بالأمم المكذّبة برسلها بعد الإجمال الذي تقدم في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ (١٢)، وفي هذا تعريض بالتهديد للمشركين وتسلية لرسول الله بأن لا دخل له في غواية قومه، ولا تبعة له في ذلك؛ لأنّ مهمّته هي التبليغ والتذكير بالقرآن، ولا ينتفع بذلك إلاّ من يخاف الله ويخشى وعيده.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، استكمالا لأسلوب النذارة والتخويف، وبعد الإجمال في ذكر المكذبين من الأمم الخوالي يأتي الإخبار التهويلي بالإهلاك الجماعي لتلك الأمم المصرّة على تكذيبها وكفرها، وهي من الكثرة العددية ومن القوة الباطشة على أشدّ مما هو عليه المكذبون من قومك -أيها الرسول- إذ نقّبوا في جبال البلاد ونحتوا صخورها لشق المسالك الآمنة أو اتّخاذ المآوي الحصينة أو احتلاب ما يريدونه لترفيه حياتهم، ولكن كيف كان مآلهم؟. فهل كان لهم من مهرب أو معيذ من عذاب الله، كلاّ، فقد طواهم المحق والاستئصال، ولم يبق من عمرانهم وديارهم إلا الخرائب والأطلال، وذلك أمر عظيم يدعو إلى الاتعاظ والاعتبار، فلا ينتفع بذلك في حياته الواقعية إلا من توفر لديه أمران:

أ)- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي قوة الوعي والإدراك للتأثر والتذكّر لسنن الله في خلقه، وأنّه تعالى قاهر فوق عباده وعزيز ذو انتقام يمهل ولا يهمل.

ب)- ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: وإلقاء السمع وإمعان النظر

كناية عن قابلية الإنسان واستعداده لإمعان النظر وعمق التفكير في معرفة حقائق الأشياء واستخلاص للعبر من الأحداث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: بعد تكذيب المشركين في أقوالهم ورد شبهاتهم حول إمكانية البعث والنشور بقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، جاء هذا الرّدّ على شائعة أخرى كان اليهود يردّدونها وفق ما جاء في سفر التكوين من التوراة، ومفادها أنه تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع وهو يوم السبت فكان عندهم يوما مقدسًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا، والاستراحة تكون من التعب والإعياء، وهو المقصود باللغوب المنفي في الآية بقوله تعالى في جملة حالية: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، ﴿مِنْ﴾: زائدة للتوكيد، والتعبير بالمس هو للدلالة على أقلّ الإصابة، فكيف بأشدّها، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: التفريع بأمر الرسول بالصبر بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ في خلقة السماوات والأرض يوحي بأن يتخلق الرسول بأخلاق الله في الثبات والصبر، وأن لا يشعر بالعنت والنصب في تبليغ دعوته، ويستمد منه تعالى المدد الروحاني بالتسبيح والتحميد في كل الأوقات من الصلوات الخمس، وذلك على تأويل معنى التسبيح بالصلاة، وقيل: إنّ المراد بها هي النوافل، وعلى التأويل الثاني فيكون الأمر للندب لعموم المسلمين. وللوجوب بالنسبة لرسول الله.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ، إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ، يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾:

﴿وَاسْتَمِعْ﴾: عطف على قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وهو خطاب لرسول الله، ومن خلاله هو تمديد لأولئك المنكرين الجاحدين لوقوع البعث والنشور، فالأمر بالاستماع ثم الإخبار بما يقع في ذلك اليوم الموعود، يوم تسمع الخلائق الصيحة الثانية من الملك الموكول بذلك ليخرجوا من قبورهم كأنهم جراد منتشر، فالأمر بالاستماع ثم الإخبار بعد ذلك فيه تهويل وتعظيم لشأن المخبر به، وتوجيه الخطاب إلى الرسول مباشرة هو لإشعار المكذبين بأن الرسول بريء من صناعة ذلك الخبر، بل هو مبلّغ ما يملى به عليه تنزيلا من ربّ العالمين.

وبعد بيان ذلك المشهد المهيب من مشاهد يوم القيامة يلخص الله ما تقدم من أول السورة بقوله مركزا على أساس الإيمان باليوم الآخر فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾، فقدرة الله في الإيجاد والإفناء وإعادة الحياة والحشر ليوم الجزاء هي الحقيقة التي يقررها في هذه الآية الكريمة والتي يجادل فيها الكفار ويجحدون.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ فيه تشبيه بما يقع في الأرض من الاهتزاز والتشقق بعد نزول ماء المطر عليها لتخرج النبت والزرع، كذلك يكون خروج الأموات من قبورهم عند النفخة الثانية بقدرة الله وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج:٤٣). ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (القمر:٧).

ولما كانت هذه العملية بالنسبة إلى البشر شيئا صعب التحقيق جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، إذ هو شيء سهل يسير على الله الذي خلقهم وأحصاهم عددا، وقدّر آجالهم في الأولين والآخرين، ونحن نشاهد اليوم كيف تحار الحكومات في ضبط المظاهرات الشعبية حين يتداعى الناس إلى المطالبة بحق من الحقوق، فإذا تصوّرنا حجم الخلائق من لدن آدم

إلى قيام الساعة فإننا لا نلبث أن نعجب مع الشاعر المعرّي حين قال:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد
سر إن استطعت في الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد
ربّ لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾:

بعد أن أمر الله رسوله بالصبر على ما يقوله خصومه وثبته بالمدد الروحاني من التسبيح والتحميد، أخبره هنا بأنه على علم تامّ بما يقولون، وفي ذلك تعريض لهم بالوعيد بأنه تعالى سينتصر لرسوله وينتقم منهم، ثم طمأنه بأنه غير مسؤول على ضلالهم وعنادهم، لأنه لا يملك أن يجبر النّاس على الإيمان وشأن الهداية ليس إليه، بل هو لله وحده. ولذلك فرّع الأمر بالتذكير لأن ذلك هو مهمّته وخصّ بالتذكير من ينتفع به من المؤمنين الذين يخشون ربهم بالغيب ويخافون وعيده، وهم يتجاوبون مع القرآن في إرشاداته ومواعظه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢١-٢٢).

وكفى بالقرآن واعظا لمن كان له قلب منيب، أما أولئك الذين تحجرت قلوبهم فعموا وصمّوا فليس فيهم مطمع للاستجابة ولا هم يهتدون، والله أعلم.

تمّت

سورة الذاريات، مكيّة، وآياتها ٦٠

- بين يدي السّورة الكريمة:

تسمّى بسورة "والذاريات" بإثبات الواو وتسمّى: "الذاريات" بدونها، وهو الوصف المقسم به في أول السورة، وهي مكيّة اتفاقا وآياتها ستون آية. وهي الستة والستون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الأحقاف، وقبل سورة الغاشية، وأمّا في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الحادية والخمسون.

- وقد ركزت مثل سورة "ق" على إثبات البعث والجزاء، وأبطلت مزاعم المكذبين برسالة رسول الله، وتوعدهم الله بعذاب جهنم، وفي مقابل ذلك وعد المؤمنين بنعيم الجنة جزاء إحسانهم.

- ثم الاستدلال على وحدانية الله وعلى قدرته على إعادة الخلق ببعض المشاهدات الكونية وبيان حكمته تعالى في الجزاء وفصل القضاء.

- التعريض بالمشركين ببعض ما حاق بالأمم الخوالي التي كذبت برسل الله، ودعوة المكذبين إلى الرجوع إلى الله وتصديق الرسول بإدمان التذكير.

- إعذار الرسول من تبعة إعراض المكذبين وتهديدهم بما يوعدون به

التأكيد بالقسم على وقوع البعث.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾
فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾: وصف للرياح، تذرو التراب والهشيم، أي تفرقه، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (الكهف:٤٥). أقسم الله بها، والريح من جنود الله يسخرها للنفع والضرّ، ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾: هي السحب الثقال، تحمل مياه الأمطار، والوِقر -بكسر الواو- هو الحمل الثقيل، وأما الوَقر -بفتح الواو- هو الصمم. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾: أو الجواري، هي السفن تجري في البحر. ﴿يُسْرًا﴾: أي جري يسر، مفعول مطلق. ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾: وصف للملائكة تقسّم الأمور على الخلق بإذن الله، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل، وقد ثبت هذا التفسير نقليا عن عمر وعلي ﷺ، ويرى بعض المفسّرين أن الأوصاف الأربعة كلها للريح. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه لإثبات البعث ويوم الجزاء، أكدت الجملتان بـ"إن" والجملة الاسمية واللام المزحلقة، زيادة على القسم عليهما. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ﴿الْحُبُكِ﴾: -بضمتين- جمع حِباك، أو حبيكة مشتقة من الحبك، وهو إجادة النسج وإتقان الصنع، والمراد الطرق المحددة للنجوم والكواكب، وقال ابن عباس: ذات الخلق السويّ الجيّد. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾: الخطاب لأمة الدعوة، والقول المختلف هو المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: أي يصرف عن الحق أو عن الإيمان، والإفك -بفتح الهمزة- الصّرف. ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾: من الخرص، وهو الظن الذي لا حجة لصاحبه في ظنه وهو سبب للكذب. والغمرة: المدّة من الغمر

أي التغطية والسهو: الغفلة. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾: والفتن التعذيب والتحريق أي يعذبون في نار جهنم. ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: الجملة مقول قول محذوف، أي يقال لهم، والأمر فيها للتنكيل. ﴿هَذَا الذِي﴾: مبتدأ وخبر: الإشارة إلى العذاب وهو من جملة مقول القول.

ج- البيان والتفسير:

إن المناسبة بين سورتي "ق" و"الذاريات" قويّة، إذ تركّز كلتاهما على أسس العقيدة شأن السور المكيّة، ولا سيما الإيمان باليوم الآخر في جميع مراحله، فنجد في ختام سورة "ق" الأمر للرسول أن يذكّر بالقرآن من يخاف وعيد الله باليوم الآخر أي من يكون مؤمنا حقا بالقرآن متجاوبا مع ما فيه من الوعد والوعيد، ثم جاءت سورة "الذاريات" لتبيّن صدق ما بينه القرآن من حقيقة يوم الفصل والجزاء وأنه واقع لا محالة فقال تعالى: **﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا، فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾**.

أقسم الله تعالى ببعض مخلوقاته ذات الشأن العظيم في الدلالة على قدرته وبديع صنعه، وقد تكرّر في القرآن الكريم مثل تلك الأقسام كل منها في السياق المناسب ولله الحكمة في أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته.

أقسم الله بأربع صفات لموصوفات مقدرة طواها النصّ للإيجاز وللإيماء إلى عظمة تلك الصفات لأنها من تدبير خلق الله وبديع صنعه، ويدلّ عطفها بالفاء على تجانسها وتكاملها، ولذلك يرى كثير من المفسّرين على أنها صفات لموصوف واحد، وهي الرياح، ويرى آخرون اختلافات الموصوفات.

فقوله تعالى: **﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾** هي صفة للرياح كما ورد ذلك في تفسير نقليّ عن رسول الله، فالذاريات من فعل: ذرا، يذرو، ذروا، أي بث ونشر، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (الكهف:٤٥). أي

تفرقه وتفزّعه، أكّده الله بالمفعول المطلق لإلفات الأنظار إلى تلك الظاهرة الكونية العصيبة من هبوب الرياح على كيفيات مختلفة، لها آثارها العظيمة على الحياة نفعا وضرّا.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾: الوقر -بكسر الواو- الحمل الثقيل، وهو وصف للرياح نفسها، تحمل السحب الثقال في الجوّ وتحمل الرمال وغيرها، أو الحاملات وقرا: هي السحب نفسها تحمل الماء والبرد والثلج.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾: هي أيضا وصف للرياح تجري رخاء، وتلقح ذرات الماء وأنثى النباتات والأزهار...إلخ. وإما أن تكون وصفا للسفن الجواري على الماء، ييسّر الله لها الريح لدفعها في كلّ اتجاه.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾: أكثر المفسّرين على أنهم أصناف من الملائكة يقومون بتدبير بعض الشؤون بأمر الله، لقوله تعالى في وصفهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٧). ومن المفسّرين من قال إنه وصف للرياح -أيضا-، تقسّم السحب على المواضع التي أراد الله إنزال الماء بها، وذلك من تقسيم الأرزاق على العباد، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ (الجاثية:٥). والله أعلم بمراده.

وفي المقسم عليه قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، الخطاب للمشركين المنكرين للبعث، وما أوعدوا به هو عذاب الآخرة مما ينتظرهم من عذاب النار، وحتى ما يوعدون به من عذاب الدنيا في العاجل من الأخذ بالسنين ومن القتل والأسر. والمعنى: إن الذي توعدون به لصادق. فقد تعاقبت المؤكّدات في الجملة نظرا لشدة إنكارهم وتعنتهم، ومعنى: ﴿وَاقِعٌ﴾ أي في المستقبل، ويؤيّده قوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، أي يوم الجزاء.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ، إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ، يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ افِكَ﴾:

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: أي الطرائق المحدّدة لسير النجوم والكواكب في تخطيط وتنسيق محكم، أقسم الله بالسماء الشاملة لتلك الطرائق لتأكيد المقسم عليه السابق؛ لأن المخاطبين غير واعين بموقفهم أزاء المقسم عليه من حيرة واضطراب أزاء الحق المنزل عليهم، فليس لهم تصوّر واضح في معتقداتهم الفاسدة حول نشأتهم ووجودهم ومصيرهم كما قال تعالى في شأنهم بسورة ق: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (٥).

﴿يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ افِكَ﴾: يستعمل "الأفك" -بفتح الهمزة- يستعمل في القرآن للصرف عن الحقّ، واختلف المفسّرون في تحديد معاد الضمير في قوله: ﴿يُؤفَكُ عَنْهُ﴾، والأكثر على أنّ معاد الضمير هو الحقّ، أو الرسول، أو القرآن، أو الدين، فيكون المعنى: يوفك عنه من قدّر الله تعالى عليه أن ينصرف عن الحقّ بخذلان من الله، أو وسوسة الشيطان، أو غير ذلك من الأسباب، أي يكون المصروف عنه هو الحقّ أو القرآن أو الرسول بحسب المقام.

وأما الذين أرجعوا الضمير إلى القول المختلف فيكون المعنى على عكس ذلك إثباتا على الحق وابتعادا عن الاختلاف فيه.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ، الذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: دعاء بالهلاك والطرد، والخرّاصون صيغة مبالغة من الخرص وهو الظّنّ الذي يدعو إلى الكذب، وصف به أولئك المختلفون في أقوالهم في أصول الاعتقاد مما لا يمكن أن يعتمد فيها إلا على ما أنزله الله من وحيه، وقد وصف الله هؤلاء بأنهم في غمرة ساهون، والغمرة من الغمر، وهو بمعنى التغطية من كلّ الجوانب كما يغمر الماء قيعان الأرض، والسهو هو الغفلة وهم في الحقيقة متغافلون عن الحق

الذي يقرع أسماعهم، ولكن أهواءهم غطّت عليهم منافذ الإدراك وزينة الدنيا خبلت أبصارهم.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾:

يعدّد الله سمات الكافرين الجاحدين، فبعد وصفهم بالخرص واعتماد الظنون الكاذبة وبانغماسهم في غمرة السهو غافلين عن براهين الحق، يضيف الله إلى ذلك محاولتهم التستّر على انحرافاتهم بإلقاء التساؤلات الباطلة في معرض الاستهزاء بيوم الدين، متى يحين موعده مستعجلين إتيانه عنادا وإنكارا بمثل قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سبأ:٢٩)، ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الدخان:٣٦)، ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص:١٦).

فكانت الإجابة الرّبانية بذكر وعيد النار التي تصهر أبدانهم كما يفتن الصائغ الذهب والفضة لتصفيتهما من الشوائب، يقال: فتن يفتن، أي صهر الشيء في النار ليختبره، ويقال لهم تبكيتا وتوبيخا للإمعان في تعذيبهم، يقال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وفعل: ﴿ذُوقُوا﴾، مستعار للإحساس القويّ، ويكون باللسان، والتعبير بـ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ تدل الإضافة فيها على اختصاصهم بذلك واستحقاقهم لها بكفرهم.

والإشارة في قوله: ﴿هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، هي للعذاب الماثل بين أعينهم زيادة في الإهانة والتنكيل؛ لأن استعجالهم إياه في الدنيا كان بدافع إنكار وقوعه، فهل يستطيعون يومئذ إنكار الواقع، قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر:٦-٧)، والله أعلم.

جزاء المتقين، والإشادة بمناقبهم في الدنيا.

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: جنات: جمع "جنة"، أي الأرض الخصبة الملتفة الأشجار، ذات الأزهار والثمار مما تتملى جماله في الدنيا، يصف الله به دار كرامته للمتقين، أمّا حقيقة ذلك، فإنّ ما في الآخرة لا يشبه ما في الدنيا إلا في الأسماء. ﴿وَعُيُونٍ﴾: جمع عين، أي منبع الماء، فهي عيون لسوائل مختلفة كما تقدم في سورة محمد: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: ﴿ءَاخِذِينَ﴾: منصوب على الحال، وهو مستعمل في حقيقته ومجازه، لما يتمتعون به من أنواع النعم المادية والروحية، أي يتقبلون ما يعطيهم ربهم برضى كامل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: الجملة تعليل لسابقتها، والإشارة إلى يوم البعث، والإحسان هو أعلى مراتب التقوى كما عرفه رسول الله. ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: تفصيل للخصال التي بوأتهم منزلة الإحسان، والهجوع: النوم الخفيف. و﴿مَا﴾ زائدة للتأكيد. ﴿قَلِيلاً﴾: منصوب على الظرفية. ﴿وَبِالأَسْحَارِ﴾: جمع: سَحَر، وهو

آخر الليل، يغلب فيه النوم على الإنسان. ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: المقصود بالرزق إنزال المطر، وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: يشمل الوعد والوعيد، وكون ذلك في السماء يحتمل أنه تحقق في علم الله باللوح المحفوظ أو معناه وجود الجنة والنار قبل يوم القيامة. ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: الضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى قوله: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾. وقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: لزيادة تقرير الوقوع.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِثْلَ﴾: قرأ الجمهور بالنصب على أنه صفة حال محذوف قصد منه التأكيد، والتقدير: إنه لحق حقا مثل ما أنكم تنطقون. وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف، قرأوه مرفوعا على الصفة لـ ﴿لَحَقٌّ﴾. و﴿مَا﴾ الواقعة بعد: ﴿مِثْلَ﴾ زائدة للتوكيد.

د)- البيان والتفسير:

اتباعا لأسلوب القرآن في التقابل بين النذارة والبشارة، يأتي هذا المشهد الترغيبي لجزاء المتقين يوم القيامة مع الإشادة بمناقبهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا، ثم التحريض على تدبّر آيات الله الدالة على قدرته وربوبيته في الأرض والسماء وفي الأنفس، مقسما بربوبيته للسماء والأرض، على أنّ وعده بالبعث والجزاء حقّ مثل ما ينطق البشر بألسنتهم فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، اخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**.

إنّ صفة التقوى كثيرا ما ترد في القرآن تمييزا للمؤمنين الأوفياء الصادقين

المستكملين لخصال الإيمان وكثيرا ما يعقبها الجزاء بالجنات تجري من تحتها الأنهار، كما جاء الوصف مختصرا في هذه الآية الكريمة، ووصف دار النعيم بالجنات والعيون هكذا بصيغة الجمع هو جري على ما تألفه في الحياة الدنيا من جمال الطبيعة وزينتها بخفيف الأشجار وخرير المياه وجمال الخمائل والأزهار ولكن ما في جنة الخلد هو أعلى وأرقى وليس في الدنيا من شبيه لها إلا في الاسم كما ورد ذلك في الحديث القدسيّ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».[1]

فهي جنات تتفاوت في أنواع نعيمها حتى الفردوس الأعلى، وهي عيون تجري بمختلف السوائل كما وصفها الله في سورة "محمد". وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥).

وقوله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: ﴿آخِذِينَ﴾: منصوب على الحال، وهو مستعمل في حقيقته وفي مجازه، لأنّ المعطَى يكون ماديا وروحيا ويكفيهم تشريفا وتكريما أن ينسب ذلك الإعطاء إلى الرّبّ الكريم، وهو لا يعطي إلا الكريم العظيم بمنّه وفضله، وهم يأخذون ذلك عن رضى وطمأنينة لأنه أجر غير ممنون كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (فصلت:٨). عطاء غير مجذوذ، وأخذ الشيء بالرضى والقبول يمثل عند الإنسان المكرَّم أعظم السرور والارتياح عندما يطمئن إلى كرم المعطي ويقدّر فضله عليه.

ثم يبيّن الله السبب الذي تبوّأ به المتقون تلك المنزلة فيقول: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٦٣) بدء الخلق، باب (٨) ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، رقم ٣٠٧٢: ٣/١١٨٥.

ووصفهم بالإحسان هو لبيان منزلتهم العالية عند الله، والإحسان كما وصفه الرسول هو «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]، والمحسنون هم من المقربين الذين بلغوا ذروة الإيمان باجتهادهم في النوافل والقربات، وقد بيّن الله أصول ذلك الإحسان بأمور ثلاثة فقال:

أ)- ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾: أي يحرصون على قيام الليل في عبادة ربهم راكعين ساجدين، وأفضل الأوقات لذلك وقت السحر الثلث الأخير من الليل ولذلك خصّه الله بالذكر فقال:

ب)- ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾: جاء التوكيد بضمير الفصل، والاستغفار طلب المغفرة للذنوب، وذلك مطلوب من المؤمن في كلّ وقت، ولكن تخصيص السحر من بين الأوقات دليل على زيادة فضله، ذلك لأنّه الوقت الذي يتلذذ الناس فيه بالنوم، والله يختبر عزيمة عبده بقيامه في ذلك الوقت والناس نيام، وهم مع قيامهم بأداء حقّ الله عليهم بالصلاة والاستغفار، تجدهم رحماء بخلق الله يجعلون حظًا في أموالهم للفقراء والمساكين فقال تعالى:

ج)- ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾: وما أروع التعبير بالحق في المال، فلا منّ ولا مزية.

والسائل هو الذي يسأل الناس ليعطوه معبّرا عن حاجته وفقره، وأما المحروم: فهو الذي لا حظ له من مال أو أصابته جائحة فذهبت بماله، وقد يعبّر عن النوعين: بالفقير والمسكين، وليس المراد بالحق في المال الزكاة المفروضة بل المراد صدقات التطوّع لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا في المدينة المنوّرة.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٢) الإيمان، باب (٣٦) سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠: ١/٢٧.

تلكم هي الصفات الثلاث التي ميّز الله بها عباده المحسنين الذين يستحقون محبة الله ومعيته إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨).

﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾:

بعد أن أقسم الله على تحقيق وقوع البعث فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، انتقل السياق إلى الاستدلال التدبّري في الآيات الدالة على عظمة الله وقدرته في الآفاق وفي الأنفس فقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، بدأ الله بالقريب المشاهد المتصل بالإنسان وحياته، وكم في القرآن من آيات تحرّض على النظر والتأمل في ما خلق الله من مثل قوله: ﴿قُلُ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس:١٠١). ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الروم: ٤٢).

وجاءت الآية هنا مختصرة في مبتدأ وخبر، قدم الجار والمجرور على المبتدأ للاهتمام والتشويق، وجاء الجمع ﴿ءَايَاتٌ﴾ ليشمل كلّ الأحوال الأرضية التي يمكن للإنسان أن يكشفها ويطلع عليها، وهي ما تزال مجالا واسعا للأبحاث والاكتشافات وما يزال المجهول منها أكثر من المعلوم سيما سنة الإيجاد والإفناء للمخلوقات مما يدلّ على قدرة الله، تلك السنة العجيبة التي يجري مسلسلها في ذواتنا حياة وموتا لخلايا الجسم، ولذلك لفت الله أنظارنا إلى ذلك فقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾، والتقدير: وفي أنفسكم آيات. فميزة الإنسان الخلقية والخلقية على سائر المخلوقات الأخرى تجعله فريدا من نوعه في التكوين وفي الإلهام والإدراك وفي التصرّف والتدبير، سيما في جوانبه النفسية المعقدة إذ الأبحاث في مراحلها الابتدائية، وصدق الذي قال:

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فالله الذي هو أعلم بمن خلق يوجّه أنظارنا إلى تدبّر تلك الحقائق المحيطة بنا، ولكن الذين يستفيدون من ذلك هم أولئك الذين لهم القابلية والاستعداد لأن يقتنعوا ويوقنوا بما يهتدون إليه من الحق فيؤمنون به ويتبعونه.

﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾: استفهام إنكاريّ، يراد به الحث والتحريض على التدبّر والتأمّل.

﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: تغيّر الأسلوب بالنسبة للتأمّل في السماء، والسماء تعني الكون الفسيح بكل ما فيه من أسرار وغيوب وتعني علوّ الشأن والقدر والعظمة من كل ما يترل من قبل الله من مدد ماديّ أو روحاني، وفيه ربط محكم لوجود هذا الإنسان، فهو وإن كان منبته في الأرض وأسباب رزقه قائمة على الأرض حيث يكدح ويكدّ لتوفيرها، فإن الله يلفت نظره إلى السماء إلى ما تحتفظ عليه من غيوب إلى الله الموجه الرازق والمحي والمميت والذي بيده ملكوت كل شيء، فيصل بذلك قلب المؤمن بالمصدر الحقيقي للرزق وإلى المآل الموعود به في دار القرار، من الجنة أو النار، وإنه لمن الإعجاز العجيب ذلك الإدماج لأدلة البعث بين الأدلة الشاهدة التي لا جدال فيها ولا مواربة، ثم في ذلك البيان لموقع الإنسان بين ماديات الأرض وروحانيات السماء، والإيمان الصادق هو الوسيلة الوحيدة لوضع ذلك الإنسان في موقعه المحمود على مسلك الفطرة السليمة.

وبعد تلك الأقسام وما تلاها من بيانات فرّع عليها القسم بذاته العلية زيادة في التأكيد على صدق ما وعد به فقال: **﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾**، أقسم الله بذاته العلية، وإنه ربّ السماء

والأرض هكذا بصفة الربوبية التي تعني الرعاية والحفظ والقيّومية. والمقسم عليه هو قوله: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، والضمير عائد إلى قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وهو ردّ على قوله في أول السورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، أي من البعث والجزاء، وقد زاد تلك الحقيقة تقريرا تشبيهها بشيء لا يمكن أن يجادلوا فيه ولا أن يشكّوا في وقوعه، وهو كونهم ينطقون بألسنتهم، وذلك من ميزات الإنسان التي لا يشاركه فيها أي حيوان آخر، وقد عرّفه العلماء بأنه حيوان ناطق، والإتيان بالمضارع: ﴿تَنطِقُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تشبيه لأمر غيبي بشيء محسوس لا مراء فيه ولا جدال، وكذلك يضرب الله الأمثال.

الاعتبار بأحوال الأمم الماضية.

٠١ - قصّة إبراهيم مع ضيفه.

أ)- النصّ:

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ
قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ
فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هَلَ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾: ﴿هَلَ أَتَاكَ﴾: الاستفهام للإعلام بالأخبار عن المهمّة، والضّيف اسم يقال للواحد وللجمع، وهم جماعة من ملائكة الله على رأسهم جبريل عليه السلام ولذلك وصفوا بالمكرمين لقوله تعالى في شأن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦). ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾: ﴿إِذْ﴾: بمعنى: حين دخلوا عليه، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾: منصوب على المصدر أو بفعل مقدر. ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: ﴿سَلَامٌ﴾: مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: سلام عليكم، أو هو مرفوع على الخبر، والمبتدأ مقدّر، أي أمر من سلام. ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: قال إبراهيم ذلك لأنه لا يعرفهم، من نكره ينكره. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: راغ يروغ، مال في الشيء إلى جانب، ومنه روغان الثعلب، أي حاد عن أضيافه ليذهب إلى بيته، والعجل: ولد البقرة، وصف في سورة هود بـ﴿حَنِيذٍ﴾(٦٩). أي مشويّ، زيادة على كونه سمينا. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: ﴿أَوْجَسَ﴾: أحسّ بالخوف في نفسه ولم يظهره. ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: ﴿فِي صَرَّةٍ﴾: في صيحة شديدة، ومنها صرير الباب، وصرير القلم. ﴿فَصَكَّتْ﴾: أي لطمت وجهها تعجّبا مما سمعته من الملائكة. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: العجوز مشتق من العجز، ويستوي فيه المذكّر والمؤنث، والعقيم: بمعنى مفعول، هي التي لا تحمل جنينا. ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: بمعنى ما قلناه لك ليس من عندنا بل هو من الله. ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾: قال إبراهيم لضيفه: ما شأنكم الذي جئتم فيه. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ، مُّسَوَّمَةً﴾: أي لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين محماة مسوّمة، أي معلّمة، من السومة وهي العلامة، أو من أسمت الدّابة إذا أرسلتها في المرعى فهي سائمة. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: هو بيت لوط وابنتيه. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ

الأَلِيمَ﴾: أي بقيت آثارهم علامة على ما أصابهم يعتبر بها الخائفون من عذاب الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: قرأ الجمهور: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾، وقرأه حمزة والكسائي: ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾، بكسر السّين وسكون اللام.

د)- البيان والتّفسير:

انتقل السياق من الإنذار والاتعاظ ومن الاستدلال على عظمة الله وقدرته إلى الاعتبار بأحوال الأمم الخوالي المكذّبة برسلها، كيف أهلكها الله بعذاب الاستئصال، فبدأ بلقطات من قصة إبراهيم وقصة قوم لوط مع المرسلين من ملائكة الله لتدمير قراهم، وفي ذلك تعريض لمشركي مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الأقوام المجرمين فقال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ، قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾.

الجملة: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ على الاستئناف الابتدائي، مصدّرة بالاستفهام الإعلامي نظرا لأهمية المخبر عنه من قصة إبراهيم ولوط، وجّه فيه الخطاب لرسول الله لتسليته مما يلقاه من تكذيب قومه، وللتعريض بالسامعين الجاحدين بأنهم معرّضون إلى مثل ذلك العذاب، وكان الترتيب الذي جرى عليه القرآن في ذكر الأمم الماضية المكذبة برسلها كان الترتيب المتبع أن يبدأ بقوم نوح ثم عاد وثمود...إلخ. ولكن الإبتداء هنا كان بقوم لوط وقصة إبراهيم مع الملائكة

وفي بيان سبب ذلك يقول الإمام ابن عاشور: "إن المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية أن المشركين وصفوا آنفا بأنهم في غمرة ساهون فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط إذ قال الله فيهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر:٧٢). ولأنّ العذاب الذي عذب به قوم لوط كانت حجارة أنزلت عليهم من السماء مشبهة بالمطر، وقد سمّيت مطرا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ (الفرقان:٤٠). ولأن في قصّة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث، فقد تضمنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة، وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات".[1]

قلت: ولأن المخاطبين يعتقدون أنهم على ملّة إبراهيم وأنهم أحفاده من إسماعيل، والنكت لا تتزاحم.

تبدأ القصّة بالاستفهام الإعلامي: ﴿هَلْ﴾ الذي يدل على تحقيق الوقوع وعلى التنويه بالمخبر عنه وتهيئة الأسماع لتسمع تفاصيله، وصف الله القادمين على إبراهيم بأنهم ضيف مكرَمون ويطلق الضيف على الواحد والجمع، فهم مكرمون عنه الله لأنهم من ملائكته المقربين قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦).

و لم يحدّد النصّ عددهم، وقد استقبلهم إبراهيم بما يستحقّه الضيف من التبجيل والإكرام، فما كادوا يدخلون عليه ويسلّمون حتى ردّ التحية بأحسن منها، ويتمثل ذلك في التعبير بالجملة الاسمية محذوفة المبتدأ: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾. وقوله خفية في نفسه: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، لأنه كان لا يعرفهم، فهم ملائكة في زيّ غلمان مرد حسان الوجوه، ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه في دخوله المباشر

١- التحرير والتنوير: ٢٦/٣٥٦-٣٥٧.

على أهله لإحضار الطعام لهم: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، ويدلّ على ذلك العطف بالفاء، و﴿رَاغَ﴾: بمعنى توجّه إلى أهله، ووصف العجل في سورة هود بأنه: ﴿حَنِيذٍ﴾(٦٩). أي مشويّ مما يدلّ على المستوى المحترم لعيشة إبراهيم.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَاكُلُونَ﴾: وكان من تمام الضيافة أن يقوم المضيّف على خدمة ضيوفه أثناء تناولهم للطعام، وهذا ما فعله إبراهيم حين قرّب العجل المشويّ إلى ضيوفه وحرّضهم على الأكل، ولكن هؤلاء امتنعوا عن الأكل -وذلك من طبيعة الملائكة-، مما يؤكد عدم معرفته إياهم حتى وهو نبي مرسل، وبالرغم من تأمينهم إياه بإلقاء السلام عند الدخول، توجّس منهم خيفة، أي شعر في داخل نفسه بالخوف من أمرهم. قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (٧٠).

﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾: عندما شعر الملائكة بخوف إبراهيم منهم طمأنوه بأنهم ملائكة الله أرسلهم إليه ليبشروه بأنه يولد له ولد من زوجه ساره، والتعبير: ﴿بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ هو على اعتبار ما يكون عليه ذلك الولد من قوة البدن وذكاء العقل، والولد المبشر به هو إسحاق عليه السلام.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ يدلّ على أنها كانت تتابع حديث الملائكة باهتمام من وراء الحجاب، ولذلك تعجبت مما سمعته من تلك البشرى فصاحت وضربت وجهها بكفّيها كما تفعله النساء عند سماع ما يستفزهن من أخبار عجيبة، و لم تخف حيرتها من إمكانية تحقيق تلك البشرى وهي امرأة عجوز عقيم. وقيل: إنها تجاوزت التسعين من عمرها.

ولكن الملائكة هدّأت من روعها وطمأنتها بأن ذلك ما قضى الله

وحكم به فلا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي ليس هذا من أمرنا، ولكنه أمر الله وحكمه، فهو الحكيم في تقدير ما يصلح لخلقه وهو العليم بسرّهم وعلانيتهم.

وإلى هنا يسدل الستار على ما يخصّ إبراهيم من مهمة رسل الله، ولكنه لقوة حدسه وإلهامه أدرك أن وراء ذلك أمرا آخر يبدو خطيرا كلفهم الله به فقال لهم مستفسرا عما وراء البشارة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ، مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

أجاب الملائكة مفصحين عن مهمتهم الثانية الخطيرة والمتمثلة في إهلاك المجرمين من قوم لوط، واكتفى بوصف الإجرام، حتى تأخذ العقوبة الإلهية الطابع العامّ لكلّ من مارس ذلك الإجرام عبر التاريخ البشريّ والمتمثّل في فاحشة إتيان الذكران من العالمين.

وقد سنّ هؤلاء القوم الشذوذ الفطري الذي أخبر عنه القرآن بأنه لم يمارسه من قبلهم من البشر، فهم الذين حرّفوا الفطرة السليمة في الاتّصال الجنسي بين الذّكر والأنثى وفق الضوابط الشرعية التي سنّها الله تعالى.

ولئن كانت عقوبة أولئك المجرمين الأوائل هو إمطارهم بحجارة من سجّيل، والله أعلم بطبيعتها ومصدرها، وهو يقول: إنّها مسوّمة للمسرفين، فقيل: إنها معلمّة ومصوّبة لأهدافها المقصودة لكل واحد من أولئك المجرمين، وقدرة الله تخرق العادات المألوفة عندنا، فلا عجب ولا غرابة في قدرته تعالى.

قلت: إنّ هذه العقوبة الأليمة تأخذ في النّصّ طابع العموم، ولكن ليس بلازم أن تكون بنفس الشّكل والنّوع للمجرمين بتلك الفاحشة في كلّ زمان

ومكان، والله يقول في تذييل القصة من سورة هود: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُومِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾.

قضى الله بإنجاء المؤمنين برسله، -وإن كانوا قلّة- قبل إهلاك المجرمين، أخبر الله بنون العظمة أنه أمر نبيه لوطا أن يخرج هو ومن آمن معه من أهل بيته في قِطع من الليل إلا امرأته كانت من المهلكين مع قومها، إذ كانت تمالئهم على الفاحشة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قيل: إنه لوط وابنتاه، وفي سورة هود مزيد من التفصيل في كيفية الإنجاء والإخراج، وبعد الرمي بحجارة الطين ثمّ تدمير قرى "سدوم" إذ جعل الله عاليها سافلها حيث يقع البحر المَيت في "إسرائيل" اليوم.

وهذا النوع من العذاب كان الجزاء الوفاق المناسب لحجم تلك الفاحشة التي يقلب فيها الوضع الطبيعي للرجل على وجهه لينكح من دبره، فكان الجزاء من جنس العمل في قلب وضعية تلك المدن دكًا في الأرض.

وقد بقيت آثار ذلك الدمار علامات ناطقة دالة على نقمة الله وسخطه يعتبر بها كل خائف من سخط الله وغضبه، ممن يرجو رحمته ويخاف عذابه.

فماذا ينتظر أولئك الذين سنوا القوانين المشجعة لتلك الفاحشة وشرعوا الزواج بين الاثنين -والعياذ بالله- ماذا ينتظرون غير انتقام العزيز الجبار في الدنيا، وفي الآخرة عذاب النار.

والله أعلم.

الاعتبار بأحوال الأمم الماضية

٠٢- أقوام آخرون كذّبوا رسلهم.

أ)- النصّ:

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾. والتقدير: وفي موسى آية. والسلطان المبين: هو الحجة الواضحة المتمثلة في معجزة العصا واليد. ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾: أي أعرض بنفسه عن ذكر الله، وقيل: ﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾، أي بقوته وأتباعه. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾: أي فألقيناه مع جنوده في البحر، والنّبذ الطرح المهين للشيء. ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾: أي أتى ما يلام عليه، من إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول، وفيه استعارة، والجملة في موقع النصب حال. ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾: أي لا خير فيها ولا بركة، شبهت بعقم المرأة بطريق الاستعارة. ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّمِيمِ﴾: الشيء إذا رمّ أي يبس وبلي. ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾: من العتوّ والاستكبار عن امتثال أمر الله. ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾: أي أنهم أصبحوا هامدين موتى،

لا حركة لهم، استعمال للمقيد في المطلق. ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾: لم تكن لهم قوة تمنعهم من العقوبة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: قرأ الجمهور بالألف، أي بصاد ممدودة، وقرأه الكسائي بدون ألف. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَقَوْمَ﴾ بالنصب بتقدير: اذكر. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالجرّ على ﴿ثَمُودَ﴾، على تقدير: وفي قوم نوح.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر خبر إبراهيم وما فيه من دليل على قدرة الله، ثم قصة قوم لوط وما تحمله من عظة واعتبار، عطف الله على ذلك قصص قوم آخرين كذبوا برسل الله، واستكبروا في الأرض بغير الحق، كيف كانت عاقبتهم بعذاب الاستئصال، وفي ذلك تعريض بمكذّبي رسول الله أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الأقوام، فقال تعالى: ﴿**وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ، فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ، فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ**﴾.

العطف على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، والتقدير: وفي موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. أي بالحجة والبرهان الواضحين، وهي المعجزات الخارقة المتنوعة التي أيده الله بها ومنها معجزة العصا واليد، وقد أدركها فرعون واتضح له الحق من خلالها، ولكنه أعرض ونأى بجانبه مستكبرا بما لديه من قوة وجبروت، واتّهم موسى بالسحر والجنون، وكان ما كان بين موسى وسحرة فرعون من مباراة

وسحال. ولكن النصّ يختصر تلك الأحداث ويمضي إلى بيان نهاية فرعون مع قومه، بإغراقهم في اليمّ، وهو منبوذ باحتقار وهوان، ملوم على الفساد والطغيان والجبروت، فما بكت عليهم السماء والأرض.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾:

وآية أخرى في عاد، وهم قوم هود عليه السلام، وكانت لهم حضارة في منطقة الأحقاف بجنوب الجزيرة، وكانوا أشداء الأجسام، فطغوا وتجبّروا وقالوا من أشدّ منا قوّة؟. وبعد إقامة الحجة عليهم برسولهم هود، سلط الله عليهم الريح العقيم، أي التي لا نفع فيها، إذ لا تحمل ماء ولا تلقح سحابا ولا نباتا، والريح تأتي على أنواع متعددة يصرّفها الله كيف يشاء، وهي جند من جنوده، فكانت لهؤلاء القوم شرّا ووبالا، وصفها الله بأنها لا تترك شيئا أتت عليه إلا فتّتته وجعلته كالرميم، أي العظم البالي.

وإن كان التعبير التصويريّ في النصّ يدلّ على العموم لجميع الأشياء، إلاّ أنه مخصّص بدليل العقل الواقعي فيكون البلى للأشياء القابلة لذلك، إذ بليت أجسامهم وبقيت مساكنهم، وقد قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥٨). وهل كفار قريش أكرم على الله من هؤلاء.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾:

ثمود هم قوم صالح، ظلّ يدعوهم إلى عبادة الله وينذرهم من عذابه إن تمادوا على الكفر والطغيان، ومتعهم الله بالقصور والجنات، ونحتوا بيوتهم في

صخور الجبال خوفا من ريح كريح قوم هود، وقد تكون الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى ما ورد في سورة هود من إمهال صالح لهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة إذ قال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود:٦٥). وقال بعض المفسّرين: كان التمتع قبل الفترة التي عاشوها مع صالح في دعوته قبل نزول العذاب عند قتلهم الناقة.

وأيا كان الأمر فقد أهلكهم الله بالصاعقة، فزهقت أرواحهم وهم ينظرون، وأكّد الله هلاكهم بقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾، فلم تبق لهم من قوة للهرب والنجاة ولا وجدوا من ينصرهم، فقد أتاهم الله بالعذاب من حيث لم يحتسبوا، والله أعلم بقوة تلك الصيحة التي صعقوا بها، إذ نرى كثيرا من الناس يموتون بالسّكتة القلبية عندما يتعرضون لمثل تلك الصدمات.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: التقدير: اذكر قوم نوح من قبل أولئك الأقوام إذ أهلكناهم لأنهم فسقوا عن أمر ربّهم، و لم يشر الله إلى طريقة إهلاكهم، بل اكتفى بذكر السبب لما في ذلك من الإنذار والتخويف، والله أعلم.

الله قويّ قاهر فلا ملجأ منه إلاّ إليه.

أ)- النصّ:

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: ﴿وَالسَّمَآءَ﴾: منصوب على الاشتغال للتأكيد، والتقدير: بنينا السماء بنيناها. ﴿بِأَيْيدٍ﴾: بقوّة من: آد الرجل يئيد، بمعنى قوي، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص١٧). والموسع: من كان ذا وسع أي ذا قدرة، وهو مأخوذ من السعة ضدّ الضيق قال تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ (البقرة:٢٣٦). ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: ﴿وَالأَرْضَ﴾: منصوب على الاشتغال، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض للمدح. ﴿مَاهِدُونَ﴾: فاعله مرفوع والمخصوص بالمدح تقديره: نحن. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: الزوج: الذكر والأنثى في الحيوان والنبات، والسالب والموجب في غيرها، وزاد البعض فقال: المتضادات كالشفاء والسعادة، والهدى والضلال...إلخ . ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾: الجملة مفرّعة عن قول محذوف والتقدير: فقل فرّوا إلى الله. المخاطب: بـ﴿فِرُّوا﴾ هم المشركون، والفرار: الهروب من مكان يتوقع فيه الأذى، ويكون الفرار من الشرك بتوحيد الله، والجملة: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: من تعليل للأمر، أي: أخوفكم من عقابه.

ج)- البيان والتّفسير:

في إطار الاستدلال على وقوع البعث لا محالة ودفع توهّم المشركين باستحالة إعادة الخلق بعد الفناء أقام الله تعالى الأدلة على كمال قدرته بخلق أعظم المخلوقاته كالسماوات والأرض، فلا يعدّ إعادة خلق الناس بالنسبة إليها إلا شيئا يسيرا، فهو القوي القاهر فلا ملجأ منه إلا إليه، وما الرسول محمد إلا نذير لهم بين يدي عذاب شديد.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، مرة أخرى يعود

السياق إلى التذكير ببديع صنع الله في السماء والأرض، كما افتتحت السورة الكريمة، وفي قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. فابتدأ الله هنا بخلق السماء؛ لأنها ما تزال الفضاء الكوني العجيب الذي نشاهده ولا نكاد ندرك من أسراره أو نكشف من آياته إلا ما تحار فيه العقول وتكلّ فيه الأبصار، سيما ما تقدّم به علوم الفضاء اليوم، واستعار الله لخلق السماء فعل البناء، وأضفى على ذلك صفة القوة والمتانة، وأن الذي بناها هو ذو قدرة فائقة، فكيف يعجزه أن يعيد الخلق للناس مرة ثانية، وذلك أهون عليه كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (غافر:٥٧). ويحتمل -والله أعلم- أن تحمل الجملة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ معنى التوسّع والامتداد في إعجاز علمي ما تزال الأبحاث الكونية تحاول أن تبرهن عليه، وأصل الفكرة أن الكون في حالة تمدّد مستمرّ ما دامت السماوات والأرض، إذ تولد نجوم ومجرات وتفنى أخرى.

﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: استعار لفظ الفراش لبساط الأرض وجعلها مهادا لحياة الإنسان والحيوان ذلولا لمن يمشي في مناكبها، بما شق فيها من سبل وفجاج، فنعم الماهدون نحن بما وفّرنا فيها من أرزاق وخيرات، وما ادخرنا فيها من معادن وكنوز، وفي التذييل بقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ إيحاء للمخاطبين بالثناء على الله لبديع صنعه ورأفته بخلقه، ومن بديع الإعجاز البلاغي في الآيتين الكريمتين، أن لا يكرر فعل البناء للأرض بل استعار لها فراش البيت لتكون أدعى للراحة والاستقرار بالنسبة للإنسان.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: على ذكر خلق السماء والأرض وما كان لنا منه تعالى من نعمة في ذلك أكمل امتنانه علينا ببيان الكيفية التي خلق بها الكائنات فعمّم ذلك بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي من كل نوع من الموجودات مما نعلمه ومما لا نعلمه، فيشمل

ذلك الحيوان والنبات وعناصر المادة كلها، كما أثبته العلم الحديث من وجود السالب والموجب في الكهرباء والذرة، ويؤيّد هذا التفسير قوله تعالى في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

﴿زَوْجَيْنِ﴾: تثنية: زوج، والمراد ما يزوّج من ذكر وأنثى، وأدخل فيه بعض المفسّرين الأشياء المتضادة أو المتقابلة، كالنّور والظّلام، والهدى والضّلال، والشمس والقمر، والبرّ والبحر،...إلخ. قالوا: ولهذا قال الله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي تراجعون أفكاركم في ما اعتبرتموه مستحيلا من إعادة الخلق حين تتأملون قدرة الله في كيفية الخلقة الأولى من ذكر وأنثى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (الواقعة:٦٢).

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا -اخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: فرّع الله على ما تقدّم من الأدلة الساطعة على تفرّد الله تعالى بالخالقية واتّصافه بالقدرة والقوّة، وبالحكمة في الخلق والإيجاد، فرّع على ذلك أمره لرسوله أن يقول للمشركين الجاحدين، يعظهم الرسول بالفرار إلى الله، وذلك بتوحيده والإنابة إليه، وإفراده بالعبودية بعد أن أيقظ مشاعرهم بتلك اللمسات الهائلة في آفاق السماء وفي مناكب الأرض وأصول الخلائق، يعظهم ليفرّوا إلى الله مما يثقل كواهلهم، وينغصّ حياتهم، وينشر الخوف والهلع في نفوسهم من أوضار الحياة الدنيا بكل مفاتنها وأتعابها، يفرّون إلى كنف الله العليّ القدير باتّباع ما بعث به رسله والسير على نهجهم القويم، فإن في ذلك وحده الأمن والاطمئنان.

وما أنسب التعليل بقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن الغاية من ذلك هو التنبيه إلى الخطر الداهم من عذاب الله، فلا ملجأ من الله إلا إليه، والجمع بين الأمر والنهي في التوجّه إلى الله للتأكيد، والله أعلم.

تهديد المشركين بالعذاب، والأمر بالتذكير.

أ)- النصّ:

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما مضى من الحديث في شأن المشركين أي الأمر كذلك، فالكاف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، وزيادة: ﴿من﴾: في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾، تنصيص على إرادة العموم، أي مثل تكذيب قومك لك تكذيب الأمم لرسلهم. ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: الاستفهام للتعجيب، والمعنى: هل أوصى بعضهم بعضا. ﴿بَلْ﴾: إضراب عن مقام الاستفهام لبيان سبب تواطئهم على ذلك القول، وهو الطغيان. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾: تفريع على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي أعرض عنهم إذ لا لوم عليك في إعراضهم. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤمِنِينَ﴾: التذكير يكون لجميع الناس، ولكن الانتفاع به يخصّ المؤمنين. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾: ﴿الْجِنَّ﴾: الجنس المكلف المستتر عن أعين الناس، وهو شامل للشياطين، ﴿وَالإِنسَ﴾: اسم جمع واحده إنسيّ -بياء النسبة-، خبر فيه تعريض بالمشركين؛ لأنهم انحرفوا عن الفطرة.

والعبادة بمعناها اللغويّ: تعني الخضوع والانقياد طوعا أو كرها لله تعالى، وللمفسّرين مذاهب شتى في تفسيرها. ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾: الجملة تعليل لسابقتها: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾، ﴿الرَّزَّاقُ﴾: أي الكثير الأرزاق، ﴿الْمَتِينُ﴾: الشديد، وضمير الفصل يفيد القصر الإضافيّ. ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾: ﴿ذُو﴾: بالرفع صفة للرزاق، ومن قرأ بالجرّ فهو نعت للقوة، وذكّر لأنه تأنيث غير حقيقي. ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾: الذّنوب: اسم ﴿إِنَّ﴾، بمعنى الدلو الكثير، تشبيه مرسل و﴿مِثْلَ﴾: نعت لـ﴿ذنوب﴾، أي لهم نصيب مثل أنصباء نظرائهم من الأمم السابقة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالهلاك مرفوع بالابتداء.

ج- البيان والتّفسير:

بعد الإشارة إلى قدرة الله في خلق السماء والأرض وإلى تقدير سنة الزوجية في الخليقة وأنّه القويّ القاهر فلا ملجأ منه إلا إليه، جاء هذا التعقيب على الرسل والرسالات بأنّ التكذيب بهم هو طبيعة واحدة للمشركين كأنهم يتواصون به جيلا بعد جيل، ولذلك أمر رسوله بالإعراض عنهم مع إدمان التذكير، لأنّ الذكرى تنفع المؤمنين، ثم بيّن الله الوظيفة الأساسية التي خلق العباد لها والمتمثلة في عبادته وأنه الغنيّ لا يطلب منهم طعاما ولا رزقا كما يفعل السادة مع عبيدهم، وفي ختام السورة يتهدّد الذين كفروا وينذرهم بأن لهم نصيبهم من العذاب كما فعل بأمثالهم من قبل.

قال تعالى: **﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾:**

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما تقدم من حديث عرض آيات الله في الآفاق لينتقل السياق إلى التعقيب على ما تقدّم من بيان أحوال الأمم السالفة التي

تقدم ذكرها خلال السورة ضمّنه تهديد المشركين بأن يحلّ بهم ما حلّ بمن قبلهم، إذ قالوا مثل قولهم في شأن الرسل باتّهامهم بالسحر والجنون، حتى لكأنهم تواصوا على ذلك وتواطأوا عليه، على مدار القرون والأجيال، والواقع أنهم لم يتواصوا، ولكن الكفر ملة واحدة، وإنما هو الطغيان والبغي هم يشتركون فيه فتتماثل طبائعهم وتتشابه مواقفهم.

وبما أن رسول الله كان شديد الحساسية لإعراض قومه، حتى يعتريه الشك -أحيانا- بأنه مقصّر في أداء مهمّته التبليغية فيسليه الله تعالى ويقول في إشفاق: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ﴾.

فرّع الله عن الإخبار السابق في بيان طبيعة الكفر الجحودية والتي لا تنتفع بالآيات والنذر، فرّع الأمر للرسول بأن لا يخجل بإعراضهم وأن لا يعنت نفسه في جدالهم، ثم فرّع إخباره بأنه غير ملوم على ذلك بعد ما استنفذ جهده في تبليغ الدعوة، وجاء الإخبار مؤكدا بصيغة الجملة الاسمية مع زيادة الباء في الخبر، زيادة في توكيد النفي وحتى لا يتوّهم أن مهمة الرسول قد انتهت كما ظن ذلك كثير من الأصحاب، عطف الله الأمر لرسوله بالتذكير أي بمواصلة مهمته التبليغية مهما عانده الجاحدون وعلّل الأمر بقوله: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ﴾. وذلك لإظهار العناية بالمؤمنين، وذلك بتعهّدهم باستمرار بما يستمعون إليه من المواعظ ترسخ عقيدتهم في الله وتزيدهم علما بأحكام شريعتهم، وأما غيرهم فأمرهم إلى الله في الحساب والجزاء.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ، مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾:

على ذكر الفرار إلى الله وأمر رسوله بالتذكير، وبعد تلك الإنذارات

والبشارات التي تخلل السورة الكريمة تأتي في آخرها هذه الآية الجامعة لتضع الإنسان أمام مسؤوليته ولتحدد له بدقة موقع وجوده في خضمّ ملكوت الله مع غيره من المخلوقات المكلفة العاقلة.

فهاتان الآيتان على قصر عباراتها تحملان من المعاني العميقة الحسّاسة ما جعلني أتهيّب من البدء في تفسيرها وذلك بعد أن حاولت التوفيق بين مختلف التفاسير قديمها وحديثها لأجد مسلكا وسطا بين التعقيد والإغراب بين المدلول اللغويّ والمصطلح الشرعي وبين التأويل الكلامي الفلسفي، ولعل هذا المسلك المختار قد تمثل في ما حرره المرحوم سيد قطب في الظلال ونسج على منواله الشيخ الإمام بيوض -رحمه الله- في "رحاب القرآن". يقول سيد قطب بعد مقدمة شاملة لبيان موقع الإنسان من الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون يقول: "إن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين:

أ)- **الأول** هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربّا، عبدا يعبد وربّا يعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود، وإلا ربّ واحد والكل له عبيد.

ب)- **والثاني**: هو التوجّه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرّد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبّد لله.

بهذا وذاك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة

الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها".[1]

قلت: وبهذا المفهوم الشامل لمعنى العبادة نتخلّص مما أثاره المفسّرون من تأويلات لا تخلو من تكلف أو تعسّف -أحيانا-، وقرن الله الجنّ مع الإنس لأنهم مكلّفون مثلنا، وإن كنا لا ندري كيف يمارسون عباداتهم، وفي البدء بذكرهم دليل على أن الله خلقهم قبلنا، وربما كانوا أكثر منا تمردًا على الله لوجود الشياطين من بينهم، والله أعلم.

ولنفي كل احتياج لله أو منفعة من تلك العبادة قال تعالى: ﴿**مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**﴾.

ولما كانت ضرورات العيش من الرزق بصفة عامّة ومن الطعام بصفة خاصّة مما يكدّ من أجله الإنسان، فإن الله تعالى غنيّ عن خلقه فهو لا يطلب منهم مالا إن عبدوه كما يفعل السادة بعبيدهم، وليس في حاجة إلى إطعام -حاشاه- كما يفعل المشركون بتقديم القرابين إلى الآلهة.

ثم علّل الجملتين المنعيتين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، أظهر مكان الإضمار لتستقل الجملة بدلالتها على قدرة الله وقوته وغناه المطلق، وأكد المعنى بضمير الفصل الذي يدلّ على القصر.

وفي ختام السورة يأتي هذا الإنذار الشديد للذين يستعجلون وعيد الله سخرية واستهزاء فيقول: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾.

تفريع على آية إفراد العبادة لله لتهديد الظالمين الذين عبدوا غير الله بأن لهم نصيبهم من العذاب مثل نصيب من سبقوهم من الظلمة المكذبين

١- في ظلال القرآن: ٢٦/٢٧ -٢٧.

والمقصود منهم مشركو مكة ومن كان على شاكلتهم؛ لأن الشرك هو أعظم الظلم، فلا يستعجلون نزوله بهم لأنه آت -لا محالة-.

والتعبير بالذنوب تمثيل لما يصيب الذين كفروا من حظهم في العذاب مثل ما أصاب من سبقوهم من الأمم الظالمة كأنهم يستقون من بئر واحدة فيتساوون في أنصابهم من الماء.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: يجيء هذا التفريع بالويل للذين كفروا في آخر السورة، والويل دعاء بالهلاك، والتنكير فيه للتعظيم، وقد أظهر في مكان الإضمار للتأكيد بذكر المرادف للذين ظلموا بالذين كفروا، وإضافة الضمير إليهم: ﴿يَوْمِهِمُ﴾ للدلالة على الاختصاص به، واليوم الذي يوعدون به يحتمل أن يكون عاجلا في الدنيا كيوم بدر، والأخذ بالجوع والسنين، ويحتمل أن يكون هو اليوم الآخر، وهكذا ينسجم ختام السورة بمفتتحها، والله أعلم.

تمت

سورة الطّور، مكيّة، وآياتها ٤٩

- بين يدي السّورة الكريمة:

سورة "الطّور" مكّية جميعها اتفاقا، وآياتها تسع وأربعون آية، سميت "الطّور" لقسم الله به في مفتتح السورة، وهو اسم لجبل طور سيناء الذي ناجى فيه ربنا موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه الألواح المتضمنة لأسرار شريعة "التوراة"، وقيل: هو اسم لكل جبل يكون فيه أشجار، وغلب علما على اسم جبل طور سيناء، إذ نال شرف نزول الوحي، وقد تضاف إليه سورة فيقال: سورة الطور.

وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة "نوح" وقبل سورة "المؤمنون". وهي الثالثة والخمسون في ترتيب سور المصحف الشريف. يقول عنها الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي:

سورة "الطور" نموذج لطيف لعمل القرآن الكريم في النفس عندما يطلع عليها بالهدى كما يطلع الصبح على الليل فيمحو ظلامه ويضيء أركانه، ثم يسوق قصة جبير بن مطعم حين قدم المدينة مشركا ليفاوض الرسول في فكاك أسرى بدر، ودخل المسلمون المسجد ليصلّوا المغرب وراء نبيهم وبقي هو خارج المسجد واستمع إلى سورة "الطور" يقرؤها الرسول في الصلاة، فتغيرت نفسه واهتز الشرك في ضميره وأحسّ كأن الوحي المتلوّ يسحق بقايا الكفر في نفسه ويكتسحها اكتساحا".[1]

قلت: سورة "الطور" تشبه سورة "الذاريات" في جوانب كثيرة في البدء والانتهاء، وفي تشابه الموضوع العام من التركيز على أسس العقيدة، بل حتى في

١- التفسير الموضوعي: ص ٤١٣.

المحاور الأساسيّة التي تتلخص في ما يلي:

أ)- القسم لوقوع القيامة وما يكون من العذاب في اليوم الموعود.

ب)- بيان جزاء المتقين ونعم الله عليهم في الجنة.

ج)- الأمر لرسول الله بمتابعة التذكير والموعظة.

د)- ذكر الأدلة لإثبات وجود الخالق ووحدانيته.

هـ)- الإعراض عن الكفار، وتثبيت الرسول بملازمة الصبر وإدمان التسبيح لله.

هذا وتمتاز السورة بتضمنها لخمسة عشر استفهاما متتابعة من شأنها أن تنبّه الغافلين وتحملهم على التفكير في الحال والمآل.

وقوع القيامة وإثبات أحداثها في اليوم الموعود.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾: أقسم الله بالطّور لشرف منزلته بنزول الوحي، فهو مجرور بواو القسم. ﴿وَكِتَابٍ﴾: مجرور بواو العطف

و﴿مَسْطُورٍ﴾: بمعنى مكتوب. والسّطر: هو الصّف الواحد من الكتابة، والمراد به -والله أعلم- كتاب التوراة الذي كتبه موسى بعد نزول الألواح عليه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف:١٥٤). والرّق -بفتح الرّاء- الصحيفة تتخذ من جلد رقيق، والمنشور: المبسوط. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: هي الكعبة، شرفها الله بنزول الوحي كما شرف الطور، وفي الروايات النقلية أنه بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك فلا يعودون إليه. ﴿السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: هو السماء لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ (الأنبياء ٣٢). ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: بمعنى المملوء ماء بحيث لا ينقص ولا يجف كالأودية، ويرى الإمام ابن عاشور أنه البحر الأحمر الذي غرق فيه فرعون وجنوده، وقد يكون معنى: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ الذي سجّر نارا ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير:٦). ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾: هو المقسم عليه: أي إن عذاب يوم القيامة حالّ بالمكذبين. ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف، العامل فيه هو قوله: ﴿لَوَاقِعٌ﴾. تمور: تتحرك وتضطرب أجسامها من الكواكب والنجوم. وسير الجبال: انتقالها من أماكنها وتنسف بالبراكين والزلازل. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: بدل من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، والدّع: الدفع العنيف إهانة لهم. ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾: الاستفهام للتوبيخ، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ خبره: ﴿أَفَسِحْرٌ﴾، خبر مقدم.

ج- البيان والتّفسير:

﴿وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَّا لَهُ مِن

﴿دَافِعٍ﴾: يفتتح الله السورة الكريمة بأقسام هي أسماء لمقدّسات عنده وعند الناس يقسم بها على أمر عظيم تجاهله أكثر الناس، وبين المقسم به والمقسم عليه تناسب كبير إذ يتعلق الأمر بالغيبيات التي لا يعلمها المخاطبون إلا عن طريق الوحي، وهو له مسالكه ومهابطه ما بين السماء والأرض، من ربّ العزة إلى أنبيائه ورسله، فبين الطور والبيت المعمور والسقف المرفوع حبل نوراني موصول، يتمثل في الكتاب المسطور، غير أن الروايات المتعددة لكل مقسم به قد تشوّش ذلك التناسب البديع، وأفضل مرجّح للمعنى المقصود هو ما حدّده القرآن الكريم لمثل تلك الألفاظ.

وتعجبني ملاحظة سيد قطب التي مهّد بها لتفسير هذا المقطع إذْ قال: "هذه الآيات القصيرة، والفواصل المنغمة، والإيقاعات الفاصلة، تصاحب السورة من مطلعها، وهي تبدأ كلمة واحدة، ثم تصبح كلمتين، ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ في نهاية المقطع اثنتي عشرة كلمة، مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع".[1]

قلت: فعلى ضوء الملاحظة السابقة أرجّح أن يراد بالطّور الجبل المقدس في صحراء سيناء، والذي شرّفه الله بكلامه لموسى عليه السلام والذي تلقى فيه الألواح التي تتضمن نصوص التوراة، ولفظ "الطّور" مذكور في قصة موسى في سور متعددة من القرآن كقوله تعالى:

أ)- ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (مريم:٥٢).

ب)- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ (القصص:٤٦).

ج)- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سِينَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ (المؤمنون:٢٠).

١- في ظلال القرآن: ٣٣/٢٧.

د)- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين:١-٢).

فقد بارك الله هذا المكان وشرّفه بأن جعله مهبط وحيه وميقاتا لرسوله موسى عليه السلام فلا حاجة للتفسيرات الأخرى التي لا سند لها من رواية صحيحة.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾: والأرجح كذلك أن يكون هو كتاب التوراة، وكونه مسطورا أي ذو سطور مستقيمة من الكتابة، وذلك لشدة المناسبة بين الكتاب ومهبطه في الطّور، والتنكير للتعظيم، وإذا توسّعنا في معنى اللفظ نقول: إنه يشمل الكتب المنـــزلة المكتوبة، وفي مقدمتها القرآن الكريم إذ كان يكتبه كتّاب الوحي في الرقاق والصفائح، والرّقّ -بكسر الراء- هو الجلد المرقق من جلد الغزال أو غيره مما يستعمل في كتابة الوثائق قبل اختراع الورق. والمنشور: أي المبسوط للقراءة، ومن المفسّرين من رجّح أنه كتاب الأعمال لكل إنسان معتمدين على قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَـــلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء:١٣).

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: وبناء على ما ذهبنا إليه من التناسب بين المقسمات بها، فإن الأرجح -والله أعلم- أن يراد بالبيت المعمور، الكعبة المشرفة، فهي عامرة بالحجاج والمعتمرين طول السنة. ثم إن القرآن نزل في ما حول الكعبة من مكة المكرمة، فذكر منازل الوحي هو الأنسب، وإن جاءت الرواية بأن البيت المعمور هو بيت في السماء فوق الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، ويقال له: "الضُّرَاح" -بضم الضاد وتخفيف الراء-، والملاحظ أن أغلب ما أقسم الله به في القرآن هو من المخلوقات المشاهدة المعروفة لدى المخاطبين، والله أعلم بمراده. أما السقف المرفوع فهو قبّة السماء وهو مصدر الإنزال للوحي وغيره من خزائن الله، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ

اَيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:٣٢). ويقابلها عظمة في الأرض: ﴿الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾، أي المملوء ماء في الدنيا والمشتعل نارا يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير:٦). وقوله: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الإنفطار:٣). وتفجّرها الزلازل والبراكين كما حدث في بركان "تسونامي" بشرق آسيا.

تلكم هي المقسمات بها الخمسة في مفتتح السورة يأتي بعدها المقسَم عليه في قوله تعالى: **﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ، يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾**.

ما أشد وقع هاتين الفاصلتين على القلب المؤمن المرهف، فالمقصود بعذاب الرّبّ هو عذاب الآخرة في جميع مراحلها وبكل أنواعه من فواجع الصعق إلى عذاب البرزخ وعذاب الحشر والحساب وفصل القضاء كل ذلك واقع -لا محالة- على المشركين المكذبين، لا يملك أحد منهم أن يدفعه بشفاعة أو مواجهة، وجاءت إضافته إلى لفظ الربوبية مضافة إلى النبي ﷺ لطفا به وتسلية له بتعذيب المكذبين له وإحاطته برعاية ربّه فلا تناله إذايتهم ولا يفتّ في عزيمته مكرهم.

وزيدت ﴿مِن﴾ لتأكيد النفي، ولقد كان من تأثير هاتين الآيتين في نفس السامع ما تقدم من رواية عن جبير بن المطعم ثم ما روى عن عمر بن الخطاب ﷺ: أنه خرج يوما على حماره ليعسّ كعادته فمرّ بدار أحد الصحابة يتهجّد ليلا فسمعه يقرأ القرآن بصوت مرتفع فوقف يتسمع لقراءته فإذا به يقرأ سورة الطور فتأثر لها تأثرا كبيرا ولم يستطع أن يتماسك على حماره، فنزل واتكأ على جدار مغمى عليه، فلما استفاق وعاد إلى بيته مكث في الفراش مريضا شهرا والناس يعودونه ولا يعلمون بسبب مرضه، وقد كان عمر يسمع السورة قبل ذلك، وكان الرسول يصلي بها المغرب ولكنه في تلك

الليلة صادفت منه قلبا ولهانا ونفسا مشرقة فنفد إليها سحر السورة وفعلت به ما فعلت. وللإنسان لحظات تصفو فيها نفسه فيتعرض لتلك النفحات الربانية.

وعلى ذلك الإيقاع الرهيف، يأتي هذا المشهد المخيف: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وأي تماسك نفسيّ يبقى للإنسان وهو يشاهد فوق رأسه السماء تضطرب وتموج وهو لا يقوى أن يشاهد اضطراب البحر، فما بال منظر الجبال الراسية وهي تسير وتتحرك وهي الأوتاد التي تمسك الأرض أن تميد، إنه لمنظر مهول صعق له موسى وهو الرسول المختار، فكيف بالإنسان التائه المحتار.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، الذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: فرّع الله على مشهد أهوال الساعة كلمة: ﴿وَيْلٌ﴾، وهي تعني الهلاك الذي حكم به عليهم في ذلك اليوم العصيب، والسبب في ذلك هو تكذيبهم بما جاء به رسول الله من الحق، وبما أن التكذيب له صور متعددة، فهناك التكذيب بالاعتقاد والقول والعمل، وهو أعلى مراتب التكذيب، وهناك ما دون ذلك بالحال والمقال، وهناك المؤمنون بألسنتهم والمكذبون بحالهم بارتكاب المعاصي والآثام دون مبادرة إلى التوبة والإنابة إلى الله، ولذلك جاء وصف هؤلاء بأنهم في خوض يلعبون، وأصل الخوض هو العوم في الماء.

واستعير هنا للقيام بما يسخط الله من قول أو عمل لأن أغلب الخوض يكون في الشرّ والباطل، ولذلك أضاف الله وصف: ﴿يَلْعَبُونَ﴾، فكلّ عمل خال عن ذكر الله وشكر لنعمه فهو يندرج في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١).

ثم لنتظر إلى أهل جهنم كيف يجيبون ملائكة العذاب عندما يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ،

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (المدثر:٤٢-٤٧). فهم يعترفون بخوضهم في الباطل وبتركهم ما أمرهم الله به من الصلاة والزكاة، وذلك لتكذيبهم بيوم الدين، يوم الحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا، هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾: والدّعّ هو الدفع من وراء دفعا عنيفا، أكّد الله الفعل بالمصدر لتقوية المعنى، والضمير يعود إلى المكذبين تدفعهم ملائكة العذاب إلى سعير النّار، وهم يحاولون عدم الاقتراب منها وهي تلفح وجوههم -والعياذ بالله.

ثم يقولون لهم توبيخا وتبكيتا: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، والتبكيت إيلام نفسي يزيدهم شقاء وإذاية، إذ ليسوا في موقف يمكن أن يصرّوا فيه على الإنكار، فهم أمام دار العذاب التي كانوا يسخرون منها في الدنيا ويستعجلون عذابها.

ويتوالى التبكيت والتقريع فيجيء التفريع في صيغة الاستفهام التهكمي ﴿أَمْ﴾ المنقطعة: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ، اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، جاء السؤال التهكمي عن السحر، بناء على ما كانوا يصفون به رسل الله بأنهم سحرة، وأنهم لا يخبرون عن واقع معقول ويكذبون بالمعجزات التي يشاهدونها ويدّعون بأنهم قوم مسحورون سكرت أبصارهم...إلخ. فماذا يقولون اليوم وقد شهدوا رأي العين ما كانوا يكذبون به، فهل يدّعون اليوم أنهم لا يبصرون؟. فإذا تحققتم أن ذلك حقّ وليس بسحر، فاصلوا اليوم سعير جهنم، وسواء عليكم أصبرتم على عذابها أم جزعتم فسيان ذلك إذ لا ينفعكم شيء، إذ تجازون على أعمالكم بعدل، والله لا يظلم أحدا، وليس لهم في مثل ذلك الموقف إلا أن يقولوا منصفين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١). أعاذنا الله من عذاب السعير، ومن سوء المصير، والله أعلم.

جزاء المتقين، ونعيم الجنة.

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾: في موضع الرفع خبر "إن". ﴿فَاكِهِينَ﴾: وصف، من فَكَهَ، إذا طابت نفسه وسُرّ، وهو منصوب على الحال، ﴿بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي بما أعطاهم ورزقهم. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: الجملة مقول قول محذوف، أي يقول لهم ملائكة الرحمة. ﴿هَنِيئاً﴾: منصوب على المصدرية وصفا لمصدر فعلي: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾. ﴿بِمَا﴾: الباء للسببية، أي بسبب عملكم. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: منصوب على الحال، ﴿سُرُرٍ﴾: جمع سرير للنوم. ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾: نعت، أي متصل بعضها ببعض، وقد تكون متقابلة للتأنيس كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ

سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧). والحور جمع حوراء، والحوَر: شدة سواد العين في بياضها، و"العين" جمع عيناء، أي واسعة العين. ﴿أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: أي ما انقصناهم من أجرهم من شيء، يقال: ألَته يألته ولاته يليته إذا نقصه. ﴿مِن﴾: الأولى للتبعيض. و﴿مِن شَيْءٍ﴾: للتأكيد. ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾: مبتدأ وخبر: أي كل إنسان مرتهن بعمله. ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾: يتنازعون كأسا، يتجاذبون كؤوس بعضهم بعض مداعبة وتأنيسا، والكأس يراد به الخمر، ويحتمل: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ يصبّ بعضهم لبعض الخمر كما يفعل الندامى، واللغو: سقط الكلام، والتأثيم ما يأثم به فاعله، ورفعهما على أن: ﴿لاَ﴾ هنا مشبهة بـ"ليس". ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: عطف على: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾، يطوفون من الطواف، أي المشي ذهابا وإيابا. الغلمان: جمع غلام، ويطلق على الخادم، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: التشبيه في موضع نصب حال، و﴿لُؤْلُؤٌ﴾: الدّرر، والمكنون: المخبأ لنفاسته، شبهوا بذلك لحسنهم وجمالهم. ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾: الإشفاق: توقع المكروه. ضدّه: الرجاء، وهو خبر كان، أي كنا في الدنيا خائفين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾: أي بالمغفرة والرحمة، و﴿السَّمُومِ﴾: بفتح السين، اسم الريح الحارة الجافة، أطلقت على فيح جهنم. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾: تعليل لمنة الله عليهم وثناء على الله، و﴿الْبَرُّ﴾: المحسن الشفوق، ﴿الرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَاكِهِينَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿فَاكِهِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل، وقرأه أبو جعفر: ﴿فَكِهِينَ﴾ بدون ألف. ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾: قرأ الجمهور بهمزة وصل وتشديد التاء الأولى وبتاء بعد العين، هي تاء تأنيث ضمير الفعل، وقرأه أبو عمرو وحده: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾: بهمزة قطع وسكون التاء. ﴿أَلَتْنَاهُم﴾: قرأه الجمهور بفتح لام:

﴿أَلْتَنَاهُم﴾، وقرأه ابن كثير بكسر لام: ﴿إِلْتَنَاهُم﴾. ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَاثِيمٌ﴾: قرأ الجمهور برفعهما على أن: ﴿لا﴾ مشبهة بـ"ليس"، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتحهما على أن: ﴿لاَ﴾ مشبهة بـ"إن". ﴿أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾: قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح همزة ﴿أَنَّهُ﴾، على تقدير حرف الجرّ، وقرأه الجمهور بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾، وموقع جملتها التعليل.

د)- البيان والتفسير:

بعد ذكر المشهد التعس المنكود للكافرين الناكرين للبعث والحساب، ذكر الله عقب ذلك -جريا على أسلوب الترهيب والترغيب في القرآن- ذكر مشاهد من النعيم في صور حسية من اللذائذ المشتهاة تجتذب إليها النفوس كما ألفت ذلك في الحياة الدنيا، ولم يجعل الله تعالى ذلك مقصورا على المؤمنين المستحقين لذلك النعيم، بل ألحق بهم ذرياتهم المؤمنة وهم يدعون الله ويشكرون فضله أن هداهم للإيمان ووقاهم من عذاب النيران فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾: الجملة على الاستئناف البياني مؤكدة بـ"إنّ"، وتتحقق التقوى بأداء كل الواجبات التي أمر الله بها وترك ما نهى الله عنه، وتكتمل بإدمان التوبة والاستغفار إلى الله واستشعار خشيته وجلاله، وقد عدّد الله في آيات كثيرة صفات المتقين أبرزها ما ورد في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿سَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً اَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَّغْفِرُ الذُّنُوبُ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ

عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٣٣- ١٣٦). وخبر: ﴿إِنَّ﴾ هو قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ والتنكير فيها للتعظيم ويشمل النعيم كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من أنواع الملذات والمسرّات بصفة دائمة وبصفة فعلية بالتّمتع الحسيّ والمعنويّ لا بمجرّد التشهّي والنظر، وقوله تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، وهو في موقع الحال للدلالة على أن ذلك التمتع بالنعيم قد بلغ منتهاه في الشعور بالسعادة والفرح لا ينغصّه منغص من همّ أو حزن أو خوف من انقطاع أو حرمان، أي هو لا يشبه متاع الدنيا الذي تنتابه المنغصّات والهموم وأشدّها تعكيرا ذكر الموت، بينما أهل الجنة هم في سرور دائم لا يرقبون موتا ولا يدهمهم حزن ولا غمّ كما قال تعالى على لسانهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (الصّافات:٥٨-٥٩). ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الدّخان:٥٦-٥٧):

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾: وتكرار كلمة "الرّب" مضافة إلى ضميرهم هو للتعظيم والتشريف وبيان عظم ما آتاهم وفظاعة ما وقاهم، إذ غفر الله ذنوبهم فزحزحوا عن النار وبذلك يعظم فضل الله عليهم، إذ اجتمع لهم جزاءان: دخول الجنة، وابتعادهم عن النّار.

ولمزيد الإكرام والتعظيم تقول لهم ملائكة الرحمة مهنئين: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالجملة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مقول قول محذوف في موقع الحال، أي أكلا وشربا هنيئين، والهناءة في الأكل والشرب هي من كمال التلذذ بالمأكول والمشروب والانتفاع بهما في صحة البدن، ثم ذكر الله سبب استحقاقهم لذلك الجزاء بأنه عملهم المخلص لله اعتقادا

وسلوكا ظاهرا وباطنا، وكثيرا ما ينصّ القرآن على استحقاق ذلك الجزاء بالعمل الدنيوي، فلا تناقض بينه وبين حديث: «**لن يُدخل الجنّة أحدا عملُه، ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته**».[1] لأن المؤمن الوفي يتيقن بأنه مهما بلغ من طاعة الله على مدى عمره وإن طال فإنه لا يبلغ أن يستوفي حق الله في ما أغدق عليه من النعم ولو مقابل عين واحدة مثلا، إن لم يتدارك الله بلطفه ورحمته، ولكن التنصيص على العمل هو للإشعار بأن الجنة لا تنال بالأمانيّ والأوهام، بل لا بد من الاجتهاد والسعي: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

وتتوالى مظاهر نعيم الجنة للمتقين بحسن الإمتاع والمؤانسة في مجالس الأصفياء فيقول تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: حال من ضميري: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، ولله المثل الأعلى إذ اتخذ البشر المترفون في قصورهم بأزاء قاعات الطعام، اتخذوا قاعات أخرى مخصّصة لاجتماع المدعوين على كؤوس الشاي أو الأشربة الأخرى للمؤانسة والامتناع، ولطرح القضايا ذات الاهتمام المشترك، وكذلك يفعل أهل الجنة يجلسون متكئين على سرر مصفوفة متقابلين، وهم على أتم انسجام وتجاوب عاطفي لا يحمل بعضهم على بعض حقدا ولا شحناء كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٧-٤٨).

ولم تكتمل بعد صورة المؤانسة في مجالس الأصفياء بإدارة الكؤوس -كما سيأتي- إذ توسطتها نعمة الأزواج والأولاد، فقال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، فالتزويج من الله -بنون العظمة- وبأحسن نساء الجنة جمالا ورقة

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨٤) الرقاق، باب (١٨) القصد والمداومة على العمل، رقم ٦٠٩٨: ٥/٢٣٧٣.

صباح الوجوه بعيون حوراء عيناء أزواجا مطهّرة، و"الباء" للمصاحبة، ويضاف إليهن النساء اللائي كنّ أزواجهم في الدنيا، يصرن مثل الحور العين في الجمال والكمال، وذلك إن كنّ مؤمنات مع أزواجهن.

وزيادة في تكريم أهل الجنة يجمع الله إليهم ذريتهم المؤمنة، ولو كانت درجاتهم في الإيمان والتقوى أقل من درجات آبائهم استكمالا للرعاية الإلهية بهم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّٰتِهِمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

اعترضت هذه الجملة الإخبارية مشاهد النعيم الذي يتمتع به المتقون، ليستكمل الله بهما جوّ المؤانسة والإمتاع بجمع شمل الأسرة أزواجا وأولادا، ويلاحظ في التعبير التركيز على صفة الإيمان فالمكرّمون موصفون: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، هكذا بالموصول في مقام الإضمار مما يدلّ على أن للآباء فضل التربية والاجتهاد في تنشئة أولادهم على الإيمان، كما أن التعبير: بـ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ يدلّ على إتمام فضل الله عليهم في أن يصير أبناؤهم في مثل درجاتهم من الاستحقاق الجزائي، ولو كانوا في الواقع أقلّ منهم في الأعمال، على أن استكمال ذلك الجزاء للأبناء لا ينقص شيئا من حق الآباء فضلا ومنة من الله تعالى.

ولتعليل ذلك أكمل الله بقوله في جملة مستقلة ترسم قاعدة العدل الإلهي في تبعية كل إنسان في ما كسبت يداه فقال: ﴿كُلُّ امْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، وإلاّ فإن ذلك الإلحاق إنما هو تكريم من الله لأولئك المؤمنين، وقد جمع الله هذا المعنى في سورة الرّعد إذ قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٣-٢٤).

ثم يمضي السياق في استكمال صورة المتع واللذائذ في ذلك النعيم

فيقول: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ، يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

عطف على ما تقدم من بيان متع النعيم لأهل الجنة، والإمداد هو العطاء المتتابع، والمعطي هو الله الذي لا تنفد خزائنه، وتخصيص الفاكهة واللحم بالذكر وأنهما من المشتهيات جريا على المألوف في الدنيا، إذ أن المترفين يجمعون في مجالس ملذاتهم بين شواء اللحم وشرب كؤوس الخمر، وأكل الفاكهة، فهو تصوير حتى لأقصى مراتب الشهوة واللّذة وملذاتها، إلا ما يكون من استعمال نفس الأسماء، فإنه تعالى لما وصف مجلس الشراب وكيف كان أهل الجنة يتعاطون كؤوسه فقال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾، نفى عنها كل لغو أو تأثيم، إذ هي ميرأة مصفاة لا تؤدي لفحش أو سباب وضرب كما يحدث ذلك بخمرة الدنيا، ويطوف على خدمتهم وسقيهم غلمان لهم، ويلاحظ مجيء الطواف بصيغة المضارع وحذف متعلقه للدلالة على التجدّد وشمول الخدمة للمؤمنين وقد سخرهم الله لذلك ولهم جمال ورقة في معاملاتهم ونشوة في مرآهم.

ومن جملة أحاديثهم في هذا المجلس ما يتذاكرونه من ماضيهم في الدنيا وكيف كانوا مشفقين من عذاب الله وما كانوا يتوجهون به إليه من دعاء فقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ، قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾. هم يتحدّثون ويتناجون بفضل الله عليهم ومنّه، فقد بيّن الله ما كان يشغلهم من تساؤل متداول فيما بينهم، ففيم كان تساؤلهم وما هي الحكمة في ذكره؟.

إنه بيان لما كانوا يتحلون به من الإشفاق والحذر عندما يذكرون أهوال الآخرة وعذاب جهنم، فلم يغرّهم ما كانوا عليه من الأمن والهناء في أهليهم، ولم يشغلهم ذلك عن القيام بواجباتهم الدينية مهما كلفهم الله تعالى به لأن من

شأن الأهل والأولاد أن يشغلوهم عن ذلك، ولكن منة الله قد أخذت بأيديهم فعملوا لما ينجيهم من حرّ السموم، وقد استعانوا في ذلك بالتوجه إلى الله والدعاء له أن يرحمهم ويبرّ بهم وهو البرّ الرحيم. والحكمة في ذكر موضوع تساؤلهم ذلك هي لما فيها من الموعظة والتذكير للغافلين عن ذكر الله والساهين عن اليوم الآخر وإن كانوا من المؤمنين، ولكن أعمالهم تدلّ على أنهم غير متيقنين والله يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨). ويقول الشيخ أبو نصر في رائيته:

نرى الأمر بالعلم اليقين تيقنا ونعمل أعمال الذي شك في الأمر

والله أعلم

الأمر بمتابعة التذكير وتقريع المشركين بما يدّعون في حقّ الله ورسوله.

أ)- النصّ:

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ إلى آخر النصّ، ترد فيه خمسة عشر استفهاما مما تتضمّنها: ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، وهي بمعنى: "بل"، للإضراب الانتقالي، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ. ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾: الباء في: ﴿بِنِعْمَةِ﴾ للملابسة، وأما في قوله تعالى: ﴿بِكَاهِنٍ﴾ فهي زائدة لتوكيد النفي، والكاهن هو الذي ينتحل معرفة الغيبيات بكلام ذي سجع يتوخّى فيه الغموض. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾: اتهم المشركون رسول الله بالشاعرية وقالوا نتربص به ريب المنون، أي ننتظر به حوادث الدهر من موت أو قتل، والريب: هو الشك في الأصل، أطلق على حوادث الدهر. ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَآ﴾: الأحلام هي العقول، ﴿بِهَـٰذَآ﴾: أي بذلك التناقض في القول، فالعقول السليمة لا تأمر بذلك ولكن هم تجاوزوا كل حدّ في العناد والمكابرة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾: تقوّله: بمعنى اختلقه وافتراه من عند نفسه. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾: المتبادر أن يكون المعنى: أم خلقوا من غير خالق، فيكون الاستفهام بعد: ﴿أَمْ﴾ للتقرير. والمعنى: أيقرون بأنهم خلقوا بعد أن كانوا عدما، ويجوز أن تكون: ﴿مِنْ﴾ تعليلية، والمعنى إنكار أن يكون خلقهم بدون حكمة على معنى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون:١١٥). ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾: الخزائن جمع خزينة، ما توضع فيه النفائس وهي مستعارة لما في علم الله وإرادته من الإنعام على المخلوقات، والمصيطر: هو المتسلط، إنكار أن يكون لهم تصرف في ما يعطي الله. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾: أي إنكار أن يكون لهم سلّم يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلويّ حتى يكون لهم علم بالغيب. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: خطاب للرسول في سؤال تهكّمي بتنزيلهم منزلة من يخاف أن يسألهم على إرشادهم أجرا فيثقل عزمه عليهم. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ

كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: الكيد: إظهار إخفاء الضرّ مما يدبّره المشركون في دار الندوة. ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: أي الذين كفروا هم المغلوبون وفي ذلك تسلية لرسول الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾: قرأ الجمهور بالصاد، وقرأ قنبل عن ابن كثير وهشام عن ابن عامر وحفص في رواية، قرأوا بالسين في أوله.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن قابل الله بين شقاوة عذاب الجحيم وهناءة النعيم في جنان الخلد وتوفزت النفوس الحسّاسة بهذا وذاك انتقل السياق إلى معالجة عدة قضايا يستمسك بها المشركون فيعرضها في صورة استفهامات استنكارية في أسلوب قويّ من التحدّي يزعزع النفوس ويجبرها للإنصاف والاعتراف، مهّد الله لها بتوجيه الخطاب لرسوله بأن يتابع تذكيره لأولئك المعاندين لا يثنيه عن ذلك تعنتهم ولا مكرهم لأنه مغمور بنعمة الله فقال تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾.

الأمر مفرّع عما سبق من كون الناس يتفاوتون في مواقفهم من الدعوة الإسلامية ما بين مؤمن مصدّق وكافر جحود، وقد دأب المكذبون على وصف رسول الله بالكهانة والجنون مرة، وبالسحر والشاعرية مرة أخرى، فأراد الله تعالى أن يسلّي رسوله بنفي ذلك عنه نفيا مؤكدا، وللأوصاف الأربعة عندهم اتصال بالشياطين وهم مدفوعون إلى مثل تلك الاتهامات لرسول الله بما يجدونه للقرآن الكريم من التأثير في نفوسهم ببلاغته وإعجازه وهم في قرارة أنفسهم يدركون أنه ليس من قول البشر، ولكنهم لا يعترفون

للرسول بأنه يوحى إليه من السماء. فأكد الله نفي تلك الصفات عن رسوله بالباء الزائدة في الخبر وبيّن سبب ذلك بقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، فالباء للملابسة، وجيء بوصف الرّب، مضافا إلى كاف الخطاب، للدلالة على رعاية الله ولطفه برسوله، وللتشريف والتعظيم، وقيل: إنه ردّ على مقولة كل من شيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط، وكفى لرسول الله شهادة الله له بأنه محفوف برعاية الله، كفاه بذلك تسلية وتثبيتا.

ويستنكر أنه شاعر فيقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وتهمته بالشاعرية لصيقة بالتهمتين السابقتين من الكهانة والجنون فهم يعتقدون أنّ لكل شاعر رئيا من الجنّ، وأما تربّص الموت به فذلك ما ردّدوه لبعضهم في دار الندوة حكته الآية إذ قالوا: هو شاعر تربّصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى. والمنون من أسماء الموت ومن أسماء الدّهر، فلم تأت الإجابة ردًا على تلك الشبهة، بل جاءت تلقينا للرسول أن يردّ عليهم باستخفاف وتحدّ فيه نوع من التهديد المبطّن فقال: تربّصوا إني معكم من المتربصين، أي سواء عندي تربّصكم وعدمه، فإني أتربّص معكم عاقبة أمركم بما يقضي الله فيكم، فتعلمون لمن تكون العاقبة بالنصر والتمكين.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: الأحلام هي العقول الكاملة، وكانت قريش تعدّ نفسها في ذروة رجاحة العقل وتمام الحكمة، إذ كانت العرب تفد إليهم من أنحاء الجزيرة كلها في موسم الحج فيقيمون الأسواق للمفاخرة في الشعر والفصاحة ويكفيهم فخرا أن نزل القرآن بلغتهم، ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾، سخرية لاذعة إذ أوصلتهم عقولهم إلى مثل ذلك الهراء مما وصفوا به رسول الله، ونحن في لغتنا العادية نستعمل مثل ذلك الأسلوب فتقول مثلا لمن نعتقد فيه كمال العقل وقد صدر

عنه ما يلام عليه فنقول له: أعقلك أو أعلمك أوصلك إلى هذا؟. أيّ عقل لمن لا يميّز بين الحق والباطل؟.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: أي بل هم قد تجاوزوا كل حدّ في بغض النبي وفي الحسد الذي أعمى بصائرهم فلم يدركوا ما يقولون ووقعوا في ذلك التناقض السافر في شأن رسول الله، حتى ادّعوا عليه الكذب والافتراء وهم بالأمس كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُومِنُونَ، فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾: تقوّل الكلام، أي افتراه واختلقه من عنده، اتهموا رسول الله بذلك زيادة على الاتهامات السابقة، وبعد الاستنكار لتلك التهمة بادر إلى بيان دوافعها في نفوسهم بأنه عدم الإيمان بحقيقة القرآن، فهم يتعاملون معه كأنه كلام عاديّ من صنع البشر، ولذلك تحدّاهم أن يأتوا بحديث مثله في المبنى والمعنى إن كانوا صادقين في دعواهم، وقد تكرّر هذا التحدّي في القرآن فوقفوا عاجزين كما وقف غيرهم من البشر إلى يوم الدين.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: إنه استفهام عن حقيقة وجودهم في هذه الحياة؟ إما أن يكون الاستفهام على إنكارهم لوجود الخالق الواحد، فهذا لا يستقيم مع الفطرة السليمة وهم يقرّون بالخالقية لله، ولكنهم إذ ينكرون إمكانية البعث كما تركز السورة على ذلك من أولها، فإن قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، بمعنى أيقرون أنهم خلقوا بعد أن كانوا عدما في النشأة الأولى فكذلك ينشأون من عدم في النشأة الثانية، ويحتمل أن يكون المعنى لقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، أي بدون حكمة ولا هدف أي بمعنى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون:١١٥). وفي إنكار أن الله خلقهم بغير حكمة إثبات للبعث لما فيه من الجزاء على الأعمال.

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: إنكار أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فهم

بلسان الحال يقولون ذلك لا بلسان المقال.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾: وبما أن المشركين لا يدّعون أنهم خلقوا السماوات والأرض ولا يدّعون ذلك لآلهتهم، فالاستفهام إنكاريّ جاء بعده الإضراب بقوله: ﴿بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾، أي إنهم -وإن كانوا لا ينكرون خلق الله للسماوات والأرض- ولكن تصوّرهم الفاسد لما يجب في حق الخالق جعلهم في ريب مما يقرون به، فلم يصل إلى درجة اليقين الذي يترك آثاره في نفوسهم اعتقادا راسخا.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾: ومن إنكار خلقهم للسماوات والأرض إلى إنكار امتلاكهم لخزائن الله في توفير الأرزاق وفي تدبير شؤون الخلق. والخزائن استعارة لما في علم الله وإرادته من تصريف شؤون المخلوقات وفيها إيماء إلى اصطفاء من يشاء لرسالاته ومنهم محمد بن عبد الله الذي استكثروا عليه أن يكون رسولا من عند الله، ولذلك تغيّر أسلوب الإخبار إذ خاطب رسوله بقوله: ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، وأضاف نفي سيطرتهم على ما يجري في الكون، بل الله وحده هو المالك المتصرف لا ينازعه في حكمه أحد.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَاتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: وعلى ذكر اصطفاء الرسول وصلته بالسماء، وهم يكذبونه في ذلك يأتي هذا الاستفهام الإنكاريّ من أن يكون لهم سلّم يصعدون به إلى السماء فيستمعون إلى ما يقال في الملإ الأعلى من الوحي وغيره فيعلمون بذلك أن محمدا كاذب فيما يقول، ويأتون على تحقيق ذلك بحجة قاطعة كما يأتي بها محمد بواسطة ما يوحى إليه من القرآن ويبرهن بذلك على صدقه وهم يكابرون؟.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾: جاءت هذه الجملة معترضة بين

سابقتها ولاحقتيها اللتين ورد فيهما الخطاب لرسول الله، جاء بخطاب المشركين مباشرة خلافا لضمير الغيبة فيما سبق، وذلك زيادة في التخجيل والترذيل إذ جعلوا لله ما يكرهون في تقاليدهم من إنجابهم للبنات، بينما يختارون لأنفسهم البنين فقوله: ﴿وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾، يدلّ على اختصاصهم بذلك، وكفى بهم ذلك شناعة ووقاحة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: فإذا انتفى عن المشركين التحكّم في خزائن الله وفيمن يصطفيه من خلقه لرسالته، وإذا ثبت بشهادة الله أن محمدا هو الرسول حقا من عند الله وهو مكلف بتبليغ رسالته، بكل نزاهة وإخلاص ولا يطلب على ذلك أجرا ولا منفعة، فكيف يستكثر عليه هؤلاء ذلك كأنهم مثقلون بغرامة يؤدونها إليه أجرا على دعوته حتى شق عليهم ذلك فلا يستجيبون؟.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: بل أيدّعون علم الغيب حين قالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، ولا يعلم من في السماوات ومن في الأرض الغيب إلا الله، وهم يعلمون أن ليس لهم علم بذلك، وبالتالي لا يدّعون كتابته، وإنما هو الادّعاء والغرور يدفعهم إلى الكيد والمكر مما يحيق بهم في نهاية المطاف.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ومكر الله واقع بهم -لا محالة- إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا، فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا. والله تعالى منزه على كل الافتراءات التي تمسّكوا بها وهو الإله الواحد القهّار.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: وبهذا الاستفهام الإنكاريّ الأخير، تنتهي تلك الحملة الشعواء، وقد انكشفت الحقائق، ودحضت الشبهات ولزمت الحجة على الجاحدين المستكبرين، فليس لهم من

نقمة الله عاصم، وليس لهم من سبيل إلى إذاية رسوله وهو ناصره وحافظه من مكرهم وكيدهم.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

والله أعلم

إعراض الرسول عن مكابرة المشركين وصبره على كيدهم.

أ)- النصّ:

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾: ﴿كِسْفًا﴾: بكسر الكاف، القطعة. ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾: صفة له. ﴿سَاقِطًا﴾: إما مفعول ثاني: لـ﴿يَرَوْا﴾، وإما حال. ﴿مَّرْكُومٌ﴾: أي تراكم بعضه على بعض. والتقدير: هذا سحاب مركوم. ﴿يَقُولُوا﴾: مجزوم في جواب الشّرط. ﴿فَذَرْهُمْ﴾: ﴿ذَرْهُمْ﴾: أمر من "يذر"، حذفت منه الواو بمعنى: أتركهم. في خوضهم فيه تهديد وليس المراد ترك دعوتهم. ﴿يَوْمَهُمُ الذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾: يوم الصعق هو يوم القيامة، وهو منصوب على المفعولية. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أي دون يوم يصعقون فيه، فقيل: هو عذاب القبر

وقيل: هي مصائب الدنيا بصفة عامة. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: حكم الله ما قضى به وقدّره من الأمر والنهي وتبليغ الرسالة. ﴿إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمحل عنايتنا ورعايتنا، والعين تمثيل لشدة الملاحظة وهي كناية عن لازمها من النصر والحفظ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: التسبيح التنزيه، ويراد به الصلاة، والقيام: الاستعداد للصلاة إما للفريضة أو النوافل. ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: أي عند انشقاق الصبح. والتقدير: فسبحه وقت إدبار النجوم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُلَاقُوا﴾: قرأه الجمهور، وقرأ أبو جعفر: ﴿يُلْقُوا﴾ بدون ألف بعد اللام. ﴿فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: قرأه الجمهور بفتح المثناة التحتية، وقرأه ابن عامر وعاصم بضم المثناة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تفنيد مزاعم المشركين والردّ على شبهاتهم لإثبات أسس العقيدة الإسلامية تختتم السورة الكريمة بتوصية الله لرسوله بما ينبغي أن يتصرف به تجاه الكافرين الميؤوس من استجابتهم للدعوة الإسلامية مع تقوية معنوياته بالاعتصام بالله والإقبال على طاعته والصبر على مكايدهم فإنه تعالى ناصره وراعيه. قال تعالى: **﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ، فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ، يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾**.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا﴾، معطوف على أقوالهم الماضية لتصوير عنادهم ومكابرتهم حتى في مشاهدتهم للأشياء

المحسوسة، فقد تحدّوا الرسول بأن ينزل عليهم كسفا من السماء، كما ورد ذلك في سورة الإسراء، والكسف هو القطعة من الشيء، وعلى فرض أن يتحقق ذلك فإنهم سيكابرون ويتنطعون ويقولون إنه سحاب مركوم، أي سحاب ممطر كما ظن ذلك قوم عاد، فكان ما كان من إهلاكهم به، كذلك هؤلاء الكفار فقد بلغوا من العناد والمكابرة ما لا يمكن أن يرجى منهم إيمان ولا إذعان؛ ولو كان الحق واضحا جليا أمام أعينهم. فما حيلة رسول الله مع أمثالهم؟.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾: فرّع الله على تلك الصفة الدينية أمره لرسوله أن يتركهم على حالتهم تلك في قيام الساعة، وهو يوم الصعق عند النفخة الأولى، وفي ذلك تهديد لهم، وإضافة اليوم إلى ضمير "هم" تفيد الملابسة، وهو اليوم الذي تنقطع فيه حيلهم، فلا يملكون فيه كيدا ولا مكرا برسول الله ولا يجدون لهم نصيرًا. ولا يتعارض الأمر بالإعراض عنهم مع أمر الله لرسوله بمواصلة التذكير وتبليغ الدعوة، وإنما المقصود هو تسليته وتقوية عزيمته في القيام بهمته كما تؤكده ذلك خاتمة السورة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وبما أنّ الكفار لا يأبهون بالعذاب الأخرويّ لأنهم لا يؤمنون به أساسا، وبالتالي فإنّ التهديد به لا يترك فيهم الأثر المطلوب وهم يمرحون ويسرحون في متاعهم الدنيويّ، ولذلك أعقبه الله بتهديدهم بالعذاب الدنيوي العاجل بما يصيبهم من الأوجاع والبلايا كما حدث لهم في يوم بدر وفي سنوات القحط والجوع، وقد أظهر الله في مقام الإضمار لإفادة علة ذلك الاستحقاق، وهو الظلم، وليأخذ صفة العموم للظالمين في كل زمان ومكان، ونظير معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السّجدة:٢١).

وجاء الاستدراك هنا بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، أي إنهم يستبعدون ذلك وهو واقع بهم -لا محالة-؛ وذلك لأنّ الإنسان تبطره النعمة، فلا يخطر بباله زوالها عنه ولا يتفكّر بعمق في حوادث الدّهر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾:

عندما قال الله لنبيه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ (المعارج:٤٢). فإن ذلك من شأنه أن يفسح المجال لأولئك المتمردين لمزيد من المكر والإذاية والاستخفاف برسول الله فيصبح بذلك في أمسّ الحاجة إلى التسلية والتثبيت وإلى المدد الروحانيّ لمواصلة مهمته الشاقة وهو مرهف الإحساس مهتمّ بشأن قومه، وهو بشر قد تستخفه العجلة ويلّح عليه ردع الظلم، وفي مثل تلك الحالة النفسية لا يجد الإنسان متنفّسا إلا في الاستسلام لحكم الله في ما قضى به وفي ما قدّره من تصريف تلك الأحوال، فلله الحكمة البالغة في ذلك، وقد تغيب تلك الحكمة عن الإنسان فيخطئ في التعليل والتقدير.

ثم فرّع الله على الأمر بالصّبر قوله لرسوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، فقد علل أمره بالصبر بكونه على أعين الله بالحفظ والرعاية لا يضرّه أذى الناس؛ لأنه تعالى عاصمه منهم، وفي هذا التعبير منتهى التكريم والتعظيم للرسول خصّه به الله مما لم يذكر مثيله لأحد من رسله من قبله حتى لموسى عليه السلام، إذ قال له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه:٣٩). لأن هذا التعبير في حق رسول الله يمتاز عنه بأمرين:

أ)- بجمع لفظ "عين" الذي كنى به عن منتهى الرعاية والحفظ، فهي أعين لا عين واحدة، فهو في كنف الله مهما تنوعت الإذايات وتعدّدت المكائد.

ب)- واختيرت في التعبير نون العظمة بدلا عن الضمير المفرد، فيا له من تكريم ويا له من منزلة رفيعة عند الله. يؤدي الرسول شكرها بالتنزيه والتحميد لله في جميع الأوقات وعلى كل الأحوال.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: ولا يقتصر القيام هنا للصلاة أو القيام من النوم، بل الأرجح هو التعميم في التسبيح لله في كل الأوقات، وفي جميع الأحوال.

وأما قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ ففيه تخصيص للقيام من النوم بصفة عامة، ولوقت السحر بصفة خاصّة، وبذلك يغطي الأمر بالتسبيح لله كل الأوقات من الليل والنهار، فيكون اللسان رطبا بذكر الله، ولذلك كان الرسول كلما قام من مجلس أو تقلّب في فراشه إلاّ وقال كما روي عنه: «**سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»[1]، وللتسبيح لله أدعية كثيرة وأفضلها تلك التي وردت في القرآن على ألسنة الملائكة أو الرسل، والله أعلم.

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٩) الدعوات، باب (٣٩) ما يقول إذا قام من المجلس، رقم ٣٤٣٣: ٥/٤٩٤، وقال: حسن غريب صحيح.

سورة النّجم، مكيّة، وآياتها ٦٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميت "سورة النّجم" لما ورد في مفتتحها من القسم بالنجم وقت سقوطه وغروبه، وقد تعنون في المصاحف "النجم" بدون واو أو بالواو على حكاية لفظ القرآن وهي مكية كلها إلا ما استثناه ابن عباس وقتادة من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ (٣٢). وآياتها اثنان وستون آية، يقول عنها سيد قطب: "هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علويّة، منغّمة، يسرى التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة، ويلحظ هذا التنغيم في السورة بصفة عامة".[1]

وهي من أوائل القرآن نزولا في مكة، أي هي الثالثة والعشرون في ترتيب نزول السور، وقيل: نزلت بعد سورة الإخلاص، وأما في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الثالثة والخمسون.

والمناسبة قوية بينها وبين سورة "الطور" وتظهر جلية في الافتتاح والاختتام بذكر النجوم كما تتناسبان في التركيز على أسس العقيدة الإسلامية، وهي تتضمّن العناوين الآتية:

- إثبات النبوءة ببيان ظاهرة الوحي.
- التنديد بالشرك، والردّ على أباطيل المشركين.
- تقريع المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله.
- ذكر جزاء المحسنين وبيان أوصافهم.

١- في ظلال القرآن: ٢٧/٤٨.

- التذكير بما في الصحف الأولى وبمصير الأمم السابقة.
- الاتعاظ بالقرآن والتحذير من أهوال القيامة

والله المستعان.

إثبات النبوءة، وبيان ظاهرة الوحي.

أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾: "ال" في: ﴿النَّجْمِ﴾ إما للجنس، فيشمل كل النجوم، وإما للعهد، فالمراد به الثريا أو الشعرى. وقيل: الزهرة. ﴿هَوَى﴾: يهوي هُويا -بضم الهاء- إذا سقط للغروب. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرّد عن الظرفية. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: ﴿مَا ضَلَّ﴾: نفي لعدم الاهتداء إلى الطريق السويّ. ﴿وَمَا غَوَى﴾: والغواية: أعمّ من الضلال؛ لأنها ضلال عن قصد. ﴿صَاحِبُكُمْ﴾: "الصاحب" الملازم للذي يضاف إليه، وليس فيه معنى الصداقة. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾: ما ينبئكم فيما يخبر به من الوحي عن الباطل وهوى

النفس. ﴿مَا﴾: نافية، وبين: ﴿هَوَى﴾ و﴿الهوَى﴾ جناس شبه تام. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾: الوحي: الكلام الخفي، أي ما القرآن الذي ينطق به الرسول إلا وحي يوحي الله به إليه. ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ﴾: ﴿عَلَّمَهُ﴾: الضمير عائد إلى الوحي. ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾: صفة لمحذوف تقديره: ملك، وهو جبريل عليه السلام، والتقدير: علمه إياه. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: بكسر الميم وتشديد الرّاء، وتطلق على متانة الذات وقوة العقل. ﴿فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾: ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾: في موضع الحال، أي فاستوى عاليا، الضمير يعود لجبريل، واستواؤه قيامه وتهيّؤه لقبول الرسالة من عند الله. ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي الرتبي. ﴿دَنَا﴾: اقترب جبريل من رسول الله. ﴿فَتَدَلَّى﴾: أي تعلق في الهواء ساكنا أي ينزل من طبقات إلى ما تحتها. و﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: وهو ما بين وتر القوس ومقبضها. والمعنى: أن جبريل عليه السلام كان على مسافة قوسين من النبي لإلقاء الوحي على الرسول. يقول ابن عباس: فكان قدر ذراع أو ذراعين. ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾: للمفسّرين توجهان في معنى الضمير من قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾، أن الموحي هو الله بواسطة جبريل، أو أن الموحي هو جبريل بأمر الله. والضمير في: ﴿عَبْدِهِ﴾ عائد إلى الله. ﴿مَا أَوْحَى﴾: لم يذكر الموحى به إليه تعظيما لشأنه ،والمراد بهذا التمثيل هو تحقيق ملكة الاتصال للرسول بالملإ الأعلى ردّا لإنكار المشركين ذلك. ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾: من المماراة وهي الملاحاة والمجادلة في الباطل، والضمير يعود إلى المشركين الجاحدين. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾: أي رأى محمد جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى، ﴿نَزْلَةً﴾: التقدير: نازلا نزلة، منصوب على المصدر في موضع الحال، وسدرة المنتهى: أعلى المقامات في السماء ينتهي عندها علم الخلائق وأعمالهم. والسدرة: شجرة النبق في ذلك المكان الذي تنتهي إليه أرواح المومنين. ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: ﴿يَغْشَى﴾: يغطّي ويستر، ما يغشى: فيه إبهام للتفخيم ولتصوير العظمة والجلال. ﴿مَا زَاغَ

الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾: الضمير يعود إلى رسول الله، أي رأى جبريل على صورته الحقيقية بدون خطأ ولا زيغ. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾: أي ليلة الإسراء والمعراج رأى رسول الله من آيات الله الكبرى ما زاده ارتفاعا في شأنه عند الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾: قرأ الجمهور بتخفيف الذال، وقرأه هشام عن ابن عامر وأبو جعفر بتشديد الذال، والفاعل والمفعول على حالهما في القراءتين. ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾: قرأه الجمهور من المماراة، وقرأه حمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ بفتح الفوقية وسكون الميم، مضارع: مراه، إذا جحده، أي أتجحدونه أيضا فيما رأى؟.

د)- البيان والتفسير:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: إن مفتتح السورة بعباراته الوضيئة المنغمة ينقلنا إلى رحاب الملإ الأعلى بغمرات روحانية وتدفق أنواره لنعيش لحظات قدسية حيث طاف قلب رسول الله، وأشرق بنور ربّه وهو يتلقى الوحي فيسمع ويرى ويعي ويتيقن وقد انكشفت له الحجب والأستار، ورفت بشريته لترتقي في ليلة الإسراء والمعراج حيث رأى من آيات ربه الكبرى، إنه لمشهد روحاني دقيق، وذلك الذي يصف الله فيه تلك الرحلة التي خصّ بها أنبياءه ورسله، ليزداد الذين آمنوا بها إيمانا بما فيها من إيحاء وتأثير.

قال تعالى مخاطبا أمة الدعوة وبخاصة الجاحدين لرسالة محمد ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾،

أقسم الله بالنجم، وهو من عظيم مخلوقاته في حجمه وتلألئه وكونه من علامات الاهتداء للخلق في البرّ والبحر، أقسم الله به وهو يتدلّى للغروب، وفي اختيار وضعية الغروب للنجم إيماء لطيف للذين يعبدونه بأن المعبود الحق لا يعتريه غروب ولا أفول كما قال سيّدنا إبراهيم لقومه: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الأنعام:٧٦).

وقد اختلف المفسرون في المقصود بالنجوم، وذلك على اعتبار "أل" للجنس فتعمّ النجوم كلها، أم هي للعهد فاختلفوا في تعيينها ما بين الثريا والشعرى والزهرة. والكثير يرى أنه الشعرى، إذ كان للقدماء اهتمام برصد هذا الكوكب وتعليق بعض الظواهر الكونية عليه.

ويأتي المقسم عليه بقوله تعالى: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾، الخطاب دائما لأمة الدعوة وبخاصّة مشركي مكة، اختار الله لفظ: "الصاحب" مضافا إلى ضمير المخاطبين، فهي صحبة المعاشرة والاحتكاك لا صحبة الصداقة، وهذا الاستعمال لكلمة "الصاحب" مشهور في لغتنا المستعملة، ولو كان المتصاحبان خصمين، كما ورد في حوار صاحب الجنة مع صاحبه الفقير المؤمن: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ (الكهف:٣٧). نفى الله عن رسوله ثلاث صفات:

أ)- ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ**﴾: وفي نفي الضلال عنه ﷺ ردّ وإبطال لمزاعم المشركين بأنه ساحر مجنون أو شاعر كاهن؛ لأن الضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق السويّ، ولاستيفاء التنزيه لذاته الشريفة نفي عنه الغواية وهي أعمّ من الضلال لاقترانها بالنية والقصد كما تحدّى الله بذلك الشيطان اللعين عندما قال: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩).

ب)- ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ**﴾: والمراد بالهوى ميل النفس إلى ما تحبّه

أن تفعله دون مراعاة لما يقتضيه العقل السليم، والتعدية بـ"عن" تفيد التجاوز، أي هو لا يتنكب عن الحق والصواب فيما ينطق به سواء كان قرآنا متلوا نزل عليه ليبلغه أو إرشادا وتعليما بسنته المطهرة وهذا من الصفات الكمالية لذاته الشريفة، فما الذي جعله بهذه المرتبة ومن الذي ألهمه ذلك الرّشد؟. إنه الوحي المنزّل عليه من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾:

تلك الظاهرة الروحانية العجيبة التي جاء هذا الاستئناف البياني لإجلائها كما عاشها رسول الله بمشاهدة عينه ورفرفة قلبه، جاءت الجملة مؤكدة الإثبات بصيغة الحصر، والضمير: ﴿إِنْ هُوَ﴾ عائد إلى معلوم من السياق، أي القرآن وما ينطق به الرسول، والوحي قد تقدم التعريف به، و﴿يُوحَىٰ﴾ جملة نعت للتوكيد، ولبيان كيفية نزول الوحي عليه قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

﴿عَلَّمَهُ﴾: علّم يتعدى إلى مفعولين، والهاء: ضمير الغائب يعود إلى الوحي، والتقدير: علّمه إياه، أي علمه إياه جبريل عليه السلام، ووصف بالروح الأمين في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٤). فهو تعليم مباشر سمعه الرسول ورآه، وذلك في مبدأ نزول الوحي، تتابعت أوصافه بالقوة الشديدة ينفذ بها ما يأمره به الله وقد

ورد في الحديث الصحيح: «**أنّ له ستمائة جناح**»[1]، رفع بها قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها، وهو الملك الأمين المكلف بالتنزيل على الرسل.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ بكسر الراء، تطلق على القوة البدنية وعلى حصافة العقل وحكمته، واستواؤه على الأفق الأعلى، كان على خلقته الأصلية حين رآه النبي ﷺ وهو في غار حراء فنظر الرسول إلى الأفق وقد استوى عليه جبريل بخلقته الأصلية فأخذ يقترب منه شيئا فشيئا متدليًا من الأفق حتى كان أقرب ما يكون إليه بمقدار ذراع أو ذراعين وهو المقصود بتعبير: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، وكان العرب يقيسون بالقوس والرمح المسافات الفردية.

وقد أجمل الله ما أوحى به إلى رسوله بواسطة جبريل في ذلك المشهد العظيم: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**﴾، إنه رؤية متيقنة بفؤاد الرسول المتفتح على الملإ الأعلى، لا يتأتى معها الوهم والخيال بخداع العين، كما يحدث لنا -أحيانا- لأن رؤية الفؤاد أصدق وأثبت.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقد أنكر الله على المشركين مجادلتهم الرسول في ذلك وهم في قرارة أنفسهم لا يكذبونه لأنهم ما جرّبوا عليه كذبة قطّ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ، وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (١٩-٢٣). أما وقد تكررت لرسول الله رؤية جبريل مرة أخرى على صورته الحقيقية، وكان -غالبا- ما يتمثل بصورة دحية بن خليفة الكلبي الأنصاري، فيراه الصحابة على تلك الصورة، والرؤية الثانية كانت في ليلة الإسراء والمعراج.

١- رواه البخاري من حديث ابن مسعود، كتاب (٦٣) بدء الخلق، باب (٧) إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٠٦٠: ٣/١١٨١.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

وها هو المشهد الثاني لاتصال رسول الله بالملإ الأعلى ورؤيته الثانية لجبريل عليه السلام على صورته الحقيقية، وذلك في ليلة الإسراء والمعراج حين عرج برسول الله إلى السماء السابعة وانتهى إلى سدرة المنتهى، والسدرة هي الشجرة المعروفة المنتجة للنبق. قيل: إن المطاف ينتهي إليها. وتقول روايات السيرة: إنّ جبريل وقف عندها وتقدم رسول الله أشواطا من مقامات القربى إلى ربّه. وقوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾، قيل: إنها مأوى أرواح المؤمنين الزكية سيما أرواح الشهداء الأبرار. تتنعم في البرزخ إلى صعقة البعث فتزوّج بأجسادها كما قال تعالى في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(٧).

هناك في ذلك المقام الرفيع الذي لا نستطيع تصوّر حقيقته بعقولنا إذ هو من غيوب الله، هناك تبدّى جبريل لرسول الله مرة ثانية على صورته الحقيقية، وقد أبهم الله ما غشي السدرة في تلك اللحظات للتفخيم والتعظيم أبهمه لأنه شيء فوق الطاقة البشرية لإدراكه، أمّا رسول الله فقد تكيفت بشريته واستنقعت في الروحانية بما يؤهلها لتعيش وتشاهد وتتيقّن بما كرّمها الله به من الرسالة والنبوءة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، فهو التأكد والثبات واليقين، تنوعت به مشاهداته لآيات ربّه الكبرى مما لم يفصّله الله تعالى.

هذه هي قضية رسول الله وشأنه في ما دعا إليه قومه، إنه الوحي الإلهي المدعوم بالمشاهدة والرؤية المحققة واليقين الجازم، وللوحي طرق أخرى كما فصّلها الله في سورة الشورى، ومنها أن يتمثل الملك رجلا يكلم رسول الله فيعي ما يقول، ولكن الله العلي الحكيم اختار ذكر الصورة الحقيقية لأمين الوحي جبريل عليه السلام لتكون الحجة أبلغ وأوكد على دعوى صاحب الرسالة،

فما دعواكم -أنتم- أيها الشاكون المكذبون، فعلام تستندون في دعواكم الشرك والكفر؟. ذلك ما يعالجه النصّ التالي، والله أعلم.

محاججة المشركين والرّدّ على أباطيلهم.

أ)- النصّ:

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾: استفهام مفرّع على قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، فإذا اعتبرنا الرؤية بصرية كان الاستفهام تقريريا تهكميا، ويحتمل أن تكون الرؤية علمية فيكون الاستفهام للإنكار والتوبيخ. ﴿اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَوٰةَ﴾: أسماء لأصنام يعبدها الجاهليون. ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾: الجملة ارتقاء في الإبطال والتسفيه، يقول عنها صاحب كتاب "إعراب القرآن" أبو جعفر أحمد بن محمد يقول: "يجوز أن يكون مقدّما ما ينوي منه التأخير ويكون المعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ﴾، أي يقولون: هم بنات الله عز

وجل، ألكم الذكر الذي ترضونه وله الأنثى التي لا ترضونها".[1] ﴿ضِيزَى﴾: من فعل ضازه حقه، أي نقصه، أي قسمة ناقصة. و﴿إذن﴾: حرف جواب للاستفهام الإنكاريّ. ﴿مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾: أي من برهان عقلي ولا وحي، وإنما هو شيء اخترعتموه من عند أنفسكم. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾: أي إن تلك التسمية لا تنبني إلا على الظن والوهم وما تشتهيه النفس الإمارة بالسوء. ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي يتضمّن استفهاما إنكاريا. "أل" في الإنسان للجنس فالإنكار بمنزلة النفي يقتضي العموم، والمعنى: ما للإنسان شيء مما يتمناه أي ليس ذلك جاريا على إرادته، ففرّع على ذلك كون الأولى والآخرة لله لا لغيره يعطي منهما ما يشاء لمن يشاء، وبين: ﴿الآخِرَةُ﴾ و﴿الأُولَى﴾ طباق. ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَى﴾: ﴿كَم﴾: خبرية تدل على الكثرة. ﴿من﴾: للبيان أي كثير جدًا، نفى الله شفاعة أي ملَك لأحد عند الله إلا لمن أذن له وذلك ردّ لما يدّعيه المشركون من عبادة آلهتهم إذ قالوا: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَآؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس:١٨). ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾: "من" زائدة للتوكيد، والموضع موضع رفع، أي لا علم لهم بحقيقة الملائكة حتى يعتبروهم إناثا. ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: أي إنّ الظّنّ لا يدفع شيئا من الحق، والجملة تصلح أن تكون مثالا مستقلاً، ولذلك أظهر لفظ: ﴿الظَّنَّ﴾ مكان الإضمار.

ج- أوجه القراءة:

﴿اللاَّتَ﴾: قرأ الجمهور بتخفيف المثناة الفوقية، وقرأه رويس عن يعقوب بتشديد التاء، وهو لغة في هذا الاسم. ﴿مَنَاةَ﴾: قرأها الجمهور بتاء بعد الألف،

١- إعراب القرآن: ٤/٢٧٢.

وقرأ ابن كثير بهمزة بعد الألف على إحدى اللغتين، والجمهور يقفون عليه بالتاء تبعا لرسم المصحف فتكون التاء حرفا من الكلمة غير علامة تأنيث مثل تاء: ﴿اللاَّتَ﴾. ﴿ضِيزَى﴾: قرأه الجمهور بتاء ساكنة بعد الصاد، وقرأه ابن كثير بهمزة ساكنة بعد الصاد مراعاة لأصل الفعل كما تقدم.

د)- التعريف بالأصنام الثلاثة:

يقول سيد قطب في التعريف بالأصنام الثلاثة: "وكانت: اللاَّتَ صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام ويظن أن اسمها اللاَّتَ مؤنث لفظ الجلالة "الله" سبحانه وتعالى. وكانت الْعُزَّى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش تعظمها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزّى ولا عزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم». ويظن أن الاسم العزّى مؤنث العزيز. وكانت مَنَاة عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظمونها، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة، وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة، ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها".[1]

قلت: ومن الأصنام المشهورة عند قريش "هبل"، وقد تطاول به -أيضا- أبو سفيان يوم "أحد" فقال عند هزيمة المسلمين: "أعل هبل".

هـ)- البيان والتّفسير:

بعد بيان ظاهرة الوحي وشهادة الله على صدق الرسالة والنبوءة،

١- في ظلال القرآن: ٢٧/٥٣-٥٤.

وكيف كرّم رسوله برؤية الروح الأمين جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرتين، أعقب ذلك في هذا النّص ما يكون من الأولويات في مهمة رسول الله من تركيز عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك بأسلوب الإنكار والتهكّم لاتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله وجور المشركين في اعتقادهم الباطل أن الملائكة بنات الله، وهم في ذلك لا يصدرون إلاّ على الظنون والأوهام واتباع أهوائهم، معرضين عن الهدى الذي جاءهم من عند الله بواسطة رسوله فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ، إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰٓ﴾.

إذا كان محمد رسول الله بتلك المنزلة الرفيعة لدى الملإ الأعلى، وكان ما يدعو إليه هو الحق المدعوم بالحجج والبراهين ويتلقاه من ربّه العظيم بواسطة الروح الأمين بكل ما فيه من نور وهداية، فعلام تستندون أنتم -أيها المشركون- في عبادتكم لتلك الأصنام التي صنعتموها بأيديكم وتعتقدون فيها النفع والضرّ، وادّعائكم أنها ترمز للملائكة، وزعمكم أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، إنها لمفارقة عجيبة تلك الموازنة بين الحالين، عبّر عنها بالسؤال الإنكاريّ التهكّمي: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، ووصف مناة بكونها الثالثة الأخرى هو للتأكيد ولإبرازها مع الصنمين المشهورين: ﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾؛ لأنّ مناة كانت بعيدة عنهما بين مكة والمدينة، وقيل: إن الوصفين هما لتأكيد عظمتها عن اللاّت والعزى، وقيل: إن ذلك جار مجرى التهكّم والتحقير. ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾: استفهام إنكاريّ فيه مجاراة لاعتقادهم أن تلك الأصنام رمز للملائكة وأن الملائكة بنات الله -حاشاه- وتقديم الجار والمجرور هو لإفادة الاختصاص

وللاهتمام في مقام التهكّم والتسفيه، وإذ كان المشركون يكرهون ولادة البنات لهم، فإنهم بادعائهم هذا قد أوغلوا في الضلال.

أ)- باتخاذهم لله ولدا، سبحانه وتعالى عن ذلك.

ب)- بجعلهم الملائكة إناثا وهم لا يعلمون عنهم شيئا.

ج)- بنسبة أولئك الإناث إلى الله سبحانه وتعالى.

فهي ضلالات مركبة يستحقون عليها ذلك التسفيه والتحقير بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾، أي قسمة جائرة بين أنفسكم وبين الله.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾: بيّن الله تعالى ما هم عليه من الوهم بإبطال معتقدهم من أصله، إذ لا أساس له من العلم ولا أصل له من الواقع، وليس فيه حجة ولا برهان، لأن تلك الآلهة ومثيلاتها من الأصنام المعبودة من دون الله كلها أسماء ليس لها مدلول ولا حقيقة لها في الواقع كما يزعمون، فأين المسمّى الإله في تلك الكتل من الحجارة أو الخشب أو المعادن، فهي لا تعقل ولا تبصر ولا تسمع، وبالتالي لا تنفع ولا تضرّ بل سميتموها أنتم وآباءكم آلهة من تلقاء أنفسكم، لم تؤيّد بحجة ولا برهان من الله، بل إن منشأ تلك التسمية إنما هو الوهم والظن وما تمليه النفس الأمّارة بالسوء، بينما الواجب في أمور العقيدة أن تنبني على أساس من اليقين القاطع والبيان الصادق، ولقد أنزل الله عليهم ذلك بما جاء في القرآن إذ رسم لهم طريق الهدى ولم يتركهم حيارى، فانقطع عنهم العذر وانتهت التعلاّت، غير أن هوى النفس إذا استحوذ على العقل فلا ينفع الدليل، وبالتالي فإنّ الأماني التي يعلقون بها من شفاعة تلك الآلهة لهم عند الله تصبح لاغية باطلة.

﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ، وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي

السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَّأذَنَ اللهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضَى﴾:

﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي يتضمّن استفهاما إنكاريا يبطل الله به نيل الإنسان ما يتمناه بمجرّد هوى النفس ومعتقدها الباطل، لأنّ الحق له مرتكزاته ودلائله وله حقائقه الناصعة يجب ترويض النفس على معرفتها وتقبلها وإن خالفت هواها.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
وما نيل المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وقلوب الخلق بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء وفق إرادته ومشيئته، وله الأمر وحده في الآخرة والأولى، فإن أوهام المشركين في تلك الآلهة أنها تقربهم إلى الله زلفى أوهام باطلة والملائكة الذين رمزوا لهم بآلهتهم الباطلة وكل منهم له مقام معلوم عند الله خضوعا وطاعة لا يملكون أن يشفعوا لأحد عند الله إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون.

﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى، وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾:

صرّح الله في هذا التعقيب بمعتقد المشركين في اللات والعزّى بجعلها رموزا للملائكة، وبجعلهم إناثا ينسبوها إلى الله زورا وبهتانا بغير علم ولا حجة، فجاء هذا التعقيب الثاني لإبطال زعمهم بأسلوب التوبيخ والتسفيه إذ أثبت الله لهم صفتين ذميمتين:

أ)- أنهم لا يؤمنون بالآخرة وقد تأكد مجيئها على ألسنة الرسل كلهم وفي جميع الأديان.

ب)- نفي العلم عنهم مما جعلهم لا يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه، بل يعتمدون في اعتقادهم على الظن الخاطئ، وهو لا يغني من الحق شيئا، ولا يقوم مقامه أبدا. يقول الرسول ﷺ: «**إياكم والظنّ، فإنّ الظّنّ أكذب الحديث**»، ويقول: «**إذا ظننت فلا تحقّق**».[1]

ويرى المتنبي أن سوء الظن عند أحد من الناس يتولّد في نفسه من سوء طبعه وسوء أفعاله إذ يزن غيره بما يحسّ به في نفسه من غلبة الظن والتوهم فقال:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم
وعادى محبّيه لقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

والله أعلم.

ترك الأمر لله في جزاء المسيئين والمحسنين؛ لأنه هو أعلم بمن خلق.

أ)- النصّ:

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ
الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾

١- تقدم تخريجهما: ص ١٣٤.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾: الخطاب لرسول الله ولكلّ داع من أمته، والإعراض لفت الوجه عن الشيء، وهو مشتق من العارض، أي صفحة الخدّ، وأما التولّي فهو الإدبار والانصراف عن ذكر الله، ومن ذلك إعراضهم عن الاستماع للقرآن. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾: الإشارة إلى سبب ذلك التولّي منهم، وهو طلب الدنيا وجعلها نهاية علمهم، واعتبر ذلك علما بالنظر لدعواهم الفاسدة، والجملة اعتراضية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾: جملة تعليلية بأن الله يعلم من يستجيب لدعوتك ومن لا يستجيب فلا تتعب نفسك من الحزن عليهم إن عليك إلا البلاغ. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾: ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾: هي الآثام الكبيرة مما شدّد الدين التحذير منه. وأما ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ هي ما يفحش فعله مثل الزنا والسرقة. و﴿اللَّمَمَ﴾: الذنب الصغير الذي هو دون الكبائر وهو اسم مصدر من ألَمّ بالمكان إذا حلّ فيه. ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾: أي وقت إنشائه لأبيهم آدم، والأجنة: جمع جنين، وهو نسل الحيوان في رحم أمّه. ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾: أي لا تعجبوا بأعمالكم الحسنة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾: قرأ الجمهور بصيغة جمع "كبيرة"، وقرأه حمزة والكسائي ﴿كَبِيرَةَ الإِثْمِ﴾ بصيغة الإفراد والتذكير، على أنه للجنس.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن حقّر الله مدارك المشركين ووصف ضلالاتهم التي قلدّوا فيها

آباءهم وأنهم لا ينطلقون فيها إلا على أساس من الوهم والظن وغلبة الهوى، فرّع على ذلك الأمر لنبيه ﷺ بالإعراض عنهم وعدم الإكثرات بهم وبيّن أن ذلك الإعراض كان نتيجة عن توليهم عن ذكر الله وتعلقهم بفتنة الدنيا، وأنه تعالى هو أعلم بمن خلق فيجازي كلا بما يستحقه وفق إحاطة علمه بكل شيء، ثم تعرّض لبعض أوصاف المحسنين من عباده، وحذر من تزكية الناس لأنفسهم لأنه هو العليم بمن اتقى، فقال جلّ من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾.

الإعراض عن الشيء هو صرف الوجه عنه، وهو مشتق من العارض، صفحة الخدّ، والتولّي عن الشيء هو الانصراف عنه وتركه، أمر الله رسوله بأن يعرض عن المشركين فلا يجادلهم ولا يهتم بشأنهم، وذلك بعد إقامته الحجة عليهم بتبليغ ما أمره الله به، ولكنهم تولّوا عن ذكر الله وما نزل من القرآن وحصروا اهتمامهم على أمور الدنيا مفتونين بمتاعها مسخرين كل طاقاتهم لخدمتها، وهم ينكرون ما يخبر به القرآن من أمور الآخرة بمثل قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:٣٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى قوله في الجملة السابقة: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، و"مبلغ" اسم مكان يدلّ على الحدّ الذي ينتهون إليه مهما بلغوا من العلم الماديّ الدنيويّ، وفي ذلك تهوين بشأن كل علم لا يوصل إلى الإقرار باليوم الآخر ولا يقترب من معرفة الله وعبادته، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرّوم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧).

فليتطور العلم المادي إلى ما قدّره الله للإنسان أن يبلغه فإن أربابه سيظلون محجوبين عن الحقيقة عاجزين عن إدراكها حتى في أمور الدنيا، إذ يخبرنا ربنا بأنهم لا يعلمون إلا الظواهر، إذ لو أنهم علموا ما وراء ذلك من

الأسرار لأدركوا معنى الإيمان باليوم الآخر، والأمر بالإعراض عن هؤلاء لرسول الله هو توجه أيضا إلى أمته لتعرض عن موالاة كل من حادّ الله ورسوله من المشركين والمنافقين، وما أكثرهم في هذا العصر، إذ أصبح الكثير من الشباب المسلم يغتر بمثل ذلك العلم الماديّ المحض ويرى في عودة تعاليم الإسلام إلى مجالات الحياة المعاصرة رجعية وتخلفا.

ثم يأتي التذييل المناسب للتوجيه الإلهيّ ليركز على بيان علمه الشامل بمن ضل من خلقه وبمن اهتدى ليحاسب كلا بما يستحق: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى**﴾.

جيء بصيغة التفضيل لعلم الله على اعتبار ادّعاء الإنسان العلم في حكمه على الناس بالهداية أو الضلالة، والواقع أن العلم الحقيقي بأحوال الخلق لا يكون إلا لله تعالى، وبالتالي فهو الذي يتولّى جزاءهم وفي ذلك تسلية للرسول ووعد للمؤمنين ووعيد للضالين.

﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَآءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذَ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾.

إن هذه الآية شديدة الارتباط بما سبقها، فبعد أن أمر الله رسوله بالإعراض عن المشركين والتحقير من شأنهم وجاء التعليل بعده بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾، رتّب على ذلك بأنه هو الذي سيجازيهم بما يستحقون. وفي هذا الإخبار إثبات لوقوع البعث ومهّد لذلك بتقرير ملكية الله لما في السماوات وما في الأرض، وذلك لبيان قدرته تعالى

لتحقيق ما قدّره لخلقه من الحياة الباقية الأبدية بعد محاسبتهم على ما اختاروه في الحياة الدنيا فيجازي المسيء على إساءته ويجازي المحسن بأفضل مما عمل، كما يدلّ عليه وصف: ﴿الْحُسْنَى﴾ الذي هو مؤنث "أحسن"، والباء في كلا الجزاءين للتعدية.

ثم حدّد الله صفات المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، فالكبائر هي كل ذنب توعّد الله عليه، والفواحش عطف خاصّ على العامّ وهي ما اشتدّ قبحه عقلا وشرعا كالزنا.

و﴿اللَّمَمَ﴾: صغار الذنوب ومحقرات الأعمال، والاستثناء منقطع، وقد اختلف المفسّرون في تحديد اللّمم، يقول القطب عنها: "وظاهر القرآن والأحاديث والأخبار ما ذكر لا كما قيل كل ذنب كبيرة، وإن الصغر والكبر بالنسبة، ولنا أن نقول مع ذلك إجلالا له تعالى: ليس في ما يعصى الله به صغيرة".

وقال: "وليست الكبائر محصورة في القرآن ولا في السنة ولا في الإجماع، بل تعرف بالقلب السليم، وكم كبيرة لا توجب الحدّ ولم يذكر فيها لعن ولا وعيد، وكيف يحصر ما لا مطمع في ضبطه. قال ابن عباس لما قال: سبع. هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع. لكن لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار".[1]

قلت: إن المحسنين هم الذين بلغوا كمال التقوى، ولا يتمّ لهم ذلك إلا بصفات إيجابية وأخرى سلبية وقد اقتصر النصّ على ذكر الجانب السلبّي المتمثل في اجتناب الكبائر والفواحش، وبديهي أنهم لم يبلغوا درجة الإحسان إلا بفعل الحسنات فيكون تركهم للسيئات زيادة في حسناتهم، والتعليل بقوله

١- تيسير التفسير: ١٤/ ١٥٢-١٥٣.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، اقتضاه استثناء اللمم حتى تبقى صفحة الذين أحسنوا بيضاء ناصعة، تكريما لعباده الصالحين.

وختم الله هذا العرض بتأكيد علمه بدخائل خلقه في جميع أطوارهم فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

الخطاب للمؤمنين ولم يثبت فيها سبب للنزول، ولكن الاتصال بما سبق واضح جليّ إذ هو التأكيد على سعة علم الله وإحاطته الكاملة بأحوال وأفعال عباده واطلاعه على دقائق خلقتهم وهم ذرّ في أصلاب آبائهم أو أجنة في بطون أمهاتهم ثم تعهّده لهم في مختلف أطوارهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٤).

وقد ظل علم الأجنة في بطون الأمهات مجهولا لدى العلماء حتى بعد نزول آية سورة المؤمنين التي تعدّ بحق من الإعجاز العلمي في القرآن حتى اهتدى الإنسان إلى كشف بعض تلك الأسرار بالأشعة وبالتحاليل والتشريحات الطبية، وفي ذلك تنبيه على العلم والقدرة الإلهية فرّع الله عليها قوله: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، والتزكية هي نسبة الزكاة أي الطهر والتقوى والصلاح، والتعبير بالأنفس مضافة إلى كافة المخاطبين يكون في معنى: لا يزكّي بعضكم بعضا بادّعاء الطهارة عن المعاصي.

وقد وردت أحاديث صحيحة في النهي عن تزكية الناس بله تزكية المرء لنفسه، ثم بيّن الله سبب ذلك النهي بأنه هو وحده العليم بخبايا الأنفس، فليس من اللائق في حق الله أن نعرّفه بأنفسنا، بل نفوض الأمر إليه وهو أعلم بما في نفوسنا.

والله أعلم.

توبيخ المتولين عن الحق، والتذكير بما في صحف إبراهيم وموسى.

أ)- النصّ:

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾: الاستفهام للتعجيب من الذي تولّى عن الإيمان كما يبينه سبب النزول، إذ كف عن إعطاء المال. ﴿وَأَكْدَى﴾: بمعنى منع الإعطاء وهو من قولهم: حفر فأكدى، أي بلغ كدية من الصخر الصلب تمنع من الحفر. ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾: حذف مفعول: ﴿يَرَى﴾ تقديره: يراه حاضرا، والمعنى: أعلم أن هذا يتحمل عنه العذاب. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي، والاستفهام تعجيبي، وصحف موسى هي التوراة

وصحف إبراهيم سجّل عليها ما أوحى الله إليه وأغلبها نصائح ومواعظ، خصّ موسى وإبراهيم بالذكر لمعرفتها لدى المخاطبين، ويتمثل وفاء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٢٤). ولم يذكر مفعول: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ليدلّ على عموم توفيته بكل ما افترضه الله عليه. ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: في موضع الجرّ بدل "ما" أو في موضع رفع على تقدير ذلك مبتدأ محذوف، وتأنيث: ﴿وَازِرَةٌ﴾ بتقدير: نفس وازرة، أي لا تحمل نفس ذنوب غيرها. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: السعي: العمل والاكتساب، والأغلب استعماله لعمل الخير، والمعنى: لا يجني أحد ثمرة عمل إلا ما فعله بنفسه. وهو تقرير للمسؤولية الشخصية لكل إنسان. ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ﴾: "الهاء" في موضع نصب مفعول به، الجزاء منصوب على المصدرية، ﴿الْأَوْفَىٰ﴾: نعت، أي الجزاء الكامل. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾ مقصور، بمعنى رجوع كل الخلائق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ، وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: وضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾ يفيد القصر، انتقال من ذكر أحوال الآخرة إلى ذكر أحوال الدنيا من سرور وحزن وحياة وموت، وقانون الزوجية كل ذلك يتمّ بتصريف الله وفق إرادته ومشيئته. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾: من الإقناء قال ابن عباس: معناه أرضى الذي أغنى بما أعطاه. وقيل معناه: ضدّ الغنى، وقيل: هو من الاقتناء، أي الاختيار. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾: نجم من نجوم برج الجوزاء أضخم من الشمس، عبده القدماء. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾: هم قوم هود، وعاد الثانية هم قوم صالح من ولد فرع من فروع عاد الأولى. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾: قوم لوط سمّوا بذلك لقلب قراهم عاليها سافلها، منصوب بـ﴿أهوى﴾. ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾: غشاها بالحجارة من سجّيل، والإبهام للتهويل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿النَّشْأَةَ﴾: قرأ الجمهور بوزن الفعْلة وهو اسم مصدر أنشأ وليس مصدرا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿النَّشَآءَةَ﴾ بوزن "الفعالة"، أي بألف بعد الشين المفتوحة، وهو من أوزان المصادر لكنه مقيس في مصدر الفعل المضموم العين في الماضي نحو الجزالة والفصاحة. ﴿عَادًا الأُولَى﴾: قرأ الجمهور بإظهار تنوين عادا وتحقيق همزة: ﴿الأُولَى﴾. وقرأ ورش عن نافع وأبو عمرو: ﴿عَادًا لُّولَى﴾: بحذف همزة الأولى بعد نقل حركتها إلى اللام المعرّفة وإدغام نون التنوين من: ﴿عَادًا﴾ في لام: ﴿لُولَى﴾. وقرأه قالون عن نافع بإسكان همزة: ﴿الأُولَى﴾ بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة: ﴿عَادَ لُولَى﴾. ﴿وَثَمُودًا﴾: قرأ الجمهور بالتنوين، على إطلاق اسم جدّ القبيلة عليها. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿وَثَمُودَ﴾ بدون تنوين، على إرادة اسم القبيلة.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان سعة علم الله وقدرته العظيمة وعدله الكامل في توفية الجزاء يوم القيامة بأهل الإساءة والإحسان وأرشد إلى ما ينبغي علينا من الابتعاد عن الثناء وعن تزكية أنفسنا لأنه أعلم بخبايانا أعقبه هنا بالردّ على توهّم من توهمات المشركين الباطلة حول قانون الجزاء الرّباني، وبيّن أن جميع الشرائع المتقدمة كشريعة إبراهيم وموسى، تقرّر مبدأ المسؤولية الشخصية والتبعة الفردية.

ثم ينتقل النصّ إلى بيان ربوبية الله في تصاريف الكون وكيف يغاير أحوال الدنيا على الناس ويعجّل بالهلاك للطغاة المتجبرين فقال تعالى: **﴿أَفَرَءَيْتَ الذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى، أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾**.

هذا الاستفهام التعجبي المفرّع عما سبق، والخطاب فيه لغير معيّن، والذي تولّى عن دينه قد تعددت الروايات في تعيين شخصه، فقيل: هو العاصي بن وائل، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: النضر بن حارث، وقيل: هو الوليد بن المغيرة قد مال إلى اعتناق الإسلام خوفا من عذاب الله، ثم تولّى عن ذلك ظنا منه أنه يستطيع أن يشتري بماله من يتحمّل العذاب عنه، إذ أعطى قليلا من المال ثم أحجم عن ذلك شحّا وبخلا. فقوله تعالى: ﴿وَأَكْدَى﴾ تعبير مجازي يشبه فيه الممتنع عن بذل المال بعد إعطاء القليل منه تشبيهه بمن يحفر بئرا فاعترضته صخرة صلبة منعته من مواصلة الحفر، فالذي صرف هذا الرجل عن بذل المزيد من ماله هو تعلقه بالحياة الدنيا.

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾: استفهام إنكاريّ قدّم المسند على المسند إليه للاهتمام بهذا الإدّعاء التوهّمي لاستبعاد أن يكون لهذا الرجل إطلاع بعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فكيف يعلم أن هذا الذي أعطاه شيئا من ماله يتحمّل عنه العذاب، كلاّ، فليس الأمر كما يظن.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ، وَإِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى﴾: ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي يتضمن بعده همزة للاستفهام الإنكاري للجهل بما ينبغي أن يعلمه أولئك الذين يخشون الله من علم ما جاء في كتب الأولين سيما أولئك الذين يحترمهم العرب مما أنزل على موسى من أسفار التوراة وما وَرد في صحف إبراهيم الذي يعتقدون أنهم على ملته، وقد أشاد الله بهما في سورة الأعلى فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (١٨-١٩). وقد عكس الله هنا ذلك الترتيب فقدم صحف موسى على صحف إبراهيم لما اشتهرت به صحف موسى من أحكام الشريعة في التوراة وهي مضبوطة مدوّنة بعكس صحف إبراهيم لتقادم عهدها، وأغلبها نصائح ومواعظ، وقد أثنى الله عليه بأنه: ﴿وَفَّى﴾، هكذا بحذف متعلقه ليشمل كل

أنواع الوفاء بما كلفه الله تعالى به، وأعظمها ذلك الإذعان لأمر ربّه في ذبح ولده إسماعيل عليه السلام وقد شهد الله له بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (١٢٤). فما هي تلك القضايا التي تضمنتها صحف موسى وإبراهيم؟.

يقول تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ﴾.

هي أربع قضايا تتعلق بقانون الجزاء الربّاني العادل والمقرّر في كل الديانات لا يتبدل ولا يتغيّر.

أ)- **القضية الأولى:** ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ﴿أَلَّا﴾: تشتمل على "أن" مخففة من الثقيلة والتقدير: أم لم ينبأ بأنه لا تزر وازرة، أي نفس وازرة وزر أخرى، والوزر هو الحمل الثقيل، أي لا يأخذ الله نفسا بذنب غيرها، فكل من ارتكب ذنبا فهو يتحمّل وحده تبعة ذلك، وهذا تقرير للمسؤولية الشخصية كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۢ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:٣٨). وقال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (فاطر:١٨).

ب)- **القضية الثانية:** ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: الجملة معطوفة على سابقتها تكررت فيها: ﴿أن﴾ للتأكيد أي لا يكون للإنسان من جزاء ولا يحصل على فائدة عمل إلا ما عمله بنفسه لا يزاد عليه شيء من عمل غيره ولا ينقص منه شيء ليناله غيره، والتعبير بالسعي يرجح أن يكون المراد به ما يكون من الأعمال الصالحة، ليقابل معنى الجملة الأولى احتراسا من أن يخطر على البال أن المدفوع عن غير فاعله هو الوزر. ولكن هذه القاعدة الثانية ليست على إطلاقها، إذ ثبت مما تقدم من نصوص القرآن ومن السنة أن من فيض الله وفضله العظيم إلحاق ثواب بعض الأعمال إلى غير من عملها،

كالصدقة والدعاء، فقد ثبت من نصوص القرآن أن الملائكة تستغفر لمن في الأرض وأنه تعالى يجمع المؤمنين بذرياتهم في الجنة وإن لم يبلغوا منزلتهم في الأجر والثواب، وجاء في ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».[1]

يقول القطب -رحمه الله-: "والحصر باعتبار غير هذه الأمة، وأما هذه الأمّة فلها ما سعت وما سعي لها كما جاء في الحديث وهو على عمومه فرضا ونفلا".[2]

ويقول الإمام بيوض الحاج إبراهيم بن عمر: "فإن مما يستثنى من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، الصدقة والدعاء، فدعاء المؤمن لأخيه المؤمن عن ظهر غيب مشروع أكان هذا المدعوّ له حيًا أو ميتا".[3]

ج)- **القضية الثالثة: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾**: يلاحظ في الجملتين استعمال حرفي: "سَوْفَ"، "ثُمَّ"، فالأول للمستقبل البعيد وذلك باعتبار نظرة الإنسان إلى الحساب الأخرويّ كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦-٧). وجيء بفعل: ﴿يُرَى﴾ بالبناء للمجهول أي يشاهد عند الحساب من طرف صاحبه ومن طرف الخلائق بالكيفية التي أرادها الله ولن يغيب منه شيء عن علم الله، كما لا يبخس شيء من حقه إذ تتحقق يومئذ عدالة الجزاء. ومما يدلّ على دقة الحساب وتوفيته لتقرير الجزاء العادل العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدلّ على التراخي فهناك فاصل

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٢٥) الوصية، باب (٣) ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ١٦٣١: ٣/١٢٥٥.

٢- تيسير التفسير: ١٤/١٦١.

٣- في رحاب القرآن: ٢٥/٢١.

زمني الله أعلم بمقداره بين موقف الحساب والدخول إلى دار الجزاء في الجنة أو النار، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى:٧).

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: يحتمل أن تكون هذه الجملة في مشمولات ما في صحف موسى وإبراهيم فتكون معطوفة على ما سبق، ويكون فيها الخطاب لغير معيّن، ويحتمل أن لا تكون من تلك المشمولات فيكون الخطاب لرسول الله على وجه التكريم والتشريف. و﴿الْمُنتَهَىٰ﴾: مصدر ميميّ، لنهاية كل شيء بالمعنى العامّ للآية فمنه تعالى بداية الوجود كله وإليه نهايته يوم القيامة ثم يحكم فينا بما يريد. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة العلق: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾(٨). وإني لأستروح من هذه الآية معنى خفيًا لما تؤول إليه مسيرة الإنسانية بعد أن تصل إلى غاية نضجها العقلي الذي يهديها إلى الإيمان بالله وإدراك عظمته من خلال النظر في الكائنات، فينتهي بها المطاف إلى الإذعان والإنصاف بأن لله وحده الخلق والأمر.

ثم ينتقل السياق إلى الاعتبار بأحوال الحياة الدنيا التي ينصرف لها الناس بتدبير من الله الحكيم ليداول الأيام بين الناس ويقلبهم في السرّاء والضرّاء فقال:﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾. إنها جملة قصيرة في مبناها عظيمة في معناها لأنها تصوّر ظاهرة نفسية معقدة في ذات الإنسان في حالتين متضادين من سرور وحزن لكل منها أسبابه ودواعيه في النفس البشرية، وليس ذلك لأيّ حيوان آخر، وما تزال أسرار تلك النفس العجيبة مستعصية في كثير من جوانبها على العلماء ذلك لأنها نفحة من روح الله في ذات الإنسان وهو أعلم بما يختلج في ثناياها، وذلك ما يدل عليه الفعل: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، فكم من الضاحكين والباكين في اللحظة الواحدة في الزمان وفي البقعة الواحدة من المكان في الحياة الدنيا، بل الإنسان الواحد قد ينقلب بين الحالتين في ذات الظرف الزماني أو المكاني لاختلاف المؤثرات فيهما يقول الشاعر:

كم يوم بكيت فيه، ولما صرت في غيره بكيت عليه

إنها حشد من المؤثرات والمشاعر ورصيد من التجارب تعمل عملها في الذات الإنسانية ومن ورائها خالق الأسباب يقلب القلوب كيفما يشاء.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: جيء بضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾ لإفادة القصر، واستعمال الفعل الماضي: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يوجّه معناه قوله تعالى في سورة الملك: ﴿الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٢). فالمراد بهما ما نحسّ به في حياتنا الدنيا، وجاء الفعلان رباعيين للتعدية بالهمزة للدلالة على أن المميت والمحيي الحقيقي هو الله وحده، لأننا في تعابيرنا قد ننسب الفعل إلى غيره تجاوزا فنقول مثلا: فلان أمات فلانا بضربة قاتلة. فليس هو المميت، وإنما هو المتسبب الذي قدّر الله أن يجرى الموت على يديه، وما أروع الإعجاز القرآن في ترتيب الحياة والموت على الضحك والبكاء فهما متصلان ومتلازمان في حياة الناس، يقول المعرّي:

إنّ حـــزنا فـــي ســـاعة المـــو ت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وما يزال لغز الموت والحياة لا يجد فكاكا لدى العلماء الباحثين، إنه السرّ المكنون الذي لا يعلمه إلا الله، وإن كان الماديّون عندما يعجزون في مجال أبحاثهم يقولون: سرّ من الأسرار. ولكننا نحن -المؤمنين- نؤمن بأن الموت حق ونقول عند عجزنا عن إدراك بعض الحقائق، الله وراء كل ستار.

﴿وَأَنَّـهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾: إنها النشأة الأولى الدالة على قدرة الله في بديع صنعه لهذا الإنسان وما ميّزه به من تفكير وإدراك وما خصّه به من مقدرة وعمل، كيف جعل الله نسله من سلالة من ماء مهين، كيف أن تلك النطفة من ماء الرجل تراق فإذا هي بتدبير الله بعد لقاحها ببويضة المرأة تستقر في رحمها جنينا يتقلب في أطواره وتحمل

خصائص الذكر أو الأنثى وفق تدبير الله ومشيئته فإذا هي بشر سويّ بكل خصائصه وتعقيداته، إنه صنع الله البديع الذي أحسن كل شيء خلقه، جعل هذه النشأة الأولى العجيبة والتي لا يرتاب فيها الجاحدون، جعلها دليلا على قدرته على النشأة الآخرة على الكيفية التي لا نعلمها، ونحن ما نزال عاجزين على إدراك كنه الحياة التي نحن عليها على ظهر هذا الكوكب، فما بال الحياة على ظهر الكواكب الأخرى إن وجدت في أرجاء الكون الفسيح؟؟...

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾: جاء التعبير بقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ مما يدل على أن بعث الخلائق ليوم الحساب والجزاء حق واجب عليه -ولا واجب على الله- وإنما أوجب ذلك على نفسه لأنه مقتضى حكمته وعدالته المطلقة في خلق السماوات والأرض، هذه النشأة الثانية التي كذب بها المشركون وخاصموا الله تعالى فيها هي وإن كانت ما تزال غيبا فإن لها من حياتهم الأولى دليلا قاطعا على وقوعها كما أخبرنا الله بذلك في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤).

فإن الجزاء الأوفى للمحسنين والمسيئين لا يتمّ إلا في موقف الحساب يوم القيامة حيث تكون الحياة الحقيقية التي لا تزول ولا تفنى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾: حذف المعمول ليعمّ كل شيء، فعلى نسق التقابل بين المتضادات في الآيات السابقة يتجه المعنى في: ﴿أَقْنَىٰ﴾ أن يكون بمعنى "أفقر" غير أن اللفظ له معان أخرى هي أرجح من معنى الفقر منها الجمع والادخار، وبمعنى: أخدم، مشتق من اليقين أي العبد، ومنها عن ابن عباس: أرضى الذي أعطاه بما أغناه. وإسناد الإغناء والإقناء أو الإفقار إلى الله وحده هو للتنبيه إلى واجب الشكر للمنعم. فأكثر الناس يغفلون عن مقسّم الأرزاق وموفّر الأسباب في ذلك. ويقال: إن القينة هي المال الشريف الباقي كالأصول والعقارات والإنسان من طبعه يحبّ الادخار ويطمئن إليه أكثر.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾: انتقال إلى بيان ربوبية الله وقدرته في تصاريف الكون، وأن الخلق مهما طغوا وتجبّروا فإنه تعالى قاهر فوق عباده، ولما كانت: ﴿الشِّعْرَى﴾ من أشهر النجوم التي عرفها الناس منذ القدم وعبدها البعض منهم، وذلك من مظاهر الشرك التي أهلك الله بسببها من أهلك من الأمم السابقة، فإن ذكرها في مقدمة البيان الأخير للنصّ يعتبر في غاية المناسبة فإن هذا النجم المعبود من دون الله ليس بأعظم أهمية من النجوم الأخرى التي يسخّرها الله بقدرته، فالتقرير بأن الله هو ربّها وخالقها يتناسب -أيضا- مع افتتاح السورة بالقسم بالنجم إذا هوى، وفي ذلك إبطال لعقيدة الشرك التي كانت سببا لمصارع العابدين التي جاء ذكرها ختاما للسورة الكريمة فقال تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝ وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُوا۟ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾:

إنها لمحة مختصرة لأقوام مثلوا في تاريخهم الطغيان والعناد والفساد فاستأصل الله شفتهم بعد أن أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب فواجهوا ذلك بالتكذيب والسخرية والاستهزاء، وقد حقت عليهم كلمة العذاب، وقد عرف القارئ للقرآن قصص هؤلاء مفصّلة في مختلف السور، يعرضها النصّ هنا باختصار لتكون فيها عبرة لأولي الأبصار.

فعاد الأولى هم قوم هود عليه السلام دمّر الله حضارتهم بالريح الصرصر العاتية فطمرتها تحت الرمال بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، ومن أعقابهم ممن نجوا مع هود لإيمانهم به، نشأت عاد الثانية في شمال الجزيرة وهم "ثمود" من قوم صالح عليه السلام لم تبق منهم باقية بعد إهلاكهم بالصيحة إذ أصبحت ديارهم أطلالا خاوية ما تزال آثارها في ما يسمى: "بمدائن صالح".

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾: ويتمثل ظلمهم وطغيانهم في إصرارهم على الكفر وقد لبث فيهم رسولهم نوح يدعوهم إلى الإيمان لمدة تسعمائة وخمسين سنة، ولم يؤمن به إلا قليل، وقد أغرقهم الله بالطوفان حين نجىّ نوحا ومن آمن معه على السفينة.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾: ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وصف من الإئتفاك، وهو الانقلاب، هو وصف لقرى قوم لوط التي قلبها الله فجعل عاليها سافلها جزاء ما كانوا يقومون به من فواحش ما سبقهم بها من أحد من العالمين.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾: أي جعل عليها غطاء من حجارة من سجّيل أمطرت عليهم إمعانا في الإهلاك والتدمير، والإبهام في قوله: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ للتهويل والتفظيع بحيث يجلّ عن الوصف.

فيمثل هذا العرض الموجز ضرب الله الأمثلة لهذه الأمم المكذبة برسلها، وهو ما ينسجم مع أسلوب السورة في تناغمه وفواصله، والله أعلم.

الاتعاظ بالقرآن، والتحذير من أهوال القيامة.

أ)- النصّ:

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾: ﴿ءَالَآءِ﴾: النعم، جمع "إلّ" بكسر الهمزة

وبفتحها مع فتح اللام مقصورة. ﴿تَتَمَارَى﴾: من التماري وهو التشكك والخطاب إما للرسول أو لغير معيّن.﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾: مبتدأ وخبر، النذير: المخبر عن حدوث أمر مضمر بالمخبَر -بفتح الباء- والإشارة إما إلى الرسول بصفة عامّة وإمّا إلى ما ذكر من قبل من هلاك الأمم السالفة لتكذيبها برسلها.﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾: أزف الشيء إذا قرب، والآزفة من أسماء القيامة ولا يكشفها إلا الله وحده كقوله: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (الأعراف:١٨٧). ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ والحديث المشار إليه هو ما ذكر من الإنذار بمصير الأمم السالفة، وفي معنى العجب استبعاد ذلك وإحالته. ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ، وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾: ﴿تَضْحَكُونَ﴾: سخرية واستهزاء. ﴿وَلاَ تَبْكُونَ﴾: بخشيتكم من سوء العذاب. ﴿سَامِدُونَ﴾: من السمود، وهو إعجاب المرء بنفسه تكبّرا، وقيل معناه: الفرح وقلة الاكتراث. ﴿فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾: يراد بهما الإذعان والخضوع لله وخشيته بترك عبادة الأصنام.

ج- البيان والتّفسير:

هكذا تنتهي السورة الكريمة بفذلكة تلخّص ما يختصّ بتكريم النبي بمشاهدات في الملإ الأعلى جيء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كما تذكر ما يشترك فيه مع غيره من أمّة دعوته من مختلف النعم التي أغدقها على خلقه حتى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾، ثم بيان قدرته في إهلاك من كفر بتلك النعم، وحين فرّع بالاستفهام التذكيري لتلك النعم ختم السورة ببيان اقتراب الساعة وحذر من إنكار دعوة الرسول وما جاء به ودعا إلى الانقياد لطاعة الله وعبادته وحده لا شريك له قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾.

السؤال موجّه إلى كل من يستمع القرآن لتعليم الرسول وأمته منافع الاعتبار بنعم الله، ومنها نقمته من الطاغين الضالين لنصرة رسله، وذلك يتضمّن بشارة الرسول بالنصر فالاستفهام التذكيري يحفز القلب الرشيد على الاعتبار والاتعاظ مما يدفعه إلى الإذعان للحق الذي جاء من ربّه.

وعلى ذكر مصارع المكذبين الغابرين يطلق الله هذا الإنذار الختامي بين يدي الساعة التي اقترب موعدها ولا يجلّيه إلا الله وحده: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى، أَزِفَتِ الآزِفَةُ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ**﴾.

الإشارة إلى القرآن أو إلى الرسول أو المراد كلاهما، وقد وصف الله رسوله بالنذير في عدة آيات وقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ:٤٦). فيكون ﴿النذر الأولى﴾ هم الرسل السابقون وما تنزل عليهم من الكتب، فليس ما أنذركم به محمد بدعا ممن سبقه من الرسل لأن دين الله واحد في أصوله وقد ذكر الله البعض منها في قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى﴾ (٣٦-٣٧).

ثم بيّن الله ما ينذر به رسل الله، وهو دنوّ الساعة بأهوالها، وقد جيء لها بوصف من مادة فعل: ﴿أَزِفَ﴾ للتهويل والتفخيم؛ لأن الإخبار بها جدير بذلك لأنه لا أحد يملك كشفه إلا الله تعالى، تحديدا لموعدها، وتحقيقا من هولها. وللساعة في القرآن أسماء وأوصاف متعددة نظرا لشدائدها فهي الطامّة الكبرى، وهي الصاخة، وهي القارعة، وهي الحاقة، وهي الآزفة في هذه السورة الكريمة.

وفي الختام يوجه الله الخطاب للمنكرين الشاردين في غفلتهم بصيغة الاستفهام الإنكاريّ التوبيخي فيقول: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ، وَأَنتُمْ سَامِدُونَ**﴾.

فالعجب كل العجب من موقف هؤلاء الساخرين العابثين والخطر الداهم أمامهم وصيحات الإنذار في القرآن تقرع آذانهم ليبادروا إلى الأخذ بأسباب النجاة فممّ تعجبون وتضحكون؟، والموقف عند ذوي الإيمان واليقين يستلزم البكاء، ويدعو إلى الإشفاق.

ولكنه العجب بالنفس والكبرياء والغرور عند هؤلاء الجاحدين الطاغين أبقتهم في الحضيض يتمرغون.

ثم أرسلها الله صيحة عامّة تهزّ القلوب وتقرع الآذان: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾، بما أن الخطاب تفرع على الإنكار والتوبيخ للمعرضين الغافلين فهو موجه لذلك الصنف من الخلق يأمرهم بالخشوع والتذلل إلى الله واستشعار خشيته وبعبادته عبادة كاملة بترك عبادة الأصنام.

وفي لحظة الإقبال والتأثر ببلاغة القرآن وقد سجد الرسول والمؤمنون سجد معه المشركون الذين قرأ عليهم الرسول السورة من أولها إلى آخرها.

والخلاف بين العلماء في السجود سجود تلاوة في هذه الآية فمنهم من يرى أنها ليست من عزائم السجود؛ لأن النبي ترك السجود فيها بعد ذلك، ومنهم من يرى أنها من عزائم السجود فقال بوجوب السجود فيها.

وأما قصة "الغرانيق" التي فصلنا خبرها في تفسير سورة الحج، والتي جعلها بعض المفسرين أنها كانت هي السبب في سجود المشركين لسجود رسول الله، فإن هذه القصة من الأباطيل التي روّجها أعداء الإسلام.

يعلق عليها الشيخ محمد الغزالي بقوله: "وقد أصيب الإسلام نفسه بأهل إفك نسبوا إلى رسولهم أنه مدح الأصنام وسمّاها الغرانيق العلا وما روى ذلك محدّث ولا فقيه، ومن زعم ذلك فالإسلام منه بريء، إنّ النجم قد يهوى لكن

محمد ما هوى قط".[1]

قلت: وقد ردّ سيّد قطب في ظلاله تلك التهمة الملفقة وبيّن أن سجود الكفار كان في لحظة تأثر خاطفة لقوة المحاكاة، وهو يحكم بكفر من زعم ذلك، والله أعلم.

١- التفسير الموضوعي: ص٤١٧.

سورة القمر، مكيّة، وآياتها ٥٥

- بين يدي السّورة الكريمة:

الاسم الذي اشتهرت به هذه السورة ٤هو سورة "القمر" كما عنون لها في المصاحف، وذلك لافتتاحها بذكر انشقاق القمر واقتراب الساعة. وقد تسمّى "سورة اقتربت الساعة" وقد يكتفي بذكر الفعل: ﴿اقْتَرَبَتِ﴾. وهي مكية كلها عند الجمهور، وعدد آياتها خمس وخمسون، وهي في ترتيب نزول سور القرآن السابعة والثلاثون نزلت بعد سورة الطارق، أما في ترتيب سور المصحف الشريف فهي الرابعة والخمسون.

ومناسبتها للسورة التي قبلها سورة النجم تبدو واضحة في آخر سورة النجم وأول سورة القمر إذ ختمت الأولى بقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم:٥٧- ٥٨). أي قربت الساعة، وهو نفس المعنى الذي بدئت به الثانية بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وتتحدان في المحور الأساسيّ من تركيز العقيدة الإسلامية، وقد فصلت ما أجملته سورة النجم من أحوال الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيب رسلهم.

وقد فصلت بين كل قصّة وأخرى بعبارة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وهي عبارة مفزعة تدعو إلى الخوف والهلع يهزّ القلوب ثم يترفق بها مشفقا لينوّه بشأن القرآن إثر كل قصة بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وفي ذلك التكرار أسلوب حكيم في مجال الإرشاد والتوجيه ينبّه الغافلين ويستميل نفوس الشاردين، ليأخذ بأيديهم إلى المشهد الأخير في ختام السورة، مشهد الإنعام والإكرام للمتقين في كنف المليك المقتدر.

قرب الساعة، وموقف المشركين منه.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ
الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ
أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ
⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾: ﴿اقْتَرَبَتْ﴾: دنا وقتها جدًا، ﴿السَّاعَةُ﴾: في المصطلح الديني موعد فناء العالم عند الصعقة الأولى. ﴿انشَقَّ الْقَمَرُ﴾: أي انفلق فابتعد قسم منه عن الآخر. ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾: شرط وجوابه. ﴿آيَةً﴾: نكرة في سياق الشرط تفيد العموم لكل آية، أي معجزة دالة على صدق نبوءة رسول الله. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي هذا سحر مستمرّ. ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: إما بمعنى قويّ محكم من السِّيرة أي القوة وإما بمعنى يمرّ ويمضي. يمنون أنفسهم بذلك. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: مبتدأ وخبر جملة حالية من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، والمعنى: إنّ تكذيبهم وإعراضهم لا يغيّر من حكم الله شيئا، ولا من أنظمة الكون المستقرة الثابتة. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: ﴿الْأَنبَاءِ﴾: الأخبار الهامّة من الأمم الماضية. وفعل: ﴿جَاءَهُم﴾: الضمير في موضع نصب مفعول به. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: ﴿مَا﴾: فاعل. ﴿مُزْدَجَرٌ﴾: أي يزجرهم وينهي عنادهم.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾: ﴿حِكْمَةٌ﴾: إما مرفوع على البدلية من: ﴿مَا﴾. وإما خبر لمبتدأ محذوف أي هي حكمة بالغة. ﴿مَا تُغْنِ﴾: حذفت الياء من تغني في قراءة إتباعا لخط المصحف، أي لا تنفع فيهم الإنذارات، والتقدير: لا تغني النذر شيئا. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: التقدير أذكر أو انتظر يوم، أو هو متعلق بفعل: ﴿تَوَلَّ﴾. والداعي: يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية للبعث. ﴿نُّكُرٍ﴾: أي شديد الكره على النفوس. ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾: ﴿خُشَّعًا﴾: حال، ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾: فاعل: ﴿خُشَّعًا﴾، بمعنى أذلاء مهانين من شدة الهول، و﴿الْأَجْدَاثِ﴾: جمع جدث: القبور، شبهوا بالجراد المنتشر في الكثرة والزحف. ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: مسرعين مع مدّ الأعناق من شدة الهلع متوجهين إلى صوت الداعي.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: قرأ الجمهور برفع الراء، وقرأه أبو حفص بفتحها على جعل: ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ عطفا على الساعة، واقترب كلّ أمر. وجعل: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: صفة له. ﴿فَمَا تُغْنِ﴾: قرأ الجمهور بحذف الياء في الوصل والوقف تخفيفا، وقرأ يعقوب بإثبات الياء في الوقف على الأصل. ﴿خُشَّعًا﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: ﴿خُشَّعًا﴾ بصيغة جمع: خاشع، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿خاشعا﴾، بصيغة اسم الفاعل.

د)- البيان والتفسير:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾: إنها افتتاحية عجيبة ملفتة، فإن ظاهر العبارة كما يقول الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي يقول:

"ظاهر العبارة يدلّ أن هذا الانشقاق يقع آخر الزمان مع الاضطراب الفلكي الذي يعتري الأفلاك ومسيرتها، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (٧-١٠)".[1]

قلت: ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى:

أ)- ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:١).

ب)- ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١).

ولا يعكّر على ذلك ورود الخبر بصيغة الماضي، فقد استعمل القرآن في كثير من الأخبار الغيبية صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، كما في الآيتين السابقتين. إذ أن التعبير بلفظ الماضي لا يدل على القطع في كل مقام وحيثما ورد كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين، وقالوا: إن المعجزة الخالدة لرسول الله هي القرآن الكريم التي تحدّى بها الله الثقلين على أن يأتوا بمثلها، ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا والله يقول في هذا الصدد لمعجزة القرآن:

أ)- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١).

ب)- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:١٩٧).

ولكن ما حيلتنا أمام الأحاديث والروايات الكثيرة التي وردت في كتب السيرة وفي كتب الحديث عن انشقاق القمر على عهد رسول الله وأنه انشق

١- التفسير الموضوعي: ص ٤١٩.

نصفين ثم التأما ورآه ناس كثيرون: مسلمون ومشركون؟.

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري والترمذي عن أنس بن مالك ﷺ قال: «**سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر**»، وزاد الترمذي: «**فانشق القمر بمكة مرتين، فنـزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾**»[1]. وما أخرجه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: «**انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم فاسألوا السّفار، فسألوهم، فقالوا: نعم، قد رأينا، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ،وَإِنْ يَّرَوَا -ايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾**».[2]

ومما ثبت عنه ﷺ إخباره بقرب الساعة ومن ذلك ما أخرجه الشيخان وأحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بعثت أنا والساعة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى**».[3]

قلت: نحن أمام تلك الروايات المستفيضة من انشقاق القمر على عهد رسول الله، لا يمكن أن ننكر حدوث معجزة مادية مثل هذه للرسول، فكم له من مثيلاتها حسبما ترويه كتب السيرة، إذ ليس أمام قدرة الله مستحيل، ولذلك حاول بعض المحققين من المفسّرين أن يجمع بين هذه الحادثة كما وقعت تمشيا مع الروايات الثابتة في الموضوع، وبين ضروب من التفاسير والتأويل لما تراءى للناس يومئذ فقال الإمام ابن عاشور: "وإذ قد حمل معظم

١- رواه البخاري من حديث ابن مسعود، كتاب (٦٥) المناقب، باب (٢٤) سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، رقم ٣٤٣٨: ٣/١٣٣١. ورواه الترمذي من حديث أنس، كتاب (٤٨) التفسير، باب (٥٤) سورة القمر، رقم ٣٢٨٦: ٥/٣٩٧.

٢- جامع البيان: ٢٢/٥٦٧.

٣- رواه البخاري، كتاب (٧١) الطلاق، باب (٢٣) اللعان، رقم ٤٩٩٥: ٥/٢٠٣١.

السلف من المفسّرين ومن خلفهم هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها، فبنا أن نبيّن إمكان حصول هذا الانشقاق مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين وتقريبا لفهم المصدّقين. فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيّل أنه منشق إلى قمرين فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق".[1]

وقد ساق الإمام أمثلة أخرى، وكلها من قبيل التأويل الماديّ قابل للوقوع وعدمه، فلنفوض الأمر إلى الله العليم بما حدث ولنعد إلى تفسير بقيّة الآية.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أرجح أن تكون هذه الآية كلاما مستأنفا لذكر أحوال المشركين ومواقفهم من آيات الله بصفة عامة، لأن: ﴿ءَايَةً﴾ جاءت نكرة في سياق الشرط، فيدخل مع كل آية هو الإعراض والتكذيب وإدّعاء السحر على رسول الله، ووصف السحر بـ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ يحتمل معنى الزوال أو معنى القوة كما بينّا في التحقيق اللغويّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر:١٤-١٥).

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: هم لا ينفكون عن التكذيب سواء في ما مضى أو في الحال والمآل سواء بما شاهدوه من الآيات الكونية أو بما جاء به الرسول من الهدى والحق في كلام معجز يقرّون بإعجازه وبلاغته، واعتبروه سحرا مستمرّا معرضين عن تدبّر آياته، والعلة في ذلك أنهم

١- التحرير والتنوير: ٢٧/١٦٩.

خاضعون لأهوائهم وتقاليدهم لا يستندون إلى حجة ولا يعتمدون على دليل، بينما الأمر عند الله ثابت مستقرّ.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: جاءت هذه الجملة مستقلة بذاتها لتجري مجرى المثل، ذيّل الله بها ما سبق ليبيّن من خلالها أن أمر الله تعالى في تدبير الكون ثابت لا يتزعزع ولا يضطرب؛ لأنه يقوم على الحقّ والعدل لا على الأهواء المتقلبة ولا على الصدفة العارضة فكلّ شيء في موضعه وكلّ في إطاره وزمانه، ولذا فإنّ أمر رسول الله صائر إلى النصر والظّهور؛ لأنّه من أمر الله، كما أن اتّباعهم لأهوائهم وتخبطهم في باطلهم صائر إلى الاخذال والزوال، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٦٧).

وفي هذا الإخبار ما لا يخفى من التسلية والتثبيت لرسول الله والمؤمنين معه، بينما يعقبه التوبيخ والتقريع للمشركين على إصرارهم وتعنتهم إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ﴾: الضمير يعود إلى كفّار مكّة ومن على شاكلتهم ممن لا يرتدع ولا يزدجر بما يشاهده من الآيات وما يسمعه من الأنباء سواء من مصارع الأمم السابقة أو مما يخبر به القرآن من أهوال الساعة وقد شاهدوا أمارات قربها أو ما يتضمنه القرآن الكريم من المواعظ والنصائح فيها من حكمة الله البالغة ما يؤثر في القلوب المؤمنة الخاشعة ويجعلها طيّعة منقادة.

ولكن القلوب القاسية المتحجرة لا تلين ولا تنتفع بتلك الآيات، ولا تخاف تلك النذر وبالتالي لا ترجى فائدة من ورائها، وهي تلجّ في عنادها وتصرّ على إعراضها، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ

يُومِنُونَ﴾ (يونس:١٠١). فالإيمان هو أعظم منة من الله تستنير بها القلوب وتلين لذكر الله.

وإلى هذا الحدّ من التيئيس في إيمان هؤلاء وعدم جدوى النذر في أمثالهم يوجّه الله الخطاب لرسوله ويأمره بالإعراض عنهم وتركهم لليوم الذي يكذبون به: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ، خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

التفريع بأمر التولّي عنهم لرسول الله يدلّ على أنه قد استنفد كل جهده في التبليغ والإنذار، فلم يعد يؤثر فيهم التذكير وبالتالي لا جدوى في مجادلتهم ومحاججتهم.

والتولّي أقوى من الإعراض، إذ أنه الاستدارة بالظهر والانصراف الكليّ إلى شيء آخر، ثم قدّم الله الظرف: ﴿يَوْمَ﴾ على عامله للفت الاهتمام لما يسمعه السامع مما يجيء بعد الظرف، وهو ذلك المشهد المهول لما بعد نفخة البعث وهو شيء نُكُر لا عهد لهم به وهم يخرجون من قبورهم حفاة عراة خاشعة أبصارهم من الخوف والذلّة والهوان وهم من الكثرة في زحفهم كأنهم جراد منتشر مسرعين إلى موقف الحساب مستجيبين لدعوة إسرافيل وهي تدوّي في كلّ الآفاق، فيومئذ يحسّ الكافرون بوطأة ذلك اليوم ويدركون هوله وشدائده ويعترفون بأنه يوم عسر.

والتنصيص على الكافرين في تلك المقولة يدلّ على أنّ المؤمنين هم في مأمن من ذلك الهول، فلا تسمع منهم شكوى ولا يبدون أيّ تذمّر، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٨-٩)، فاللهم نجنا من النار سراعا آمنين، ولا تخزنا يوم يبعثون، والله أعلم.

التذكير بقصص الأمم الخالية المكذبة بالرسل

٠١- قصة قوم نوح عليه السلام.

أ)- النص:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: ﴿قَبْلَهُمْ﴾: أي قبل قومك قريش وتأنيث الفعل لمعنى الجماعة، وإضافة القوم إلى: ﴿نُوحٍ﴾، إذ لم يكن لهم اسم لقبيلة يعرفون بها. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾: أعيد فعل: ﴿كَذَّبُوا﴾ لإفادة التوكيد بأنه تكذيب قويّ، إذ كان تكذيبا مشوبا ببهتان بوصفه بالمجنون على إضمار مبتدأ، أي هو مجنون. ﴿وَازْدُجِرَ﴾: أي انتهروه على إدعاء الرسالة وآذاوه إذ قالوا له: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء: ١١٦). ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾: فعلى قراءة: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة يقدر حرف جرّ: بأني مغلوب، وعلى كسر الهمزة: إني، يقدر فعل: قال فانتصر، أي انتقم لي منهم. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: يفهم من التفريع بالفاء أن الله استجاب دعوته فكان ما كان من قوة انصباب الماء من السماء بصورة تمثيلية لتدفق الماء بغزارة كهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار. ﴿وَفَجَّرْنَا

الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾: أي تفجرت الأرض عيونا، والأصل فيه: فجرنا عيون الأرض، فعدل عن ذلك إلى المجاز للمبالغة إذ جعلت الأرض من كثرة عيونها كأنها عين تتفجّر. ﴿فَالْتَقَى الْمَآءُ﴾: أي ماء الأرض وماء السماء، فالمراد بالماء الجنس. ﴿الْتَقَى الْمَآءُ﴾: على حال أو شأن قدّره الله في الأزل بتدبير وإحكام. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: التقدير: على سفينة ذات أخشاب ومسامير ألهم الله نوحا إلى حسن تجميعها ورصّها ليكوّن بها هيكل السفينة. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾: ﴿تَجْرِي﴾: بحفظ الله ورعايته في موج كالجبال، ﴿جَزَآءً﴾: منصوب مفعولا لأجله لفعل: فتحنا، وما عطف عليه. ﴿لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾: بالبناء للمجهول والتقدير: كفر به. وهو نوح عليه السلام. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: الآية: هي العلامة والحجة، والضمير في: ﴿تَرَكْنَاهَا﴾ يعود إلى السفينة الراسية، ويقال: إن بقايا من ألواحها رآها الناس في صدر الإسلام، وقيل: إن الضمير يعود إلى القصة كلها بما فيها من أحداث الإنجاء للمؤمنين والإهلاك للمجرمين. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: استفهام فيه معنى التحضيض على الاتعاظ والادّكار. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: الاستفهام للتعجيب والتهويل لذلك العذاب. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: ﴿يَسَّرْنَا﴾: بمعنى بسّطنا معناه وسهلناه للتذكير والاعتبار، فهل من مدّكر بتذكر ما فيه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَفَتَحْنَآ﴾: قرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأه ابن عامر بتشديدها، على المبالغة، أي شدة هطول المطر. ﴿وَنُذُرِ﴾: أثبت فيه ورش الياء في الوصل وأثبتها في الوصل والوقف يعقوب، وأمّا باقي القرّاء فحذفوها في الحالين.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن أجمل الله تعالى الزجر بأخبار الأمم الماضية بقوله: ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، أخذ هنا في تفصيل بعض تلك الأنباء، فذكر أشهر القصص للأمم السابقة لبيان تشابه أحوالها بحال الرسول مع قومه تسلية له ولتهديد مشركي مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، فبدأ بقصة قوم نوح لأنهم الأسبقون تاريخا وأشدهم طغيانا وكفرا فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

فكأن هذا الإخبار ناشئ عن شعور كان يعاني منه رسول الله بتكذيبه من طرف قومه فقيل له تسلية وتخفيفا من ذلك الشعور: إن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح، كذبت بدعوة الرسالات كلها، مما أدّى بهم إلى تكذيب رسولهم نوح عليه السلام وإذايته ببهتان إذ اتهموه بالجنون وزجروه وتوعدّوه بالرجم قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء:١١٦).

وقد شرّفه الله وكرّمه بالعبودية له فقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، إذ كان النموذج الأعلى لما يجب أن يكون عليه الخلق من العبودية والطاعة لله، وقد استنفد كل ما لديه من طاقة وجهد في دعوة قومه إلى الله. ولم يدع وسيلة من وسائل التبليغ والإقناع إلا استعملها معهم، ولكنّهم لم يزدادوا إلاّ نفورا واستكبارا.

وعندئذ التجأ إلى ربّه وفوّض الأمر إليه لينتصر لدعوته فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾، بعد أن أعيته الحيل لم يجد نوح ملاذا إلاّ إلى ربّه يقرّ له بمغلوبيته وضعف قوّته ويكل الأمر إليه في نصرة دينه بالانتقام من أولئك الطّغاة من قومه.

فكانت الإجابة الفورية لتلك الدعوة طوفانا ينبثق من الأرض ويترل من السماء: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

إنها الاستجابة الرّبانية الفورية لدعوة المستنصر المظلوم، وقد توجهت قدرة الله إلى القوة الهائلة في الكون، قوّة الماء المنهمر الجارف في حركة هائلة تنزل من السماء مياها منهمرة في هيئة تمثيلية بجموع حاشدة خرجت من أبواب الدار، وبتفجّر الأرض كلها عيونا ثرّة، فالتقى ماء السماء بماء الأرض على الكيفية التي قدّرها الله أن تكون عليه كما سبق في علمه لإهلاك هؤلاء الطغاة، أي أن ذلك قد تمّ بتدبير محكم من الله، وليس هو مجرّد ظاهرة طبيعية عادية، ولذا أكّد الفعل: ﴿قُدِرَ﴾ بـ﴿قَدْ﴾، وقد غمر الطوفان كل مجالاتهم الحيوية فلا منجى لهم من الغرق، وكان الله قد أمر نوحا من قبل بإعداد السفينة. وقد طوى النصّ تلك التفاصيل التي ذكرها في سورة "هود"، وكانت تلك السفينة وسيلة لإنجاء نوح والمؤمنين معه برحمة من الله.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾: اقتصر النصّ على وصف السفينة بأنها ذات ألواح ودسر في إيجاز بديع، والأخشاب والمسامير هما المادة الأساسية في صناعة السفن منذ ذلك الزمن العريق في القدم لتصبح سفينة نوح النموذج الأمثل لتلك الصناعة التي سخّر بها للإنسان الانتفاع بالبحر ارتزاقا وأسفارا على لجته.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: فرعاية الله وحفظه هما الائتمان البحري الذي حقّق الله به النّجاة لنوح حتى رست سفينته على برّ الأمان، بينما هلك المشركون ونالوا جزاءهم على كفرهم به وجحودهم لنعمته رسالته.

ونستفيد من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أنّ اتخاذ الأسباب اللازمة لتحقيق غرض ما لا بد فيه من استصحاب رعاية الله وتوفيقه لضمان نجاح ذلك المسعى لأنه تعالى المهيمن على الأسباب والمسببات وقد حفظ الله هيكل السفينة لأجيال طويلة حتى تبقى عبرة لهم فقال: **﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾**.

فالأرجح أن الضمير في: ﴿تَّرَكْنَاهَا﴾ يعود إلى السفينة ففي صناعتها بإلهام من الله آية قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (المؤمنون:٢٧).

وفي حمل نوح ومن آمن معه فيها آية تدلّ على رحمة الله بهم في النجاة وفي جريها في أمواج عظيمة كالجبال محفوفة برعاية الله آية وفي رسوّها على الجوديّ وبقاء هيكلها محفوظا حتى رآها الصدر الأول من هذه الأمة آية، وبعد ذلك كله كونها شاهدا على مدى لطف الله ورحمته بأوليائه ونقمته على أعدائه وما في ذلك من العبرة لمن يعتبر، فقوله تعالى في التعقيب: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بيان للغرض التربويّ من القصة وهي أن تكون للادّكار والاعتبار، وجاء ذلك بصيغة الاستفهام التحضيضي وبحذف الحرف الزائد لتعميم كل أنواع الادّكار.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: يتكرر هذا التفريع إثر كل قصة من القصص الواردة في السورة، وهو مصدّر: بـ﴿كَيْفَ﴾ استفهاما تعجيبيا عن حالة كلّ عذاب سلطه الله على الطغاة إذ كان عذابا شديدا مدمّرا مصحوبا بمختلف الإنذارات من طرف الرسول لقومه، وهي إنذارات صادقة تدعوهم للإيمان ولكنهم استخفوا بها وفي كل تلك التعقيبات المتكررة تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

والقرآن الحكيم صادق في تبليغ ذلك بأسلوب ميسّر بليغ من شأنه أن يهزّ القلوب ويدعوها بحكمته إلى التذكّر والتدبّر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: تأكد الخبر باللام وقد مراعاة للشاكين الجاحدين أنّ القرآن من عند الله، وفي تكرار هذه الجملة خلال السورة وهي تأتي بعد عرض مشهد من مشاهد العذاب نموذج للدعوة الهادئة المستلطفة كما يقتضيه الأسلوب الحكيم في التبشير والدعوة، والله أعلم.

٠٢-٠٣: قصّة عاد وثمود.

أ)- النصّ:

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا
نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ
الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾: أي رسولهم هودا، والتأنيث لملاحظة معنى القبيلة. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: ﴿صَرْصَرًا﴾: شديدة الصوت والبرودة. وأصل: صرصر، صرّر، أبدلت إحدى الراءات صادا، والنحس هو سوء الحال، ضدّه السعد، وإضافة: ﴿يَوْمِ﴾ إلى "نحس" من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه. ﴿مستمرّ﴾: تقدم تفسيره بالقوة وبالدوام، ويجوز اشتقاقه من مرّ الشيء إذا كان مُرًّا للدلالة على الكراهة والنفرة. ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: النزع الإزالة بعنف. والأعجاز: جمع عَجُز، وهو أسفل الشيء، أي أصول النخل تقتلع من حفرها. ﴿مُّنقَعِرٍ﴾: وصف للنخل، وهو يذكر ويؤنث،

قال تعالى في نظير هذه الآية في سورة الحاقة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٧). ﴿مُنقَعِرٍ﴾: أي منقطع من أصله، فقعرت دواخله حتى أصبح خاويا، والجملة التشبيهية في موضع الحال من الناس. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾: عموم التكذيب لثمود عرفي نظرا للكثرة المكذبة، وإلاّ فإنّ فيهم مؤمنين ولكنّهم قلّة. ﴿ثَمُودُ﴾: ممنوع من الصرف. ﴿بالنذر﴾: جمع نذير أو إنذارات. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾: ﴿أَبَشَرًا﴾: منصوب بتقدير فعل: ﴿نَّتَّبِعُ﴾، على طريقة الاشتغال والاستفهام إنكاريّ لبشرية الرسول. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾: ﴿إِذًا﴾: حذف جواب يربط الجملة بالتي قبلها، والسُّعُر بمعنى الجنون أو جمع سعير، والجملة تعليل لإنكارهم إتباع واحد منهم لا أتباع له. ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: ﴿الذِّكْرُ﴾: الوحي. ﴿مِن بَيْنِنَا﴾: حال من ضمير: ﴿عَلَيْهِ﴾، أي كيف يلقى عليه دوننا وفينا من هو أحق منه، ﴿أَشِرٌ﴾: الأشِر: متكبّر بطر. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾: ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾: مبتدأ وخبر ونعت، والجملة في موضع النصب مفعول: ﴿يَعْلَمُونَ﴾. ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: إرسال الناقة معجزة لصالح. ﴿فِتْنَةً﴾: إما مفعول لأجله أو هو منصوب على المصدرية أي تفتنهم فتنة. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: ﴿الْمَآءَ﴾: أل للعهد، أي ماء القرية الذي يستقون منه. ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾: أي بين قوم صالح والناقة على تغليب العقلاء في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي يوم لهم ويوم لها. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: أي يحضره صاحبه في نوبته والشِرب -بكسر الشين- نوبة الاستقاء من الماء. ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾: التعبير بالصاحب مضافا إلى ضمير "هم" للإشارة بأنهم راضون كلهم بفعله. ﴿فَتَعَاطَى﴾: من عطا يعطو، أي تناول الشيء بتكلّف، بمعنى أقدم على قتل الناقة بجراءة. ﴿فَعَقَرَ﴾: ضرب قوائمها بالسيف. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: أي الذي يتخذ لحظيرة الحيوانات بعد يبسه وتكسّره.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَنُذُرِي﴾: فيها القراءات السابقة في أمثالها من السورة بالنسبة إلى إثبات ياء المتكلم أو حذفها. ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ بتاء الخطاب، وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية كلام من الله لصالح على تقدير: قلنا له: قل لهم، ففيه حذف قول، ويحتمل أن يكون خطابا من الله لهم مباشرة بتقدير قلنا لهم: سَتَعْلَمُونَ، ويحتمل أن يكون خطابا للمشركين على جعل الجملة معترضة.

د)- البيان والتفسير:

تتابعت قصص الأقوام الذين أهلكهم الله بعد قوم نوح الذين بدأ الله بهم لشدة إصرارهم على التكذيب بعد طول المدة التي قضاها نوح معهم في الدعوة إلى الله، فذكر بعدهم قصة عاد، فثمود، فقوم لوط، وألمح إلى فرعون وملئه في نهاية المطاف ليبّين أن ذلك هو مصير المكذبين من أيّ رهط كانوا إذ لا تفاوت بين الأقوام، ولا محاباة عند الله للظلم والإجرام.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، بدأ الإخبار بتكذيب قوم عاد، كما بدأ في قصة قوم نوح دون ذكر معمول: ﴿كَذَّبَتْ﴾، ليدلّ على عموم تكذيبهم، وهو عموم عرفيّ؛ لأنّ فيهم قلّة آمنت برسولهم هود عليه السلام، وقبل أن يصف العذاب الذي أصابهم فرّع على التذكير بالتكذيب قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، استفهام التعجيب والتهويل، وذلك أدعى لتشويق السامع بما سيذكره بعده إذ قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾.

إنّه وصف وجيز يبيّن الإجمال الذي في الآية السابقة بذكر نوعية

العذاب المسلّط عليهم، إنه ريح صرصر عاتية، أي هي شديدة البرودة مرعبة الصوت، سلّطها الله عليهم في يوم نحس، وإضافة "يوم" إلى "نحس" أي الشؤم، هي لإفادة معنى الاختصاص، ووصف "مستمرّ" لإفادة معنى القوة والدوام، وأريد به أول أيام الريح إذ هي سبع ليال وثمانية أيام، كما جاء في سورة الحاقة، وكما جاءت بصيغة الجمع في سورة فصّلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ (١٦). وهذا من إضافة الزمن إلى ما يقع فيه، وإلا فليس هناك يوم للنحس ويوم للسعد، كما يعتقد ذلك بعض الجهلة وكما اشتهر عند الناس التشاؤم بيوم الأربعاء، يقول الإمام ابن عاشور: "وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد؛ لأن كل يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيام السنة للنّحس هو من أغلاط القصاصين فلا يلقي المسلم الحقّ إليها سمعه، واشتهر بين كثير من المسلمين التشاؤم بيوم الأربعاء، وأصل ذلك انجرّ لهم من عقائد مجوس الفرس، ويسمّون الأربعاء التي في آخر الشهر الأربعاء التي لا تدور، أي لا تعود".[1]

قلت: وكان العرب في جاهليتهم يزجرون الطير فإذا مرّت بهم ذات اليمين، رأوا في ذلك سعدا ويمنا، وإن مرت بهم ذات اليسار تشاءموا وكفّوا عما كانوا يسعون إليه، وإلى تلك العادة الباطلة أشار الشاعر الكنديّ في أبيات يشيد فيها بما كان يتمتع به من أخلاق سامية على عكس معاملة قومه له فيقول:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمّي لمختلف جدّا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا
وإن زجروا بالنحس طيرا تمرّ بي ... زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا

١- التحرير والتنوير: ١٩٣/٢٧.

وقد روى الطبراني في المعجم الكبير عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن. فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه؟. قال: إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيّرت فامض**».[1] فإن كانت تلك الأيام التي أهلكت قوم هود أيام نحس كما وصفها القرآن فإنها بالنسبة لهود ومن آمن معه أيام سعد. إذ نجّاهم الله فيها، إذن فإن إسقاط النحس أو السعد على الأيام وهم باطل من تقاليد الجاهلية التي حاربها الإسلام.

وقد وصف الله قوة التدمير في تلك الريح التي هي جند من جنوده يسخرّها كيف يشاء فقال: ﴿**تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾.

الجملة في موضع الحال في تشبيه مرعب يبّين كيف صرعت الريح أولئك القوم على فراهة أجسامهم وقد اقتلعتهم كما يقتلع النخل من أصوله بحيث تقطعت أحشاؤهم وتطايرت فأصبحت جثتهم خاوية كالنخل المنقعر المطروح على الأرض.

﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾: يقتضي مقام التهويل والتفظيع تكرار هذه الجملة التي يكون المشهد الموصوف جوابها.

﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾: وقد سبق -أيضا- مثل هذا التعقيب في قصة قوم نوح.

ثم يمضي السياق إلى عرض القصة الثالثة من الأمم المكذبة برسلها، فيعرض موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام.

﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ**﴾: وثمود هي القبيلة أو القبائل التي خلفت قوم

١- رواه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان، رقم ٣٢٢٧: ٣/٢١٨.

عاد كان موطنهم في شمال الجزيرة في المكان المسمّى "الحجر" أو مدائن صالح، تمرّ عليها القوافل من الحجاز إلى الشام، وقد مكّن الله لهم في الأرض كما مكّن لعاد. و لم يعتبروا بما حدث لقوم هود، بل طغوا وعاثوا في الأرض فسادا، فنحتوا بيوتهم في الجبال ليتحصّنوا فيها من الرّياح العاتية، ولما بعث الله إليهم رسولهم صالحا يدعوهم إلى الله ويذكرهم بنعم الله عليهم أجابوا: ﴿**فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ**﴾.

جاء قولهم للردّ على دعوة رسولهم مرتبا ترتيبا تعجبيا بالفاء على جملة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، جمع نذير، للدّلالة على أنّ تكذيبهم لرسولهم صالح كان تبعا لتكذيبهم بجميع رسل الله، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣). ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشّعراء:١٤١).

ذلك لأنّ أصول الدّين واحدة لا تتعدّد، وقد جاء جوابهم ترديدا للشبهة التي يتمسّك بها الكفار ويكرّرونها جيلا بعد جيل، إنها إنكارهم لبشرية الرسل، أضف إلى ذلك ما يكون من كبرياء وحسد لشخص الداعية حين يختاره الله تعالى من طبقة مغمورة في نظرهم وسوء تقديرهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾، في استفهام تعجبي إنكاريّ، فهم يرفضون الرفض البات أن يكون الرسول من البشر ويرفضون أن يكون شخصا واحدا يتبعونه في ما يدعوهم إليه وهم جماعة كبيرة.

ويحتمل أن يكون وصف: ﴿وَاحِدًا﴾ بمعنى لا أتباع له في دعوته، أو المعنى هو من آحاد الناس لا من أشرافهم. ثم عللوا ذلك الإنكار بقولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، والمعنى: أنتبعك في دعوتك وأنت بشر واحد منا إنا إذا لفي ضلال ضائعين تائهين عن طريق الحق والصواب، ونكون في سُعر، أي

في جنون أو في أنواع من العذاب عند من قال إنّ سُعُر جمع سعير، فقد حكموا على أنفسهم بما يدلّ حقا على أنهم ضالون ومجانين، إذ اعتقدوا الضلال في اتّباع الهدى، والجنون في ما هو من كمال العقل.

ولما كانت دوافعهم في إثارة تلك الشبهة إنما هي الحسد والكبرياء أن يختار الله واحدا منهم لتبليغ رسالته، فإن تكذيبه وإنكار دعوته هو الوسيلة التي تشفي غليلهم فكان منهم ذلك السؤال الإنكاريّ المتعجرف الذي وجهه كفار قريش إلى رسول الله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص:٨).

وهؤلاء قالوا في حقّ رسولهم: ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، بعد سؤالهم الإنكاريّ من أن يتزل وحي على رسولهم، وفيهم من هو أحقّ أن يتزل عليه، أضربوا عن ذلك واتهموه مباشرة بالكذب والأشر، وهو التكبّر والترفع طلبا للحظوة والمكانة. فأعجب كيف تتشابه مواقف الكفار وكيف تتماثل شبهاتهم، مما يدلّ على طبع الإنسان إذا أخطأه التوفيق وحُرم من الإيمان والهداية.

جاءت الإجابة تهديدا ووعيدا في جملة مقتطعة من أسلوب الحكاية لأحداث ماضية لتتحدث عما سيكون، كأن الحدث واقع الآن فقال تعالى:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾: والمراد بالغد مطلق الزمان المستقبل، و"السين" للتنفيس يدلّ على الزمان القريب، أي الغد الآتي القريب سيكشف لهم الحقيقة يعلمون فيها من هو الكذّاب الأشر الحقيقي؟. أصالح في تبليغ رسالته أم هم في تكذيبهم إياه؟. وفي القراءة "بتاء الخطاب" في: ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ وفيه احتمال لخطاب المشركين في وقت التنزيل، تكون فيه إماءة لحالة الرسول معهم ولما سيلقونه من جزاء قريب كما لقيه قوم صالح.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ، فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾:

كان إرسال الله للناقة المعهودة على الوصف الذي طلبوه، كان امتحانا لهم وابتلاء، والتعبير بالإرسال لأنها لم تأت عن التوالد العاديّ المعروف، وإنما هي معجزة من الله لتأييد صالح في دعوته شرفها الله بإضافتها إلى لفظ الجلالة على لسان رسوله صالح عندما قال لقومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣).

﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾: خطاب لصالح أمره الله به أن ينتظر ما يحدث لهم بعد ذلك الامتحان، وقد علم الله تعالى أنهم سيخيبون فيه باستمرارهم على الكفر والتكذيب، وإذاية رسولهم، فأمره الله بقوة الصبر والاحتمال حتى ينصره عليهم.

وقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ بيان لما اشترطه الله عليهم من أن يكون الماء الذي يستقون منه في القرية مقسوما بينهم وبين الناقة فيوم لهم ويوم لها، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، أي لا يحضره إلا صاحبه في ذلك اليوم، فلا هم يحضرون يوم الناقة ولا هي تحضر يومهم، وكان هذا الشرط من جملة ما أمر به صالح أن ينبئهم به مما يدلّ على أنها ليست ناقة عادية، بل هي ناقة خاصّة جعلها الله آية لدعوة صالح، فهل شكروا نعمة الله على ما كانت تدرّ لهم من لبن؟. كلاّ بل ملوّا ذلك فتآمروا على قتلها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾: قيل: إن صاحبهم كان أحد الرهط المفسدين في المدينة بل كان أشقاهم وأجرأهم في إذاية صالح كما وصفه في

سورة الشمس: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٢-١٤). والتعبير هنا بصاحبهم للدلالة على أنهم جميعا راضون بفعلته الشنعاء.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: فما أروع هذا الإيجاز وربط الفعلين بالفاء، فتعاطى من التعاطي، أي اتخاذ الوسائل والتخطيط لعقر الناقة مما فصّلته الروايات، فبمجرّد وضعهم للخطة نفّذوا جريمتهم بعقر الناقة إذ ضربوا قوائمها ثم نحروها وقد قال لهم رسولهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣). وهكذا سقطوا في الامتحان وعجّلوا لأنفسهم العذاب، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥). وعقب الله هنا على حادثة العقر بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، إنه الاستفهام التعجيبي المكرر جاء هنا قبل بيان ما حلّ بهم من العذاب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: إنها صيحة العذاب، وقد تعدّد ذكرها في القرآن بأوصاف مختلفة، بالرجفة تارة وبالطاغية أخرى، وفي سورة الشمس قال: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٤).

وفي سورة فصّلت، جاء التعبير "بالصاعقة"، وأيّا كان الوصف فهي صيحة لا يعلم قوّتها إلاّ الله، تركتهم محطّمين كالهشيم في حظائر الحيوانات فقد أتت عليهم تلك الصيحة وعلى كلّ ما يملكون من حيوانات، فهو مشهد رهيب مفجع يهزّ القلوب ويوجّهها إلى تدبّر القرآن، وهو ميسّر لمن يدّكّر، وهو يهدي إلى سبيل الرشاد.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: وقد نجّى الله الرسول صالحا ومن آمن معه، فقيل: خرج إلى الرملة في فلسطين، ومنها إلى

حضرموت حيث مات ودفن، وتقول رواية أخرى ذهب إلى مكة ومات فيها وذلك لانتمائه العربي هو وقومه، والله أعلم.

جزاء المكذّبين من قوم لوط وقصّة آل فرعون.

أ)- النصّ:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾: القول فيه كسابقه في قصة "ثمود" و﴿النُّذُرِ﴾: جمع نذير، وهم رسل الله، أو الأمور المنذرة على لسانهم. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾: الحاصب: الريح التي ترمي بالحصباء. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾: منصوب على الاستثناء. وآل الرجل: قرابته، والمراد بناته؛ لأن زوجه كانت من الهالكين. ﴿بِسَحَرٍ﴾: أي في وقت السّحر وهو السدس الأخير من الليل قبل طلوع الفجر. ﴿نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾: ﴿نِعْمَةً﴾: منصوب مفعول لأجله، أو هو حال من ضمير المتكلم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾: أي مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعم الله عليه والمقصود

بهم لوط ومن آمن معه. ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: البطشة: المرة من البطش، الأخذ بعنف للعقاب أي خوّف لوط قومه من عذاب الله فتماروا بالنذر أي كذبوا بها. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: اختصر النصّ قصة الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قومه، إذ راموا الفاحشة بهم، وإسناد المراودة إلى ضمير لوط، لأنهم طلبوا منه تمكينهم من ضيوفه. ﴿طَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: بمعنى أعميناهم، أو هو من الطمس، إزالة أثر الشيء حتى لكأن وجوههم أزيل منها شق العينين. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: ﴿ذُوقُوا﴾: أي قيل لهم والذوق الإحساس بالعذاب. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾: البكرة: أول النهار. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي الثابت الدائم الذي أدّى إلى استئصالهم. ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾: خولف في الإخبار عن فرعون إذ صدّر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، ذلك لأن النذر كانت موجهة لفرعون وآل دولته لا لقومه من الأقباط. ﴿كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا﴾: الجملة بدل من جملة: ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، والآيات هي ما جاءهم به موسى من المعجزات، والتأكيد بـ﴿كُلِّهَا﴾ للإشارة إلى كثرتها إذ هي تسع آيات. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾: انتقمنا منهم بقوة. ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ﴿أَخْذَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. العزيز: القاهر الذي لا يغلب، والمقتدر الذي لا يعجزه شيء.

ج)- البيان والتّفسير:

يلاحظ التركيز في مفتتح كلّ قصة على تكذيب الرسل؛ لأنّ سورة القمر كما ورد في مفتتحها ركّزت على تهديد المشركين عن إعراضهم وتكذيبهم بآيات الله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ﴾ (٢-٣) وبناء على ذلك اقتصرت النصوص في كل قصة هنا على ذكر ما هو مشابه لأقوال المشركين ومواقفهم في وقت التنزيل، ولم تخرج قصّة قوم عن هذه القاعدة.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾:

وردت تفاصيل القصة في سور أخرى كالأعراف وهود والشعراء والعنكبوت، وفي مقدّمة القصة هنا يتناول النّصّ طرفيها: التكذيب بدعوة الرسول، والأخذ بالعذاب والنكال، وما بين الطرفين يذكر ما وقع بينهما بشيء من التفصيل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾، وإضافة "قوم" إلى "لوط" لعدم وجود اسم خاصّ بهم يعرفون به، علما بأن لوطا نزيل بينهم لا ينتمي إليهم بنسب ولذلك جاء التعبير من سورة "ق" بإخوان لوط. فقد أنذرهم رسولهم بسوء العواقب بما كانوا يرتكبونه من الفواحش بإتيان الذكران وقطع السبيل عن الناس فكذبوه وتمددوه بالطرد من بينهم معللين ذلك لبعضهم بعض، بأن لوطا وآله من المؤمنين أناس يتطهرون ما يدلّ على أنهم واعون بالعفونة والقذارة التي هم فيها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: بيّن الله تعالى كيف تمّ إهلاكهم بالحاصب -أي الريح التي ترمي بالحصباء لقوتها وشدتها- وقد اختلف وصف تلك الحجارة المهلكة فقال تعالى في آيات أخرى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذاريات: ٣٣- ٣٤). وقال في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ (٨٢-٨٣).

فهي حجارة مدمّرة، والتعبير بالإرسال والإمطار يدلاّن على أنه عذاب نازل من السماء الله أعلم بكيفيته، وقد استثنى من ذلك العذاب: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾، وهم قرابته ومن آمن معه إذ أنجاهم الله تعالى في وقت السحر، أي في

آخر الليل، وجاء استثناء امرأته من آله في آيات أخرى إذ كانت من المهلكين لأنها كانت مماثلة لقومها في الفاحشة.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي نجّينا آل لوط إنعاما منا وتكريما وفق سنتنا في مجازاة الشاكرين.

وبعد ذلك الإيجاز البليغ في إبراز جوانب الاعتبار والتذكير في القصة بيّن الله بصيغة التأكيد بعض الأسباب التي استحق بها قوم لوط ذلك العذاب الأليم لإبراز عدله وحكمته فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾**.

لقد اجتهد لوط في تبليغ رسالة ربه وأنذرهم من نقمة الله عليهم إن هم تمادوا في ممارسة تلك الفاحشة الخبيثة ولكنهم سخروا منه واستخفوا بذلك الإنذار بل هدّدوه بالطرد من قريتهم فقالوا له: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء:١٦٧). وحين أرسل الله إليهم ملائكته لتعذيبهم ونزلوا ضيوفا على لوط وهم على صورة غلمان مرد حسان الوجوه، وتسامع بهم القوم فهجموا على بيت رسولهم يريدون الفاحشة بضيوفه وهو يدافعهم بشدة ويحاورهم بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيَ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود:٧٨). وقد عبّر الله هنا بقوله في اختصار: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾، والمراودة هي أن تحمل إنسانا على ما تريده منه في كل شيء، ويغلب استعمالها في الأمر القبيح، أي راودوا لوطا في تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة، ولكنهم ما كادوا يقتحمون عليه الدار حتى طمس الله أعينهم، ويراد بالطمس لا مجرّد العمى بل إزالة شقوق العيون من وجوههم كلية كما تقول الرواية، ولم تذكر حادثة الطمس إلا في هذه السورة.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: أي أنهم خوطبوا بلهجة التوبيخ والتقريع بأن هذا هو العذاب الذي كذبتم به، والالتفات من صيغة الغائبين إلى صيغة الخطاب فيه تعريض بالمشركين حتى لكأن العذاب حاضر مشهود.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: البكرة أول النهار إلى طلوع الشمس، فيا له من صبح فوجئوا فيه بعذاب المحق والاستئصال وقد وصفه الله بأنه عذاب مستقرّ، أي ثابت متمكن دائم القوة والشدة، ومرة أخرى يخزون ويوبخون، وإضافة العذاب والنذر إلى ضمير الجلالة -كما تقدم- فيه تعريض وإيماء بمن على شاكلة هؤلاء القوم في الخبث والسفاهة ليعتبروا؛ لأنه تعالى لا يغفل عما يعمل الظالمون في كل زمان ومكان.

ثم يأتي التعقيب المكرر بعد كل قصة في التحريض على تدبّر آيات القرآن المسيرة لكل من أراد التذكر والاتعاظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

وهكذا يسدل الستار على مصارع الأقوام الذين عرفهم العرب في جزيرتهم إن في شمالها أو جنوبها أو وسطها وهم يمرّون على آثارهم ولا يتعظون، وأما خارج الجزيرة فإن القطر المجاور لهم من أرض النيل في مصر الفرعونية كان للعرب اهتمام به وبأخباره، سيما ما يتصل بقصة موسى مع فرعون وملائه، تلك القصة التي أخذت حيّزا كبيرا من سور القرآن الكريم، وجاءت هنا مختصرة ببيان تكذيب آل فرعون بالنذر وكيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ، كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

جاء الخبر على نسق الأخبار المتقدمة، جاء مؤكّدا باللام المشعرة بالقسم

وبـــ"قد" الدالة على التحقيق، وذلك أدعى للاهتمام بمضمون الجملة، واستهلّ كسابقيه بالتكذيب بالنذر، ولكن بالتغيير في الأسلوب، فالتكذيب بالنذر جاء بدلا من مجيئها آل فرعون، والآيات هي ما أجراه الله على يد موسى من المعجزات الخارقة وهي كثيرة كما دل على ذلك توكيدها بـــ﴿كُلِّهَا﴾، ومن أشهر تلك الآيات العصا واليد، ونختصر اللفظة هنا في بيان التكذيب بما جاء به الرسول وما نتج عنه من انتقام الله بالأخذ الشديد الذي تأكد بالمفعول المطلق: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، وفي اختيار صفتي العزة والاقتدار للذات العلية في هذا المقام إيحاؤه القويّ في نفوس السامعين ممن اغترّ بقوته وعزته من المشركين وفيه تعريض بقوة فرعون وعزّته الزائفتين إذ انتهى هو وجنوده إلى الهلاك وقطع دابرهم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر:١٠).

وبمصرع فرعون وجنوده يتمّ عرض مصارع الظالمين، وتقوم الحجة على أمثالهم من المكذبين الجاحدين، والله أعلم.

توبيخ مشركي قريش، وبيان جزاء المجرمين والمتقين.

أ)- النصّ:

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ
وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ
مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾: الخطاب لكفار قريش ومن على شاكلتهم، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والإشارة بـ﴿أُولَٰئِكُمْ﴾ إلى الأمم السابقين المهلكين. ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾: ﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي، والاستفهام المقدّر بعده للإنكار كذلك. "البراءة": الخلاص من المؤاخذة والعقاب. و﴿الزُّبُرِ﴾: جمع زبور أي الكتب السماوية السابقة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾: قال ابن عباس: قالوا يوم بدر بطرا وخيلاء فنزلت الآية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وقد تحقق ذلك إذ هزم المشركون يوم بدر وفيه بشارة للرسول والمؤمنين. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾: ﴿أَدْهَىٰ﴾: اسم تفضيل، من دهاه إذا أصابه بداهية، ﴿وَأَمَرُّ﴾: اسم تفضيل من المرارة، استعيرت للإحساس بالمكروه، وأعيد اسم الساعة دون الإتيان بضميرها للتهويل. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾: السَّحب الجرّ بعنف، ويكون على الوجه للإهانة والإذلال، ثم يهانون نفسيا بالقول لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾، أي ذوقوا عذاب النار، والمسّ مستعار للإحساس. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: منصوب على الاشتغال التقدير: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، أي بإحكام واستيفاء، أي خلق الله الأشياء على قوانين جارية على الحكمة، ومن ذلك خلق جهنم للعذاب. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: ﴿أَمْرُنَا﴾: أي شأننا في الخلق والإيجاد إلا كلمة واحدة وهو قولنا للشيء: كن فيكون بسرعة لمح البصر. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: جمع شيعة: الجماعة الذين يؤيدون من يضافون إليه، والمراد الأمم السابقة المشابهة لهم في الكفر، أي كما أهلكناهم فهلككم فهل تتعظون. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾: أي إن أعمالهم كلها مسطرة في صحف الملائكة بالضبط. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ

مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: خبر ثان لـ"إن"، أي في مكان مرضيّ للمستقرّ فيه، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة. ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾: أي مالك له كمال القدرة والعندية للتشريف والتكريم.

ج- البيان والتّفسير:

بعد إسدال الستار على مصارع المكذبين من الأمم السابقة وكان الله تعالى يستحيش إحساس المكذبين في وقت التنزيل بعد كلّ مشهد يعرض عليهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وفي ختام تلك الجولة يخاطبهم الله صراحة بصيغة الاستفهام الإنكاريّ التوبيخي، ليحذرهم من نزول العقاب عليهم كما نزل على أمثالهم ولينذرهم مما هو أدهى وأمرّ بعذاب الآخرة، ثم يتطرق إلى جزاء المجرمين فيبيّن كيف يعذّبون بدنيا ونفسيا، وقبل أن يتمّ بجزاء المتقين وعظم منزلتهم عند الله، يشيد بعظمة قدرته وسرعة نفاذ أمره في أرجاء ملكوته وأنه المليك المقتدر.

قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾: نلاحظ تنوّع الأسلوب في هذا النصّ الختاميّ ما بين الغيبة والخطاب بالقدر الذي يناسب وسائل المجادلة والإقناع.

ولما كان التركيز على الكفر والتكذيب لرسل الله في بيان مصارع الأمم السابقة، فقد سدّ الله بذلك منافذ الشُّبه وأقام الحجة على المكذبين برسول الله وفي طليعتهم كفار قريش هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم في ذروة العزة والشرف لدى العرب قاطبة، فقد جاء خطاب الله لهم بوصف "الكفار" وبصيغة الاستفهام الإنكاريّ توبيخا وتقريعا لوصفهم بتلك الصفة التي تجعلهم في نفس المستوى من الضلال والكفر مع أولئك الذين سبقوهم وبالتالي فما الذي يمنعكم من أن تلقوا نفس المصير؟. فما أنتم خير منهم حتى يحابيكم على

كفركم -حاشاه- بل ليست لكم براءة تشهد لكم عند الله مما أنزله من الكتب السماوية بأنه تعالى لا يعذبكم على ذنوبكم، إذن، فقد انتفى الأمران فلا هذه ولا تلك.

وفي انتفاشهم بغرور العزة والقوة بأنهم سينتصرون على رسول الله انتقل إلى أسلوب الغيبة ليخبرهم بما يلحق بهم من العذاب الأدنى في الدنيا فقال تعالى:﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾: ﴿أَمْ﴾ منقطعة تفيد الإضراب الانتقالي، ويقدّر الاستفهام بعدها، والتقدير: بل أيقولون؟، والاستفهام لمعنى التوبيخ على تطاولهم بالقوة والعزة حتى صرّحوا بذلك يوم بدر كما تقول الرواية عن ابن عباس، فنزلت الآية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. هكذا بالمضارع المسبوق بالسين التي تدلّ على التنفيس؛ لأن ذلك إخبار بما سيقع في المستقبل القريب فيه تعريض وتهديد للمشركين وبشارة بالنصر لرسول الله، وفعلا فقد انهزم المشركون يوم بدر شرّ هزيمة وولوا الأدبار.

وقد ردّد رسول الله تلك العبارة بعد أن تضرّع إلى مولاه في طلب النصر كما أخرج البخاري والنسائي عن ابن عباس أنّ النبي قال وهو في قبة له يوم بدر: «**أنشدك عهدك ووعدك، اللّهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم، فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربّك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾**».[1]

إنّ ما أصيب به المشركون يوم بدر هو العذاب الدنيوي الأدنى

١- رواه البخاري، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (٨٨) ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، رقم ٢٧٥٨: ٣/١٠٦٧.

وينتظرهم العذاب الأخرويّ الذي هو أشدّ وأنكى؛ لأنه عذاب مقيم دائم وقد أعيد اسم الساعة دون استعمال الضمير للدّلالة على التهويل والتضخيم. وبما أنّ الضمير في: ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور فإنّ أغلب المفسّرين يرون أنّ الإنذار موجّه لمشركي مكّة، ويرى آخرون أنه يعود إلى كلّ من تقدّم في السورة.

وعلى ذكر العذاب الأخرويّ بيّن الله نموذجا من ذلك العذاب فقال: **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾**.

أظهر الله في مقام الإضمار ونعت المشركين بالإجرام، ثمّ أخبر عنهم بأنهم في ضلال وسعر، وهي الحالة النفسية التي وصفوا بها أنفسهم من قبل عندما قالوا: **﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾**، (وكاد المريب بأن يقول خذوني).

ومع العذاب النفسيّ الأليم، فهناك العذاب الجسماني المهين وهم يسحبون على وجوههم وملائكة العذاب تزيدهم إهانة ومذلة بقولهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾، إمعانا في التوبيخ.

ولبيان حكمة الله في تقدير كل ذلك في إيجاد خلقه ووضعهم على محك الاختبار في الحياة الدنيا ثم مجازاتهم في دار القرار بعد إقامة الحجة عليهم ببعث الرسل وإنزال الرسالات وإرسال النذر وما حول ذلك من تدبير شؤون الكون وأحوال الخلائق؛ فلا يتمّ ذلك كله إلا بقدر معلوم عند الله مثبت عنده في علمه الأزلي قال تعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾**.

إنه التعقيب المناسب لكل ما تقدم خلال السورة من الأخبار التي لم

تحفظها ذاكرة التاريخ من أحوال الأمم الخوالي العريقة في القدم أو تلك التي تتصل بالغيبيات من أحوال الساعة وأهوالها، فلا شيء من ذلك يحدث بالصدفة كما يعتقده الملحدون، وقد جاء التعبير مؤكدا بـ"إن"، وجاء بصيغة نون العظمة الدالة على كمال الربوبية في الخلق والتقدير لكلّ شيء بتحديد حقيقته وصفاته وحجمه وزمانه ومكانه، وعلاقته بغيره من الأشياء وكيف يتناسق معه ويؤثر فيه، ونحن البشر بما لنا من الإدراك العقلي ومن الإحساس القلبيّ نتجاوب مع هذا الوجود الـمّوار، ونحاول أن نعرف ما وراء ظواهره ومظاهره من الأسرار، ونجد في مثل هذه النصوص القرآنية ما يفتح شهيتنا لمحاولة استكشاف الحقائق، فنصل إلى ما قدّر الله أن نصل إليه بعد البحث والمعاناة وتظافر جهود العلماء جيلا بعد جيل والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥). ويقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣). ومهما بلغت الحضارة البشرية من تحقيق ما يشاء الله أن تعرف وتبلغه فإنه سيبقى من علم الله وأسراره في ملكوته ما هو أكبر وأعظم مما لا تدركه إلا بالإلهام الفطريّ والتجاوب الإيماني مع روح الوجود.

ومع قدرة الله العجيبة في الخلق والتدبير والتسيير، فإنه تعالى يقدم لنا تمثيلا رائعا لسرعة إنفاذ مشيئته في إيجاد الأشياء وإجراء أعظم الأحداث فيقول: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، أي إغماض الجفن وفتحه، إنه تمثيل لأقل لحظات السرعة في قياسنا -نحن البشر- وإلا فما لأمر الله -حاشاه- زمان يقاس بأي معيار فهو خالق الزمان والمكان، إنما هو لتقريب المعنى إلى حسّنا، وما أروع التعبير بوصف "واحدة" لموصوف مقدّر نتفنن في تقديره، وقد قال تعالى في أعظم حدث تبدّل فيه الأرض غير الأرض والسماوات أي قيام الساعة قال فيه: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ

هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل:٧٧). فإذا تقرّرت تلك الحقيقة في عظمة قدرة الله وسرعة تنفيذ أمره التكوينيّ فهل هو عاجز عن إهلاك المكذبين؟.

وبأسلوب الالتفات بالانتقال إلى صيغة المخاطبين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، والأشياع: جمع شيع، ومفرده شيعة، أي الجماعة الذين يجتمعون على توجّه واحد، ولو لم يكونوا في زمن واحد، والخطاب لكل من يحادّ الله ورسوله إلى قيام الساعة، وفي مقدمتهم من كان في وقت التنزيل من المكذبين، وقد عالجت السورة طائفة منهم في المسار البشريّ، فهلا اعتبر هؤلاء؟، فسنّة الله لا تتخلّف، فليحذر اللاحقون أن يصيبهم مثل ما أصاب السابقين، وفي الاستفهام تحريض لا يخفى.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾: فلو كان عذاب المكذبين الجاحدين ينتهي بما حدث لهم في الدنيا من العذاب العاجل لهان الأمر، وهم إذ يتوهمون ذلك باطلا ونكرانا فإن من إقامة الحجة عليهم أن يبيّن الله بوضوح وصراحة بأنّ كلّ ما فعلوه من أعمال وكلّ ما اتخذوه من مواقف في حياتهم الدنيوية هو محصى عند الله ومسجّل في الكتب والصحائف المخصّصة لتسجيل أفعال العباد لا تغادر صغيرة ولا كبيرة سوف يحاسبون عليها ويجزون عليها بما يستحقون، وجيء بكلمة: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ في الخبر للدلالة على شدة العناية بفعل، سطر يسطر الكتاب، بمعنى يخطه.

وعند نهاية المطاف في آخر السورة يعرض الله تعالى صورة رضية لنعيم المتقين في الجنة يقابل بها عذاب المجرمين وفق أسلوبه الترهيب والترغيب فيقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

إنّه النعيم المقيم بطرفيه الماديّ والروحيّ، نعيم المتعة الحسية في ظلال الجنة تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد بيّن الله نماذج وصورا رائعة من ذلك النعيم وبيّن أنه

درجات تتفاوت في النعيم والمتعة وفق درجات المقبولين عند الله، وتأتي درجات العلّيين في الذروة، وهو الفردوس الأعلى كما جاء في الحديث: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**».[1]

وفوق النعيم الحسّي، نعيم الروح، نعيم الرضوان من الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢). ومنازل القربى عند الله هي منازل صدق لا لغو فيها ولا تأثيم، هي مرضية لأصحابها بحسن الاستقرار والتمكين، فلا خوف ولا زوال.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، فهي عندية تشريف وتكريم، واختيار صفتي الاقتدار والملكية للذات العلية يناسب جوّ السورة في الترهيب والتحذير من بأس الله، جعلنا الله من المتقين الأبرار، في جنات تجري من تحتها الأنهار.

وبهذه البشرى الندية من الأمن والرضى تختتم السورة الكريمة بعد تلك المواقف الحافلة بالترهيب والخوف، والله أعلم.

تمت

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (٤) درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٦٣٧: ٣/١٠٢٨.

سورة الرّحمن ، مدنية، وآياتها ٧٨

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة الرحمن، ووجه ذلك أنها ابتدأت باسمه تعالى الرحمن، وهو من أسماء الله الحسنى، وقيل: لا يجوز تسميتها بالرحمن دون إضافة سورة له؛ لأن لفظ الرحمن مختصّ بالله تعالى، وتسمى بذلك في المصاحف وفي كتب السنة، وما روي بأنها تسمّى -أيضا- بعروس القرآن، فهو ثناء وبيان لفضلها، ولا يعدّ تسمية، فقد أخرج البيهقي عن عليّ -كرم الله وجهه- مرفوعا، أن رسول الله قال: «**لكلّ شيء عَروس، وعروس القرآن سورة الرحمن**»[1]، ومعنى أنّ لكلّ شيء عروسا، بأنه تعالى جعل لكلّ جنس أو نوع واحد من جنسه يزينه، فهو تشبيه لما تحتوي عليه السورة من ذكر ألوان من نعيم الجنة في السرور والبذخ.

ومن قال بمدنيتها ابن مسعود ومقاتل، وهي مكيّة في رأي جمهور الصحابة والتابعين، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية، وقد اضطربت الأقوال في ترتيب نزولها فرجّح الإمام ابن عاشور أن تعدّ الثالثة والأربعين بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهي الخامسة والخمسون في ترتيب سور المصحف الشريف.

وأما عن سبب نزولها ففيه وجهان:

أ)- أنها نزلت بسبب قول المشركين المحكي في سورة النّحل: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (١٠٣). فردّ الله عليهم بأن الرحمن هو الذي علّم النبي القرآن.

ب)- أن سبب نزولها قول المشركين المحكي في سورة الفرقان: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ (٦٠). فتكون نزلت بعد سورة الفرقان.

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث علي، رقم ٢٤٩٤: ٢/٤٨٩.

- من أغراض السّورة عند بعض المفسّرين:

أ)- قال الزمخشري في الكشاف: "أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء مما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمه، وهي نعمة الدين فقدّم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وأخّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثم ذكر ما تميّز به عن سائر الحيوان من البيان".[1]

ب)- ويقول الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي: "وقد تكررت آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، إحدى وثلاثين مرة خلال هذه السورة، والخطاب فيها للإنس والجنّ المكلفين بعبادة الله في هذه الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: عن الخلق والإبداع.

الثاني: عن الفناء والبعث وجزاء المجرمين.

الثالث: عن أهل السبق من الطائعين.

الرابع: عن الذين يلوهم من المحسنين".[2]

ج)- ويقول سيد قطب في مقدمة السورة: "إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، إعلان ينطلق من الملإ الأعلى، فتتجاوب به أرجاء الوجود، ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود".[3]

١- أنظر: التحرير والتنوير: ٢٢٩/٢٧.

٢- ص ٤٢٣.

٣- في ظلال القرآن: ١٠٧/٢٧.

من النعم الإلهية الدنيوية والأخروية

٠١- نعمة القرآن والآيات الكونية.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الرَّحْمَٰنُ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٧﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٨﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٩﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾: ﴿الرَّحْمَنُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾: خبره، وما بعده خبر بعد خبر، ولم تعطف؛ لأنه يقصد بها التعداد، ﴿الرَّحْمَنُ﴾: صيغة مبالغة من الرحمة، اسم من أسماء الله الحسنى، أي المنعم بجلائل نعمه لجميع الخلق. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾: ﴿الشَّمْسُ﴾: مبتدأ، و﴿الْقَمَرُ﴾ معطوف عليه، والخبر: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾، أي يجريان بحسبان. ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: ﴿النَّجْمُ﴾: النبات الذي ينبسط على الأرض من البقل ونحوه. ﴿وَالشَّجَرُ﴾: ما كان له ساق، ﴿يَسْجُدَانِ﴾: يخضعان لله وينقادان لما يريد. ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: ﴿وَالسَّمَآءَ﴾: منصوب بتقدير فعل: ﴿رَفَعَهَا﴾، أي خلقها مرفوعة بغير أعمدة و﴿الْمِيزَانَ﴾: أصله آلة الوزن، استعيرت للعدل والنظام والتوازن في الأشياء، وقد ورد في الأثر: "بالعدل قامت السماوات والأرض". ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا﴾: والمعنى: بأن لا تطغوا. و﴿تَطْغَوْا﴾ في موضع نصب بـ"أن"، ويجوز أن تكون: "أن" بمعنى: أي، فلا يكون لها موضع من الإعراب، ويكون: ﴿تَطْغَوْا﴾ في موضع جزم بالنهي، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾: أي بالعدل على أتمّ إنصاف. ﴿وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾: أي لا تنقصوه لأخذ حق الناس. ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾: ﴿الأَرْضَ﴾: منصوبة بإضمار الفعل، أي بسطها وذللها للخلق من الإنس والجن. ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ، وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾: معطوف. ﴿الأَكْمَامِ﴾: جمع: كِمّ -بكسر الكاف- وعاء الطلع والتمر، ﴿وَالْحَبُّ﴾: معطوف، كالحنطة والشعير والذرة. ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾: نعت، وهو ورق الزرع الجاف، أي التين. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: مرفوع بالعطف، كلّ ما هو طيب الرائحة من النبات والزهور. ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: بأي النعم تكذبان أيها الإنس والجن، والاستفهام للتقرير.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾: قرأ الجمهور برفع: ﴿وَالْحَبُّ ذُو﴾، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾، وقرأ حمزة والكسائي وخلف برفع: ﴿وَالْحَبُّ ذُو﴾، وبجرّ: ﴿الرَّيْحَانِ﴾، عطفا على العصف، وقرأه ابن عامر بنصب الأسماء الثلاثة، وعلامة نصب: ﴿ذَا الْعَصْفِ﴾ الألف، إما عطفا على ﴿الأرض﴾، أو هو على الاختصاص.

د)- البيان والتّفسير:

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ

﴿الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، إنها افتتاحية عجيبة ووقعها عظيم في النفوس، إنه إعلان مقدّس تتجاوب أصداؤه في أرجاء الوجود كله، ويبسط بشائر الطمأنينة والسعادة والهناء في فضاءات الكائنات كلها لما يحمله هذا الاسم من أسماء الله الحسنى من نفحات الرحمة العامة الشاملة لجميع خلق الله في أرجاء الكون كله، ومجيء اللفظ آية واحدة في مفتتح السورة كما ورد في أكثر المصاحف تداولا فيه تشويق للسامعين بما يجيء بعده من الإخبار وفيه تعريض بالمشركين لإنكارهم له بقولهم: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان:٦٠). وهو من جهة أخرى اللفظ المناسب لتعداد نعم الله التي حفلت به السورة الكريمة.

وقد أخبر عنه بعدّة أخبار غير متعاطفة، فبدأ الله بأعظم منّة منه لخلقه قاطبة وهي تعليم القرآن، هكذا دون التصريح بالمفعول الأول، وبما أن القرآن اسم غلب على الوحي الذي نزل على محمد ﷺ فإن التقدير يكون: علّم محمدا القرآن، فالرسول هو النّعمة المسداة والرحمة المهداة للعالمين، وفي اختيار فعل: ﴿عَلَّمَ﴾ عوضا عن "أنزل" تعريض بالمشركين الذين قالوا في شأن الرسول: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل:١٠٣). فبيّن الله هنا أنه هو الذي علّم محمدا القرآن، لا بشر كما يدّعون، فنعمة الدّين والاهتداء بهديه هي أعظم النعم لأنّ به صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة، هذا الإنسان الكريم على الله والذي أعدّه لخلافته في الأرض وحمّله أمانة التكليف باتباع هدي القرآن وتنفيذ أحكام شريعته، فخلق هذا الإنسان على أحسن صورة وتزويده بكل ما يحتاجه من الطاقات والقدرات للقيام بمهمته هو من آيات قدرة الله ورحمته، إذ مكّنه من التعبير عما في نفسه وأقدره على النطق والإفصاح عما يريد ليتجاوب مع غيره من بني جنسه ويكتسب الخبرة في النطق والتعبير ليستفيد من غيره ويفيد، وقد زوّده الله بآليات النطق وآليات التفكير وبذاكرة المعلومات: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨). فويل للإنسان الذي لا يسخّر ما منحه الله من نعمة البيان في ما يرضي به ربّه ويفوز به في الدنيا والأخرى.

وبما أن الله سخّر كل ما في السماوات والأرض مجالا لتدبّر الإنسان ونشاطه فقد انتقل إلى بيان بعض آلائه فيها فقال تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾.

الكثير من المفسّرين يرون أن قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، بصيغة الجملة الاسمية وبدون عطف، يرونها خبرا رابعا للفظ "الرحمن". ﴿بِحُسْبَانٍ﴾: الباء للملابسة، وحُسبان: مصدر فعل "حسب"، خبر عن الشمس والقمر، وتخصيصها بالذكر دون الأجرام السماوية الأخرى هو للفت الأنظار إلى ما أودع الله فيهما من منافع لحياتنا على وجه الأرض، فهما يجريان بضبط وبحساب دقيق من بديع صنع الرحمن وهما مجلى لقدرته ورحمته، وهو المستحق للسجود والعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ -ايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت:٣٧).

وقوله: ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾، جملة معطوفة على قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، فبعد أن امتنّ الله علينا بما سخّر لنا في السماء انتقل إلى الامتنان بما في الأرض، فذكر النجم والشجر، وقد تردّد معنى: ﴿النَّجْمُ﴾ بين تفسيرين: أنّه النجم الذي في السماء، أو النبات الذي ليس له ساق من أنواع البقول والأعشاب، والإخبار عنهما بالسجود لله هو لبيان توجّه المخلوقات إلى الله وارتباطها به في خضوع وانقياد، فجعل بالمزاوجة بين النظائر والجمع بينها في الأرض والسماء، حصل تناسق عجيب في الحركة والسكون وارتباط بين العبودية لله والعبادة له في كامل الوجود كما قال تعالى:

أ)- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرّعد: ١٥).

ب)- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور:٤١).

واطّرادا مع أسلوب المقابلة بين ما يشبه الضدّين كما تقدم يذكر الله السماء والأرض مع لفت الأنظار إلى ظاهرة التوازن بين الأشياء لاستجلاء جمال الكون وتناسقه وإدراك عظمة خالقه وضرورة العدل في الميزان عند المبادلات فقال تعالى: **﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾**.

قدّم المسند إليه وأخبر عنه بالمسند كما تقدم في مفتتح السورة للاهتمام بالاعتبار في خلقها، فهو رفع ماديّ ومعنويّ إذ نتملّى جمال السماء دائما فوق رؤوسنا قبة زرقاء مزينة بالنجوم والكواكب مرفوعة بغير عمد.

وفي الرفع المعنويّ دلالة على علوّ المنزلة وشرف القدر، فهي حاضنة الملإ الأعلى من الملائكة، وهي مصدر وحي الله وقضائه وهي أيضا مجال ما وعدنا الله به من نعيم الخلد أو عذاب الجحيم لقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات:٢٢). وقرن الله بما وضع: ﴿الْمِيزَانَ﴾ الذي هو في الأصل اسم لآلة الوزن، ويستعار للعدل، وهو المقصود به هنا، وقرن ذلك برفع السماء لبيان معنى الحقّ الذي قامت عليه السماوات والأرض، ويلاحظ أنه تعالى عبّر بنفس الفعل: ﴿وَضَعَ﴾ عن الأرض، ليتمّ الربط بين ميزان الله العادل والمتمثل في إنزال شرعه وأحكامه من السماء التي هي مصدر الحق والعدل إلى الأرض التي وضعها لعباده حتى يرتبطوا بميزان الله العادل في تدبير شؤونها واستغلال خيراتها، فلا يطغوا ولا يجوروا ولا يبخسوا الناس أشياءهم في معاملاتهم ومبادلاتهم، وذلك هو معنى قوله: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ،

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. يقول الدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره المنير: "ويلاحظ أنه سبحانه أمر أولا بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو مجاوزة الحدّ بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس".[1]

قلت: وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٢٥).

ثم بيّن الله نعمه على خلقه في الأرض، وعبّر بالوضع -كما تقدم- وهو يقتضي الخلق ويقابل الرفع للسماء الوضع الذي هو بمعنى الخفض فقال: **﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ، وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾**.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾: عطف على جملة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾. ﴿وَضَعَ﴾: بمعنى خلق، وفيه معنى الثبات والاستقرار، و﴿الْأَنَامِ﴾: يحتمل أنه لكلّ ما خلقه الله على ظهر الأرض من دابة، ويحتمل أن المراد به الإنسان بالذات كما يرى ذلك ابن عباس؛ لأنه المقصود بامتنان الله عليه، ثم بيّن الله تفاصيل ذلك الوضع بقوله: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾، وهي كل ما يؤكل للتّلذّذ من مختلف الثّمار، وخصّص النّخل الحامل للأكمام وهي أوعية ثماريخ التّمر خصّصه بالذكر لكونها الشجرة المشهورة في الصحراء ذات المنافع المتعددة، والمقصود بالحبّ ما يكون له سنابل وأوراق كالقمح والشعير والذرة يكون فيه غذاء للإنسان، كما يتغذى الحيوان بأوراقه إذا يبست فيكون منها التبن، و﴿الرَّيْحَانُ﴾: كل ماله رائحة ذكية من الأزهار والحشائش.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: فرّع الاستفهام التقريريّ على ما

١-التفسير المنير: ٢٧/١٩٨.

تقدم، يخاطب به الله فريقين من خلقه، يحتمل أن يراد بهما المؤمنين والكفار، ويحتمل أن يراد الإنس والجن، أو هو خطاب للواحد بصيغة المثنى، والمعنى: لا يستطيع أحدكم إنكار نعمة من نعم الله، والله أعلم.

من عجائب خلق الله وأجلّ نعمه.

أ)- النصّ:

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: ﴿الإِنسَانَ﴾: المراد به آدم عليه السلام، والصلصال: الطين اليابس له صلصلة، أي صوت. ﴿كَالْفَخَّارِ﴾: الطين المطبوخ، أي الخزف. ﴿الْجَآنَّ﴾: أصل الجن، وهو إبليس اللعين، ﴿مَارِجٍ﴾: مشتق من مرج الشيء، إذا اختلط وهو بمعنى اسم مفعول أي خلق الجان من خليط من نار. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾: ﴿رَبُّ﴾: مرفوع بدل من ضمير: ﴿خَلَقَ﴾، أو هو ضمير لمبتدأ محذوف تقديره: هو. تثنية المشرق والمغرب على اعتبار مشرقي الشتاء والصيف ومغربهما. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾: مرج الدابة إذا أرسلها ترعى في المرج، الضمير يعود إلى الرحمن، البحران: المراد بهما البحر المالح والنهر العذب،

والبرزخ: الحاجز الذي يفصل بين الماء الحلو والمالح، بحيث لا يغير أحدهما طعم الآخر. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: المراد بالتثنية بحران مالحان، لأن ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ لا يخرجان من العذب، أو المقصود من أحدهما، وهو المالح، فحذف المضاف، وهو أحد، وأقيم المضاف إليه مقامه، و﴿اللُّؤْلُؤُ﴾: صغار الدرّ، المخلوق في الأصداف، ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾: الخرز الأحمر. ﴿وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾: الجواري: السفن الجارية، واللام للملك، وهي صفة لمحذوف تقديره: السفن الجواري، والمنشآت: من أنشأ السير إذا أسرع أي تسير سيرا سريعا. ﴿كَالأَعْلاَمِ﴾: الجبال لتعظيم شأنها، وهي في موضع نصب على الحال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُخْرَجُ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: ﴿يُخْرَجُ﴾ بضمّ الياء وفتح الراء على البناء للمجهول، وقرأ الباقون: ﴿يَخْرُجُ﴾ بالبناء للمعلوم. ﴿وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ﴾: ﴿الْجَوَارِي﴾: كتبت في المصحف الإمام بدون ياء في آخره اعتمادا لحالة النطق في الوصل إذ لا يقف القارئ عليه. ﴿الْمُنشَآتُ﴾: قرأ الجمهور بفتح الشين، فهو اسم فاعل من: أنشأ السير، إذا أسرع.

د)- البيان والتفسير:

في إطار تعداد نعم الله على بني الإنسان ابتدأ بخلق العالم الكبير برفع السماوات ومدّ الأرض وتقدير أقواتها، وبعد أن رسم الإطار العام للزمان والمكان اللذين يحتضنان هذا الإنسان انتقل إلى بيان بعض الأحوال بهما، فبيّن أصل خلق الإنسان والجان، ولفت الأنظار إلى حركة الشمس ما بين المشرقين والمغربين صيفا وشتاء، ثم يذكّر بآلائه في البحر كيف تنساب السفن العملاقة على ظهره وكيف يجود باطنه بأنواع الحليّ من اللؤلؤ والمرجان مما يدل على

قدرته وعلى فضله لعباده فقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

ذكر ﴿الإِنسَانَ﴾ و﴿الْجَآنَّ﴾ في هذه الآية يرجّح أن يكون الخطاب في الاستفهام الذي يتكرر في السورة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يرجح أن يكون خطابا للإنس والجن، فبعد أن ذكرهما بنعمه في الآفاق انتقل إلى التذكير بنعمه في خلق ذواتهما. والمراد: بـ﴿الإِنسَانَ﴾ أصله وهو أبونا آدم عليه السلام، وقد حفل القرآن بذكر أصل خلقة الإنسان في ألفاظ مختلفة، فذكر الطين اليابس، ووصفه في سورة الصافات: ﴿مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(١١). ثم أضاف هنا تشبيها له بقوله: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾، وهو الطين ينضج بالنار ليصير خزفا.

وأيا كانت مادة الخلقة فهي تبيّن العلاقة الكبيرة في عناصر التكوين بين مادة الأرض وخلقة الإنسان، هذا من جهة، وتبيّن من جهة أخرى تفاهة الشيء التي خلق الله منه الإنسان، والكمال النسبي الذي صاغه الله به وسوّاه، فلا تقرّب المسافة بينهما إلا قدرة الله وصنعه البديع مما لا يستطيع هذا الإنسان مهما أوغل في كفرانه أن ينكره، وقس على ذلك خلقة الجان من مارج من نار، والمارج هو الخليط، أي خليط من نار وعناصر أخرى، مما هو خارج عن حدود مدركاتنا، وخبر الله صادق وهو أعلم بمن خلق، وقدرته -أيضا- ماثلة في ما وصف به هو قدرة الجان التي تفوق قدرة الإنسان على تسخير منافع هذه الأرض التي يعيش فيها مع الإنسان وخوطب معه بهذا القرآن كما تقدم في سورة الأحقاف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، سؤال تقرير وتعجيب كما تقدم.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾: تثنية المشرقين والمغربين إما على اعتبار الشمس والقمر المذكورين سابقا، وإما على اعتبار مشرق الشمس ومغربها صيفا وشتاء، فالكلّ فيه دلالات على قدرة الله وعظمته في تنسيق تلك

الأجرام وتحريكها وما يكون في ذلك من المنافع لحياة المخلوقات على ظهر الأرض، ونحن بحكم الألف والعادة واستقرار نظام الأفلاك واستمراره إلى ما يشاء الله فقلما ننتبه إلى ما في ذلك من فضل الله علينا ورحمته ولذلك تكرّر التنبيه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفائدة هذا التكرير يختلف بيانها بين المفسّرين فقد نقل الإمام ابن عاشور عن ابن قتيبة في ذلك أنه قال: "إنّ الله عدّد في هذه السورة نعماءه وذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع كلّ خلّة وصفها ونعمته وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبّههم على النعم ويقرّرهم بها".[1]

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

﴿مَرَجَ﴾: بمعنى أرسل، يقال: مرج الدابة إذا أرسلها ترعى في المرج، والبحران: هما المالح والعذب، كلاهما يجري أو ينبسط على ظهر الأرض لا يحجزها حاجز حتى يلتقيا في نقطة معيّنة بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر، أي كلّ منهما لا يتجاوز حدوده المقدّرة، إذ يكون البحر مصبّا للنهر، وغالبا ما ينبع ماء النهر من أعالي الجبال، فإذا وصل ماؤه إلى نقطة الالتقاء اندفع في ماء البحر المالح دون أن يؤثر أحدهما في الآخر، حتى كأن حائلا يحول بينهما إلى مسافة معينة، ثم يمتزجان، وذلك من صنع الله العليّ القدير، لم يكن مصادفة ولا عفويا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان:٥٣).

هذا، وقد اجتهد العلماء في بيان فوائد البحر على النسبة التي تغطّي منه وجه الأرض، كيف يطهّر الهواء من التلوث، وكيف يبقي على التوازن في

١- التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٤٦.

المناخ اللازم لحياة الإنسان والكائنات الأخرى، وخصّص الله بالذكر هنا ما يستخرج من بطنه من أنواع الحليّ الفاخر من اللؤلؤ والمرجان، أي من البحار المالحة، من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل:١٢).

واستخراج اللؤلؤ والمرجان صناعة قديمة عرفها العرب في جزيرتهم، ولا يزال البعض يمارسها حتى اليوم، وعندما شبّه المتنبي ممدوحه بالبحر قال فيه:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا جودا ويبعث للبعيد سحائبا

﴿وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ، فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: فذلك كلّه من صنع الله وتقديره مما لا يستطيع الخلق إنكاره، ومن أعم منافع البحر أن جعله الله مسخّرا لسير السفن على ظهره. ﴿لَهُ﴾: اللام للملك، وكون السفن العملاقة لله تعالى على اعتبار إلهامه للإنسان في صناعتها وتركيبها، وذلك ما يفيده الوصف بـ﴿الْمُنشَآتُ﴾، فهي تسير بقدرته تعالى، إذ لو شاء لجعل البحر ساكنا، فلا رياح تدفع بتلك السفن على لجج البحر، كما كان في الزمان القديم، كما أنّه تعالى لو شاء لبقي مضطربا هائجا مما يسبّب الهلاك لراكبيه.

ولا تزال هذه السفن على مختلف أحجامها وأشكالها من أعظم النعم التي منّ الله بها على هذا الإنسان، بما يسّرت له من أسباب الرقيّ والعمران، وما وفّرت له من أسباب الرفاهية والازدهار في أوقات السلم، كما أنّها تغدو وسيلة عظمى للهلاك والدّمار في وقت الحرب بما تحمله من عساكر وعتاد وطائرات ومؤن، وكل ذلك من آلاء الله التي لا تُنكر: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والله أعلم.

إفناء الكون، وبقاؤه تعالى وحده، وبيان الجزاء على الأعمال في الآخرة.

أ)- النصّ:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ﴿مَنْ﴾: لتغليب العقلاء؛ لأنّ كلّ الموجودات تفنى. ﴿عَلَيْهَا﴾: الضمير يعود إلى الأرض، وهو مفهوم من السياق. ﴿فَانٍ﴾: بمعنى هالك، أي صائر إلى الفناء. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾: أي ذاته العلية، فهو مجاز مرسل، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، ويستحيل على الله التجسيد. ﴿ذُو﴾: نعت لـ﴿وَجْهُ﴾، مرفوع بالواو. ﴿الْجَلَالِ﴾: العظمة. ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: ﴿مَن﴾: للعقلاء من الإنس والجن والملائكة، كل بوسيلته وعلى طريقته يطلبون منه تعالى كلّ ما يحتاجون إليه سواء من منافع الدنيا أو أسباب النجاة في الآخرة، و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: من شؤونهم يدبّرها ويقضيها وفق

ما سبق في علمه الأزلي ولا يشغله تعالى شأن عن شأن.﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾: ﴿سَنَفْرُغُ﴾: "السين" للتنفيس، وفي العبارة تمثيل للاعتناء بالشيء؛ لأن الفراغ للشيء: هو الخلوّ عما يشغل عنه، والله لا يشغله شيء عن شيء، وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار من الثقلين، أي الإنس والجن. ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾: النفوذ والنفاذ: جواز شيء عن شيء وخروجه منه، والأقطار: جمع قُطْر، بضم القاف وسكون الراء، الجوانب الواسعة، والأمر للتحدّي والتعجيز. ﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾: ولا سلطان إلا لله في ذلك الموقف. ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾: الشّواظ: اللهب الذي لا يخالطه دخان، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه، أو هو النحاس المذاب. ﴿فَلاَ تَنتَصِرَانِ﴾: لا تجدون منفذا لكم من ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سَنَفْرُغُ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة، وقرأه حمزة والكسائي ﴿سَيَفْرُغُ﴾: بالياء المفتوحة، على أن الضمير عائد إلى الله تعالى. ﴿وَنُحَاسٌ﴾: قرأ الجمهور بالرفع، عطفا على ﴿شواظ﴾، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب، قرؤوه مجرورا، عطفا على: ﴿نَارٍ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

من أعظم النّعم التي امتنّ الله بها على عباده من النّعم الدنيوية تسخيره للفلك في البحار، وأنّها من أكثر وسائل السعي لكسب الأرزاق وتحصيل ما به قوام العيش للخلق كما أنها من الوسائل الكبرى للنجاة من أهوال البحر، ووصفها بالأعلام دليل على عظمة الله وقدرته، وحتى لا يغترّ الناس بتلك الوسائل يبيّن الله أن كلّ ذلك لا يحول بين الخلق وبين ما قدّره الله من الفناء، إذ نعى الكون بأجمعه في الأجل المسمّى الذي قدّره، ولا يبقى إلاّ ذاته تعالى

تذكيرا لهم بما ينتظرهم في الحياة الباقية، حيث يجازون على أعمالهم، ولا منفذ لهم يومئذ من سلطان الله، ولا انفلات من قبضته، فقال جلّ من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

إنها صورة رهيبة ترسمها هذه الآية القصيرة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، على أن: ﴿مَنْ﴾ للعقلاء تغليبا، والضمير في: ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى الأرض، ولئن كان الفناء يعمّ الأرض والسماء، فتخصيص الأرض بالذكر لأنها ألصق بحياة الخلق المخاطب بوحي التنزيل وهم المعنيون بالتذكير في غمرة السهو والغفلة أو في حمأة الكفر والتكذيب، إنّه الفناء الشامل الذي يخفت كلّ صوت ويسكن كلّ حركة، فليس إلا الموت المخيّم، وليس إلا الفناء الرهيب.

وفي خطاب تشريفي لرسول الله تبليغا لمن يستمع القرآن قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾، يقابل الفناء لجميع المخلوقات بالبقاء الدائم للخالق العظيم. وعبّر بالوجه عن الذات العلية الموصوفة بالعزة والكبرياء وبالإكرام والإنعام، والتعبير بالوجه هنا جار على أسلوب العرب في استعمال المجاز المرسل من باب التعبير بالجزء وإرادة الكلّ وتعالى الله عن التجزئة والتجسيد، ونظير هذا التعبير قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨).

﴿فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: تكرير للاستفهام التعجيبي كما تقدم.

ولما كان البقاء المؤقت يستمدّ وجوده من البقاء الدائم فإنّ أبناء الدّنيا الفانية يتوجّهون في كلّ ما يقوم به وجودهم، يتجهون إلى الواحد الأحد الذي يُطعِم ولا يُطعَم ليقضي حاجاتهم ويكفل أرزاقهم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ﴾.

فالله وحده مناط الرّجاء ومعقد الآمال ومحط السؤال لجميع الخلائق في أرض أو في سماء يتوجهون إليه بحاجاتهم بلسان المقال أو بلسان الحال، كل يقضي له بما يراه الخير والحكمة.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: في تدبير شؤون الكون، لا يشغله شأن عن شأن، وقد سئل أحد العلماء عن معنى الآية فأجاب بقوله: "إنها شؤون يبديها لا شؤون يبتدئها"، أي يظهر في الوجود وفق ما يسطّرها القلم في علمه الأزلي، ومن شؤونه تعالى مداولة الأيام بين الناس، فيحيي من يشاء ويميت من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: وهل ينكر الثقلان تلك الحقيقة الوجودية؟.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

انتقال من ذكر أحوال الدنيا ونهايتها بالفناء الرهيب إلى ذكر أحوال الآخرة بدءا بموقف الحساب والجزاء، والثقلان من الإنس والجن معنيان بهما؛ لأنهما وحدهما المتحدّان لله في جلاله وعظمته، باتخاذهم شركاء له، وقد اغترّوا بما كان لهم من الحرية والاختيار في المعتقد وفي كسب أعمالهم، فجاء الإخبار عن الآخرة بأسلوب التهديد بأنه تعالى يتصدّى لحسابهم باهتمام بحيث تسحب عنهم تلك الحرية وذلك الاختيار الذي كانوا يتمتعون به في الدنيا، يقول القطب رحمه الله في تفسير جملة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾، يقول: "والله جلّ جلاله لا يشغله شيء عن شيء، لكن قضى الأشياء مرتبة، ولكن كنّى

عن التوفّر في الانتقام بحيث لا شيء يعارضه عن تمام الانتقام كمن ترك المهامّ إلى مهمّ واحد، وذلك استعارة تمثيلية"[1]. ومن معاني: ﴿نَفْرُغُ﴾ نقصد. وسمّي الإنس والجنّ بالثقلين، أولا: من باب التغليب للإنس على الجنّ، وثانيا: قيل: لشرف قدرهما مطلقا، وقيل: لثقلهما بالتكليف، وقيل: لثقلهما على الأرض.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: تكرير لنظائره في المعنى، وليس هو خطابا للثقلين.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

﴿يَا مَعْشَرَ﴾: نداء للمجتمع الكثير والنّداء من قبل الله في ذلك الموقف المهول بين حشر الخلائق كلها وهم في قبضة الله لا يملكون من أمرهم شيئا، فلا مهرب ولا منجى من حكم الله وقضائه فيقال لهم بأسلوب التعجيز والتحدّي: إن قدرتم على الانفلات والهروب من أقطار السماوات والأرض، أي من أطرافها وجوانبها فافعلوا.

ولا شك أن أهل الضلال يكونون يومئذ في خوف ورعب لما سيلحق بهم من العذاب، وفي ذكر السماوات والأرض تصوير للإحاطة الشاملة من كلّ الجوانب بحيث يكونون كالمحاطين في معتقل محروس ليس فيه منفذ للهروب.

وقوله تعالى: ﴿فَانفُذُوا﴾: أمر تعجيزي زاده بيانا بقوله: ﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾، أي بقوة فائقة تكون لكم وليست إلا لله القويّ القاهر.

١- تيسير التفسير: ١٤/٢٣٣.

وأرى من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ذلك الإنجاز البشريّ الهامّ في مغالبة القوة الجاذبية للأرض بالدفع الصاروخي للخروج من أقطار الأرض إلى الفضاء الخارجي في المجموعة الشمسية، وقد أقدر الله هذا الإنسان أن ينجز ذلك بوسائله العلمية المحدودة، وهو يندرج -والله أعلم- في الاستثناء من قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

ولكن حين مازج ذلك الإنجاز العلميّ العظيم عنصر التحدّي في رحلة سفينة الفضاء "شالنجر" الأميركية وعلى متنها سبعة روّاد من ضمنهم امرأة، و"شالنجر" معناه التحدّي بالإنكليزية.

قلت: حين تحدّوا الله بهذا الإنجاز كانت الإجابة هي ما جاء في الآية اللاحقة: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وهذه الإجابة الرّبّانية هي لبيان نوعية العقاب المهدّد به في الآية السابقة ويتمثل ذلك في شواظ النّار وفي دخانها المرعب اللذين يلاحقانهما حيثما حاولا الانفلات فلا منفذ ولا ناصر.

وسبحان الله علاّم الغيوب، كيف تحقق ذلك لسفينة التحدّي: "شالنجر"، إذ شاهدها المتبعون لانطلاقها من الأرض ببضع ثوان شاهدوها في الفضاء كتلة من نار ودخان ليس إلاّ، وتبدّدت أجزاؤها في الفضاء الخارجي بمن فيها من الروّاد السبعة، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: فاللّهم إنا لا نكذّب بآلائك ونعمك، فاجعلنا في كنفك الذي لا يرام واحفظنا بعينك التي لا تنام، والله أعلم.

الانقلاب الكوني يوم القيامة

وما يعقبه من مشاهد العذاب والنعيم الأعلى والأدنى.

٠١- مشاهد العذاب

أ)- النصّ:

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾: تشبيه بليغ حذفت منه أداة التشبيه بالوردة وهي الزهرة الحمراء المعروفة. ﴿كَالدِّهَانِ﴾: بكسر الدال، دردي الزيت يكون أحمر اللون، تشبيه ثان للسماء المضطربة المنشقة، وهي جملة الشرط بـــ"إذا". ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾: جواب الشرط، نفي السؤال يكون حين يخرجون من قبورهم وسبب ذلك هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾: أي بعلامات تكون عليهم. و﴿النَّوَاصِي﴾: جمع ناصية الشعر الذي في مقدم الرأس، و"أل" عوضا عن المضاف إليه، أي بنواصيهم وأقدامهم، أي هو أخذ بتمكن وقوة. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ -انٍ﴾: الحميم: الماء المغلي الشديد الحرارة. و﴿-انٍ﴾: اسم فاعل من أنى، اشتد حرّه، أي يترددون بين النار المحرقة وبين ماء شديد الحرارة. قال النابغة:

وتخضب لحية غدرت وخانت بأحمر من نجيع الجـــوف آنِ.

ج- البيان والتّفسير:

ينتقل السياق بعد الإجمال المتقدم في ذكره تعالى لموقف الحساب واستحالة النجاة منه لأحد الثقلين ففرّع عليه مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة ثم فصّل ما يعقب ذلك من أهوال ما يقع فيه المجرمون وكيف يتميّزون عمن سواهم بعلامات فيزج بهم في جهنم وقابل ذلك بما ينال المتقين من بشائر النعيم والرضوان وهم متفاوتون في التمتع بدرجات الجنة ومنازل القربى عند الله، فقال جلّ من قائل: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بعد التمهيد الإخباريّ المجمل لحضور يوم الحساب، وقبل البيان التفصيلي لما يعقب من النتائج على المجرمين والمتقين يستعرض الله تعالى مشهدا مهولا للانقلاب الكونيّ العظيم الذي أجمله في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم:٤٨).

وهنا يقتصر على مشهد تبدلّ السّماء من لون أزرق جميل إلى لون أحمر كالوردة في لونها وتشققها كأوراق الورد وهي تذوب كدرديّ الزيت فهي يومئذ مضطربة واهية بانفراط عقد كواكبها وتناثرها في الفضاء الكوني كما فصّل الله ذلك في آيات أخرى.

ويعترض قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، المكرر بين آية وأخرى، وهنا يعترض بين الشرط والجواب تكرارا للتقريع والتوبيخ ثم تكتمل الآية بجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾، أي يوم تنشق السماء، وانشقاقها من أحوال الحشر التي تكون فيها مواقف شتى ذكرها الله في غير هذه الآية. وقد خرج الناس من قبورهم كأنهم

جراد منتشر مهطعين إلى الداعي، فيستغنى عن السؤال عن صنف المجرمين منهم، لأنهم موسومون بعلامات يعرفون بها وسط ذلك الحشد المهول كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران: ١٠٦). ولكنهم عندما يأذن الله ببدء الحساب على الأعمال سوف يسألون ويحاسبون وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وجملة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تكرير للتوبيخ والتقريع.

ثم بيّن الله سبب عدم السؤال عند خروجهم من القبور فقال: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وكما قال الشاعر: "كاد المريب بأن يقول خذوني"، فإنّ ملائكة العذاب لا تجد عنتا في معرفة المجرمين فهم ظاهرون للعيان بعلاماتهم سوادا في الوجوه ووشاحا من كآبة وحزن فيؤخذون بعنف وهوان جميعا بين النواصي والأقدام ليقذفوا في سعير النيران.

إنه مشهد مهول ترتعد الفرائص لسماعه فكيف بمن يقع فيه، وهو الوعيد الذي أنذر منه الله عباده حتى لكأنه حاضر مشاهد، فكيف بالتكذيب والنكران.

وتثبت الحجة فيقال على رؤوس الأشهاد: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي يقال لهم تعنيفا وتوبيخا: هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون، تعرض جهنّم بكلّ ما فيها من وسائل العذاب، ووصفها بالمضارع لإفادة استمرارهم في التكذيب بها إثباتا لإجرامهم الذي استحقوا به عذاب النار، فهم يعذّبون بتردّدهم على سعير الاحتراق وبين حميم شديد الحرارة، يسقون منه فلا يطفئ لهم غلة، والله أعلم.

٠٢- مشهد النعيم الأعلى.

أ)- النصّ:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَا
ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾: ﴿لِمَنْ﴾: اللام للملك، ﴿جَنَّتَانِ﴾: مثنى جنّة، مرفوع على الابتداء. ﴿مَقَامَ﴾: محل القيام، ومصدر ميميّ للقيام، يطلق على الشأن والعظمة مجازا، أو يكون المعنى: يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب، وتطلق الجنة على البستان الوارف الظلال وكونهما جنتين بصيغة التثنية، قيل: المراد بذلك التعدّد؛ لأنّ الجنّة ذكرت في القرآن بصيغة الجمع، وعلى إرادة التثنية فقد تعدّدت فيها الأقوال، فقيل: إحداهما روحية، والأخرى جسمانية، وتكونان للمتقي الإنسيّ وللجنّي. ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: ﴿ذَوَاتَا﴾: تثنية: "ذات"، نعت للجنتين، والأفنان مفرده: فنن، أي الأغصان قال الشاعر:

ربّ ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: ﴿عَيْنَانِ﴾: أي نهران، والتثنية إمّا على اعتبار عين لكلّ جنّة أو على اعتبار عينين لكلّ جنّة، قيل: تسمّى إحداهما التسنيم، والثانية

السلسبيل. ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾: ﴿زَوْجَانِ﴾: أي نوعان، إمّا على اعتبار الرطب واليابس من كل فاكهة كالرطب والتمر، وإما تكون التثنية بمعنى الجنس. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: منصوب على الحال، المراد بالفرش السرر التي عليها الفرش. البطائن: جمع: بطانة، بكسر الباء، وهي مجاز لأسفل الفراش الذي هو من نوع الحشية. والإستبرق: صنف رفيع من الديباج. ﴿وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: مبتدأ وخبر. الجنى: ما يجنى من الثمار. ﴿دَانٍ﴾: أي قريبة في متناول قاطفها. ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: ﴿فِيهِنَّ﴾: عائد إلى الفرش، ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: صفة لمحذوف تقديره: نساء، أو حور. و﴿الطَّرْفِ﴾: العين، أي يقصرن نظرهن على أزواجهن من شدة العفاف. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: الطمث: هو مسيس الأنثى البكر. ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾: نعت، أو حال من: ﴿قَاصِرَاتُ﴾ وجه الشبه إما في اللون أو في الصفاء واللمعان. ﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾: الاستفهام للنفي، وقد أفاد الحصر مبتدأ وخبر، والمعنى: الإحسان في العمل يكون جزاؤه الإحسان في الأجر والثواب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: قرأ الجمهور هنا وفي نظيره الآتي في آخر السورة، قرأ بكسر الميم، وقرأ الدوريّ عن الكسائي بضم الميم، ونقل عن الكسائي التخيير بين الكسر والضم؛ لأنهما لغتان معروفتان.

د)- البيان والتّفسير:

بعد عرض مشهد العذاب الذي يلقاه الكفّار المجرمون حتى لكأنّه حاضر مشهود ينتقل السياق إلى عرض مشهد النعيم للمتّقين، وكما فصّل الله أصحاب الجنّة أنّهم على فريقين في سورة الواقعة: السابقون المقربون،

وأصحاب اليمين تلاحظ هنا نفس التقسيم إذ بدأ بالنعيم الأعلى للسابقين وأعقبه في النصّ اللاحق بالنعيم الأدنى لمن دونهم فقال جلّ من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلِمَنْ﴾: اللام للملك. ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾: أي جنس الخائفين من الله الذين يخشون ربهم بالغيب، فلا يقصّرون في أداء واجب طاعته كما أمر في السّر والعلن حتى ارتقوا في مقامات القربى عند الله فبلغوا بذلك درجة الإحسان هؤلاء بيّن الله جزاءهم فقال:

أ)- ﴿جَنَّتَانِ﴾: هكذا بصيغة التثنية هنا على خلاف ما درج عليه القرآن في ذكر الجنّة بصيغة المفرد أو صيغة الجمع، ولذلك تعدّدت أقوال المفسّرين في تحديد نوعهما فقال البعض: التثنية هنا هي كناية عن التعدد وهو مستعمل في الكلام الفصيح كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (الملك:٤). وقيل: إحداهما منزله الخاص به والأخرى لأزواجه وخدمه. وقيل: إحداهما داخل منزله والأخرى خارجه. وقيل: هما جنتان ينتقل من إحداهما للأخرى تفسّحا وتمتعا. وقيل: هما لأعماله العقدية الروحية والأخرى للأعمال البدنية والجنيّ كالآدميّ داخل في الآية لأن الخطاب لكليهما.

وقد وصف الله الجنتين بأوصاف رائعة يتخلل قوله بين وصف وآخر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تكرار لنظائره.

ب)- ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: تثنية: ﴿ذَوَاتَ﴾، والأفنان هي الأغصان، والتنكير للتعظيم، وللدّلالة على أنّ تلك الأغصان عامرة بالأزهار والثمار لا مجرّد الخضرة في الأوراق.

جـ)- ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: قيل: لكلّ واحدة من الجنّتين عينان تجريان بالماء الزلال، الأولى هي التسنيم والثانية السلسبيل، وجريان الماء خلال الأشجار هو من مكملات الحسن والجمال في منظر الجنة.

د)- ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾: أي نوعان من الفواكه، على أنّ فواكه الجنّة أنواع كثيرة، وإلاّ فالله أعلم بالنوعين، ولعله نوع مما نعرفه في الدنيا ونوع مما لا نعرفه، ذلك جانب من وصف نعيم الجنة لمن خاف مقام ربه، وقد بيّن الله أحوالهم وهم يتنعمون فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والاتّكاء على الأرائك هو من كمال التّنعّم لمن يتمتّع بصحّة البدن وخلوّ البال من الهموم سيما إذا كان المتكأ وثيرا بفرش مخملية مزينة بالحرير والديباج في بطائنها وظهائرها، وتظللهم تلك الأغصان المثمرة دانية قطوفها إلى متناول أيديهم يقتطفون منها ما يشاؤون ذلك هو متاعهم في راحة البدن ولذة الطعام، وعلى ذكر نعومة الفرش ولذة الاتّكاء يستكمل الله متاعهم بلذة الإيناس بالحور، أزواجهم في الجنة، فقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾: يكون الضمير عائدا إلى: ﴿فُرُش﴾ لحسن الربط، و﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: صفة لمحذوف، تقديره: نساء أو حور، و﴿الطَّرْفِ﴾: العين، بمعنى يحبسن نظرهن عن غير أزواجهن من شدّة الظهر والعفاف، وهي صفة مدح يتغنى بها الشعراء. قال بشار:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

والمعنى هنا كما يحتمله الوصف: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، أنهن يحبسن نظر

من نظر إليهن عن أن ينظر إلى غيرهن.

ومعنى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، والطمث في الأصل خروج الدم حيضا أو جماع بكر، ويستعمل لمطلق الجماع، قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٥-٣٧). وهذه صفة لحور العين من أزواج الجنة، أمّا أزواج الدنيا فقيل: للمؤمن أزواجه السعيدات اللائي لم يطلّقهن، وله زوجته الأخيرة ممن تزوجهن في الدنيا، وقد شبههن الله بالياقوت والمرجان في اللون والجمال وفي الصفاء واللمعان.

وبعد الاستفهام المكرر قال تعالى تذييلا للجمل السابقة: ﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، هذا التذييل المناسب لما تقدم من نوعية الجزاء لمن خاف مقام ربّه، يدلّ على أنّ هؤلاء بلغوا في مقامهم عند الله درجة الإحسان. الاستفهام مستعمل في النفي لإفادة الحصر، والإحسان الأول يمثل الأعمال الصالحة في الدنيا من طرف المقربين السابقين، والإحسان الثاني يمثل الجزاء الأوفى الذي يلقونه عند الله في الآخرة فضلا منه تعالى ومنة كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦). جعلنا الله من المقرّبين المحسنين، والله أعلم.

مشهد النعيم الأدنى في الجنة

(مقارنة بين النعيمين)

أ) - النصّ:

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ

﴿٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ
فِي الْخِيَامِ ٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٧٦ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ٧٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٩ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٧٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: التقدير: ولهم من دونهما، أي في الدرجة أو في الفضل، وهما لأصحاب اليمين ممن هم دون المقربين المحسنين. ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: وصف مشتق من الدّهمة، وهي السواد، مبالغة في شدة خضرة الأشجار. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: فوّارتان بالماء، من النّضخ، وهو أقوى من النّضح -بالحاء- أي الرّشّ. ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾: النخل والرّمان هما من جملة الفواكه على القول الأرجح وإنما أعيد ذكرهما للدلالة على فضلها. ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾: ﴿فِيهِنَّ﴾: عائد إلى الجنات الأربع، ﴿خَيْرَاتٌ﴾: مخفف من: خيّرات، بتشديد الياء، وهي صفة لموصوف محذوف تقديره نساء خيرات، أي هنّ فضليات صالحات. و﴿حِسَانٌ﴾: صفة ثانية بمعنى حِسان الخلق جميلات. ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾: ﴿حُورٌ﴾: جمع حوراء بدل من خيرات والحوَر شدة سواد العين في شدة بياضها. ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ﴾: أي محجوبات عن غير أزواجهن فهن مصونات في خدورهن. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: في موضع حال. ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾: اسم جمع ما يبسط على الفراش لينام عليه ويغلب عليه اللّون الأخضر. ﴿خُضْرٍ﴾: جمع أخضر. ﴿عَبْقَرِيٍّ﴾: نسبة إلى "عبقر" اسم لبلاد الجن في معتقد العرب يصفون به كل ما كان ممتازا في الجمال والإتقان. ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ﴿تَبَارَكَ﴾: من "البركة"، وهي بقاء النعمة وثباتها أي الثناء على الله

لأن الاسم يطلق على الذات فيه تحريض على ذكر اسم الله تعالى بالإجلال والتعظيم وقد جاء في الحديث: «**يا ذا الجلال والإكرام**».[1]

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ بالياء مجرورا صفة: لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وقرأه ابن عامر: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ صفة لـ: ﴿اسْمُ﴾ كما في قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (٢٧) والمعنى واحد على الاعتبارين.

د)- البيان والتّفسير:

يرى أغلب المفسّرين أنّ الله تعالى بدأ في النّصّ السابق بالنعيم الأعلى المخصّص للسابقين المقرّبين الذين بلغوا درجة الإحسان ثم اتبع الله ذلك بذكر الجنتين اللتين دون الأوليين في الفضل والدرجة لأصحاب اليمين الناجين من عذاب الجحيم، ولكن قصر باعهم عن إدراك الدرجات العلى في جنات النعيم والقليل من المفسّرين من عكس فرآى أن الجنتين في هذا النصّ أفضل من السابقين ولكن بالمقارنة يتضحّ ذلك.

قال تعالى:﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَامَّتَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾: عطف على الجنتين السابقتين أي ومن تينك الجنتين

١- رواه مسلم من حديث ثوبان، كتاب (٥) المساجد ومواضع الصلاة، باب (٢٦) استحباب الذكر بعد الصلاة، بيان صفته، ، ق ٥٩١: ١/٤١٤

المذكورتين جنتان هما دونهما في الفضل وفي الدرجة وإن كانتا لمن خاف مقام ربّه كذلك، ولكنهم لم يبلغوا درجة الإحسان ووصفهم الله تعالى بأصحاب اليمين في أول سورة الواقعة وفي ختامها فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ، وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ، فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ (٨٨-٩١). ويقال في نوعي الجنتين هنا ما قيل في سابقتهما من الاحتمالات المختلفة للمفسّرين، غير أن ما وصفتا به هنا يبدو أقلّ حسنا وجمالا وإمتاعا مما تقدم فقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، وصف مشتق من الدهمة وهي السواد مبالغة في شدة خضرتهما بقوّة التفاف الأغصان وتراكم الأوراق فبأيّ نعم الله هذه تكذبان أيها الإنس والجن وأنتما تشاهدان مثل ذلك على الأرض مثل ما وصف ذلك الشاعر بقوله:

يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الرّبى فكأنما هو مقمر

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾: أي على شكل فوّارتين بالماء، والنضخ: هو أقوى من النضح -بالحاء-؛ لأن الماء يندفع بقوة ولكن دون الجريان في العينين السابقين، إذ الماء في النضاختين لا يتعدّى الحوض الذي حولهما كما يلاحظ ذلك في قصور الأثرياء، وقد وصف أمير الشعراء فوارة الماء في قصر الحمراء بالأندلس والماء ينضخ من أفواه الأسود فقال:

مرء ترى مجلس السباع خلاء ... مقفر القاع من ظباء وخنس
مرمر قامت الأسود عليه ... كلّة الظفر لينات المحبسّ
تنشر الماء في الحياض حسانا ... يتنـــزى على ترائب هلس

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾: والنخل والرمان من جملة الفاكهة المذكورة، وتخصيصها بالذكر للتنويه بنوعها وبيان كثرة نفعها فهو من باب

عطف الخاصّ على العامّ، وقد توسّع العلماء في بيان مميزات النخل والرّمان بما يعلل ذلك التخصيص بالذكر.

وبعد تكرير الاستفهام التوبيخي لمن حرم من تلك الخيرات قال: ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾: الضمير عائد إلى الجنات على اعتبار التعدّد في التثنية أو على اعتبار الجنات الأربع السابقتين واللاحقتين. ﴿خَيْرَاتٌ﴾: جمع: خيرة، بتخفيف الياء أو تشديدها، وهي صفة لمحذوف يقدر بما يناسبه ويفسّره ما يأتي في الآية بعدها، أي: ﴿حُورٌ﴾، ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾: أي خيرات الأخلاق حسان الوجوه كما روى في حديث عن أم سلمة وقد سألت رسول الله عن الآية فقال: «**لو اطّلعت إلى الأرض لملأت ما بينهما**».[1]

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾: والحور صفة غلبة على نساء الجنة وهي من الحور في العين مفرده: حوراء، وقد تقدم الحديث عن الحور العين في السور السابقة، وكونهن مقصورات في الخيام، يضفي نفس الوصف المتقدم في قوله: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ (٥٦) من معاني التصوّن والحشمة والطهر والعفاف، غير أنّ الخيام توحي بجوّ البداوة، ولا يقدح ذلك في حسنهن والمتنبي يقول:

حسن الحضارة مجلوب بتطرئة ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: فهن أبكار مصونات كسابقتهن،

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب (٨٤) الرقاق، باب (٥١) صفة الجنة والنار، رقم ٦١٩٩: ٥/٢٤٠١.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: وقد تقدم تفسير ذلك وكيف يتمتع أهل الجنتين بأولئك الزوجات المؤنسات؟.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: والرفرف نوع من البسط الفاخرة تبسط فوق الفرش الناعمة للنوم، ويضفي عليها اللون الأخضر منظرا رائعا يحاكي جمال الطبيعة في ألوانها ونقوشها وكأنها من صنع عبقريّ مبدع وهو وصف اعتاد العرب على إضفائه على كل صنعة متقنة نسبة إلى وادي الجن كما يعتقدون، وإلى ذلك يشير المعرّي بقوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسنا عدّوه من صنعة الجنّ

فقالوا: فلان عبقريّ إذا كان ممتازا في خصائصه الفكرية أو العملية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وهي المرة الأخيرة التي تكرر فيها هذه الآية تعقيبا بعد كل آية.

وفي ختام السورة يأتي الثناء على الله والتذكير بنعمه العظمى في الدنيا والآخرة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

وصف الله ذات العلية بالبركة، وهي بقاء النعمة وثباتها ونماؤها، والاسم دالّ على المسمّى أي تباركت ذاته العلية وإضافة صفته "الربّ" إلى الرسول المخاطب: ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾، هو للتنويه بشأن المضاف إليه، وللإشارة إلى معنى الرعاية والرأفة، فهو الربّ الكريم الذي يطاع ولا يعصى، ويشكر ولا يكفر وهو ذو الجلال والإكرام -أي صاحب العظمة والكبرياء-، وواهب الخير والبرّ والإحسان. ولا أنسب من الوصف للرحمن من تينك الصفتين، وقد جاء

في الحديث: «ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام».[1]

- المقارنة بين النعيمين الأعلى والأدنى:

للمقرّبين السابقين	لأصحاب اليمين
﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾	﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾
﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾	﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾
﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾	﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾
﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾	﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾
﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا﴾	﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾
﴿مِنِ إِسْتَبْرَقٍ﴾	﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾
﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾	﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾
﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾	﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾
﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾	﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾
﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾	﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾

فتصبح بهذه المقارنة أن الجنتين اللتين أعدّتا للمقربين المحسنين هما أعلى درجة وأوفر نعيما من اللتين هما لأصحاب اليمين، وكلا وعد الله الحسنى والله وليّ المتقين، والله أعلم.

لقمة

١- رواه الترمذي، كتاب (٤٩) الدعوات، باب (٩٢)، رقم ٣٥٢٥: ٥/٥٤٠.

سورة الواقعة ، مكية، وآياتها ٩٦

- بين يدي السّورة الكريمة:

يلخّص الشيخ محمد الغزالي المعالم الأساسية للسورة في تفسيره الموضوعي فيقول: "والواقعة من أسماء شتى ليوم القيامة، مثل الحاقة، والقارعة، والساعة. ومعالم هذه السورة واضحة، فهي تبدأ بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، ثم تذكر صنوف الناس بعد البعث، وهم أصحاب السبق البعيد، وأهل اليمين، وأهل الشمال. وتسوق بعد ذلك خمسة أدلة على أن البعث حق وأن إنكاره خبال، وتختتم بوصف لرحيل البشر عن هذه الدنيا بالموت، وبوادر تصنيف الأقسام الثلاثة: السابقين، وأهل اليمين، وأهل الشمال".[1]

والسورة مكيّة بإجماع أغلب المفسّرين، وتسمى سورة "الواقعة"، وهي من أسماء الساعة -كما تقدم-، وآياتها ستّ وتسعون آية، وهي السادسة والأربعون في ترتيب نزول السور، والسادسة والخمسون في ترتيب السور بالمصحف الشريف، نزلت بعد سورة "طه".

لقد اعتاد الناس عندنا قراءتها في كثير من المناسبات، وذلك راجع لما ورد في فضلها من الأحاديث، منها: ما أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا**».[2]

وأخرج الترمذي عن ابن عباس، «**قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت**

١- التفسير الموضوعي: ص ٤٢٥.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود، رقم ٢٢٦٩: ٤/١١٩.

قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت».[١]

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن الرسول ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤوها وعلموها أولادكم».[٢]

وفي تناسب سورتي الرحمن والواقعة يقول الدكتور الزحيلي: "ذكر الله تعالى في سورة الرحمن انشقاق السماء، وذكر هنا رجّ الأرض، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما في الموضوع سورة واحدة، ولكن مع عكس الترتيب، فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك".[٣]

قيام الساعة وأصناف الناس فيها .

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

١- رواه الترمذي من حديث ابن عباس، كتاب (٤٨) تفسير القرآن، باب (٥٦) سورة الواقعة، رقم ٣٢٩٧: ٥/٤٠٢.

٢- أورده السيوطي في الدر المنثور: ١٣/٢٧٧.

٣- التفسير المنير: ٢٧/ ٢٣٩.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان في موضع النصب، والعامل فيه ﴿وَقَعَتِ﴾، وهو يتضمّن معنى الشرط. ﴿الْوَاقِعَةُ﴾: أي الحادثة التي وقعت والمراد بها القيامة، كما سمّيت في القرآن: القارعة، والحاقة، والطامّة، والصاخة، وجواب الشرط هو قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾...إلخ. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: ﴿كَاذِبَةٌ﴾: اسم ليس، وهي بمعنى الكذب، أو هي صفة لمقدّر، أي نفس كاذبة، أي إذا وقعت تحقق منكروها ذلك فأقلعوا عن التكذيب بها. ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: بينها طباق، ﴿خَافِضَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي خافضة رافعة، أي تخفض قوما وترفع آخرين، وإسناد ذلك إلى الواقعة مجاز عقلي. ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنْبَثًّا﴾: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ﴾: بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، والرجّ: الاضطراب والاهتزاز الشديد، منصوب على المصدرية، والبسّ هو التفتت، يقال: بسّ فلان السويق بمعنى: لتّه. ﴿هَبَآءً مُّنْبَثًّا﴾: الهباء دقيق الغبار الذي يبدو في خيوط الشمس، المنبث: أي المتفرّق والفاء للتفريع. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً﴾: ﴿وَكُنتُمْ﴾: الخطاب للخلائق كلها، الأزواج الأصناف أي كل ما يذكر مع صنف آخر واحده: زوج كما يقال ذلك للذكر والأنثى. ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: الفاء في: ﴿فَأَصْحَابُ﴾: رابطة لجواب الشرط بـ"إذا" الثانية. ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: هم أصحاب اليمين الناجين من عذاب النار. ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: ﴿أَصْحَابُ﴾: مبتدأ ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والاستفهام للتعجيب. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾: ﴿السَّابِقُونَ﴾: الأول مبتدأ و﴿السَّابِقُونَ﴾: الثاني صفة له، ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة خبر للمبتدأ الأول سمّوا بالسابقين لسبقهم في الطاعات والخيرات حتى بلغوا درجة الإحسان.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: صفة أو خبر ثان.

ج)- تمهيد:

درج النّاس في مجتمعنا في الإكثار من تلاوة سورة الواقعة في كثير من المناسبات، سيما المجتمع النسوي، وقد اعتدن على تلاوتها يوم الثلاثاء بالخصوص، وطبقا للقاعدة التي تقرّر عندنا أن أغلب تقاليدنا هي سنن ثابتة عن رسول الله حاولت أن أسقط تلك القاعدة على هذه العادة من تكرار تلاوة سورة الواقعة، فما أثلج صدري وما أروح على نفسي حين وجدت أغلب المفسّرين يذكرون أحاديث تبيّن فضل هذه السورة وتحريض رسول الله على تلاوتها وتعليمها للأولاد، وكنت شخصيا أداوم على تلاوتها كلما شعرت بقلق، أو داهمني في بعض الليالي الأرق، فلا أكاد أنتهي من تلاوتها حتى أشعر بالإغفاء والنوم.

وقد ركز الرسول على أنها تذهب الفاقة، وذلك لما تخللها من الدلائل على قدرة الله وعظمته وعلى أن البعث والحساب حق، وكذا التنويه بعظمة القرآن وحقيقته، فمجتمعنا الفقير في أغلب أسره قد وجد في هذه السورة الكريمة بعض الصبر والعزاء يشد بهما أزره في الضوائق والشدائد، ثم إن السورة الكريمة هي من السور المكية الداعمة للإيمان باليوم الآخر وتعميق جذوره في قلوب المؤمنين لما في ذلك العنصر الإيماني من الأثر البليغ في ترشيد سلوك المسلم وتجاوبه مع حقيقة الوجود وقدرة الخالق.

د)- البيان والتّفسير:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: افتتحت السورة بـ"إذا" وهو ظرف لما يستقبله من الزمان متضمن لمعنى الشرط، وقد جاء فعل الشرط

بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وقوله تعالى فيه: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ فيه من التهويل والتضخيم ما يجعل السامع يتشوق إلى معرفة الجواب، فيه افتتاحية تناسب ما يأتي بعدها من الأحداث الجسام في عرض مشهد الانقلاب الكوني عندما تقوم الساعة، يعرضها قبل ذكر جواب الشرط ليكون ذلك أدعى للتشويق والتنبيه، ويأتي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ في استئناف بياني لجملة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أي وقعت الساعة بما يصحبها من أهوال كأنها أثقال عظام تسقط لتحطم ما تقع عليها، فهي واقعة لا محالة، فلا يكون عند وقوعها مراء ولا تكذيب كما قال تعالى في سورة الحاقة بعد وصف مهول للانقلاب الكوني قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٥-١٦). فيومئذ لا مجال للإنكار والتكذيب كما كان في الدنيا لأن المشاهدة والمعاينة لما يقع تقضي على الشك والوهم فما راء كمن سمع، وحين تقع فإنها تقلب كل الموازين التي ألفها الناس في حياتهم العاجلة فهي كما قال تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، أي هي خافضة لأقدار أناس كانوا ظاهرين على غيرهم في دنياهم، وهي رافعة لأقدار أناس كانوا مغمورين في نظر أقوامهم، والوزن يومئذ الحق في ميزان الله. ولله المثل الأعلى، إذ عشنا في القرن الماضي -القرن العشرين- وقائع عظيمة في حربين عالميتين طاحنتين، خفضت أقدار أمم كانت طاغية مستكبرة، ورفعت أقدار أمم أخرى كانت مستضعفة مغمورة، فكيف بالطامّة الكبرى إذا جاءت.

﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنْبَثًّا، وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً﴾:

وقبل أن يذكر الله جواب الشرط للجملة الأولى أردفه بجملة شرط ثانية، ليمهّد بها للتفصيل الذي يذكره في جواب الشرط لبيان أقدار البشر وأصنافهم بعد وقوع الواقعة بمشهدها المهول الذي يبدأ في كيان الأرض بعد

أن ظلت لملايير السنين مستقرة ثابتة، وكانت نعم المهاد للخلائق كلها في برّها وبحرها، فإذا هي تمتز وتضطرب ويتقوض عمرانها وتختلط معالمها، وإذا بتلك الجبال الرواسي تنفجر وتتطاير هباء، وذلك مشهد مهول لا يتماسك الحسّ البشريّ عند سماع أحداثه فكيف بمعاينته وكيف بإنكاره وتكذيبه؟، وليس للمكذبين يومئذ مهرب ولا ملاذ، ولا يبقى لهم من حرية أو اختيار إلا أن يكونوا من أصحاب الجنة أو أصحاب النار.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

جاء تقسيم أقدار الناس يوم القيامة إلى أصناف ثلاثة:

أ)- **﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**: وسمّاهم في الآية اللاحقة بأصحاب اليمين، واليمين رمز للعناية والكرامة عند العرب، وهو مشتق من اليمن، أي البركة، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ويدخلون إلى الجنة، وقد كرر الله الوصف دون الإتيان بالضمير في الاستفهام التعجيبي للدلالة على المدح أو الذم، رفعا أو خفضا -كما تقدم-، وقابل أصحاب الميمنة:

ب)- **﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾**: وعبّر عنهم في الآية اللاحقة بأصحاب الشمال، أي اليسار، وهم الذين يتناولون كتبهم بشمائلهم، وقد خفّت موازينهم فيساقون إلى النار، والمشأمة مشتقة من الشؤم ضدّ اليمن، ثم ذكر الله الصنف الممتاز فقال:

ج)- **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾**: **﴿وَالسَّابِقُونَ﴾**: هم الصنف الأول الممتاز لسبقه في الطاعات والخيرات

بالإسراع والمبادرة إليها كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون:٦١). وفي طليعة هذا الصنف: الأنبياء والرسل والصدّيقون والشهداء والصالحون، والإخبار عنهم أو وصفهم بأنهم السابقون يدلّ على أنهم الممتازون المقربون إلى الله بما يقصر عن وصفه اللفظ لأنهم بلغوا أقصى درجات الفضل، ولم يحدّد الله فيم كان سبقهم ليتناول كل مجالات البرّ والخير، لأن النفوس الزكية لا يمكن أن تتنافس إلا في ما هو خير، فهؤلاء كما قال عنهم ربنا تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أشير إليهم بأنهم المقرّبون إلى الله بدءا بالنعيم الروحي الأسمى ثم النعيم الماديّ في جنة الخلد، والإشارة للدلالة على أنهم أحرياء بذلك الجزاء.

ثم يأخذ الله تعالى في تفصيل الجزاء للأصناف الثلاثة، وقد أخرج الإمام أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم**».[1]

جعلنا الله من السابقين المقربين إلى الله المرفوعين يوم القيامة، آمين، والله أعلم.

أنواع النعيم للسابقين وأصحاب اليمين.

أ)- النصّ:

ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ

١- رواه أحمد في المسند من حديث عائشة، رقم ٢٤٤٢٤: ٦/٦٧.

عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾
كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا
قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ
مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾
ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾: ﴿ثُلَّةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي هم ثلة -بضمّ الثاء-، الجماعة من الناس مطلقا. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾: معطوف عليه، وبين "الأولين" و"الآخرين" طباق، والمقصود بالأولين: يراد بهم السابقون من الأمم الماضية، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾: يراد بهم طائفة قليلة من أمة رسول الله. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ، مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: خبر ثان. ﴿سُرُرٍ﴾: جمع سرير. ﴿مَوْضُونَةٍ﴾: نعت، ومعناها مسبوكة بإحكام، أي في سطوحها، ﴿متكئين﴾، ﴿متقابلين﴾: منصوبان على الحال. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: الطواف: المشي حول الشيء، والولدان المخلدون أي صبيان مرد على سن واحدة لا يتغيّرون بالشيخوخة والهرم، الأكواب: جمع كوب، إناء للسقي خمر أو غيره، ﴿أَبَارِيقَ﴾: جمع إبريق، إناء للسقي له خرطوم وعروة، الكأس: للجنس، إناء الشرب، والمعين: الخمر المتوفرة الجارية كالماء. ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾: ﴿يُصَدَّعُونَ﴾: لا يحصل لهم منها صداع، ﴿وَلاَ يُنزِفُونَ﴾: لا تختلط عقولهم بمفعولها. ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾: الفاكهة أنواع الثمار، مجرورة بالعطف على ﴿أكواب﴾، وكذا ما ذكر بعده. ﴿وَحُورٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَحُورٌ﴾ بالرفع على الاستئناف

عطف. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾: إما معطوف على ﴿ولدان﴾، أو على تقدير: ولهم حور عين، وهن النساء، مفردها حوراء وعيناء كما تقدم، ﴿اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾: الدرّ المصون في الصدف. و﴿جَزَآءً﴾: منصوب على المفعول لأجله. ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا، إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾: اللغو: أي لا يسمعون في الجنة لغوا، وهو الكلام الفارغ الساقط، والتأثيم: ما يؤثم به من الفحش والمنكر. ﴿إِلاَّ قِيلاً﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾: منصوب بالقول، والمعنى: يسمعون سلاما إثر سلام. ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ، وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾: السدر: شجرة النبق، مخضود: أي خضد شوكه، والطلح، قيل: إنه شجرة الموز نضرت حباته في شكل بديع. والظل الممدود: أي لا يتقلص كظل الدنيا، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرّعد:٣٥). ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾: هو متوفّر يجري بكثرة. ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾: أي متنوعة الأصناف والألوان. ﴿لا مَقْطُوعَةٍ﴾: لا تنقطع في وقت من الأوقات، ولا تمنع بسبب من الأسباب، بل هي في متناول اليد في كل وقت. ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾: الضمير يعود إلى الحور العين، وقد لا يكون عائدا إلى مذكور معيّن إذا كان ملحوظا في الفهم، والإنشاء: الخلق والإيجاد من غير ولادة، ﴿أَبْكَارًا﴾: جمع بكر، أي عذارى. عرُب: جمع عَروب -بفتح العين-، أي المرأة المتحبّبة إلى الرجل. ﴿أَتْرَابًا﴾: مستويات في السن.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُنزَفُونَ﴾: قرأ الجمهور بفتح الزاي، من أنزف، الذي همزته للتعدية، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي، من "أنزف" المهموز القاصر، أي إذا سكر ، ذها عقله. ﴿وَحُورٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَحُورٌ﴾ بالرفع على الاستئناف

والابتداء، والخبر محذوف تقديره: لهم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر: ﴿حُورٌ عِينٌ﴾ عطفا على: ﴿ولحم طير﴾. ﴿عُرُبًا﴾: قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف: ﴿عُرُبًا﴾ بسكون الراء سكون تخفيف، وهو ملتزم في لغة تميم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان تقسيم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾،﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، ﴿وَالسَّابِقُونَ السابقون﴾، أعقب الله ذلك بلقطات تفصيلية لجزاء كل صنف، ولكنه تعالى عكس الترتيب، إذ بدأ بالصنف الثالث وهم السابقون نظرا لتميزهم عن غيرهم بدليل تكرير وصفهم بأنهم السابقون في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم ثنى بجزاء أصحاب اليمين وثلث بجزاء أصحاب الشمال. وقد مهّد لذلك التفصيل بدءا بالسابقين فقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾، وهي اعتراض بين الإجمال التصنيفي والجزاء التفصيلي لكل صنف، والثلة: هي الجماعة من الناس مطلقا كثيرا كانوا أو قليلا. غير أن مقابلتها بـ"قليل" يشعر أن المراد بها الجماعة الكثيرة، فمن هم الأولون ومن هم الآخرون ممن تكون منهم تلك الثّلّة أو تلك القلة؟.

اختلفت الروايات في ذلك، ويرجّح أغلب المفسّرين بأن المراد من الأولين هم كل من سبق من الأنبياء والرسل والذين آمنوا بهم وجاهدوا معهم من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وأن الآخرين هم سيدنا محمد وأصحابه السابقون الأوّلون كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الاَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصَارِ وَالذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

فالخلاصة أن السابقين هم طائفتان: طائفة من الأمم الماضية من الرسل

والأنبياء وأتباعهم وهم كثر بالنظر إلى مجموعهم، وطائفة قليلة بالنسبة إلى الأولى وهم الذين استجابوا لدعوة رسول الله، ولعل الله تعالى قد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣). وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤). وقيل: إن الطائفتين هم من أمة رسول الله، فالأولون يمثلون الصدر الأول من خيرة الأصحاب، والآخرون هم من المتأخرين الذين جاؤوا بعدهم، ولعلّ ما ورد في سورة الحشر من الصفات الممتازة للمهاجرين والأنصار يؤيّد هذا القول الثاني، وكذا ما ورد في شأن الذين جاؤوا من بعدهم، غير أن القول الأول هو الأرجح عند أغلب المفسّرين.

ومن ثمّ يأخذ الله في بيان ما أعدّ لهم في جنات النعيم فقال: ﴿**عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ، مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا، إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا**﴾.

فإذا كان الجزاء على قدر العمل ويزيد الله من فضله على من يشاء من عباده فإن هذه الصفوة الممتازة من السابقين قد فازت برضوان الله ونعيم الجنة مما يرسمه هذا النصّ الكريم من صنوف الملذات في المطعم والمشرب والمنكح، يرسم تلك الصورة بالأشكال والألوان والحركات الحية النابضة لجلسة أنس مريحة لا يعكر صفوها همّ ولا كدر وهم متقابلون على سرر موضونة، أي محكمة النسج في سطوحها متماسكة لبسط الفرش والزرابي فوقها، كما جاء وصف آخر بأنها مصفوفة ومرفوعة وثيرة المقعد للاتكاء في جلسة مريحة يتسامرون في مجلس شراب يطوف عليهم ولدان مخلّدون أي دائمون على

خدمتهم وهم باقون على نضارة شبابهم يسقونهم خمر الجنة بأكواب وأباريق وكأس من معين، أي من أنهار الجنة الجارية كما وصفها الله في سورة "محمد" ﷺ ليس لها انقطاع ولا نفاد، وخمر الجنة لذة للشاربين فهم لا يشكون من شربها صداعا ولا تذهب عقولهم بالسكر كما تفعل خمر الدنيا، ذلك في جانب لذة الشرب.

كما يطوف عليهم الولدان بأنواع الفاكهة التي يتخيّرون منها ما يشاؤون. وعطف الله على الفاكهة لحم الطير، وهو أرفع اللحوم لذة وأدعاها إلى الاشتهاء، ويلاحظ تقديم الفاكهة على لحم الطير وربما لفائدة صحية لا نشعر بها نحن؛ ولأن حرقة الجوع لا تكسر إلا بالطعام يتناوله الإنسان بشهية.

ولما كانت إفرازات الطعام والشراب تثير شهوة الجنس وفي إشباعها أعظم لذة على الإطلاق لم يغفل النصّ ذكرها في صورة تثير الغلمة وتبعث على الشوق فقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ، جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، والحور العين من نساء الجنة تقدم وصفهن وتشبيههن بالياقوت والمرجان في سورة الرحمن، وجاء التشبيه هنا باللؤلؤ المكنون في الصفاء والنفاسة واللمعان، وكونهن مصونات لم يتعرضن لمسّ ولا خدش، وهذا النّعيم كلّه للسابقين المقربين هو جزاء من الله ذو الفضل العظيم على ما قدموه من أنواع الطاعات والقربات، اعتقادا وقولا وعملا، والتركيز على العمل في استحقاق الجزاء هو لنفي الاغترار بالأماني الكاذبة التي جعلت الكثير من المؤمنين عاجزين عن العمل ويتمنون على الله الأماني، ومن تمام النعيم وكماله في الجنة أن يتمتعوا بطهارة النفس وزكاء الروح فلا يسمعون لغوا ولا تأثيما ينغص عليهم هدوءهم وراحتهم النفسية، فليس إلا السلام يرفّ عليهم ويشيع في نفوسهم الطمأنينة والسكينة تحييهم به ملائكة الرحمة ويتبادلونه بينهم في محبة ووفاء.

وما نزال مع نعيم الجنة وقد ثنّى الله بأحوال أصحاب اليمين من الأصناف الثلاثة في الجزاء الأخرويّ فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ، وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ، وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ، إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا، لأَصْحَابِ الْيَمِينِ، ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾: معطوف على "السابقين"، وعبّر الله عنهم في ما سبق بأصحاب الميمنة، أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وهم من الناجين من النار ولكنهم أقل درجة في نعيم الجنة من السابقين المقرّبين، وللتشويق إلى معرفة أحوالهم في الجنة جاء الاستفهام التعجيبي: ﴿مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾، كيف حالهم، وما هو مناهم؟، فيأتي الجواب بوصف أشياء يعرفها الناس من متاع الحياة الدنيا وزينتها إذ هي تشترك معها في الاسم فقط، أما النوعية فلا يقاس نعيم الدنيا بنعيم الجنة الذي يختصره رب العالمين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الاَنفُسُ وَتَلَذُّ الاَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف:٧١). ويقول في أنواع ثمارها: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥).

وهنا يفصّل الله بعض ما أنعم عليهم بقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ، وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾، والتقدير: هم في جنات من سدر مخضود وطلح منضود، والسّدر - بكسر السين- شجرة صحراوية ذات منافع جمّة يعرفها العرب وهي تنبت في مجاري الأودية وتنتج ما يسمّى بحبوب النبق لينة ذات حلاوة، وتستعمل أوراقها غسولا للتنظيف، وقد عرف عسل السّدر بأنه ذو قيمة عالية وله خصائص علاجية كبرى. ﴿مَّخْضُودٍ﴾: أي منزوع الشوك فهو مكتمل

الفوائد وليس فيه أذى، وأما الطلح المنضود: الطلح قيل: هو من عظام الأشجار له نوّار طيّب الرائحة وظله بارد رطب، وقيل: هو الموز، ولعل الوصف: ﴿مَنضُودٍ﴾ يرجح ذلك لما نعهده في عراجين الموز من التصنيف العجيب. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾: أي هو ظل لا يتقلّص كظل الدنيا، يقول تعالى في وصف الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرّعد:٣٥). وقد مدح الله أهل الجنة بأنهم في ظلال وعيون ولذلك أضاف قوله: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، أي ينصبّ متوفرا في منظر بديع كما تنسكب المياه في الشلالات. ثم ذكر بصفة عامة أنواع الفاكهة وصفها بأنها كثيرة وأنها لا تنقطع في وقت من الأوقات ولا تمنع عنهم بسبب من الأسباب كما يحدث لفواكه الدنيا، فهي معدّة لمن أرادها، بينما فاكهة السابقين هم يتخيرون منها ما يريدون، ذلك في جانب التمتع الجمالي بالمناظر الخلابة مع التلذذ بأطايب المطعومات.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾: هم كالمقربين في التمتع بأنس المجالس إذ قال تعالى عطفا على ما سبق: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ، إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا، لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، وذكر الفرش وأنها مرفوعة يقتضي رفعها على الأسرة للجلوس أو للنوم فهي لَيّنة ناعمة، ولما كان الجلوس على الفرش للإيناس أو النوم يستدعي وجود الحور المؤنسات لأزواجهن جاء الوصف الربّاني لهن بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً﴾، يرد الضمير إليهن بالتصوّر الذهنيّ لا الذكر اللفظيّ، والإنشاء هو الخلق الجديد من غير توالد. ثم وصفهن بأوصاف ثلاثة فقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾، جمع بكر، وهي المرأة العذراء التي لم تجرب الزواج من قبل.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾: عرُب: يقال: امرأة عَروب، إذا كانت محببة إلى رجلها والأتراب: جمع: "ترب"، وهن المتماثلات في السنّ، وقوله: ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، كرّر الله ذكرهم للتأكيد وللتنويه بشأنهم فهم في متعة الإيناس

بأزواج الجنة كالسابقين، وقد جمع الشاعر مثل هذه الملذات في قوله:

ثلاثة تنفي عن المرء الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن

ثم قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾، أي جماعة كثيرة من الأمم السابقة وجماعة من أمة سيدنا محمد إلى قيام الساعة، ولم ينوّه الله تعالى بأعمالهم كما فعل بالسابقين لأنهم لم يبلغوا شأوهم في ذلك، ولكنه فضل الله ورحمته أن صاروا من أهل الجنة، والله أعلم.

أنواع عذاب أصحاب الشمال، وبيان سبب ذلك.

أ) - النصّ:

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

ب) - التّحقيق اللّغوي:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾: القول فيه كما تقدم في أصحاب اليمين وأن الاستفهام فيه للتعجيب. ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ، لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: السموم الريح الحارة، والوصف مأخوذ من السمّ. والحميم: الماء الحارّ، واليحموم: الدخان الشديد السواد. و﴿مِنْ﴾: بيانية. ﴿لَّا

بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي لا هو بيارد يدفع حرارة الشمس ولا هو كريم نافع يدفع أذى الحرّ، والأول مجرور على النعت والثاني على العطف. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾: الجملة تعليل لما يلقاه أصحاب الشمال من العذاب. إنهم كانوا في الدنيا مترفين أي منعّمين في عيشهم منهمكين في الشهوات. ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾: أي يقيمون على الكفر والشرك، وهو الذنب العظيم. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾: الاستفهام لإنكار البعث واستبعاده، وتكرر الاستفهام للتوكيد. ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: افتتح الكلام بـ"قل" للاهتمام به لأنه تبليغ من الله. ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ﴾: ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي يبعثون ويحشرون جميعا في أجل واحد لا أفواجا في أزمان مختلفة كما يموتون. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي الرتبي، والخطاب للمشركين الموجه إليهم ما أمر الرسول أن يقوله. الزقوم: شجرة الجحيم وقد تقدم ذكره. ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾: ﴿شُرْبَ﴾: بضم الشين، منصوب على المصدر و﴿الْهِيمِ﴾: جمع أهيم وهيماء، البعير الذي أصابه داء الهيام فهي تشرب ولا تروى. ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾: التفات من الخطاب للغيبة تحقيرا. مبتدأ وخبر. و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾: هو يوم القيامة. والنزل: ما يُهيأ للضيف، وفيه تهكّم، قال الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجّلنا القِرى أن تشتمونا

ج- أوجه القراءة:

﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾: قرأ الجمهور بإثبات الاستفهام الأول والثاني. ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾، ﴿أَإِنَّا﴾، وقرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بالاستفهام في: ﴿أَئِذَا﴾، والإخبار في: ﴿إِنَّا﴾. ﴿أَوَ آبَاؤُنَا﴾: قرأ الجمهور بفتح الواو على أنها عطفت استفهاما على

استفهام، وقدمت همزة الاستفهام على حرف العطف لصدارة الاستفهام. ﴿شُرْبَ﴾: قرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿شُرْبَ﴾ بضم الشين، اسم مصدر: شرِب، وقرأه الباقون بفتح الشين، وهو المصدر لشرب، ورويت عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ بسند صحّحه الحاكم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان الجزاء التفصيلي للفريقين الفائزين بنعيم الجنة وهما السابقون وأصحاب اليمين عطف الله عليهما بيان حال الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال بما يلقونه من عذاب السعير طعما وشربا ونكالا مع بيان سبب ذلك من انغماسهم في الشهوات وافتتانهم بنعيم الدنيا، فأصرّوا على الشرك وإنكارهم للبعث، وقد لقّن الله لرسوله ما يقوله لهم في الردّ على مزاعمهم بتوكيد وإصرار قال تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ، لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ**﴾.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾: معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾، ويقال في استفهام: ﴿مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ما قيل في سابقه من معنى التعجيب وإثارة التشويق بالإبهام الذي يتضمنه وفي تقابل بديع بين ما ينعم به أصحاب اليمين من خضرة وظل وماء وما يتلذذون به من أنواع الفواكه، وبين ما يعاني به أصحاب الشمال من أنواع النكال نجد ذلك التناسق البليغ، فهواؤهم الذي يستنشقونه سموم من شواظ ساخن وظلهم من يحموم في دخان شديد السواد وشرابهم حميم من مياه حارة تقطّع الأمعاء وأي ظل يريحهم وهو من يحموم لا بارد ولا كريم، إنه الأسلوب التهكّمي الفظيع يصوّر ما يكونون عليه من عذاب بعفونة وحرارة عنصري الحياة من الماء والهواء، فبماذا كان لهم مثل هذا العذاب الفظيع؟.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

إنه التعليل لما يلقاه أصحاب الشمال من العذاب في نار جهنم ذكر الله فيه أسبابا ثلاثة:

أ)- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾: والترف هو التنعّم بما أنعم الله على عبده من أنواع النعم مصحوبا بالكبرياء والبطر المؤدّي إلى الكفران بنعم الله والانغماس في الشهوات بحيث يؤدي إلى الكفر والفسق كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦). وأما الذي بسط الله له في الرزق وكان يتمتع به في حياته شاكرا لنعمة ربّه مؤديا حق الله في ماله فلا يعدّ مترفا.

ب)- ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾: أيّ إذا كان إفرازات الترف في العيش هي الخلود إلى الدنيا وإصرارهم على الذنب العظيم، أي الشرك والكفر بالله، أو الإصرار على اقتراف الكبائر من غير توبة حتى الممات، فهو الترف المذموم الذي يؤدي إلى النار، وفيه إيماء إلى الحنث في اليمين -أيضا- كما قال الله في شأنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل:٣٨).

ج)- ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾: إنه الإنكار التامّ للبعث يكرّرونه في حياتهم بصيغة الاستفهام الإنكاريّ الذي يستبعد وقوعه ويجعله مستحيلا، ويشركون في تلك الاستحالة بعث آبائهم لتقادم الزمان على موتهم بل يتحدون بذلك بمثل قولهم: ﴿فَأْتُوا بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجاثية: ٣٦).

فجاء الرّد الإلهي على ذلك الإنكار مؤكّدا بعدّة مؤكدات مقرونا بوعيد ما ينتظرهم من العذاب يوم حشر الخلائق لموقف الحساب، فقال تعالى: آمرا رسوله بأن يردّ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾.

تلك كانت أقوالهم واعتقاداتهم التي كانوا يصرّون عليها في الدنيا بدون مستند عقليّ أو شرعي يعتمدون عليه إلا ما يكون لهم من التقليد الأعمى لآبائهم، فلقن الله لرسوله أن يقول لهم في معرض الردّ الجازم المؤكد: إنّ الأولين من عهد آدم إلى اليوم الحاضر والآخرين ممن يأتي مستقبلا حتى قيام الساعة سيجمعون بعد البعث في موقف المحشر في يوم معلوم محدود الأجل عند الله كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس:٥٣).

ومع هذا الإخبار المؤكد الصارم تعريض بالوعيد الذي ينتظرهم في ذلك اليوم، مما أمر به الرسول أن يقوله، ليكون التصريح بأنواع العذاب الذي يلقونه أشدّ وقعا في نفوسهم، وهو يتمثل في المأكل والمشرب، فالمأكل من شجرة الزقوم التي شبهها الله برؤوس الشياطين ولا يعلم غصصها ومرارتها إلا الله يملئون بها بطونهم فتنقطع بها أمعاؤهم فلا يجدون لإطفاء غلتهم إلا الماء الحارّ يشربونه على ذلك الطعام الكريه وهم في شربهم كالإبل الهيماء التي لا ترتوي لداء يصيبها، وقد خطبوا بوصف الضالين المكذبين، وذلك زيادة في التحذير والإنذار لعدم تدبّرهم في دلائل البعث مما أدّى بهم إلى التكذيب.

ثم وجّه الله الخطاب إلى السامعين للاعتبار فقال: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾، الإشارة إلى العذاب المذكور، وعبّر الله بالنـــزل وهو ما يقدم للضيف من قرى تكّما وتحقيرا لشأنهم. و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾: هو يوم الحساب

وفصل القضاء، واقتصار بيان نوع العذاب للمكذبين الضالين على المأكل والمشرب يتّسق مع بيان جزاء السابقين وأصحاب اليمين في ما سبق، والله أعلم.

أدلّة الألوهية، وإثبات القدرة على البعث.

أ)- النصّ:

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿فَلَوْلاَ﴾: للتحضيض على التصديق بالخلق الثاني للبعث، والخطاب لكل منكر له. ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾: تفريع على: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، والرؤية علمية. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾: في موضع نصب مفعول ثان. والاستفهام للتقرير. ﴿مَا تُمْنُونَ﴾: من أمنى، أي قذف المنيّ في رحم المرأة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ

﴿تَعْلَمُونَ﴾: السبق في القرآن يدلّ على السبق في الزمان أو في المكان أو في الصفات المعنوية أو للدلالة على القوّة والغلبة والقدرة، والمعنى الأخير هو المراد هنا أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين أن نبدل أمثالكم، أي نبدلّ بكم أمثالكم يكونون بدلا منكم، أي نذهبكم مرة واحدة ونأتي بأشباهكم، وننشئكم في ما لا تعلمون، أي لا تعلمون كيفية الإنشاء الثاني كما علمتم الإنشاء الأول بالتناسل وهو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ﴾: في موضع نصب حال من ضمير: ﴿قدرنا﴾. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾: ﴿مَا تَحْرُثُونَ﴾: الحرث: شق الأرض لزرع البذور أو الشجر، والزرع هو إنبات ذلك الزرع وهي عملية تتمّ بقدرة الله وحده. ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: ﴿حُطَامًا﴾: الحطام: الشيء إذا تحطم وتكسّر، أي الزرع إذا تحطم بعاصفة أو بالحشرات. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: فعل تفكّه من الأضداد، فيأتي بمعنى سرور وفرح، وبمعنى حزن وندم، وهو المراد هنا، ويؤيّده قوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾: بمعنى خاسرون، يقال غرم في تجارته بمعنى: خسر. ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾: ﴿الْمُزْنِ﴾: اسم جمع مزنة، أي السحابة. ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾: الأجاج: مرّا مالحا، ويلاحظ عدم مجيء "اللام" في جواب: ﴿لَوْ﴾، هنا عكس جوابها في الآية السابقة لجواز ذلك مع الفعل الماضي. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾: مضارع أورى النار بمعنى: توقدونها. ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾: أي هي أعواد من شجر خاصّ كانوا يوقدون بها النار، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿الذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ (يس:٨٠). وقد تقدم بيان ذلك في سورة يس. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: أي في النار فوائد للناس وهي تذكرهم بنار الآخرة. والمُقوي: قيل: هو المسافر النازل في قفر من الأرض، وقيل: هو الجائع، يقال: أقوت بطنه، إذا خلت من الطعام. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: أي شكر الله على النعم المذكورة، نزّه

وقدّس اسم ربّك، أي سبحه بأي اسم من أسمائه الحسنى، فهو تسبيح لذاته العلية، والله أعلم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَدَّرْنَا﴾: قرأه الجمهور بتشديد الدال، من فعل مصدر التقدير. وقرأه ابن كثير بالتخفيف من مصدر: قدر، وهما بمعنى واحد. ﴿النَّشْأَةَ﴾: قرأ الجمهور بسكون الشين تليها همزة مفتوحة مصدر: نشأ، على وزن المرّة، وهي للجنس. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بفتح الشين بعدها ألف تليها همزة النشأة مصدر على وزن: فعَالة، على غير قياس. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾: قرأ الجمهور بهمزة واحدة، وهي همزة: "إن"، وقرأه أبو بكر عن عاصم: ﴿أَإِنَّا﴾ بهمزتين، همزة استفهام وهمزة: "إن".

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحوال الأصناف الثلاثة في الجزاء الأخرويّ سعادة ونعيما متفاوتا ما بين المقربين السابقين وأصحاب اليمين، وشقاء وجحيما لأصحاب الشمال، أعقب الله ذلك بالرّدّ على المكذبين الضالين الناكرين للبعث والحساب والجزاء فبيّن أن البعث حق، وأقام أدلة متنوّعة من الظّواهر الكونية ومن تجارب النّاس في حياتهم فقال في الدّليل الأول: **﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ، أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ، نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾**.

الخطاب موجّه لكلّ السّامعين لآيات التنزيل سيما لأولئك المنكرين للبعث ممن تهدّدهم الله بعذاب الجحيم، وقد بنى الله وسيلة إقناعهم على ما لا

يستطيعون إنكاره في واقعهم المعيش من أمر الخلق والموت، إذ يعترفون بالخالقية لله وحده، وهم لا يجادلون في الموت، إذ لا يقدرون منعها عن أنفسهم، فالله يذكرهم بما يعترفون به ولكنهم غفلوا عنه، فقال: إذا صدقتم بأنّ الله هو الذي خلقكم أوّل مرّة فلماذا تصفونه بالعجز من أن يعيد خلقكم مرة ثانية؟.

ثم فرّع على ذلك التذكير حضّهم على التّصديق: ﴿فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾، كلّ ذلك بأسلوب فيه تلطّف ورفق والله يأخذ بأيديهم إلى تدبّر ظاهرة ذلك الخلق العجيب كيف تتمّ وكيف تندرج وليس لكم من دور فيها إلا بوضع الحيوان المنويّ في رحم المرأة وتعمل به القدرة الإلهية عملها في تحريك أطوار الجنين حتى يخرج بشرا سويا، فمن غير الله قدّر ذلك وأتمّه خلقا من بعد خلق، وجيء بالاستفهام التوبيخي التقريري لرؤية تلك الظاهرة: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾، وهل يدّعون أنهم الخالقون لتلك المادة المنوية العجيبة؟. كلا، فإذا أقرّوا بذلك فهم ملزمون بإقرار قدرة الله على إعادة الخلق.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: وبصيغة أسلوب العظمة يقدّر الله النهاية للخلق كما قرّر بدايته العجيبة، إن الموت هو نهاية كلّ حيّ، فهو مقدّر في علم الله محدّد في زمانه ومكانه وواقع بأسبابه، ليس لأحد سلطان عليه، بل هو قدر الله لا ينفلت منه أحد: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل:٦١). فلغز الموت لم يجد البشر له حلاً لمعرفة كيف يقع كما لم يجدوا حلا للغز الحياة كيف بدأ في الأرض وكيف حلّ بها، ليس من محرك لحلقات سلسلتها إلا الله تعالى، فلا يسبقه أحد ولا يضغط عليه أي شيء في تقدير ما يريده في ملكوته، وبالتالي فهو يأتي بأجيال ويذهب بأخرى ليخلف بعضها بعضا حتى تتمّ دورة الحياة الدنيا كما حدّدها في علمه الأزلي.

وعندما تأتي النشأة الأخرى فإنها تتمّ وفق ما قدّر الله لها على صفات وأحوال لا تعرفونها، وبذلك تتم النشأة في مرحلتيها الأولى والثانية فتصل القافلة البشرية إلى مقرّها الأبديّ:

خلق الناس للبقاء فضلّت أمة يحسبونهم للنفـــاد
إنما ينقلون من دار غرو ر إلى دار فتنة أو رشـــاد

ولقد أدركتم من خلال ملاحظاتكم الذاتية ومن خلال ما أخبرناكم به مختلف مراحل نشأتكم الأولى فهلا قستم ذلك مدى قدرتنا على النشأة الأخرى كما أخبرناكم لتؤمنوا باليوم الآخر.

وفي الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿**أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾.

لينظر الإنسان إلى هذه الأرض التي يعيش عليها كيف تزخر بأنواع النّباتات والأشجار، وكيف تزدهر بأنواع الزّروع والثّمار، كلّ ذلك يتمّ بين أيدينا وينمو ويؤتي نتائجه طعاما نأكله وترعاه أنعامنا، أو خمائل من أعشاب وزهور نشبع بها حاسّة الجمال في أذواقنا، فما هو دورنا في إنشاء تلك الجنات، إنه دور بسيط لا يتعدّى وضع البذرة في التربة بعد شقها وحرثها، أو وضع النواة في حفرها، وكلاهما من صنع الله، ثم تأخذ البذرة أو النواة طريقها في مراحل تكوينها ونموّها برعاية يد القدرة الإلهية حتى نهاية رحلتها لتخرج حبًا ونباتا وجناتٍ ألفافا، فأيّ دور للفلاح يكون إذا أخطأت الحبة أو النواة طريقها فلم يخرج منها إلا الأعواد الفارغة فأصبحت هشيما تذروه الرياح، أو تسلط عليها الجراد والحشرات فخلفتها حطاما متكسّرا، وإذا وقع ذلك للناس فإنهم لا يكفون عن العجب والندم على الخسارة التي تلحقهم، فإن القدرة

الإلهية وحدها كما قدّرت الخلق للعباد والكائنات الأخرى كفلت لهم الأرزاق لبقائهم رحمة منه تعالى وفضلا.

وفي الدّليل الثّالث: يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

الماء هو العنصر الأساسّي في حياتنا على وجه الأرض، وقد حفل القرآن بلفت النظر إلى ظاهرة إنزال الماء من السحاب، وإلى كونه طهورا مباركا عذبا زلالا، وقد تكرر ذكره ثلاثا وستين مرّة، وليس لنا من دور في إيجاده ووفرته إلاّ بأن نستسيغ شرابه واستعماله في مختلف مرافقنا ومصالحنا، ويبقى السؤال عن معنى الاستفهام التوبيخي التعزيري عن إنزاله من السحب دون شيء آخر مما يتصل بخزنه أو وفرته على وجه الأرض؟، ثم كونه عذبا زلالا، لا مالحا أجاجا.

فاختيار كلمة: ﴿الْمُزْنِ﴾ جمع مزنة، وهي السحب المشبعة بقطرات الماء أو المضيئة المصاحبة بالبرق وكلاهما من النوع الممطر، وهناك نوع من السحب غير ممطر، ومهما بلغت العلوم المكتسبة من الدقة والتحليل فإنها عاجزة إلى يومنا هذا أن تتحكم في إنزال المطر في الأمكنة التي تريد أو بالكميات التي تقدّرها، بل هي قدرة الله وحده تتصرف في ذلك، وليس لحسابات الأحوال الجوية إلا بعض المعطيات التي تتوقع ما يحدث ويبقى لعلم الله وحده الوقوع اليقيني.

وفي الدّليل الرّابع: يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

من أعظم الاكتشافات الحضارية للإنسان هي تمكنّه من إيقاد النّار،

فتدرجّت بذلك حضارة الإنسان إلى صهر المعادن وفنون الطبخ وما إلى ذلك من تفنن وإبداع في مجال الصّناعات مما أصبح اليوم شيئا مألوفا عاديا، غير أنّ الله تعالى يلفت أنظارنا إلى آيات قدرته في إنشاء وقود تلك النّار بدءا بمكوناته البدائية الأولى المتمثّلة في أعواد الشجر التي توقد بها النار أوّلا، وفي الأحشاب والأعواد اليابسة التي تكون وقود البهائم بعد ذلك ما كان من الفحم الحجري ومن النفط ومكوّناته مما اهتدت إليه الحضارة المعاصرة.

ففي إيقاد النار عرف العرب من تجاربهم البدائية كيف يقدحون النار بحك فرع من شجر المرخ بفرع من شجر العفار، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿الذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس:٨٠). فأعجب للقدرة الإلهية كيف يفعّل الأضداد ليخرج منها شيئا آخر يخالفها، فمن الخضرة والماء تنقدح النار لتحرق وتهلك، وقد جعل الله لنا من ذلك تذكيرا بالنار الآخرة التي هي حقّ لا ريب فيه والتي يقول عنها رسول الله: «**ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم. قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟، قال: فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلّهنّ مثل حرّها**».[1]

بينما هي متاع للمسافرين لتدفئتهم وطهو طعامهم، والمقوون هم النازلون في الأرض القراء، أي القفر.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: فرّع الله على آيات عظمته وقدرته الأمر لرسوله ومن خلاله للمؤمنين التسبيح، أي التنزيه للرب العظيم، والإضافة

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٣٦) بدء الخلق، باب (١٠) صفة النار وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٩٢: ٣/١١٩١.

تشريفية، كما أن اختيار صفة "الرّب" يتناسب مع ذكر النّعم التي حبانا بها حتى يستيقن المؤمنون بعظمة هذا الرّب الجليل ويخلصون العبادة له حين يبقى المنكرون لعظمة قدرته على البعث والحشر على تعنتهم وعنادهم، والتسبيح الكامل لا يتمّ إلاّ بالاعتقاد والتلفظ مثل أن تقول: سبحان الله العظيم، لأن إطلاق الاسم للشيء هو ذكر له، والله أعلم.

التنويه بشأن القرآن وإثبات صدقه، وتقريع المشركين على تكذيبهم واعتقادهم.

أ)- النصّ:

فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: ﴿فَلا﴾: تفريع توجه الخطاب فيه إلى المكذبين بالبعث بعد أن ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ﴾. ﴿لاَ

﴿أُقْسِمُ﴾: قيل: "لا" زائدة، وقيل: ألفها هو الزائد، فتكون اللام للابتداء، وقيل: هي نافية لمحذوف تقديره: لا يصحّ ما يقولون من أنه ساحر ومجنون، أو هي ناهية أي: لا تقولوا ذلك. ﴿مَوَاقِعِ﴾: جمع "موقع"، أي مواضع سقوطها وغروبها، وقيل: هي بروجها ومنازلها في السماء خلال سيرها. ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾: الضّمير إما للمقسم به، أي مواقع النجوم، أو المقسم عليه "القرآن الكريم". ﴿تَعْلَمُونَ﴾: مفعوله مقدّر، أي تعلمون عظمته، أو هو لازم. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾: أي المصحف مصون محفوظ عن التبديل والتغيير أو هو اللوح المحفوظ. ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾: ﴿لاَ﴾: نافية. ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾: الملائكة والجملة نعت للكتاب، أو هو خبر بمعنى النهي، أي لا يمسّ القرآن إلا الطّاهر من الأحداث. ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: ﴿مُدْهِنُونَ﴾: من المداهنة والمداراة، استعير في الشيء المعنويّ إذا استهين به، والإشارة إلى القرآن والاستفهام للتوبيخ. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: التقدير: وتجعلون شكر رزقكم. ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: في موضع نصب مفعول. ﴿تَجْعَلُونَ﴾: أي تقولون: مطرنا بنوء كذا أو بنجم كذا. ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾: ﴿لَوْلا﴾: للتحضيض، يراد به هنا التعجيز، والضمير في: ﴿بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾: عائد إلى مفهوم من السياق وهي روح المحتضر، والخطاب لمن يحضر حول الميت حين النزع، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: في موضع الحال، وقرب الله هو قرب علم وتصرّف في الأحوال الباطنة للمحتضر. ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: غير مدينين أي غير مجازين على أعمالكم. ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾: أي تردّون الروح إلى الجسد عند الاحتضار، وتكررت: ﴿لَوْلا﴾: للتوكيد. ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: الضّمير عائد إلى المحتضر المحدث عنه، والرَّوْح -بسكون الواو- هو الراحة. ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: كل من: ﴿أَمَّا﴾ و﴿إِن﴾ تفيدان الشّرط الذي يتطلب الجواب. ﴿وَأَمَّا﴾: هي بمعنى: مهما

يكن من شيء، وجوابها هو قوله: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ اَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، وقد فصل بين شرطها وجوابها بشرط آخر هو: إن كان من أصحاب اليمين، محذوف الجواب لأنه أغنى عنه جواب "ما"، والخطاب في: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ قيل: هو لغير معيّن، أي هو لكل من يستمع هذا الخبر. وقيل: هو للنبي ﷺ لأنه يسّر لسعادة المؤمنين. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: تذييل لكل ما اشتملت عليه السورة، إنه الحق اليقين الثابت مؤكد بأربعة مؤكدات: إنّ، لام الابتداء، ضمير الفصل، إضافة شبه المترادفين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِمَوَاقِعِ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الجمع، أي بفتح الواو وبعدها ألف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿بِمَوْقِعِ﴾ بسكون الواو دون ألف بعدها بصيغة المفرد على أنه مصدر ميمي، أي بوقوعها وغروبها، أو هو اسم بجهة غروبها. ﴿فَرَوْحٌ﴾: قرأه الجمهور بفتح الرّاء، وهو الرّاحة، أي هو في راحة ونعيم، وقرأه رويس عن يعقوب بضم الرّاء، ورويت هذه القراءة عن عائشة ﵂ عن النبي عند أبي داود والترمذي والنّسائي، ومعناها أن روح المقرب معها طيب الجنة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إقامة الأدلة القطعية على وحدانية الله وقدرته، ولإثبات البعث والجزاء فرّع الله على ذلك بصيغة القسم المؤكّد التنويه بشأن القرآن الكريم بأنه تنزيل من ربّ العالمين حقا وصدقا. ثم وجه الخطاب إلى من يحضر حول الميّت عند نزعه بأسلوب التعجيز لمنع الروح عن خروجها من الجسد إن كانوا صادقين في اعتقادهم لإنكار البعث والجزاء. وفي ختام السورة يعيد الكلام عن الأصناف الثلاثة وبيان أحوالهم كما بدأت به السورة مؤكّدا بأن ما جاء في السّورة من الأخبار الغيبية هو الحق الثابت الذى لا ريب فيه آمرا رسوله

بتنزيهه تعالى عن صفات النقص تسبيحا بحمده وتعظيما بجلاله.

قال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، مواقع النّجوم هي مساقطها أي مغاربها، وفسّره الإمام الحسن البصريّ بيوم القيامة، وقد جاء القسم بذلك صريحا في قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة:١). وقال ابن عباس: يراد به نجوم القرآن، ومواقعها أوقات نزولها، ونجوم القرآن هي جمله وآياته تنزل أقساطا على يد جبريل عليه السلام ويدلّ على هذا المعنى ذكر القرآن بعده، والفاء لتفريع القسم على ما سبق.

وجاءت صيغة القسم على هذا النّحو: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ ووردت نظائره كثيرا في القرآن: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (الإنشقاق:١٦)...الخ. وقد تعددت تخريجات اللغويين لتلك الصيغ، لخّص الدكتور وهبة الزحيلي بعضها بقوله: "وجاء القسم على هذا النحو: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ بالنفي مريدا: أُقْسِمُ؛ لأن العرب تزيد "لا" قبل فعل: أُقْسِمُ، كأنه ينفي ما سرى المقسم عليه فيفيد التأكيد، والمراد أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما فضلا عن هذا القسم العظيم. وبعد أن ذكر أمثلة لمثل تلك الأقسام في القرآن قال: ويرى بعض المفسّرين أن "لا" ليست زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها أول المعنى إذا كان مقسما به على منفي كقول عائشة رضي الله عنها: لا والله ما مسّت يد رسول الله يد امرأة قطّ".[1]

قلت: ويعجبني ما نقله الإمام ابن عاشور عن سعيد بن جبير وبعض المفسّرين: أنهم جعلوا "لا" حرفا مستقلا عن فعل: ﴿أُقْسِمُ﴾ واقعا جوابا لكلام مقدّر يدلّ عليه ما بعده من قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾. ردّا على أقوالهم في القرآن أنه شعر وسحر وأساطير الأولين أو قول كاهن، وجعلوا قوله:

١- التفسير المنير: ٢٧/ ٢٧.

﴿أُقْسِمُ﴾ استئنافا".[1]

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: نظرا لعظمة المقسم به، أي مواقع النجوم، فقد أكّد الله عظمته بـ"إن"، واللام، وفصل بين اسم "إن" وخبرها بجملة اعتراضية: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، هكذا بـ"لو" الامتناعية التي تقتضي أن المخاطبين يومئذ لا يعرفون عن مواقع تلك النجوم إلا القليل؛ ومهما تقدمت العلوم الكونية اليوم وعرف العلماء الكثير عن أبعادها ومساراتها فسيبقى هذا القسم الإلهيّ له دلالته العظيمة على قدرة الخالق وعظمته والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُ﴾: الضمير لم يعد إلى مذكور في الكلام لأنه معلوم مستحضر في الذهن. ﴿لَقُرْءَانٌ﴾: أي كلام مقروء وهو محلّ تلاوة وتدبّر، ووصفه بالكرم لبلوغه غاية الشّرف والقدر بإعجازه وبلاغته وبقداسة مصدره.

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾: أي مصون محفوظ في اللّوح المحفوظ وهو في ألفاظه ومعانيه موافق لما أراد الله تبليغه للناس وكلّف الرّسول بذلك.

﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾: أي الملائكة الأطهار طهارة نفسية وسلوكية وهم الكرام البررة كما وصفهم الله في سورة عبس، ومعنى "المسّ" اللّمس باليد، وهذا نفى ادّعاء المشركين بأنه تنزلت به الشّياطين، ويؤيّده قوله بعد ذلك: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والتنزيل: هو للدلالة على علوّ المقام ورفعة الشّأن للمنزّل الموصوف بالعظمة والرّبوبية، وذلك لإثبات حقية القرآن وصدق رسول الله في تبليغه، ويبقى الخلاف كبيرا بين الفقهاء في إسقاط نفي المسّ عن غير المتطهر في دنيا النّاس أو قراءته، ويطلب تفصيل ذلك في مراجعه

١- التحرير والتنوير: ٢٧/٣٣٠.

من كتب الفقه والحديث.

ويلخّص القطب ذلك بقوله: "وقيل: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الشّرك فيمسّه الموحّد الجنب والحائض والنفساء ويقرأونه وهو رواية عن ابن عباس. وذلك قول عن الحائض والنفساء".[1]

قلت: ويقول الدكتور الزحيلي: "والمناسبة بين المقسم به وهو النجوم، وبين المقسم عليه وهو القرآن، لأن النّجوم تضيء الظّلمات، وآيات القرآن تنير الطّريق، وتبدّد ظلمات الجهل والضّلال، والأولى ظلمة حسية والثانية ظلمات معنوية".[2]

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: الخطاب للمتهاونين بشأن القرآن لأن الإشارة إليه: **﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾**، والاستفهام للتوبيخ، والمدهن هو الذي يماري ويداهن، أي لا تكونون إلا مداهنين لبعضكم بعض بعد أن قامت الحجة على صدق القرآن وحصل لكم العلم على ذلك. وتتخذون التكذيب بقدرة الله على إعادة خلقكم للبعث شكر الله على رزقه إياكم بمختلف النعم فتضعون التكذيب موضع الشكر وبعض المفسّرين جعلوا المعنى على هذا النحو. تجعلون رزقكم أنكم تكذبون الرسول، فيكون التقدير: وتجعلون رزقكم بأنكم تكذبون.

ثم قال تعالى: **﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ، فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

وإذ كان الحديث من أول السورة عن أهوال يوم القيامة وما يكون من

١- تيسير التفسير: ١٤/٣٠٥.

٢- التفسير المنير: ٢٧/٢٧٩.

تصنيف الخلائق يوم الدين ثم ما كان من سوق الأدلة على قدرة الله وربوبيته في كونه لإثبات قدرته على البعث يأتي ختام السورة بلون من التحدّي لمنكري البعث وقد قدّر الله الموت لكل حيّ، وحدّد أجله وقدر أسبابه، فهل يستطيع البشر مهما ساند بعضهم بعضا ومهما بلغوا من العلم أن يردّوا عن أحدهم الموت حين يتحلقون حول الميّت وهو في حالة النزع والحشرجة وقد بلغت روحه الحلقوم لتخرج إلى باريها؟.

فما أروع وما أخوف تلك الصورة القرآنية التي ترسم ظلال الموت، والميت الممدود والعزيز لدى الحاضرين حوله تخمد أنفاسه وتسكن حركته ويبرد جسمه وتشخص عيناه فلا يملك الحاضرون إلا الحزن والبكاء عليه. هل يستطيعون الإبقاء على تلك الرّوح حتى لا تفارق جسدها؟. كلاّ، وقد انتهت قدرة البشر وظهر عجزهم أمام قدرة الله، فهناك يتجلّى الله بعلمه وقدرته فلا شبهة ولا جدال، ولا ادعاء ولا تكذيب، ولا رجوع إلى الدنيا، وقد انكشف الغطاء فبيّن الله مصير كلّ روح، وهي تستقبل الحياة الباقية حيث سينقسم الناس زمرا حسب ما قدموه من معتقدات وأعمال.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ، وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ، فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ، وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾: الضمير للمحتضر المتوفّى والمقربون هم الصف الأول من الفائزين المحسنين ممن بلغوا أعلى منازل القربى عند الله بما قدموه من مبرات وقربات.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾: جواب: ﴿إن﴾ وهي وشرطها جواب: ﴿أَمَّا﴾. والرّوح -بسكون الواو- فسّر بالراحة والطمأنينة، وقيل: هو الرحمة

على الاستعارة.

والريحان: فسّره ابن عباس بالرزق، وقيل: هو شجر لورقه وقضبانه رائحة طيّبة يتخذه الملوك للرائحة الطّيبة في مجالس الشراب. أي تخرج روح المقربين طيّبة مطمئنة وهي ترى مقعدها من الجنة.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ هم الصنف الثاني من الناجين تستقبلهم الملائكة بالتّحية وتقول: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، ليطمئن إلى سلامتهم، وليبشر أنه منهم.

وقيل: الخطاب للنبي ﷺ لأنه يسرّ بما يناله المؤمنون من أمته. وقيل: الخطاب لغير معّين، أي هو لكل من يسمع هذا الخبر.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: وهم أصحاب الشّمال وصفهم الله بالمكذبين الضّالين لبيان سبب ما نالهم من العذاب ليزيد ذلك في ألم الندم والحسرة عند الموت، فهم يرون مقعدهم من النار ويقدم لهم من ألوان العذاب ما ينتظرهم في الآخرة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: الإشارة إلى جميع ما تقدم في السورة من الحقائق هو الحق الثابت المتيقن، والإضافة حق اليقين من إضافة الصفة للموصوف للبيان، وقد أكّدت الجملة بأربعة مؤكدات: إنَّ، واللام الابتدائية، وضمير الفصل، والجملة الاسمية.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: تفريع على ما ذكر أنه حق اليقين أمر الله رسوله ومن خلاله لجميع أمته بتنزيه الله عما لا يليق بجلاله وكماله لأن ما ورد في السورة يدل على عظمة الله وبديع صنعه ويبشرهم بمنازل القربى عنده وأنهم من الناجين الفائزين.

وقد أخرج الإمام أبو داود عن عقبة بن عامر قال: «**لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم**».[1]

وبهذه الخاتمة البديعة يتسق آخر السورة بمفتتحها ويكون لها ذلك الفضل العظيم في تكرار تلاوتها، والله أعلم.

تمت

١- رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر، كتاب (٢) الصلاة، باب (١٥١) ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم ٨٦٩: ١/٢٩٢.

سورة الحديد، مدنية، وآياتها ٢٩

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة الحديد للإشارة إلى الآية الخامسة والعشرين التي ذكر الله فيها إنزال الحديد وبيان منافعه للناس واعتماد حضارتهم عليه في السلم والحرب، وهي مدنية في رأي الجمهور، غير أنّ هناك أقوالا تقول بأنّ صدرها مكيّ حتى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ودليل القائلين بذلك ما رواه البزار بأنّ عمر بن الخطاب دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفتها فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فأسلم.[1]

ولما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين، وعبد الله بن مسعود من أوّل الناس إسلاما.[2]

قلت: ووجدت بعض المفسّرين يعتبرون ما نزل بعد صدر السورة أي بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، يعتبرون بعضه نزل بالمدينة وبعضه نزل بمكة -والله أعلم- ونظرا لذلك الاختلاف فإنه يعسر ترتيب نزولها بالتحديد، إلا إنها هي السابعة والخمسون في ترتيب سور المصحف الشريف وورد في فضلها ما أخرجه الترمذي عن عرباض بن سارية: «**أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد وقال: إن فيهن آية أفضل من ألف آية، وهي قوله**

١- رواه البزار في مسنده من حديث أسامة بن زيد عن أبيه عن جده، رقم ٢٧٩: ٦٧/١.

٢- رواه مسلم، كتاب (٥٤) التفسير، باب (١) في قوله تعالى ﴿ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾، رقم ٣٠٢٧: ٢٣١٩/٤.

تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾».[1]

ب)- المحور الأساسيّ للسورة والمحاور الفرعية:

يقول الدكتور وهبة الزحيلي عن المحور الأساسي للسورة: "موضوع هذه السّورة كغالب السّور المدنية بيان الأحكام الشّرعية المتعلقة بالعقيدة والإيمان، والجهاد والإنفاق في سبيل الله والترفع عن مفاتن الدّنيا، وبيان أصول الحكم الإسلامي، وكشف مخازي المنافقين، وشرائع الأنبياء في الحياة الخاصة والعامة".[2]

ج)- المحاور الفرعية:

- التذكير بجلال الله وعظمته وسعة علمه، وعموم تصرفه مما يقتضي الإيمان به وبما جاء به رسوله.

- التنويه بشأن القرآن والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه.

- التحريض على الإنفاق في سبيل الله لأن المال ماله والناس مستخلفون فيه، وليس للناس منه إلا ما يدخرونه من ثواب إنفاقه ومفارقته بما ينال المنافقين والمنافقات من خزي وعار.

- بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة مع التحذير من الأولى والترغيب في الثانية مع العمل من أجلها.

- التحريض على الصبر عند المصائب؛ لأنها قدر الله الذي لا يجريه إلا بحكمة وعدل.

- بيان الغاية من إرسال الرّسل وإنزال الكتب، وهي قيام الناس بالعدل.

١- رواه الترمذي، كتاب (٤٦) فضائل القرآن، باب (٢١)، رقم ٢٩٢١: ٥/١٨١.

٢- التفسير المنير: ٢٧/٢٨٨.

- بيان حكمته في إنزال الحديد للأخذ بأسباب القوة في نصره دين الله ولتسخيره في منافع الناس الحضارية والعمرانية.

- وفي ختام السورة أهاب الله بالمؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ووعدهم بحسن العاقبة ومغفرة ذنوبهم، وفي ذلك تعريض بالمنافقين بعد أن أصبحت ظاهرتهم مستفحلة بالمدينة.

الكون كلّه يسبّح لله لأنه الخالق المتصرّف العليم.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: بمعنى نزّهه من كلّ نقص في خضوع وخشوع، ﴿مَا﴾: هي لغير العقلاء تغليبا للأكثرية فتتناول العقلاء وغيرهم من المخلوقات، والمسبّحات هي الحديد والحشر والصّف، ذكر فيها التسبيح بصيغة الماضي، وفي الجمعة والتغابن ذكر

بصيغة المضارع، وجاء بصيغة الأمر: ﴿سَبِّحِ﴾ في الواقعة وفي أول سورة الأعلى وجاء بصيغة المصدر ﴿سبحان﴾ في أول سورة الإسراء، وكلها تدل على الدوام والاستمرار. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: اللام للملك. "ما" تغليبا لغير العقلاء -أيضا- إيجادا وإبقاء وتصرفا. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: بينها طباق، والجملة بيان لسبب التسبيح أي له فيها مطلق التصرف ومن ذلك الإحياء والإماتة فيحيي ويميت، بدل اشتمال من مضمون الجملة السابقة، ثم عمّم القدرة بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: بين هذه الأوصاف للذات العلية طباق، والأولية والآخرية باعتبار الموجودات فهو الأول السابق الأزلي وهو مستمرّ من قبل أي محدث ومن بعد فنائه بلا نهاية، والظاهر بدلائل صنعته وقدرته والباطن بذاته العلية لا تحيط بكنهه العقول والحواس. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ويلج في الأرض أي يدخل ويطمر فيها من كنوز ومعادن ومياه وأموات...إلخ، وما يخرج منها من أنواع النبات والمعادن، وما ينزل من السّماء من الأشياء المادية من أمطار ونيازك أو معنوية كالوحي والملائكة، وهو معكم أين ما كنتم في معيته بالعلم والتصرف في جميع أحوالنا. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي يدخل أحدها في الآخر بالزيادة والنقصان تبعا للفصول، و﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي القلوب يعلم أسرارها ومكنوناتها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر قرأوا بضمّ التّاء وفتح الجيم، على معنى: يرجعها مرجع، وهو الله، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف: ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح

التاء وكسر الجيم، أي ترجع من تلقاء أنفسها لأنها مسخرة لذلك.

د)- البيان والتفسير:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: جاءت الافتتاحية في هذه السورة وفي سورتي الحشر والصّفّ بصيغة الماضي، كما جاءت بصيغة المضارع في سورتي الجمعة والتغابن للدلالة على أنه تعالى أهل بأن يسبّح له خلقه في جميع الأوقات على وجه الدوام والاستمرار، وفعل "سبّح" متعدّ بنفسه فزيدت اللام للتأكيد ومعناه التنزيه عن كلّ نقص وعن كلّ ما لا يليق به، فهو المتفرّد بصفات الكمال المطلق، وكلمة: ﴿مَا﴾ موصولة واقعة على العقلاء وغيرهم تغليبا، فيكون التسبيح بلسان المقال من العقلاء اعتقادا وقولا وعملا، ويكون من غيرهم بلسان الحال خضوعا وخشوعا وإقرارا بربوبية الصانع كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤). ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرّعد:١٥).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أتبع الله اسم جلالته في مفتتح السورة بعشر صفات ربانية هي جامعة لصفات الكمال وهي التي قال عنها رسول الله: «**فيهن آية هي أفضل من ألف آية**»[1]، وجاء عن محمد بن الحنفية، قال البراء بن عازب لعلي بن أبي طالب: "أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل مما خصّك به رسول الله ﷺ مما خصه به جبريل، مما بعث به الرحمن -جلّ شأنه- فقال: يا براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم، فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر. ثم قل: يا من هو هكذا وليس شيء هكذا غيره، أسألك

١- تقدم تخريجه: ص ٣٨٠.

أن تفعل لي كذا وكذا، فو الله يا براء لو دعوت عليّ لخسف بي".[1]

قلت: لقد درجت على الرقيا لبعض المصابين بالآم حادّة فأقرأ عليهم سورة الفاتحة وآية الكرسيّ وأواخر سورة الحشر، فيحسّون بالتعافي من تلك الأوجاع -بإذن الله- والصفات العشر هنا تأتي متتابعة في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿الْعَزِيزُ﴾: من العزة وهي القوة والغلبة والقهر فهو القاهر الغالب على أمره فلا شريك له في حكمه وأمره، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها المناسبة لا يخطئ في تقديره ولا يزلّ في علمه.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجملة على الاستئناف الابتدائي تعليلا لأهليته تعالى بذلك التّسبيح إذ هو مالك لكل ما في السماوات والأرض له التّصرّف المطلق في أحوالهما غنيّ عن الأعوان والمساعدين كما يفعل ملوك الأرض، فهو الملك الحقيقي الذي يضفي على الخالق صفة المِلك بحق، وقد خصّص الأحياء والإماتة بالذّكر من أحوال تصرّفه في السماوات والأرض لأنهما الصفتان اللّتان تدلان على كمال القدرة مما لا يستطيع المشركون إدعاءهما لآلهتهم الباطلة كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا﴾ (الفرقان:٣).

وبعدَ ذلك التخصيص يأتي التعميم بكمال قدرته على كل شيء: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: ﴿هُوَ الأَوَّلُ

١- نقلا عن التيسير: ٣١٦/١٤.

وَالآخِرُ﴾: فالأولية عندنا -نحن البشر- محكومة بالزمان والمكان، والله هو خالقهما فهو سبحانه يتعالى عن الزمان والمكان، فهو الأوّل الأزليّ القديم بلا بداية إذ لم يسبقه شيء و لم يكن معه شيء فملكه دائم لا يحدّ بزمان، مستمرّ من قبل وجود أي محدث ومن بعد فنائه إذ هو الباقي بعد فناء الوجود كله كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨).

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: للظهور معنيان، يكون للانكشاف، وهو ضدّ الخفاء، ويأتي بمعنى الغلبة والنصر على العدوّ، والتقابل بين المتضادين يرجّح المعنى الأول، فيقتضي أن يكون ظهوره تعالى لا بذاته -حاشاه- ولكن بظهور أدلة صفاته في ما خلق. وذلك بطريق التدبّر والنظر والاستدلال، إذ هو باطن خفيّ في ذاته وكنهه محجوب عن إدراك الحواس كما قال: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: جملة تفيد كمال علمه بكل شيء ما ظهر وما بطن لا يحول دون ذلك أي حائل.

﴿هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيـَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَ﴾: يفيد القصر في الإنفراد بالخالقية والإلهية مما يؤهّله لتلك الملكية الحقيقية لكلّ ما في الوجود وعلى تلك القدرة العظيمة في الإبداع، وقد تقدم تفسير كون إتمام ذلك في ستة أيام ومعنى الاستواء على العرش فليراجع.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: جملة تفصّل إجمال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقد تقدم نظيرها في سورة سبأ، وأولى منها في سعة علم الله قوله في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ

يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَّرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٩).

وللأرض خزائن ملأى بالكنوز والمعادن والمياه الجوفية وهي مدافن لرفاتنا فهي في حركة دؤوبة بما تضمنه في أحشائها وبما يخرج منها، والله خالقها يقدّر كلّ ذلك ويحصيه كما يحدث ذلك للسماء من إنزال وعروج مما نبصره وما لا نبصره، ونحن البشر محصورون في أقطارهما ونشاطنا مضبوط في إطارهما، والله تعالى معنا بعلمه وتدبيره لا نتفلت من قبضته حيثما كنّا، وهو يحصي أعمالنا خيرها وشرّها ليجازينا عليها.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾: تكررت الجملة للتأكيد على ملكيته تعالى في الدنيا والآخرة كما يدلّ عليه قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، فإذا كان الإنسان يشعر بشيء من الحرية والاختيار في تصرفاته الدنيوية فليس هو بمعزل عن مراقبته له، وليست الدنيا بنهاية المطاف فقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، تقرير وإثبات للحياة الأخرى التي ينكرها المشركون.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: وقال في آية أخرى: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (النور:٤٤). وهي ظاهرة كونية قلّما ننتبه لها بحكم الإلف والعادة، قدّرها الله بضوابط محددة للطول والقصر على اختلاف الفصول لما في ذلك من المنافع للمخلوقات. ولما كان اللّيل حجابا سائرا يخيّم على الكون، وهو مظنة لإخفاء كثير من الشرور كما يقول المثل: الليل أخفى للويل، جاء هذا التذييل المناسب: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ليشعر الخلق بمراقبة الله لتصرفاتهم وأنه تعالى لا تخفى عنه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أي ما تنطوي عليه القلوب من مكنونات السرائر والنوايا، والله أعلم.

التحريض على الإيمان وعلى الإنفاق في سبيل الله.

أ)- النصّ:

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾: ﴿ءَامِنُوا﴾، و﴿أَنفِقُوا﴾: إذا اعتبرنا الآية مكيّة فالخطاب للمشركين وإذا اعتبرناها مدنية فالخطاب للمؤمنين، تحريضا على الدّوام والاستمرار في الإيمان، ويحتمل أن تكون موجهة للمنافقين. ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾: ﴿مِمَّا﴾: "من" للتبعيض. ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾: أي إن المال لله جعل الناس كالخلائف عنه أو يخلفون من كان قبلهم فيه ويتركونه لمن بعدهم. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا

لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: الجملة تفيد التّعليل لسابقتها فرعت عنها. ﴿الذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: الجملة من مبتدأ وخبر خبر ﴿الذِينَ﴾. ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ اَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾: والمعنى: أي شيء لكم إن كنتم تاركين الإيمان. ﴿لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ﴾: جملة فعلية في موضع نصب حال، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: جملة اسمية في موضع نصب حال أيضا، فهما حالان متداخلان في جملة واحدة. ﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾: جملة مستأنفة، وجواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله والاستفهام للتوبيخ والتعجيز. ﴿هُوَ الذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: ﴿هُوَ الذِي يُنَزِّلُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: أي الرسول محمد ﷺ. ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: هي القرآن الكريم، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: أي من الكفر إلى الإيمان، استعارة الظلمات للكفر والضّلال والنور للإيمان والهداية. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾: أي ماذا حصل لكم في عدم إنفاقكم، والخطاب للمؤمنين تحريضا وللمنافقين توبيخا، و﴿سَبِيلِ اللهِ﴾: يتجه هنا إلى معنى الجهاد خاصّة إذا اعتبرنا الآية مدنية لأن الجهاد لم يبدأ إلا بعد الهجرة. ﴿وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾: من إضافة المصدر إلى المفعول، والتقدير: ميراث أهل السماوات والأرض؛ لأن ميراث ذواتهما لا يكون إلا بعد فناء العالم. ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ انفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾: ظاهر معنى الفتح في الآية أنه فتح مكة، وقال البعض: إنه صلح الحديبية. ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾: ﴿كُلاًّ﴾: مفعول أول مقدم لـ﴿وَعَدَ﴾. ﴿الْحُسْنَى﴾: مفعول ثان. و﴿الْحُسْنَى﴾: أي خيرات الجنة. ﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: ﴿مَن﴾: مبتدأ و﴿ذَا﴾: خبر، ﴿الذِي﴾: نعت لـ﴿ذَا﴾، وقيل في إعرابها غير ذلك. ﴿يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا﴾: إما منصوب اسم للمصدر، ويجوز أن يكون مفعولا به، وفيه استعارة تمثيلية بحال المشفق بإخلاص بحال المقرض، والاستفهام للحث والتحريض. ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: الجملة مقول لقول محذوف: يقال لهم. ﴿بُشْرَاكُم﴾: مبتدأ، ﴿جَنَّاتٌ﴾: خبره، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: نعت.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾: قرأ الجمهور بالبناء للفاعل، ونصب: ﴿مِيثَاقَكُم﴾، على أن الضمير عائد إلى اسم الجلالة، وقرأه أبو عمرو: ﴿أُخِذَ﴾ بالبناء للنائب ورفع: ﴿مِيثَاقُكُم﴾. ﴿لَرَءُوفٌ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بواو بعد الهمزة على اللغة المشهورة، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بدون واو بعد الهمزة تخفيفا، ولعلها لغة. ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَكُلاًّ﴾ بالنصب على أنه مفعول أوّل مقدم على فعله، وقرأه ابن عامر: ﴿وَكُلٌّ﴾ بالرّفع على الابتداء، وهما وجهان في الاشتغال متساويان. ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾: قرأ الجمهور بألف بعد الضاد، وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب: ﴿فَيُضَعِّفَهُ﴾ بدون ألف وبتشديد العين، وقرأه الجمهور مرفوعا على اعتباره معطوفا على: ﴿يُقْرِضُ﴾، وقرأه حفص عن عاصم وابن عامر ويعقوب -كل على قراءته- بالنصب على جواب الاستفهام.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تلك الافتتاحية المشحونة بالمؤثرات الوجدانية التي ترهف القلوب إلى التجاوب والتلقي، وقد ارتبطت بضمير الوجود وخضعت للأدلة الناطقة بعظمة الله وقدرته في السماوات والأرض وفي الأنفس، فقد تهيّأ المقام لإبلاغ بعض التكاليف الدّينية وفي طليعتها الأمر بالإيمان بالله ورسوله عن إخلاص ووفاء، إذ قد تبيّن صدق الرّسول في ما أخبرهم به، وأنّه بدعوته وإبلاغ آيات ربّه يخرجهم من الظّلمات إلى النور، ثم حرّضهم على الإنفاق في سبيل الله وبيّن فضل السابقين الأولين إلى الإسلام ممن آمن وأنفق قبل الفتح وأكّد على

الإنفاق بصفة عامّة فقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الأوامر الإلهية في النصّ الكريم وما يعقبها من الاستفهامات التحريضية بل والتوبيخية -أحيانا- أرجّح أنها لا تخصّ المشركين وحدهم ولا المؤمنين والمنافقين، فالكلّ يستطيع أن يسقطها على واقعه ليقيّم وضعيته على ضوئها فيتدارك الخلل الذي يراه في نفسه؛ ذلك لأن الأمة الإسلامية في طور نشوئها ووحي السّماء يتدرج معها خطوة خطوة ويرسم لها طريق رسالتها.

فبعد تركيز دعامتها الأولى بوضع الأسس الصحيحة لعقيدتها مما تكفل به القرآن المكيّ فإنه تعالى يريد أن يركز الدعامة الثانية التي تتناول الجوانب التطبيقية من العمل الصالح الذي يقوم على المنهج الرّباني، فبعد تطهير القلوب بحسن التوجّه إلى الله، وهي المحرّك للجسد بطاقته الرّوحية نجد التّركيز على إنفاق المال في سبيل الله: ﴿ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فالشّح والبخل آفتان تحطّمان عناصر المقاومة في جسم الأمة ومحاربتهما ليس بالأمر اليسير، وقد كان المجتمع الجاهلي ماديّ الطّبع أناني التعامل غارقا في ملذاته وشهواته، فلا جرم أن يأتي هذا الزّخم من الآيات لتحرّض على الإنفاق وتعد بالأجر الكبير للمنفقين. ثم يوحي بلطف ولباقة بأنهم لا ينفقون من عند أنفسهم؛ لأن المال في الحقيقة هو مال الله ضمن ملكه الواسع العريض، فهم في الواقع مستخلفون فيه إلى حين، وهو يورثه جيلا بعد جيل، والله هو المعطي فلا نفاد لخزائنه، ومن ثم يعد الله المنفقين بالأجر الكبير، وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ أي البعض منكم سواء من أنفق منهم في الماضي أو يفعل ذلك في المستقبل.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ، هُوَ الذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ

بَـيِّـنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

إنّه الاستفهام التّوبيخي على ترك الإيمان بالله ورسوله، فأيّ عذر يكون لكم في تركِكم الإيمان بالله ورسوله، وقد قامت عليكم الحجة بأمور ثلاثة:

أ)- ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّـكُمْ﴾: فإن وجود الرسول بين قوم بشخصه الشّريف وبدعوته الصادقة وهو همزة الوصل بينهم وبين الله في ذواتهم وفي تنظيم شؤونهم، إنّ وجود الرّسول بينهم لهو الميزة الكبرى وهو النعمة العظمى التي تجلّ عن التّصوّر، ولا يتملّى عظمتها وميزتها إلا من لم يعشها مثلنا.

ب)- ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّـكُمْ﴾: إنها دعوة علويّة أمر الله بها رسوله، دعوة إلى رحمة الله الواسعة تطهركم وتزكيكم وتضع خطاكم على الطريق السّويّ في كنف الله وحسن مرضاته، فكيف لا يستجيب من يسمع ذلك النّداء العلوّي وهو يتنسم أنوار الحق والهداية في شخص الرّسول بالغدوّ والآصال؛ نعم إنه لا يعجب من تلك الفترة الوضيئة إلا من حرم رؤيتها.

لا يعرف الشّوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقد أخرج البخاري في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: **«أي المؤمنين أعجب لكم؟. قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟. قالوا: فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي يتزل عليهم. قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟. ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها».**[1] فنرجو

١- رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، رقم ٢٩١٦.

أن نكون من هؤلاء إن شاء الله.

جـ)- ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾: الضّمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، والجملة حالية تعكس نداء الفطرة السليمة في ذات الإنسان حين يتجرّد عن العناد والمكابرة ويبتعد عن تحرشات البيئة وضغوطها، فتكون مطواعة إلى التّجاوب مع ضمير الوجود في الخضوع لوحدانية الخالق وقدرته، سيما وقد نفض رسول الله ما غشّى نفوسهم من غبار الشّرك والضّلال، إذ هم مستعدون للإيمان بعدما توفرت أسبابه بقوله تعالى: ﴿هُوَ الذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنه الامتنان الرّباني العظيم الذي يقطع كلّ عذر في التّقصير وعدم الاستجابة لدعوة رسول الله، وهي موصولة بحبل الوحي من السّماء ممثلا في آيات القرآن الواضحة الدّالة على رأفة الله ورحمته بالمؤمنين بإخراجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهداية، ومن الإيمان ودواعيه إلى موجبات الإنفاق في سبيل الله وبيان فضل السبق فيه تمشيا مع مراحل الدّعوة.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وبأسلوب اللّوم والتّوبيخ وجّه الله الخطاب إلى عناصر ذلك المجتمع الذي يتجاور فيه الإيمان المخلص والنفاق المخادع، ومتطلبات الجهاد في سبيل الله تلحّ عليهم وتدعوهم إلى الإنفاق وما يزال الكثير ممن حول رسول الله حتى من أصحابه الأوفياء لم يتخلصوا من خوف الفقر في تدبير شؤونهم الخاصّة.

فجاءت هذه الإيحاءات الرّبانية للتذكير بحقيقة أن الله ملك السّماوات والأرض وأن المال ماله يورثه من يشاء من عباده، فما لهم لا ينفقون في سبيله وما هم إلا مستخلفون فيه؟. وكانت النخبة الممتازة من المهاجرين والأنصار من أمثال أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم قد ضربوا أروع المثل في بذل أموالهم وأنفسهم لنصرة الإسلام يوم أن كان محاصرا ومضيقا عليه من طرف المشركين قبل فتح صلح الحديبية أو فتح مكة، لقد أدركوا أن لا عزة للأمة إلا بالتضحيات الجسام فأرخصوا أموالهم وأنفسهم دفاعا عن عقيدتهم وحماية لدينهم، ولئن كان الإنفاق في حدّ ذاته فضيلة في سلمّ القيم والأخلاق، فإن المسابقة فيه في ذروة ذلك، يتفاضل فيها المنفقون على حسب أموالهم ودوافعهم، فالسّابقون الأولون ممن أنفقوا قبل الفتح وإن كان ما أنفقوه قليلا من ناحية الكمّ بالقياس إلى ما يملكه من جاء من بعدهم بعد الفتح فإنه تعالى يزن الأعمال بميزان الحق والعدل، فبيّن أن العبرة ليست في الكمّ ولكنها في الدّوافع والنّوايا وبمعيار الظّروف والأحوال المختلفة. فالذين أنفقوا وقاتلوا والإسلام ما يزال مطاردا في عقر داره والعدوّ متوعّد منتفش هم أعظم درجة عند الله من أولئك الذين جاؤوا من بعدهم وقد مالت كفة القوى إلى جانب الإسلام وخضدت شوكة الكفر بعد الفتح.

وقوله تعالى عقب تلك المقارنة المنصفة: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿وعد﴾: وعد بالحسنى، أي الكرامة عند الله للفريقين، تفضلا وتلطفا من الله لدفع أي توهّم للخيبة واليأس من فضل الله والله خبير بكل الأحوال من الدوافع والنّوايا ومن ملابسات الجهاد وأحوال المجاهدين، وكل ذلك هو مناط التقييم عند الله وهو لا يضيع أجر المحسنين.

﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾: لمزيد من بيان معنى الحسنى الموعودة بها من الله لأصناف المنفقين تأتي هذه

الجملة الاستفهامية في زيادة التّحريض على الإنفاق، تأتي بأسلوب الاستعارة التّمثيلية بتشبيه المنفق بمن يقرض الله قرضا حسنا والله هو المستلف الوفيّ الغنيّ يعد بالأجر الكريم، إنه لنداء موح مؤثر يتلقاه المؤمن بخجل وهو الفقير إلى ربّه، فلا يتقاعس عن الاستجابة، طيّب النفس منبسط الأسارير؛ لأن السّداد لذلك القرض هو الأجر الكريم المضاعف إلى ما يشاء الله، إنّه جنة الخلد، كما صور ذلك شاعر الثّورة أبلغ تصوير عندما قال:

من يشتري الخلد إن الله بائعه فاستبشروا وأسرعوا فالبيع محدود
والرّبح -يا ناس- مضمون ومدّخر في مصرف الله، لا في البنك مرصود

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: وعلى ذكر الجزاء الأخرويّ يتخلّص السياق إلى رسم مشهد كريم للمؤمنين والمؤمنات فيربطه بـ﴿يَوْمَ﴾، وهو إما منصوب بفعل مقدّر: اذكر، أو هو منصوب على الظّرفية متعلق بجملة: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، يرسم المؤمنين ونحن نراهم يرفلون في موقف المحشر، يشع النّور من ذواتهم فينشر بين أيديهم وبأيمانهم على قدر حجم قرباتهم عند الله كما ثبت ذلك في الحديث الذي رواه قتادة قال: «**ذكر لنا رسول الله ﷺ أن من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضئ نوره موضع قدميه**».[1]

ومع ذلك التّكريم الحسّي المشاهد تكريم آخر روحي يتمثل في كلام قدسيّ يسمعونه أو بواسطة ملائكة الرّحمة، بتقديم البشرى لهم بما ينتظرهم من

١- عزاه السيوطي لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر، أخرجوه عن قتادة عن النبي ﷺ بلاغا، الدر المنثور: ٥٢/٨.

نعيم الجنة الخالد، وأنهم في عداد الفائزين نورا عظيما، إذ هم في هالة من أنوار وفي بحبوحة الجنات التي تجري من تحتها الأنهار. ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير، والله أعلم.

حال المنافقين يوم القيامة، وتحريض المؤمنين على الحذر من التقصير في الخشوع لذكر الله.

أ)- النصّ:

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، أو هو بدل من اليوم الذي قبله.

﴿انظُرُونَا﴾: أي انتظرونا، أي تربّصوا في سيركم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾: وحقيقة الاقتباس أخذ القبس أي الجذوة من الجمر، بمعنى انتفاع أحد بضوء الآخر. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ﴾: القائل هم المؤمنون أو الملائكة تهكما واستهزاء. ﴿ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ﴾: أي إلى الدنيا واطلبوا نورا آخر من هناك. ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾: ﴿ضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾: أي أقيم حاجز بين المؤمنين والمنافقين، "الباء" زائدة و"سور" في موضع نائب الفاعل، ﴿لَّهُ بَابٌ﴾: يدخله المؤمنون، ﴿بَاطِنُهُ﴾: أي ما كان منه في جانب المؤمنين فيه الرّحمة لأنه من الجنة، و﴿ظَاهِرُهُ﴾: ما كان من جهة المنافقين فيه العذاب لأنه يلي جهة النّار. ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى﴾: ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: ألسنا كنا على دينكم نطيع الله مثلكم؟، استفهام تقريري، والمعيّة: ﴿مَعَكُمْ﴾ بمعنى المشاركة في أعمال الإسلام. ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: ذكر الله أربعة أشياء هي سبب خسرانهم هي كلها أصول النّفاق: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: بالنّفاق فاضطربتم. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: أي انتظرتم بالمؤمنين أن تدور عليهم الدّوائر. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾: شككتم في صدق الرّسالة وأمر البعث. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾: أي ما كانوا يمنون به أنفسهم من طول العمر وانكسار الإسلام، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: والتغرير إظهار الضار في صورة النّافع. و﴿الْغَرُورُ﴾: هو الشّيطان وكل غارّ من إغوائه. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الفدية ما يفتدى به من أموال لحفظ النّفس من الهلاك. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾: يقال: أإن، يئين، وأين، يأني، بمعنى حان يحين، يقال: أما آنَ لك أن تفعل كذا، واللاّم للعلة، و﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي المؤمنون الأوفياء، والاستفهام مستعمل في الإنكار. ﴿أَن تَخْشَعَ﴾: في موضع رفع: بـ﴿يَأْنِ﴾. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة في موضع جرّ بالعطف. ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ

قُلُوبُهُمْ﴾: ﴿طَالَ﴾: العهد بينهم وبين أنبيائهم حتى نقضوا مواثيقهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ (المائدة:١٣).

ج)- أوجه القراءة:

﴿انظُرُونَا﴾: قرأ الجمهور بهمزة الوصل وضمّ الظّاء، وقرأه حمزة وحده بهمزة قطع وكسر الظّاء، من: أنظره، إذا أمهله. ﴿لاَ يُؤخَذُ﴾: قرأ الجمهور بياء الغيبة في المذكّر لأن تأنيث: ﴿فِدْيَةٌ﴾ غير حقيقي، وقد فصل بين الفعل وفاعله بالظّرف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بمثناة فوقية جريا على تأنيث الفاعل في اللّفظ، والقراءتان سواء. ﴿وَمَا نَزَلَ﴾: قرأه نافع وحفص عن عاصم بتخفيف الزّاي، وقرأه الباقون بتشديدها، على أن فاعل: ﴿نَزَّلَ﴾ معلوم من المقام، وهو الله تعالى. ﴿وَلاَ يَكُونُوا﴾: قرأه الجمهور بياء الغائب، وقرأه رويس عن يعقوب: ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾ بتاء الخطاب. ﴿وَلاَ﴾: نافية على قراءة الجمهور، والفعل معمول لـ﴿أَن﴾ المصدرية التي ذكرت قبله، والتّقدير: ألم يأن لهم أن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب، وعلى قراءة رويس، فـ"تاء" الخطاب للالتفات، و﴿لاَ﴾ نافية، والفعل منصوب بالعطف كقراءة الجمهور، أو هي: ﴿لاَ﴾ ناهية، والفعل مجزوم، والعطف من عطف الجمل.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن رسم الله صورة وضيئة للمؤمنين يوم القيامة وهم في هالة من نور بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة. قابلها بصورة قاتمة للمنافقين والمنافقات وهم يتخبطون في الظّلمات فيلتمسون من المؤمنين قبسا من نورهم ولكنهم يمنون بالخيبة واليأس، وأن لا نجاة لهم من النّار، ثم أعقب ذلك بتحريض المؤمنين على الإسراع إلى الخشوع، وتجاوب القلوب مع ذكر الله وسماع القرآن، وحذرهم من مماثلة أهل الكتاب ممن قست قلوبهم بعدما طال

الأمد بينهم وبين أنبيائهم فنقضوا مواثيقهم.

ومثّل الله حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في حاجتها إلى مياه الأمطار فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

﴿يَوْمَ﴾: بدل من الذي سبقه، وقد امتاز المؤمنون والمؤمنات في ذلك اليوم، يوم المحشر المهيب، امتازوا بوضاءة أنوارهم مما قدموه من مبرات وما ادّخروه من أزواد لتلك الرّحلة، فمن للمنافقين والمنافقات من قبسات ذلك النّور؟، بل هم في ظلام دامس بحكم ما اختاروه لأنفسهم من كيد ومكر وخداع، وقد اعتادوا في دنياهم الاندماج بالمؤمنين فيطلبون منهم الانتظار إلى جانبهم علمهم يقتبسون من نورهم شيئا. ولكن يقال لهم في سخرية وتهكّم: ﴿ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، إنه نداء الخيبة واليأس إذ لا رجوع إلى الدّنيا، ولا رصيد لهم فيها من عمل مبرور، يكون موردا لطاقة ذلك النّور.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾: وهكذا يفصل بين الفريقين بحاجز الله أعلم بماهيته، والله وصفه بأن له بابا يختلف ما بظاهره عما في باطنه ما بين النّعيم والعذاب، ولعله -والله أعلم- تجسيد لأعمال الفريقين في الدّنيا من إيمان وكفر وصلاح وفساد، والباب واحد هو الموت كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن عاشور، وأحكام تلك الدّار ليست كهذه، وقد زاد الإمام فعلّق على ذلك قائلا: "ولعل جعل الباب في سور واحد فيه مع ذلك ليمرّ منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود منافقين بينهم بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السّور تنكيلا بهم

وحسرة حين يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب الذي في السّور ليجتازوا منه إلى النّعيم الذي بباطن السّور".[1]

قلت: وقد مارس الجلادون الطّغاة مثل تلك الأساليب من الفصل بين أنواع المعتقلين لتسليط بعضهم ضدّ بعض وكسر معنوياتهم ونزع الاعترافات منهم. فلم يبق للمنافقين إلا نداء الاستغاثة بالمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾. هم يطلبون اللّحاق بهم والانضمام إلى جماعة المؤمنين بدعوى أنهم كانوا يشاركونهم في أعمال الإسلام، وإذ كانت مشاركة صورية ظاهرية، فقد كانت الإجابة بـ"بلى" إيجابية، ولكنها أعقبت بالاستدراك الذي يدفع توهّم المنافقين من أنّ التّوافق في أعمال الإسلام الظاهرية تكفي في نجاتهم من العذاب.

ولتأكيد خسرانهم ذكر المؤمنون لهم أربعة أمور كانت سببا للتفريق بينهم وهي:

أ)- ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي بقيتم في شكٍ وارتياب فانصرفتم عن الهداية والحق وأضمرتم الحقد والبغض لنا.

ب)- ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: حذف مفعوله ليشمل جميع أنواع التّربّص، بتدبير أنواع الأذى والمكر بالمسلمين وانتظار الهزائم لهم أو انقسام كلمتهم...الخ.

جـ)- ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾: وهو الشكّ في صدق الدّعوة ونزاهة الرّسول فينشأ عن ذلك الذّبذبة والحيرة.

د)- ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾: غرتهم الأماني الكاذبة من أنهم على الحق وأن عواقب الأمور سوف تنتهي بما يشتهون، وأن المراوغة والذّبذبة هي عين الحكمة والصّواب.

١- التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٨٤.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي أنهم يستمرون على تلك المواقف تدغدغهم الأماني حتى يباغتهم الموت، وهم على ذلك ويطوى الكتاب وينتهي الأمر.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: وهو الشّيطان وأعوانه، يعدهم ويمنيهم.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئسَ الْمَصِيرُ﴾: يجوز أن يكون قولهم: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾، تتمة من خطاب المؤمنين للمنافقين تفرّع عما سبق من قولهم لهم في معرض التّهكّم، يقول المؤمنون لهم ذلك بمقتضى ما تيقنوا به من أنّ لا ظلم ولا محاباة لأحد في موقف الحساب، إذ كل نفس بما كسبت رهينة حتى لكأنهم في موقف التذكير، وأنهم أصحاب التّحكيم في ذلك الموقف.

ويحتمل أن يكون هذا الكلام صادرا عن الله تعالى للمنافقين على وجه التّأنيب لهم والتّأييس من كلّ طمع أن ينالهم شيء من حظ المؤمنين وقد لزّهم الله في قرن واحد مع الذين كفروا، فلا مطمع له في فدية ولا نجاة لهم من عذاب النار.

﴿أَلَمْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾:

إنه العتاب الإلهي المستفزّ لقلوب المؤمنين، والذي ألمح إليه عبد الله بن مسعود، وما تزال الجماعة المسلمة في مكّة تجاهد وتكابد، عتاب فيه حض وفيه استحاشة إلى التجاوب الكامل والخشوع لجلال الله وحسن التلقي لآياته النّاطقة بالحق، ومع ما في هذا الاستفهام التقريريّ من معنى التنديد على استبطائهم في الاستجابة لما يريده الله منهم فإنه حذّرهم من التشبّه بأهل

الكتاب في قساوة القلب ونقض المواثيق إذ طال عليهم العهد بينهم وبين أنبيائهم فصاروا لا يتأثرون بالتّذكير والموعظة، وبالتّالي حرّفوا الكلام عن مواضعه، وبدّلوا وغيّروا. ومع ذلك الفسق والخروج عن منهج الله السّويّ كما قال عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (المائدة:١٣).

والقلب البشريّ عرضة لإشراقات الأنوار الرّبانية إذا تعهّده صاحبه بالتّذكير والتّوعية، فإذا طال عليه الأمد ورانت عليه الذّنوب والآثام قسا وتبلّد وانطمست أنواره، وهو لا يختم عليه بذلك إذا ما تهيأت الظّروف لإشراقات جديدة تعيد له الحياة وينبثق فيه النّور، فهو كالأرض البور يترل عليها الماء من السّماء فتدبّ فيها الحياة وتزدهر بالنبت، وفي ذلك مثل لتأثير مواعظ القرآن في حياة القلوب، قال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾.

ونظرا لأهمية هذا المثل في مغزاه فقد افتتح بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ لشدّ الانتباه إلى ما يأتي بعده، واختتم بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، تلك الدّلالة في التّمثيل، فتكون هذه الجملة لقوله: ﴿أَلَمْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، تكون بمترلة التعليل، والله أعلم.

التنويه بأهل مراتب الإيمان، والتنديد بأضدادهم، وضرب المثل للحياة الدنيا، والترغيب في نعيم الآخرة.

أ)- النصّ:

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ

رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾: ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾: أصله المتصدقين، ثم أدغمت التاء في الصاد وهو من الصدقة. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: القرض الحسن: هو الذي لا منّ فيه ولا أذى. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾: خبر "إن"، الحسنة بعشر أمثالها وزيادة. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾: الصِّدّيق، بتشديد الدال، مبالغة من التصديق. و﴿هُم﴾: ضمير الفصل يفيد القصر الإضافي، واسم الإشارة للتنويه بهم. ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾: مبتدأ، خبره: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ويجوز أن يكون الخبر هو قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. وفي معنى الشهداء احتمالان: أنهم شهداء على الأمم يوم الجزاء قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، أو أنه المقتول جهادا في سبيل الله، والعندية مجازية مستعملة في العناية والحظوة. والضمير: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ عائد على الجميع، أو هو عائد على الشهداء وحدهم. ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: ﴿اعْلَمُوا﴾: لشدّ الانتباه إلى ما يأتي بعده. ﴿مَا﴾: كافة عن العمل. ﴿أَنَّمَا﴾: تفيد القصر، حصر الحياة الدّنيا في

أحوال النّاس في الحياة وفق أطوار أعمارهم. ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كمثل غيث. والغيث: المطر. ﴿الْكُفَّارَ﴾: هم الزّرّاع، لأنهم يغطون البذر في تراب الأرض. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾: يَهِيجُ الزرع: يجف ويبس. ﴿ثُمَّ﴾: لإفادة التراخي، الحطام: ما تكسّر من الزّرع وغيره. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾: العرض مستعمل في السعة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾: قرأ الجمهور بتشديد الصّاد على أن أصله. ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾، فأدغمت التّاء في الصّاد بعد قلبها صادا، وقرأه ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصّاد، على أنه من التّصديق. ﴿يُضَاعَفُ﴾: قرأ الجمهور بألف بعد الضّاد، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بدون ألف وبتشديد العين.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين في الآخرة، أتبعه بالتّنويه والإشادة بالذين يتصدّقون بأموالهم ويبذلون أرواحهم في سبيل الله، بأن لهم الأجر المضاعف عند الله، ثم حقّر من شأن الدّنيا وأنها دار فتنة وغرور سريعة الزّوال فحرّض المؤمنين إلى السّباق للحصول على نعيم الجنة واستشراف رضوان الله ومغفرته لأن ذلك هو الفوز العظيم، فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾**.

إعادة للتحريض على الإنفاق الذي ركّزت عليه افتتاحية السّورة، وقد

عطف الله المتصدقات على المتصدّقين لقصد دفع النساء إلى نفي الشّحّ عن أنفسهن مما ألفنه من عهد الجاهلية لأنّ وصف المتصدقين يدخلن فيه على التّغليب. ولزيادة التّحريض عطفت عليه الاستعارة بالقرض الحسن لله -وهو الغني عن عباده- فهو الغني عن عباده، فهو يضاعف للمتصدقين أجرهم إلى سبعمائة وأزيد، وليس الأجر الكريم إلا نعيم الجنة ورضوان من الله.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمُ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

قد يوجد في المؤمنين من لا مال له ليتصدق به، وحتى لا تنكسر خواطرهم بذلك أشاد الله بفضل الإيمان الصّادق مطلقا إذ ينضوي تحت لوائه كل من خلص إيمانه بالله ورسله فهم كلهم في منزلة الصّدّيقين، وقد جاء في الحديث أن قوما من أصحاب رسول الله قالوا: «**يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نصليّ، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم ولا أموال لنا؟، فقال: أو ليس قد جعل الله ما تصّدقون به، إن لكم في كل تسبيحة صدقة، وفي كل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة**».[1]

والصّدّيق، بتشديد الدّال، مبالغة في المصدّق، والإشارة للتّنويه بشأنهم وصفة: "الشّهداء" على احتمال معنييها من الشّهادة أو الاستشهاد في سبيل الله. هذه الصّفة مع سابقتها تندرج في أصناف المؤمنين الأوفياء الذين خصّهم الله بالذّكر في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ

١- رواه مسلم من حديث أبي ذر، كتاب (١٢) الزكاة، باب (١٦) بيان أنّ اسم الصدقة يقع على كلّ نوع من المعروف، رقم ١٠٠٦: ٢/٦٩٧.

عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩).

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾: وعلى الاحتمالين في عود الضّمير -كما تقدم- فإن تلك الإضافة تدلّ على أنه أجر ونور خاصّ بهم وقد ثبت في الحديث نوعية ذلك النّور ما الله أعلم به.

وقد قابل هؤلاء بأضدادهم من الذين كفروا وكذبوا بآيات الله بأنهم وحدهم أصحاب الجحيم ملازمين له.

ولما كان من دوافع الشّح والبخل الافتتان بلذائذ الحياة الدّنيا حقر الله شأنها بضرب هذا المثل الحيّ فقال: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**.

في سياق الحث على الإنفاق بيّن الله حقيقة الدّنيا حتى لا يغترّ بها المؤمن، بل ينبغي عليه أن يجعلها مطية للآخرة. وأن متاعها قليل وإن زينت لبعض النّاس، ولما كانت تلك الحقيقة تغيب عن أذهان الكثيرين، صدّر الله الجملة بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ لإظهار الاهتمام بما يذكر بعده، وحصر الأخبار المتعددة بأداة: ﴿أَنَّمَا﴾ وأن ما ذكره الله من تلك الأحوال الدّنيوية هو الغالب على أكثر النّاس. والإنسان في أطوار حياته يمرّ بتلك الأحوال وهي من جهة أخرى ضرورية للتغلب على متاعب الحياة، غير أن المفسدة تكون في تجاوز الحدود المعقولة في كل طور. وما بين طور اللّعب في عهد الطّفولة إلى الحرص على التّكاثر في الأموال والأولاد في عهد الكهولة والشّيخوخة يفتتن الشّباب باللّهو والزّينة ولا يرى في غيرهما لذة ومتاعا. ولعلّ أصدق نموذج لتلك الفترة الجنونية هو ما عبّر عنه طرفة بن العبد في قوله:

ولولا ثلاث هن من لذة الفتى وحقك لم أحفل متى قـام عُوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كُميت متى ما تُعل بالماء تُزبد
وكرّي إذا ما نادى المضاف محنّبا كسيد الغضا نبّهته المتورّد
وتقصير يوم الدّجن والدّجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمّد

أجل، ولا تزال اللّذائذ الثلاث من الخمر والنّساء والفروسية لا تزال هي الشّغل الشّاغل للشباب في كل زمان ومكان، وإن كانت الآية الكريمة تصف الواقع المألوف عند النّاس، فإن ضرب المثل الحيّ لحقيقة الدّنيا يخفف من غلواء المفتونين بها، فهي وإن ازيّنت وأقبلت فلفترة ما سرعان ما تضمحلّ وتزول كما يصوّح النبات الأخضر فينكسر ويتهشم، وقد تكرر ضرب هذا المثل في القرآن بأساليب مختلفة، وهو يهيب بالنّاس أن تنسجم أحوالهم مع تعاليم الشّرع الحنيف للفوز بنعيم الحياة الأبدية التي يقول الله عنها: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾، أي يكون الجزاء فيها وفق السّبيل الذي سلكه الإنسان في حياته بمحض كسبه ووفق اختياره إن خيرا أو شرّا.

ولمزيد من التّرغيب في نعيم الآخرة قال تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

بعد أن خطّ الله سير المؤمنين وحرّضهم على الوفاء في إيمانهم بالله ورسوله وبالإنفاق في سبيله، وبعد بيان أحوالهم في موقف العرض يوم القيامة جاء التّحريض بفعل: ﴿سَابِقُوا﴾، لمزيد من العناية والاهتمام بالسّعي لنعيم الآخرة في نوع من المنافسة في مجال المبرّات والمكرمات؛ لأن المؤمن الوفيّ لا يرضى أن يبقى مع الخوالف المتعثرين في أوحال الدّنيا وغرورها المزيّف.

وقد قدّم الله النّعيم الرّوحانيّ المتمثل في مغفرة الله ورضوانه قدّمه على

النعيم الماديّ لخيرات الجنة ومغفرة الذّنوب تخلية لا بدّ منها لإتمام التّحلية.

واختيار صفة الرّبوبية مضافة إلى ضمير المخاطبين فيها تشريف وتكريم، وعرض الجنة متصل في الفسحة والسّعة لتقريب التّصوّر وفق مدركاتنا الضّيقة وإلا فإن الجنة وما فيها هي كما جاء في الحديث القدسيّ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».[1] وتمثل المسابقة المأمور بها كل أفعال البرّ ومستلزمات التّقوى.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾، أي هيّئت على الصّورة التي خلقها الله عليها، ويبقى السّؤال: هل الجنة والنّار موجودتان الآن أم ستخلقان؟، خلاف بين العلماء، وظاهر هذه الآية يدل على وجودها كما رجّح ذلك كثير من المفسّرين ومنهم قطب الأئمة.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: الإشارة إلى الجنة والمغفرة، وهما عطاء من الله بفضله ومنته يهبه لمن يشاء من عباده، ولا يردّه عن التّائبين قبل الغرغرة.

فاللّهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، والله أعلم.

تسلية المسلمين على ما يصيبهم، وبيان الغاية من بعثة الرسل.

أ)- النصّ:

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

١- تقدم تخريجه: ص ٢٧.

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾: المصيبة من أصاب يصيب، وتكون في الخير والشّر، وخصّت في اللّغة بالشّرّ. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مُصِيبَةٍ﴾: في موضع رفع فاعل. ﴿فِي الأرض﴾: كالحدث والمرض وفقد الولد في الأنفس، ﴿فِي كِتَابٍ﴾: أي علم الله الأزليّ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾: أي نخلقها، والضّمير يعود على الأرض أو على الأنفس أو على المصيبة. وقيل: هو عائد للمخلوقات، وإن لم يسبق لها ذكر. ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾: ﴿تَأْسَوْا﴾: منصوب بـ"كي"، أي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدّنيا؛ لأنكم قد وطنتم أنفسكم على فقده، والفرح المنفي هنا هو المبالغ فيه إلى حدّ الأشر والبطر. ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: هو المتباهي المتطاول على النّاس بماله وجاهه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: ومن يعرض على الإنفاق فإن الله غنيّ عن خلقه وعما ينفقونه وحميد بإنعامه عليهم. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: الإنزال يكون من عال، و﴿الْكِتَابَ﴾: أي المتضمن للأحكام والشّرائع، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: آلة الوزن، وهو مستعار للعدل بين النّاس في إعطاء حقوقهم. و﴿الْقِسْطِ﴾: من القسطاس وهو العدل في لغة الرّوم. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾: إنزال الحديد مستعار لخلق معدنه، وإلهام البشر لاستعماله. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: أي ما يصنع به من أنواع الأسلحة، والمنافع كحفر الآبار

وتمهيد الطّرق. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾: أي ليظهر في الواقع الشّجاع من الجبان، ونصرة الله هي نصرة دينه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَآتَاكُمْ﴾: قرأ الجمهور بمدّ بعد الهمزة محوّل عن همزة ثانية هي فاء الكلمة، والتّقدير بما آتاكموه، أي حاصلا عندكم. وقرأ أبو عمرو وحده بهمزة واحدة من "أتى" بمعنى حصل. ﴿فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بدون ضمير فصل، كما هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشّام. وقرأ الباقون بضمير الفصل: ﴿فَإِنَّ اللهَ هو الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وكما هو مرسوم في المصاحف الأخرى.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن نوّه الله بشأن التّضحية بالأموال وبالأنفس ورفع من مقام المتصدقين والشّهداء وتحدث عن متاع الدّنيا وحذر من غرورها، وهي مظنة للكوارث والمصائب اتبع الله ذلك هنا بما يسلي المسلمين على ما يصيبهم فيها، وأن ذلك لا يتمّ إلا بقضائه وقدره فلا يتملكهم الحزن على ما يصيبهم بل عليهم أن يقبلوا على ما يهمهم من اتباع هدي رسله وإعداد القوة لتأييد رسالاتهم وتحقيق العدل في تأدية حقوق النّاس فقال تعالى: **﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلاَ تَاسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**.

طبعت الدّنيا على كدر فهي متقلبة بين الخير والشّرّ لا يملك الإنسان أن يتحكم في ماجريات أحداثها ليختار من أحوالها ما يريد، كما قال الشّاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها صرفا من الأقذار والأكـــدار
ومكلّف الأيام ضدّ طباعها متطلب في الماء جذوة نار

والله الخالق العليم بخلقه قد قدّر في علمه الأزليّ قبل أن يخلق هذا الكون قدّر كلّ حدث يقع فيه بصفة عامّة وقد خصّص بالذّكر الأرض والأنفس على اعتبار ما يخصّنا -نحن البشر- في ارتباطنا بالأرض، وفي نشاطنا المحكوم بإطار الزّمان والمكان، إذ ليس في علم الله ماض ولا حاضر ولا مستقبل فهو يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن، فلا مكان للصدفة والعفوية، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلقها، وعود الضّمير يتردد ما بين الأرض والأنفس، وعوده إلى الأنفس أنسب لبيان تلك الحقيقة المطلقة لعلم الله الشّامل قبل ظهورها في صورتها التي ظهرت به وذلك سهل يسير على الله، لأنه أعلم بمن خلق.

وحين تستقرّ تلك الحقيقية الإيمانية في النّفوس فإنها تستقبل الأحداث براحة وطمأنينة واعتدال في خيرها وشرّها. وقد ورد في الأثر: من عرف سرّ الله في القدر هانت عليه المصائب.

قال تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَاسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ﴾، فالإنسان عادة ما تستخفه الأحداث، حين ينفصل عن ذلك الشّعور الإيماني بقضاء الله وقدره فيتعامل معها في عراك كأنها جاءت لتصادم وجوده، ولكنه حين يربط ذلك بحركة الوجود الكبرى تدبّر أمرها عناية الله ويحيط بجزئياتها علمه الشّامل المطلق فإنه يحسّ بذلك الرّضى في نفسه، فلا يحزن لما فاته ولا يفرح بما حصل عليه، ومن ثمّ فلا فخر ولا اختيال ينتابه لأنه قد عرف قدره.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: وبين الاختيال والفخر والبخل صلة وثيقة؛ لأن الإثم غالبا ما يجرّ

إلى مثله إن لم يتداركه صاحبه بالإقلاع عنه وبإزالته، لأن ضعف الوازع الدّينيّ عند الذي يختال ويفخر بما عنده من مال أو حظوة لا يفعل ذلك إلا عند الاعتداد بنفسه وبحيلته في كسب ذلك، وبالتّالي فهم -غالبا- ما يبخلون بما عندهم فلا يؤدون حق الله فيه، ولا يواسون به أحدا. وحتى لا يواجهوا عتاب النّاس وحدهم فهم يحرّضون غيرهم على البخل ليستكثروا من سوادهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: تذييل جاء بالحكم العام عن كل معرض عن أمر الله، أي في الإنفاق وغيره، وقد وصف الله ذاته العلية بالغنى والحمد بصيغة المبالغة، فهو الغنيّ عن خلقه، المحمود الذّات في السّماء والأرض، فلا يضرّ البخيل إلا بنفسه لأن البخل كما قال شاعر الثّورة:

إن تبخلوا فمعاني البخل أربعة فقر وإذلال وتعذيب وتشديد

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: استئناف مصدر باللاّم المشعرة بالقسم و"قد" لتأكيد مهمة الرّسل وبيان مقوّمات الرّسالات الإلهية لتنظيم حياة النّاس، ولتذكير المعرضين عن الدّعوة بأنهم معرّضون إلى التّأديب والمضايقة إن هم تمادوا على عنادهم.

فبعد أن بيّن الله أحوال الدّنيا وأحوال الآخرة وتبعات الخلق إزاءهما، أعقبه بذكر الغرض من بعثة الرّسل في مسار التّاريخ البشري وأنه لتنظيم حياة المجتمعات إذ أيدهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الخارقة، وأن محمدا ﷺ ليس بدعا من الرّسل في ما دعا إليه. بل الرّسالات واحدة في أصولها الدّاعية إلى وحدانية الله ومكارم الأخلاق. "أل" في الكتاب للجنس يشمل الكتب

السّماوية كلها. ومع الكتاب أنزل الله الميزان وهو مستعار للعدل بين النّاس وإنصاف حقوقهم وذلك بتطبيق أحكام الله وإقامة الأعمال والرّوابط الاجتماعية على معاييرها بعيدا عن تصارع الأهواء وتدافع المنافع.

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: فثوابت الحق والعدل لا تطلب إلا في الميزان الإلهي الثّابت: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦).

ولابد لحماية أحكام الشّرائع التي تقيم العدل بين الناس من الوازع السلطاني لردع العابثين بتلك الأحكام ولضمان فعاليتها في واقع حياة الناس فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

جاء التّعبير الإلهي بالإنزال لكل من الكتاب والميزان والحديد، وقد حاول المفسّرون أن يجدوا وجه المناسبة بين هذه الأشياء الثّلاثة، لأن الإنزال لا يكون إلا من عال لأسفل، فإذا كان ذلك مفهوما ومعقولا في إنزال الوحي وما يتضمنه من نشر الحق والعدل بين النّاس، وكلاهما من الرّوحيات، فما بال الحديد وهو مادة صلبة قويّة ممزوجة بمكوّنات الأرض؟.

فعن وجه المناسبة في ذكر تلك الأشياء الثّلاثة، نقل الدّكتور الزّحيلي عن تفسير الإمام الرّازي ما يلي: "وأما وجه المناسبة بين الكتاب والحديد والميزان في الآية فإن العلماء ذكروا وجوها سبعا أظهرها: أن الدّين إما اعتقاد أو معاملات أو أصول وفروع، والاعتقاد أو الأصول لا تتمّ إلا بالكتاب السّماوي، لا سيما إذا كان معجزا، والمعاملات أو الفروع لا تصلح ولا تنتظم إلا بالميزان وهو العدل، ولا بد من مؤيّد يحمي نظم الشّرائع، وذلك المؤيّد هو الحديد لتأديب من ترك الأصلين أو الطّريقين، وهما الاعتقاد ونظام

التعامل".[١]

قلت: تصحّ تلك المناسبة إذا اعتبرنا أن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ مستعار لخلق معدنه في تراب الأرض، ثم ألهم البشر لاستخلاص ذلك المعدن وصهره لصناعة الأسلحة وما يحتاج إليه النّاس لعمارة الأرض.

وأما علماء الكون فلهم رأي آخر في تفسير الآية إذ اكتشفوا في أواسط القرن العشرين أن الحديد قد نزل إلى الأرض بواسطة وابل من النّيازك الحديدية آتية من نجوم مستعرة تسمى (العماليق الحمر)، يقول الدّكتور زغلول النّجار في كتابه القيّم: (تفسير الآيات الكونية في القرآن): "من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل ٣٥.٩٠ % من كتلتها لا بد أنه قد تكوّن في عدد من النّجوم المستعرة من مثل (العماليق الحمر) و(العماليق العظام) والتي انفجرت على هيئة المستعرات العظام، فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النّيازك الحديدية، وبذلك أصبح من الثّابت علميا أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السّماء، وأن الحديد في مجموعتنا الشّمسية كلها قد أنزل كذلك من السّماء".[٢]

ذكر الله للحديد ثلاث فوائد فقال:

أ)- ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: أي له قوة وصلابة مع قابلية التّشكيل لصنع مختلف الأسلحة والأدوات.

ب)- ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: تقوم عليه حضارتهم اليوم في مختلف مجالاتها في الحرب والسّلم.

١- التّفسير المنير: ٢٧/ ٣٣١.

٢- تفسير الآيات الكونية: ٤/ ١٤٣.

جـ)- ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾: أي فيه القوة الرّادعة للمحافظة على تطبيق شرع الله ونصرة دينه لا للظلم والطّغيان وبسط النّفوذ كما تفعله الدّول الكبرى اليوم، وهذا مناسب لما جاء في السّورة من التّحريض على بذل المال والنّفس جهادا في سبيل الله.

﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: لا يحتاج لنصرة عباده، وإنما هو نصر لمنهجه وإقامة دينه حتى يتبيّن في الواقع المخلص الوفيّ الذي يخشى ربّه بالغيب من المنافقين المتقاعسين ممن يجب ردعهم وتأديبهم، والله أعلم.

بيان وحدة الشرائع في أصولها وجزاء المؤمنين بها.

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ﴾:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وتفصيل له، وتخصيص إبراهيم ونوح بالذّكر لكونهما أبوين للمشركين اليهود والعرب. ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: الضّمير يعود إلى نوح وإبراهيم. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾: يقال: قفّى أثره، أو على أثره، بمعنى اتبعنا، والقيافة اتباع الأثر، وقفينا بعيسى بن مريم، إعادة فعل: قفّى، يدلّ على طول المدة بين آخر رسل بني إسرائيل بني عيسى عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾: لأن عيسى بعث بالرّحمة واللّين لاقتلاع القساوة من قلوب اليهود. ﴿رَأْفَةً﴾: والرّأفة: هي دفع الأذى باللّين واللّطف. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾: الرّهبانية: النّسبة إلى الراهب، وهو المنقطع عن النّاس للعبادة، وهي منصوبة بفعل مقدر، أي: ابتدعوا رهبانية. ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾: أي ما شرعناها لهم، ولكنهم ابتغوا بها رضوان الله. ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: والرّعي: الحفظ، أي: لم يؤدوا حقها من التّنسك كما ينبغي إذ تقوم على ترك اللّذائذ والشّهوات. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾: الكِفل -بكسر الكاف-، النصيب، أي الأجر المضاعف. ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: ذهب أغلب المفسرين أن: ﴿لَا﴾ زائدة في: ﴿لِئَلَّا﴾، وأن المعنى على الإثبات بمعنى: لأن يعلم. و﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: في القرآن هم اليهود والنّصارى لا يقدرون على تغيير شيء من فضل الله مما آتاكم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد البيان الإجمالي لإرسال الله الرّسل بالبيّنات والمعجزات وتقرير وحدة الشّرائع في جوهرها وأصولها عاد إلى تقرير وحدة الرّسالة والنّبوءة في سلالة نوح وإبراهيم، وهما أسلاف لكل من اليهود والعرب الضّالين عن ملة أسلافهم. فبين الله ما حباهم به من النّبوءة والكتاب رحمة منه وفضلا يؤتيهما

من يشاء من عباده لا يختص بذلك قوما على قوم، وبالتّالي لا مجال للتفاخر والتّعاظم بين ملّة وأخرى؛ لأنه تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة من أمرهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾: نوح عليه السلام هو أبو البشر الثّاني إذ أغرق الله كل فرع من ذرية آدم بالطّوفان، ولم يبق على ظهر السّفينة إلا أبناء نوح ممن آمن به، تفرعت منهم فروع البشر قاطبة، وكان منهم إبراهيم وذريته، وهو أبو الأنبياء على اعتبار عصر النّبوءة والكتاب في ذريته من بني إسرائيل ومن العرب، واقتضت حكمة الله أن تتوحد الرّسالة في هذه السّلالة منذ فجر التّاريخ إلى خاتمة الرّسالات سيدنا محمد ﷺ، وكانت سنة الله مع الأنبياء جميعا أن يفترق الأتباع بعد معرفتهم للحقّ وقيام الحجة عليهم، فيبقى على نهج الهداية الرّبانية فريق قليل، بينما ينحرف الكثير عن نهج الله ويعرضون عن طاعته.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾:

بعث الله بعد نوح وإبراهيم رسلا تترى من ذريتهما منهم من قصّ القرآن علينا أخبارهم ومنهم من لم يقصص، فقد امتدت سلسلتهم حلقات تلو أخرى والتّعبير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾، يدل على التّراخي بين فترة وأخرى لتجيء في آخر السّلسلة بعثة عيسى عليه السلام خصّه الله بالذّكر ونوّه بكتابه الإنجيل الذي جاء مكملا لما في التّوراة ومخففا لبعض أحكامها مما عاقب الله به بني إسرائيل على ظلمهم وتعنتهم كما قال تعالى:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ (النساء:١٦٠).

فبعث الله عيسى عليه السلام بالرّحمة والسّماحة لتهذيب نفوسهم وتليين قلوبهم، فكانت توجيهاته قد أثرت في أتباعه من الحواريين الأوفياء، إذ غلبت عليهم الرأفة والرّحمة، فكانوا رقيقي الطّبع لطيفي المعشر، خلافا لما كان عليه اليهود، وكانوا لحرصهم على الالتزام بتلك الصّفات الرّوحية الوضيئة قد ابتدعوا من عند أنفسهم سلوكا رهبانيا تعبديًا تحمّلوا مشقته وتكاليفه امتناعا عن الملذات والشّهوات وتفرّغا لعبادة الله في المعابد والصّوامع ابتغاء مرضاة الله، ولم يفرضها الله عليهم إلا بعد أن ألزموا بها أنفسهم، غير أنهم مع مرور الزّمن انتهت إلى أن تصبح طقوسا وأشكالا خالية من معانيها الرّوحية من عفة وتطهّر مما يدلّ عليه الواقع الكنسي اليوم، حتى قيل: إن سبب استقالة الحبر الأكبر في "الفاتيكان" في هذه السّنة كان من أكبر أسبابه مشاكل الشّذوذ الجنسي المتفشّي عند رجال الكنيسة.

والله تعالى عليم بذلك الواقع المؤسف فيجازي الأتباع المخلصين الأوفياء بما يستحقونه من الأجر والثّواب، ويبقى الخارجون عن حدود الله فريسة لأطماعهم وأهوائهم.

وفي ختام السّورة يجيء هذا النّداء الحبيب الندي إلى قلوب المؤمنين برسالات الله والقائمين عليها إلى يوم الدّين: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

يحتمل في هذا النّداء أن يكون موجها بخاصّة إلى الذين اتبعوا ملة عيسى عليه السلام، لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وعلى هذا يكون معنى إيتائهم كفلين من رحمة الله لكونهم قد آمنوا بدعوة عيسى والله

يدعوهم للتصديق بدعوة محمد ﷺ وترك الحسد والعصبية.

كما يحتمل أن يكون على الإطلاق موجها للمؤمنين بالإسلام ويكون معنى أمرهم بالإيمان والتقوى مستعملا للثبات والدّوام. وهي بشرى للمسلمين بأن لهم كفلين من الأجر لإيمانهم بجميع الرّسل السّابقين وبدعوة رسول الله، ففي حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله قال: «**مثل المسلمين واليهود والنّصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له فعملت اليهود إلى نصف النّهار، وعملت النصارى من الظّهر إلى العصر على قيراط، ثم عمل المسلمون من العصر إلى المغرب على قيراطين**». قال فيه: «**واستكملوا أجر الفريقين كليهما**»[1]، أي أخذوا ضعف كل فريق.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: فإشراق النّور الرّباني في القلوب المؤمنة يجعلها ثابتة على الحق مضمونة العاقبة لا تخاف عثارا ولا تخشى تيها أو ضلالا، والله يتجاوز عن الخطايا التي لا يخلو منها إنسان؛ لأن ملاك الأمر في العمل هو توخّي رضى الله وخشية سخطه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تذييل مناسب لكرم الله وفضله.

﴿لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنّصارى، ويبقى اختلاف المفسّرين في بيان معنى: ﴿لاَ﴾، أهي زائدة؟، فيكون المعنى على الإثبات، أي ليعلم، أو لكي يعلم، فيكون فيه معنى التعليل، وهو تبليغ الخبر إلى أهل الكتاب أنّ فضل الله قد أعطي لغيرهم فلا يتعاظموا ولا يتبجّحوا بأنهم شعب الله وأحباؤه، وأنّ الجنّة حكر عليهم،

١- رواه البخاري بنحوه من حديث ابن عمر، كتاب (٤٢) الإجارة، باب (٨) الإجارة إلى نصف النهار، رقم ٢١٤٨: ٢/٧٩١.

وحتى يعلموا أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، وأنهم لا يقدرون على احتجاز شيء منه؛ لأنه ليس مقصورا على قوم بباعث الجنس أو العرق، ولكنه مقدّر وموهوب من الله لمن يستحقّه من عباده، وفي ذلك تحريض للمؤمنين على الاستجابة لتكاليف الإيمان والجهاد، واستمالة لأهل الكتاب إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ إذ لا يكفي إيمانهم بالتوارة والإنجيل، والله أعلم.

ملقنا

سورة المجادلة، مدنية، وآياتها ٢٢

- بين يدي السّورة الكريمة:

سميت سورة المجادلة -بكسر الدّال- على الأرجح، وقد تفتح، ووجه تسميتها بذلك أنّها افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها وهي امرأة أوس بن الصّامت تجادل لدى رسول الله في مظاهرة زوجها. وقد تذكر السّورة باسم: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾.

وهي سورة مدنية وآياتها اثنتان وعشرون آية وهي السّورة الثّالثة بعد المائة في ترتيب نزول سور القرآن، وقيل: نزلت بعد سورة المنافقون، وقبل سورة التّحريم، وهي الثّامنة والخمسون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وعن الجوّ الذي نزلت فيه يقول الشّيخ محمد الغزالي: "وهي سورة مدنية كلها، والمجتمع المدني كان صنوفا شتى من النّاس، هناك المؤمنون الذين يصنعهم الوحي ليقودوا قافلة الإيمان في المشارق والمغارب، وهناك الوثنيون المتعلقون بأذيال اللّيل المدبر، وهناك اليهود الذين يعبدون جنسهم ويريدون فرض أهوائهم على النّاس، وهناك المنافقون الذين يجرون وراء مصالحهم ويظهرون في ألف لون. وهذه السّورة على وجازتها تعرضت لأولئك جميعا"[1].

قلت: لا شكّ أنّ تلك التّركيبة البشرية في تجاذبها وتنافرها تستدعي تشريع أحكام تضبط العلاقات الاجتماعية، وتضع الضّوابط المحكمة لتأمين الاستقرار الدّاخلي في ظل الدّولة المسلمة النّاشئة، وهي تواجه التّحديات الخارجية في حزم وثبات وفي يقظة وترقب، فبعد أن تؤمّن ذلك القدر من التّماسك الأسري

١- التفسير الموضوعي: ص ٤٤٦.

بالقضاء على مخلفات الجاهلية وتقاليدها، ومن أقساها وأرعنها عادة الظّهار إذ بتّت فيه بالحكم العادل المناسب في مفتتحها.

ثم انتقلت إلى تنظيم أحاديث النّاس في مجالسهم ومراعاة نظام الجلوس وتفادي التناجي بالإثم والعدوان كما كان يفعل اليهود والمنافقون، وأوجبت على المؤمنين تقديم الصّدقة عند مناجاة الرّسول، ثم رفعت ذلك الحكم تخفيفا وتيسيرا، إلا أنها حرضت المؤمنين على إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وطاعة الله ورسوله.

وفي الختام نددت بالذين يوالون اليهود ويمالئونهم بإفشاء أسرار المؤمنين لهم ويتذرّعون على مخالفيهم بالأيمان الكاذبة، وحرضت المؤمنين على معاداة أعداء الأمة ولو كانوا من أقرب النّاس إليهم، لأن الحب والبغض ينبغي أن يكون لله وحده، وأن الفلاح مضمون للأولياء من المؤمنين فهم حزب الله وأولياءه.

إلغاء عادة الظّهار، وبيان كفّارته.

أ) - النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ﴾: بمعنى استجاب لمطلوبها، وقيل: شكواها. ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾: من المجادلة وهي الجدال ومراجعة الكلام. ﴿فِي زَوْجِهَا﴾: أي في شأن أوامر زوجها. ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾: ﴿تَشْتَكِي﴾: المبالغة في تقديم الشكوى، وهي بثّ ما تحسّ به من الهمّ والغم. والتحاور: هو حصول الجواب من جانبين متعارضين. ﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِم﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾. يظهرون من نسائهم: يقول لامرأته مثلا: أنت عليّ كظهر أمّي. و﴿مَا﴾: حجازية، تفعل فعل ليس، وهي نافية. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾: التقدير: ليقولون قولاً منكرًا. ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: العود: الرّجوع إلى شيء تركه صاحبه. ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي، واختلف الفقهاء في تقدير المدّة التي تكون بين التحريم والعودة إلى أزواجهم بعد التكفير. ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا﴾: من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾: أي تلك هي أحكام شريعته فالزموها.

ج) - أوجه القراءة:

﴿يَظَّهَّرُونَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وتشديد الظّاء والهاء مفتوحتين بدون ألف بعد الظّاء وأصله: يتظهّرون، فأدغمت التّاء في الظّاء لقرب مخرجها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿يَظَّاهَرُونَ﴾ بفتح الياء وتشديد الظّاء وألف بعدها، وقرأ عاصم: ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظّاء، وبعدها ألف وكسر الهاء، على أنه مضارع: ظاهر.

د) - البيان والتفسير:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ

﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾:

يروي المفسرون في أسباب النّزول قصة خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصّامت الأنصاريّ، إذ رآها زوجها وهي تصلي فأرادها لما سلّمت فأبت، فغضب فقال لها: أنت عليّ كظهر أمّي، قال ابن عباس: وكان هذا في الجاهلية تحريما للمرأة مؤبّدا، أي وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النّبي وإقراره.

فجاءت خولة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حرمت عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. فقال: ما عندي في أمرك شيء. فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقا، وإنما هو أبو ولدي وأحبّ النّاس إلي، فقال: حرمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله. فاقتي ووحدي، كلما قال رسول الله: حرمت عليه،. هتفت واشتكت إلى الله، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.[1]

وروى الحاكم عن عائشة ﵂ قالت: تبارك الذي وسع سمعه كلّ شيء، إنّي لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله، وتقول: يا رسول الله: أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سنّي وانقطع ولدي ظاهر مني، اللّهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.[2]

تصدير الجملة بـــ"قد" لمعنى التوقع، فكل من النبي وخولة وزوجها يتوقعون الجواب والقبول من الله، وذلك كقول المصلّي عند الرّفع من

١- عزاه الشوكاني لابن مردويه من حديث ابن عباس، فتح القدير: ٦/٣٣٩.

٢- رواه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٧٩١: ٢/٥٢٣.

الرّكوع: سمع الله لمن حمده. والسمع المتوقع هو جواب الله.

﴿تُحَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾: أي المرأة التي تراجعك أيها الرّسول في شأن زوجها وهي خولة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصّامت الأنصاريّ وذلك عندما قال لها: أنت عليّ كظهر أمّي، فحرمت عليه على عادة الجاهلية.

﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾: أي تبثّ إلى الله ما أحزنها وأغمّها، إذ كان الرّسول يقول لها كلما شكت إليه: حرمت عليه، ويدلّ قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، على الاعتناء بذلك التّحاور والتّنويه به مما يتوقّع بعده الإجابة المرضية من الله السّميع العليم، وقد تكرّر لفظ الجلالة في جمل متقاربة لبعث المهابة والإجلال والدّلالة على رأفة الله ورحمته بخلقه.

ثم ندّد الله على تلك الظّاهرة ووبّخ المتلبّسين بها فقال: **﴿الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱللَّٰٓئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾**.

جاءت هذه الجملة استئنافا بيانيا للجملة السّابقة تبيّن المخرج من ذلك المأزق الذي وقع فيه الزّوجان المتظاهران، وقد استجاب الله لشكوى المرأة فبيّن بأسلوب التّوبيخ بأن ذلك التّشبيه لزوج الرجل بظهر أمه، أي بحرمها على نفسه كما تحرم عليه أمّه، فبيّن الله أن مثل ذلك التشبيه لا يغيّر من حقيقة أن نساءهم ليست بأمهاتهم. ﴿مِنكُم﴾: الخطاب للمسلمين، و"من" بيانية. وأما قوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِم﴾ فهي ابتدائية.

ثم أكّد الله على بيان حقيقة الأمومة بأنها ثابتة بحكم الشّرع لا تبطل بالقول كما قرر ذلك في سورة الأحزاب إذ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ (٤). وهو قول باطل قائم على غير أصل، فالزّوجة ليست أمّا تحرم على ولدها، والأم هي التي ولدت، فالظّهار -إذن- كلمة منكرة يدحضها

الحق ويبطلها الواقع، وقبل أن يشرع الحكم للخروج من ورطة الظّهار ذيّل بيانه التّوبيخي بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، على طريقة أسلوب القرآن في مزج الأحكام والإرشادات بعناصر التّأثير والإيحاء والتّربية، فالعفو والمغفرة لهذا المنكر هما الدّواء الشّافي لمثل تلك العلل الاجتماعية التي جاء الإسلام ليقتلع جذورها حتى تستقرّ الأسرة المسلمة على أسس المودة والرّحمة.

وبعد ذلك يجيء الحكم التّشريعي في الموضوع فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾.

مهّد الله لهذا الحكم بالآية السّابقة في بيان حقيقة الظّهار واستفظاع حدوثه فعطف ذلك هذه الجملة التي تحدّد الكفارة التي تجعل المظاهر في حلّ من أمره مع زوجته، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قالوا﴾، وقد تعددت أقوال الفقهاء فيه، والقول الأنسب للموضوع هو أنّهم يريدون نقض ما قالوه والعودة لما كانوا عليه من إرادة الجماع، فعليه أن يكفّر قبل أن يمسّ زوجه مسّ استمتاع، وهو كناية عن الجماع والكفارة تكون كالتالي بالترتيب:

بعتق رقبة: أي تحرير عبد أو أمة لنيل حريتهما في سبيل الله، وقد أطلق الرّقبة فيجزي عتق أية رقبة مؤمنة أو كافرة. إلاّ أنّ بعض العلماء حمل المطلق هنا على المقيّد في كفارة قتل الخطأ فاشترط الإيمان، وللموضوع تفريعات وتفاصيل تطلب من مظانها في تفسير الأحكام.

وقبل بيان نوع الكفارة الثّانية والثّالثة عقب الله على النّوع الأول: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، إذ ربط الله ذلك الأداء للكفّارات بأمر الله وعلمه لتركيز داعي الإيمان في النّفوس حتى تنزل على حكمه المشروع ويربط به العلاقات الزّوجية.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾: أي فمن لم يتمكن من عتق الرّقبة بأن لم يتمكن من توفير ثمنها بعد توفير كفايته من القوت، أو لم يجد رقبة يشتريها لعدم وجود الرّقيق كما في عصرنا اليوم، فعليه قبل المساس صيام شهرين متتابعين أي متتاليين لا يفطر فيها إلا بعذر، والأشهر تعتبر بالأهلّة، وإن تعذّر عليه الصّيام لعجز أو مرض أو مشقة لا تحتمل فعليه أن يطعم ستين مسكينا من قبل المسيس أيضا. وقيل: إنّ أوس بن الصّامت عجز عن أداء الكفارتين الأوليّن، وحيّ الإطعام أعانه عليه رسول الله ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الإشارة إلى الحكم الذي بيّنه الله من وجوب الكفارت بسبب الظّهار يجب على المؤمنين الإيمان والتّصديق به والالتزام بتنفيذه لا يتعدون حدوده، وذلك بعدم عودتهم إلى ذلك المنكر المستفظع، وهو معصية تستوجب التّوبة والمغفرة، ثم هدّد الكافرين المنتهكين لحدود الله بالعذاب الأليم، والله أعلم.

وعيد محادّة الله ورسوله، وعلمه تعالى بالخفايا.

أ)- النصّ:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: ﴿يُحَادُّونَ﴾: من المشاقة والمعاداة، كأنهم في حدّ، والله ورسوله في حدّ آخر، وهو أنسب بما ذكر من الحدود قبله والمقصود منه محاربة رسول الله لأن ذلك محاربة لله. ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من الكبت، وهو الخزي والإذلال، واختيار صيغة الماضي لتحقيق الوقوع. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: الجملة في موقع الحال، بينات: بمعنى واضحات تخبر بهلاك من قبلهم وتدلّ على صدق الرّسول. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب متعلق بـ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أو هو منصوب على المفعولية بتقدير فعل: اذكر. ﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على الحال، أي يبعثهم الله في حال اجتماعهم. ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: جملة في موضع الحال من قوله: ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾، أي علمه الله علما مفصّلا ونسيه عاملوه. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾: ﴿مَا﴾: نافية و﴿يَكُونُ﴾: تامة مضارع "كان". ﴿مِن﴾: زائدة، لتعميم النفي. النّجوى: اسم مصدر: ناجاه، إذا سارّه. ﴿ثَلَاثَةٍ﴾: مضاف إليه، والمعنى: ما يكون من تناجي ثلاثة من النّاس إلا والله مطلع عليهم، وتخصيص عددي ثلاثة وخمسة بالذّكر لأن المتناجين الذين نزلت الآية في شأنهم كانوا حلقا من ثلاثة أو خمسة. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾: ﴿أَيْنَ مَا﴾: ظرف مكان، مركب من: ﴿أَيْنَ﴾ و﴿مَا﴾ الزّائدة أضيف إلى جملة: ﴿كَانُوا﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَكُونُ﴾: قرأ الجمهور بياء الغائب، لأن تأنيث: ﴿نَّجْوَىٰ﴾ غير حقيقي،

وقرأ أبو جعفر: ﴿مَا تَكُونُ﴾ بتاء المؤنث، مراعاة لصورة تأنيث اللفظ. ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾: قرأ الجمهور بالنّصب عطفا على لفظ: ﴿نَجْوَىٰ﴾، وقرأ يعقوب بالرّفع، عطفا على محلّ: ﴿نَجْوَىٰ﴾، لأنه مجرور بحرف زائد.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحكام الظّهار والتّنديد على المتلبّسين به وبعد الثّناء على المؤمنين الأوفياء القائمين عند حدوده، وعلى ذكر حدود الله المبيّنة بشرعه الواضح هدّد من يحادّون الله ورسوله بتجاوز تلك الحدود، هدّدهم بالخزي والمهانة في الدّنيا والآخرة، كما كان ذلك مصير من قبلهم من المشركين، وذكّرهم بحقيقة علم الله الشّامل لكلّ ما في السّماوات وما في الأرض، فلا يخفى عليه شيء من أحوالهم في السّرّ والعلن، وهو يحصي عليهم كل ذلك يوم القيامة ليجازيهم عليه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾.

تكون محادّة الله ورسوله -أي معاداته ومشاقته- بمجاوزة حدوده التي رسمها على منهاج شرعه السّويّ، وكثيرا ما يأتي التّعبير بحدود الله في القرآن بعد بيان أحكام مختلفة شرعها الله للناس في العبادات أو المعاملات، فالذين لا يتقيدون بتلك الحدود، هم يناصبون العداء لخالقهم وقد يملي لهم ويستدرجهم ولكنّهم محكوم عليهم بالذّلة والهوان في حياتهم الدّنيا مهما كانوا عليه من القوة والسّلطان، وقد فعل الله ذلك بأمثالهم من طغاة الأمم المتقدمة، وجاء التّهديد الإلهي بصيغة الماضي: ﴿كُبِتُوا﴾ لتحقق الوقوع، وقد نال الكفار والمنافقين ذلك الخزي على يد المؤمنين في غزوتي بدر والخندق.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

تقع الجملة موقع الحال للتهديد السّابق واللاحق، لقطع العذر عن أولئك المعادين لله ورسوله، فإنّه تعالى قد أقام عليهم الحجّة بما أنزله على رسوله من الآيات والبراهين السّاطعة تبين لهم معالم الطّريق وتبرز حدوده وهم يعلمون أنها الحق، والله يجازي كلّ متكبّر جبّار بما يهيّئه، وهو حكم عام يشمل جنس الكافرين.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: يعود الضّمير إلى الذين يحادّون الله ورسوله، وبما أن صفة المحادّة لا تقتصر -في ما أرى- على عنصري الكفار والمنافقين، بل تحدث حتى من المؤمنين العصاة، فإنّه تعالى ذكر الدّافع الحقيقي إلى تلك المحادة، بأنه الغفلة والنسيان، فقد يكون المحادّ لله مؤمنا بالبعث، ولكنه غلبت عليه شقوته فانغمس في شهواته لا يأبه لبعث ولا حساب.

وهنا يأتي التّذكير بأنه تعالى يفضح أحوالهم على رؤوس الأشهاد فينبئهم بما عملوا بكل تفصيل وإن غفلوا هم عنه ونسوه تهاونا وغرورا، والله شهيد على كل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الخطاب للرسول ولكل مستمع للقرآن، والرّؤية علمية، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها قد سدّ مسدّ المفعول، والله تعالى يمهّد للتنديد بالنّجوى التي كان اليهود والمنافقون يتحرّشون بها على المؤمنين، يمهّد لذلك بتقرير ما يجب أن يستقرّ في عقائد خلقه من إحاطة علمه بكلّ ما في السّماوات وما في الأرض ما نبصره وما لا نبصره، بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيها صغيرا أو كبيرا معلوما أو مجهولا، وذلك بصفة عامة في أرجاء الكون

الفسيح. ثم تدرّج إلى ما يخصّ أحاديث النّاس في مجالسهم حيث يختلي البعض في زاوية يتناجون في ما بينهم في خير أو شرّ ويظنون أنهم بعداء عن الأسماع، ولكن الله حاضر معهم، فإن كانوا ثلاثة فالله رابعهم، وإن كانوا خمسة فالله سادسهم، وإن كانوا أقلّ من ذلك أو أكثر فهو معهم حيثما يكونون يعلم سرّهم ونجواهم.

ولا شك أنّ القلب البشري مهما ضعف فيه الوازع الإيماني فهو يتأثر ويتجاوب مع هذه الصورة الحيّة التي تهز أوتاره، وتفسح له مجال التّأمّل والتّناغم مع تلك الحقائق الوجودية الكبرى.

وقد حاول المفسّرون أن يعلّلوا ذكر الثّلاثة والخمسة وإهمال العدد الزّوجي بينهما، فيرى ابن عباس أنّها تصوير للحالة الواقعية التي نزلت بسببها الآية إذ قال: إنّ ربيعة وحبيبا ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما تقول؟، فقال الآخر: يعلم بعضا، ولا يعلم بعضا، وقال الثّالث: إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله، فنزلت.[1]

والواقع أن هؤلاء المتناجين يكوّنون حلقا تتسع وتضيق. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي يقيم الحجة عليهم بما تكلموا به في الدّنيا وقد يعتريهم نسيانه ولكن الله لا ينسى فيجزيهم بما عملوا يوم القيامة، مما يدل على أن ما ارتكبوه من تلك النجوى هو إثم عظيم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ

١- عزاه الزمخشري لابن عباس: ٤/٤٨٩.

يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

الرّؤية هنا بصرية وقوله تعالى: ﴿نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ أنه تعالى يذكر شيئا معهودا من نجوى المنافقين واليهود كان الرّسول ﷺ ينصحهم وينهاهم عن تصرفاتهم الدنيئة نحو المسلمين، ولكنهم لم يرعووا عن غيّهم حتى نزلت هذه الآية تفضحهم وتهددّهم. فقد روى ابن عباس ومجاهد أنها نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السّرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.[1]

قلت: تلك هي جريرتهم الأولى ضدّ المسلمين لزرع البلبلة والشّك والاضطراب، والرّسول لا تخفى عليه تلك الدّسائس والمؤامرات، وكان يأخذهم باللّين والرّفق، ولكن الطّبع اللّئيم في نفوس المنافقين واليهود لا يفهم إلا لغة التّهديد والتّقريع، ولا ينفكون عن خبثهم حتى وهم يحضرون مجلس الرّسول، فيلوون ألسنتهم في صيغة التّحية خلافا لما كان الله يحيّي به رسله، فيقولون: السّام عليك، ويريدون به الموت لرسول الله، ويتفطن الرسول لذلك فيردّ بقوله: وعليكم.[2]

وهم في قرارة أنفسهم يشعرون بدناءة أقوالهم فيقول بعضهم لبعض: لو

١- عزاه الواحدي لهما في أسباب النزول: ص ٣٧١.

٢- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (٩٧) الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم ٢٧٧٧: ٣/١٠٧٣.

كان محمد نبيًا حقًا لعاقبنا الله على قولنا هذا، ظنا منهم أنه تعالى سريع الانتقام، يغيظه أذى النّاس، تعالى الله عن ذلك، فجاء الرّدّ الإلهي بهذا التّهديد السّديد: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فالأمر مفضوح وويل لهم من عذاب النّار وبئس المصير، والله أعلم.

آداب الجماعة في الحديث والجلوس.

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾: الخطاب يشمل المؤمنين والمنافقين إذ يوصفون بالإسلام على ظواهرهم، نهاهم الله عن المُسارّة في الحديث بكلّ ما يؤذي من الآثام والظّلم وما يخالف أوامر الرّسول، واتّباع النّهي بالأمر يوحي بفرط الاعتناء بالموضوع. ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيُحْزِنَ الذِينَ ءَامَنُوا﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: تفيد الحصر، و"أل" في النّجوى تفيد العهد، والجملة تعليل لتأكيد النّهي، وفيها تسلية للمؤمنين، إذ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾: النفي للعموم، وانتصب: ﴿شَيْئًا﴾ على المفعول المطلق. ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾: التّفسح: التّوسّع لإيجاد فسحة في المكان للجلوس. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾: ﴿انشُزُوا﴾: أمر من نشز، إذا نهض من مكانه. وقيل: إنّ النّشوز أخصّ من التّفسّح؛ لأنه لا يتمّ إلا بالقيام من المكان. ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾: ﴿يَرْفَعِ﴾: مجزوم في جواب الأمر: ﴿انشُزُوا﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: ﴿مِن﴾: تبعيضية، والضّمير عائد للذين آمنوا. ﴿دَرَجَاتٍ﴾: منصوب إما على الظرفية وإما على نيابة المفعول المطلق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَلاَ تَتَنَاجَوْا﴾: قرأ الجمهور بصيغة التّفاعل، وقرأه رويس عن يعقوب وحده: ﴿تَتَنَجَوْا﴾: بوزن: تنتهوا. ﴿لِيُحْزِنَ﴾: قرأ نافع وحده: ﴿لِيَحْزُنَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، على أن يكون: ﴿الذِينَ ءَامَنُوا﴾ مفعولا به. وقرأ الباقون بفتح الياء وضمّ الزّاي، مضارع: حزن، فيكون: ﴿الذِينَ ءَامَنُوا﴾ فاعلا. ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾: قرأه الجمهور بالإفراد، وقرأه عاصم: ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ بصيغة الجمع. ﴿فَانشُزُوا﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بضم الشّين فيها، وقرأه الباقون بكسر الشّين.

د)- البيان والتّفسير:

على بيان حال الذين نهوا عن النّجوى من اليهود والمنافقين، وكيف أن الله تعالى يعلم سرّهم ونجواهم وأنه محاسبهم على ما يتآمرون عليه، بيّن آداب المناجاة في المجالس بأن لا تكون إلا بالبرّ والتّقوى، وإنّه تعالى يحفظ المؤمنين من وساوس الشّياطين، ثم أمرهم بما يحفظ المودة بينهم بالتّفسّح في المجالس

لبعضهم بعض، وإنزال النّاس منازلهم، وأنّه تعالى يرفع من شأن المؤمنين والعلماء درجات. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

تتوالى النّداءات بأحب الأوصاف للمجتمع المسلم بـ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقد أراد الله تنقيته من شوائب النّفاق ودسائس اليهود، فالنّداء الإلهي على ما يبدو يشمل كلّ من يتّصف بالإيمان مهما تكن الظّواهر السّيئة التي قد يندّ بها المنافقون، إذ أنّ ظاهرة النّجوى غير محمودة من أساسها، فإن لم يكن منها من بدّ فلتكن على أساس من البرّ والتّقوى، لا غير، مما يبقي على جوّ الثّقة والاحترام المتبادل، وقد تأكد هذا الإرشاد الإلهي بالنهي والأمر، والتّقييد: بـ﴿إِذَا﴾ يوحي بأنّ بعض المؤمنين كانوا يتناجون في بعض الأمور، وربما وقعوا في المحذور مما نهاهم الله عنه وهم -أحيانا- منصرفون عن مجلس رسول الله ﷺ، فأمرهم الله بتوخّي البر والتّقوى في مناجاتهم ومراقبة الله في ذلك بتذكّر يوم الحساب والجزاء.

ولمزيد من التّحذير ذكر الله دوافع مناجاة الكفار في قصد الإضرار بالمؤمنين وأنه تعالى كافيهم ضرّهم فقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

جاءت هذه الجملة كالتعليل لما سبق من تأكيد النّهي عن النّجوى التي كانت تؤذي المؤمنين وتحزنهم وتخلق جوّا من عدم الثّقة، جاءت مسلية لهم، وذلك بربطها وإلحاقها بوساوس الشّيطان الذي لا يجد إلى نفوسهم سبيلا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر:٤٢). فقد عرفوا أنه عدوّهم الأكبر، والله يسليهم بأنه لا يضرّهم بشيء من مكايده إلا بما قدّر الله

أن يكون لحكمة يريدها فهم مطمئنون برعاية الله لهم وهو وكيلهم وحاميهم في السّراء والضّراء، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، وتصاريفه تعالى جارية وفق حكمته وعلمه بخبايا النّفوس وتوجهاتها، فعلى قدر تمكن الخشية ومراقبة الله يكون التّوفيق وبلوغ القصد.

وفي إطار ذلك الأدب الرّفيع والتّنظيم البديع في الرّفع من المستوى الحضاريّ لذلك المجتمع الفاضل، يأتي هذا النّداء الثّاني لسنّ الآداب اللاّزمة في مجلس الرّسول، وهو النّموذج الأعلى للمجالس المعتبرة في شأن الجماعة قال تعالى: ﴿**يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾.

تتناسب هذه الأحكام وتجرّ التّنظيمات بعضها إلى بعض إذ كلّها تتمحور حول مراعاة مكانة رسول الله والتّأدب معه في الحديث والمجالسة.

وعن سبب النّزول لهذه الآية فقد روى عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان رسول الله يومئذ في الصّفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله فقالوا: السّلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فردّ النبي عليهم، ثمّ سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم. فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي الكراهة في نفوسهم، فقال المنافقون: ألستم ترعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين النّاس؟. والله ما رأيناه قد عدل على من ولاه وقد أحبّوا القرب من نبيهم،

فسبقوا إلى مجلسه، فبلغنا أنّ رسول الله قال: رحم الله رجلا يفسح لأخيه، فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا، ونزلت هذه الآية.[١]

وبما أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب فإنّ الخطاب في الآية يعمّ المؤمنين في كلّ زمان ومكان، والتّفسّح هو إيجاد فسحة في مكان لأحد، وزيادة التّاء والتّضعيف لتكلّف الفعل، وفي الآية أمر بالتّفسّح وبالنّهوض من مكان ما ليجلس فيه الغير، وقد رتّب فيها الجزاء من جنس العمل، ولم يذكر متعلق التّفسّح ليعمّ كلّ ما يصبو إليه النّاس من الخير في الدّنيا والآخرة، وأرجح أن تكون "أل" في المجلس للجنس، وإن كان مجلس الرّسول هو النّموذج الأعلى للمجالس المعتبرة، يقول الإمام ابن عاشور: "فالآية لا تدل إلا على الأمر بالتّفسّح إذا أمر به النبي ﷺ، ولكن يستفاد منها أن تفسّح المسلمين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوبا أو ندبا؛ لأنّه من المكارمة والإرفاق، فهو من مكملات واجب التّحابّ بين المسلمين، وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يضايقه فيها غيره، فهي كلفة غير معتبرة، إذا قوبلت بمصلحة التّحابّ وفوائده، وذلك ما لم يفض إلى شدّة مضايقة أو مضرة أو تفويت مصلحة من سماع أو نحوه مثل مجالس العلم والحديث وصفوف الصّلاة".[٢]

وقال القطب: "وإذا ترتّبت مفسدة على إقامتهم فلا يفعل إلا لمفسدة أعظم، ولا يقيم أحد أحدا عن مجلسه فيقيم فيه إلا السّيّد والزّوج والأب والأمّ والأجداد. قال ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**لا يقيم الرّجل الرّجل عن**

١- عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم من حديث مقاتل بن حيان، تفسير القرآن العظيم: ٤٦/٨.

٢- التّحرير والتّنوير: ١٨/٢٧.

مجلسه، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا».[1][2].

قلت: إنّ ضبط هذه القضية تعهد إلى أهمية المجلس وإلى حكمة من يرأسه فهي لا تتناقى مع الأحاديث التي تنهى عن قيام الرّجل من مكانه ليجلس فيه الآخر، وعن النّهي عن تخطّي رقاب النّاس، فكل ذلك راجع إلى مراعاة المصلحة في إنزال النّاس منازلهم دونما إحراج أو تذمّر. ويرى الفقهاء أنه يجوز للرّجل أن يرسل إلى المسجد ببساطه أو طنفسته أو سجادته لتبسط له في مكان من المسجد حتى يأتي فيجلس عليها، فإن ذلك جوز لذلك المكان في ذلك الوقت.

وجواب الأمر في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، هو رفع من مكانة أهل العلم وأهل الإيمان فأهل العلم لتواضعهم وعلمهم، وأهل الإيمان لوفائهم وبعدهم عن النّفاق، وتنكير درجات لبيان عظمتها وتعدّدها حسًا ومعنى.

وجملة: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، تذييل مناسب في توفية الجزاء وفق النّوايا والدّوافع التي لا يعلمها إلا الله.

﴿يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، -آشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

١- رواه البخاري من حديث ابن عمر، كتاب الاستئذان، باب (٣٢) ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم﴾، رقم ٥٩١٥: ٥/٢٣١٣.

٢- تيسير التفسير: ١٤/٤٠٣.

هذا هو النّداء الثّالث لاستجاشة شعور المؤمنين وإرشادهم إلى أدب آخر يراعونه في علانيتهم برسولهم، فهم -ولاشك- يعظّمونه ويحبّونه أشدّ الحبّ، ويودّ كل واحد منهم أن يحدّثه في بعض شؤونه الخاصة يسترشده فيها، وفي الحديث مع الأكابر لذة ومتعة، وفيه قدر من الامتياز والمكانة، وأغلب المؤمنين مدفوعون بذلك الشّعور التّقديري نحو رسولهم، ولكنهم لا يشعرون بعظم مهامّه وبقيمة وقته، وربما تضايق رسول الله بكثرة التّردّد لمناجاته فكان من رأفة الله به أن يأمر المؤمنين بأداء صدقة قبل طلب المناجاة رحمة بالفقراء وتقييدا لضغوط تلك المناجاة، وفي سبب النّزول فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، فلما نزلت صبر كثير من النّاس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿-آشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

وقد تضاربت الرّوايات في تحديد المدة التي تفصل بين الأمر بالصّدقة وبالترخيص والتّخفيف فيها، فقيل: عشرة أيام، وقيل: ساعات من نهار، وقيل: لم يطبق الأمر إلا الإمام علي كرم الله وجهه، قال: "إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي". وقد تراوح الأمر عند العلماء بين الوجوب والنّدب وبين النّسخ وعدمه.

وبيّن الله حكمة تلك الصّدقة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى تقديم الصّدقة، وتتمثل الخيرية في تحقيق المصلحة في تنظيم تلك المناجاة وفي الحصول على الأجر

١- جامع البيان: رقم ٢٦١٧١: ٣٦/٢٣.

وتكون الطّهارة لأنفسكم بترويضها على إنفاق المال، وفي أموالكم بنمائها وحفظها، والتذييل بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يكون للاحتمالين: الوجوب والنّدب.

وقد رفع الله الحكم السّابق بهذه الآية: ﴿-آشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾، والأرجح أن هذه الآية نزلت عقب التي قبلها، والخطاب فيها لمن قدر من المؤمنين على تقديم الصّدقة قبل المناجاة فشق عليه ذلك. وفي الاستفهام لون من اللّوم والعتاب على ذلك، ولكن الله تجاوز عليهم في ذلك وحرضهم على الاستمرار والثبات في القيام بمبرات أخرى فخصّص بالذّكر إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، ثم عمّم بطاعة الله ورسوله، ثم حذرهم من التّقصير والتّفريط بقوله: فهو مجازيكم على أعمالكم إن خيرا أو شرّا، والله أعلم.

كشف حقيقة المنافقين وفضح واقعهم ودفعهم بأنواع التّهديدات.

أ) - النصّ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُـم مِّـنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تنظر، بمعنى: أخبرني، والاستفهام يراد به التعجيب. ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾: وهم اليهود. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾: ﴿هُم﴾: ضمير يعود على: ﴿الذِينَ﴾، وهم المنافقون، ليسوا من المؤمنين الأولياء من أهل ملتهم ولا هم من اليهود، والجملة الأخيرة حالية. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أنهم مؤمنون كذبا. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: في موضع نصب حال. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿مَا﴾: في موضع رفع فاعل. ﴿سَآءَ﴾: فعل ذم. ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: الأيمان: جمع: يمين، وهو الحلف. ﴿جُنَّةً﴾: أي وقاية لدمائهم وأموالهم. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: أي يردون الناس عن الدخول في دين الله بالتثبيط. ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا﴾: أي لا يستطيعون فداء أنفسهم بأموالهم ولا يجدون نصرة من أولادهم. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾: أي يبعثون على ما ماتوا عليه من الكذب والنفاق. ﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على الحال. ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ: بمعنى غلبه، من الاستحواذ وهو الاستيلاء والغلب، ومنه الأحوذي، أي القاهر للأمور الصعبة. ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ﴿حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾: أولياؤه وأتباعه، واستعمال الاسم الظاهر مكان الضمير لزيادة التصريح، ولتصلح الجملة للتمثيل مستقلة بدلالتها.

ج)- البيان والتفسير:

بعد استيفاء الإرشادات الإلهية في آداب الحديث والمجالسة ومناجاة رسول الله يعود السياق إلى التنديد بأهل النفاق وهو الموضوع الذي تقدّم في

أول السّورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وكانت النّجوى الفاجرة من أحسّ وسائلهم في التّحرّش بالمؤمنين، يعود السّياق بعد تلك النّداءات الإيمانية التّوجيهية يعود ليفضح أحوال المنافقين الذين كانوا يتولون اليهود ويحبكون معهم الدّسائس والمؤامرات ضدّ المسلمين، وقد شدّد الله عليهم النّكير وأنذرهم بالعذاب المهين وسلكهم في أولياء الشّيطان وحكم عليهم بالخسران المبين قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

وفي سبب النّزول فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي ومقاتل قال: بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النّبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله في حجرة من حجره، إذ قال: يدخل الآن عليكم رجل قلبه قلب جبّار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال له رسول الله: علام تشتمني أنت وأصحابك، فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي: فعلت. فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبّوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.[1]

والقول في جملة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ﴾، قد تقدم في ما سبق، والاستفهام للتعجيب من حالة المنافقين الموالين للقوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود كانوا يتآمرون معهم بكشف أسرار المسلمين لهم وحبك الدّسائس ضدّهم كما دلت عليه قصة عبد الله بن نبتل، وقد بيّن الله واقعهم أزاء المجتمع المسلم فقال:

١- رواه أحمد في المسند بلفظ قريب، رقم ٢٤٠٧: ١/٢٦٧.

أ)- ﴿مَا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾: على احتمال أن يعود الضّمير: ﴿هُم﴾ إلى الذين تولّوا قوما، وهو ما يرجحه السّياق، أي ليسوا في حقيقة انتمائهم ليسوا منكم أيها المؤمنون ولا من اليهود الذين يوالونهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء:١٤٣). ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (التوبة:٥٦):

ب)- ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: وذلك عندما تنكشف فضائحهم وهم يخشون سلطة الدّولة الإسلامية أن تعاقبهم فيحلفون أنهم مسلمون ليدرؤوا عن أنفسهم وأموالهم ما يلحقها من تلك العقوبات، ويفعلون ذلك عن علم بكذبهم ومراوغاتهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي جعلوا من تلك الإيمان الكاذبة ستارا لما يقومون به من دسائس ومؤامرات للصدّ عن سبيل الله تثبيطا لعزائم المسلمين وتوهينا لصفوفهم بزرع البلبلة والشّك.

وقد تهدّدهم الله وشدّد عليهم النّكير بلهجة حادّة تناسب مواقفهم المخزية فقال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ، اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

إنها سلسلة من الإنذارات والتّهديدات يتوعدهم الله بها متلاحقة بدءا من قوله تعالى:

- ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي عذاب جهنم في الدّركات السّفلى منها -والعياذ بالله-.

- ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ذمّ قبيح للخلال النّفاقية التي تدل على ضعف الشّخصية وفقدان الثّقة بالنّفس بحيث لا يلقى من النّاس حرمة، كما قال الشّاعر الزّهاويّ:

إذا رمت أن تلقى من النّاس حرمة فكن سيّدا للخير أو سيّد الشّرّ

ويقول الرّسول ﷺ: «**لا يكن أحدكم إمّعة يقول: أنا مع النّاس إن أحسن النّاس أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم**».[1]

- ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: مفرّع عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، فجزاؤهم مضاعفة العذاب، لأنهم يقترفون جرما مركبا، بكفرهم في أشخاصهم، وبصدّ غيرهم عن سبيل الله.

- ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا﴾: تدل هذه الآية على ما يكون عليه هؤلاء -غالبا- من المال والثّراء فهم مغترون بذلك لتكون لهم وقاية من النّار فبيّن الله خيبتهم في موقف الحساب بأن تلك الأموال لا تنجيهم من عذاب الله لأنهم في عداد أصحاب النّار وبئس المصير: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾: وهذا كقوله تعالى في مفتتح السّورة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾(٦)، تفريع حلفهم في مشهد البعث والنّشور

١- رواه الترمذي من حديث حذيفة، كتاب (٦٨) البر والصلة، باب (٦٣) ما جاء في الإحسان والعفو، رقم ٢٠٠٧: ٤/٣٦٤. وقال: حسن غريب.

وتشبيه بحلفهم في الدّنيا للمسلمين، هو على ما دلّ عليه الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**يبعث كلّ عبد على ما مات عليه**».[1] قال ابن عباس: وذلك عامّ في كل حالة. فهم أمام العذاب لا يملكون إلا تلك الوسيلة الحسية وهم في المحكمة الإلهية العادلة وأمام علاّم الغيوب لا يملكون إلا تلك الأيمان الكاذبة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٢٣). ولكن هيهات وقد قال ربنا: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص:٧٥).

- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾: تصوير لمدى اغترارهم بأنفسهم وقد تأصّل فيها النّفاق ويرون أن تلك الوسيلة التي اتخذوها للحفاظ على مصالحهم، يروها حنكة وسداد رأي وحذقا في التّعامل، ولكنه تعالى يلغي تلك التّصورات ويحقر من شأنهم فيحكم عليهم بالكذب الذي لا يستقيم معه شيء.

- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾: تعليل وبيان للسّبب الذي أدّى بهم إلى تلك الحالة، فيقول تعالى: إنّ الشّيطان قد استولى عليهم كلية في تفكيرهم وتوجهاتهم فلم يدع منفذا لنور الإيمان إلى قلوبهم، ومن ثمّ فهم في غفلة عن ذكر الله، وبالتالي فإن ذلك النّسيان ينتج عنه انعدام الطّاعة والعبادة لله، فلا يهمهم إلا نزوات بطونهم وفروجهم وشؤون دنياهم، ومن نسي ربّه فهو في قبضة الشّيطان، وهو رمز الشّرّ وهو العدوّ المبين للإنسان.

- ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: وجاء حرف التّنبيه:

١- رواه مسلم، كتاب (٥١) الجنة وصفة نعيمها، باب (١٩) الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ٢٨٧٨: ٤/٢٢٠٦.

﴿ألا﴾ للدّلالة على أهمية المضمون بعده بـأن الله تعالى قضى بالخسران الذريع للشيطان وأعوانه، وهكذا يتولّى الله تعالى كشف واقع تلك الجماعة التي عاشت شوكة ضرّ وأذى في طريق الجماعة المسلمة التي تأتي مواصفاتها مقابل هذا النّصّ، والله أعلم.

الوعد بنصر المؤمنين، وتحريم موالاة الأعداء.

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِنَّ الذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾: ﴿يُحَادُّونَ﴾: الأصل فيه: يحاددون، فأدغمت الدّال في الدّال، معناه: يصيرون في حدّ غير حدّه الذي حدّده أي يشاقونه ويعادونه. ﴿فِي الأَذَلِّينَ﴾: أي يلحقه الذّل، اسم تفضيل. ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾: خبر "إن". ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾: ﴿كَتَبَ اللهُ﴾: بمعنى: قضى ذلك وأراد وقوعه. ﴿لأَغْلِبَنَّ﴾: جواب لقسم محذوف التقدير: قائلا والله لأَغْلِبَنَّ، أو الجملة مفعول: لـ﴿كَتَبَ﴾، ﴿وَرُسُلِي﴾: في موضع رفع بالعطف على الضّمير في: ﴿لأَغْلِبَنَّ﴾ لتوكيده بـ﴿أَنَا﴾. ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾: ﴿يُوَادُّونَ﴾: كيحادّون في الإدغام وهو بمعنى يتحببون ويوالون، في

موضع نصب مفعول ثان لـ﴿تَجِدُ﴾. بمعنى: تعلم، أو هو نعت لـ"قوم". ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: عشيرة الرّجل قبيلته الذين يجتمع معهم في جدّ غير بعيد. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: بروح منه أي بعنايته ولطفه حتى تطمئن قلوبهم، والرّوح من أسماء جبريل والقرآن. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: رضي الله عنهم بمغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾: بحمده وشكره. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: مقابل لحزب الشّيطان، وشتان بين الحزبين.

ج- البيان والتّفسير:

كانت التّركيبة البشرية في المدينة المنوّرة تتشابك فيها أواصر القرابة، وربما تحرّج الكثير من أصحاب رسول الله في التّعامل مع بعض أقربائهم من المنافقين فأنزل الله هذه الآيات يحذرهم فيها من موالاة أعداء الله مهما تربطهم بهم رابطة الدّم والنّسب فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**.

بعد إثبات الخسران لحزب الشّيطان وأوليائه جاء هذا التّعليل ببيان بعض مظاهر تلك الخسارة في الدّنيا قبل الآخرة، وهي تتمثل في ما يحصل لأعداء الله، مشركين أو منافقين، من الذّلة والهوان، وجاء التّعبير بصيغة التّفضيل لأن حجم الذّلة في أحد المتخاصمين يكون على مقدار عزة الآخر، ويرى بعض المفسّرين أن الآية السّابقة في مفتتح السّورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا﴾، يرون أنها تعني المشركين المعلنين للمحادة، أمّا هذه فهي تعني المنافقين، ويروون في سبب النّزول عن مقاتل قال: لما فتح الله مكة للمؤمنين والطّائف وخيبر وما حولها قالوا: نرجو أن يظهرنا الله على فارس والرّوم، فقال عبد الله بن أبي: أتظنون الرّوم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟، والله إنهم لأكثر عددا وأشدّ بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك. فأنزل الله

الآية: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أي إن الله تعالى قضى وحكم في علمه الأزلي بالنّصر والغلبة لدينه ورسله، وهو وعد صادق لم يتخلف في حقبة من الزّمان ولا مع أي رسول، فعلى الرّغم من انتفاش الباطل -أحيانا- ومن تحديات الكفر والإلحاد في بعض بقاع الأرض فإن الإيمان بالله ورسله قد دك معاقل الكفر وانتشرت العقيدة الصّحيحة في أغلب بقاع الأرض. وإن كانت تعروها هزات في بعض الأحيان فإن المستقبل لهذا الدّين مهما طال الصّراع، والله تعالى يركز ذلك الحكم الأزليّ بنصر أوليائه وأنه القويّ العزيز، ومن ذلك قوله:

أ)- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصّافات:١٧١- ١٧٣).

ب)- ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ (المائدة:٥٦).

ج)- ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ﴾ (الرّوم:٤٧).

والمؤمنون الأوفياء يواجهون كلّ التّحديات بقلوب مفعمة بالإيمان القويّ ليس لهم مودّة لغير الله ورسوله، فهي منطلقهم في روابطهم الاجتماعية تتضاءل أمامها كلّ الرّوابط الأخرى من نسب أو حسب أو جاه ومال، فمحبة الله ورسوله هي المعيار الدقيق لكل تصرفاتهم تنقطع عند حدودها كل الرّوابط الأخرى، قال تعالى: **﴿لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾**:

﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا﴾: الخطاب لرسول الله ومن خلاله لجميع أمته، والموادّة حصول المودة بين اثنين، والمراد بها حصول المودة من المؤمن للكافرين، لأن

المودّة من أحوال القلب فلا يجتمع إيمان وكفر في قلب واحد، فاعتبار القرابة مهما كانت درجتها من الوالدين إلى العشيرة التي يجتمع فيها كثير من الأفراد حول جدّ واحد غير بعيد يتنافى مع الإيمان الصّحيح، قال الشّاعر العربيّ:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا انتسبوا لقيس أو تميم

وقد برهن الصّحابة من أهل بدر على هذه الصّفة فقتل بعضهم أقرباءهم عندما خرجوا محادّين لله ورسوله، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اللّهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق علي يدا ولا نعمة فيودّه قلبي، فإني وجدت فيما أوحي إلي: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾**».[1]

ثم بيّن الله منزلة المؤمنين الأوفياء وجزاءهم فقال: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الايمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الايمَانَ﴾: الإشارة إلى القوم الموصوفين بالإيمان بيّن الله بها سبب ذلك الموقف منهم بأنه أثبته في قلوبهم إيمانا راسخا ويقينا بحكم الله وإرادته.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: إنه الإمداد الرّوحاني نورا يقذفه في قلوبهم يمدّهم بالعون والتّوفيق وينعكس على جوارحهم قوة ونشاطا وعزيمة تنصرهم على أعدائهم في الدّنيا وينتظرهم النّعيم الخالد في جنات النّعيم.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: فرضى الله عنهم في الدّنيا والآخرة هو

١- عزاه الألوسي للدّيلمي من طريق الحسن عن معاذ، روح المعاني: ٣٥/٢٨.

العوض الثمين لما أظهروه من كره وسخط على أقارهم ورضاهم عنه قد تمّ بالحمد والشّكر على ما أعطاهم من الفوز العظيم.

﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تكرار الإشارة للتعظيم، فهم أولياء الله وجنوده الغالبون، فهم في كنفه وتحت لوائه لإنفاذ حكمه ونصرة دينه وهم الفائزون في الدّنيا والآخرة.

إنهما حزبان متقابلان، لا يتداخلان ولا يختلطان منذ فجر البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والناس في حياتهم العاجلة يختارون إلى أي حزب ينتمون، إلى حزب الله، أو حزب الشّيطان، فلكلّ منها أهدافه وتوجهه، ولكلّ منها مصيره وعاقبته، فليختر الواحد منّا ما دام له الاختيار، والله أعلم.

تمّت

سورة الحشر، مدنية، وآياتها ٢٤

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة الحشر لوقوع لفظ الحشر في مفتتحها سمّاها كذلك رسول الله ﷺ في ما رواه الإمام البخاري، ومعناه حشر بني النّضير من ديارهم بالمدينة المنوّرة، وقد تسمّى -أيضا- سورة بني النّضير، لخروجهم من ديارهم إلى خيبر وبلاد الشام. وهي مدنية، وآياتها أربع وعشرون، مرتبة في عداد نزول السّور في الثّامنة والتّسعين، نزلت بعد سورة البيّنة وقبل سورة العصر، وهي التّاسعة والخمسون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

- نزلت في شأن إجلاء بني النّضير عن المدينة وبينت حكم أموالهم بعد الانتصار عليهم.

- افتتحت واختتمت بالتّسبيح لله ووصفه ببعض صفاته الحسنى، وأنه القوي القاهر المدبّر الحكيم، وكيف نصر رسوله على أعدائه.

- بيان تقسيم الفيء الذي حازه المسلمون من بني النّضير مع ذكر كيفية تقسيمه.

- التّنديد بمواقف المنافقين مع أهل الكتاب وضرب المثل على كذبهم.

- تحريض المؤمنين على ملازمة التّقوى والعمل ليوم الحساب.

- التّنويه بشأن القرآن وعظمة قدره.

- مما ورد في فضلها:

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آخر سورة الحشر: ﴿لَوْ**

﴿أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ إلى آخرها فمات من ليلته مات شهيدًا».[1]

قلت: وقد كان من عادتنا في مجالس الذّكر بالمسجد -ونحن أطفال صغار- أن نضع كفّنا الأيمن على جبهتنا عندما نتلو هذه الآيات، وننوي بها الرّقية الشّرعية لطلب السّكينة وتخفيف الأوجاع.

إجلاء يهود بني النّضير، وبيان نقمة الله على أعدائه.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴿٢﴾ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: ﴿سَبَّحَ﴾: بمعنى التنزيه لله من صفات النّقص. ﴿مَا﴾: موصولة لغير العاقل استعملت للتغليب. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿هُوَ الذِي

١- عزاه السيوطي لابن مردويه، الدر المنثور: ٤٠٦/١٣.

أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾: ﴿هُوَ الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾: ﴿هُوَ الذِي﴾: يفيد الحصر، و﴿الذِينَ كَفَرُوا﴾: هم بنو النّضير. ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾: اللاّم للتوقيت. أول الحشر: بمعنى حشرهم الأول، أي جمعهم ونفيهم للشّام، وآخر الحشر لهم هو إجلاؤهم من طرف سيدنا عمر من خيبر إلى الشّام. ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾: في موضع نصب تقوم مقام المفعولين لـــ﴿ظننتم﴾. ﴿حُصُونُهُم﴾: مفرده: حصن، القلاع المشيدة للدفاع، وهي فاعل لاسم الفاعل: ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾. ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: أي جاءهم عذاب الله من مكان لم يخطر لهم على بال، والقذف: الرّمي باليد بقوة. و﴿الرُّعْبَ﴾: الخوف، أي أسرعوا في الاستسلام. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾: التّخريب إسقاط البناء وهدمه، خرّبوا بيوتهم بأيديهم حقيقة لنقل ما أمكن من بقاياها. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الأَبْصَارِ﴾: أي اتعظوا بحالهم لتعلموا أن وعد الله حق. ﴿وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾: أي قضى وحكم الله عليهم بالخروج الجماعي مع الأهل والولد. ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ اَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا﴾: اللينة: النّخلة مطلقا، وقيل: النّخلة الكريمة، فبأمر الله تمّ ذلك القطع لإجبار العدوّ على الاستسلام. ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾: تعليل لذلك القطع.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُخْرِبُونَ﴾: قرأ الجمهور بسكون الخاء وتخفيف الرّاء المكسورة، مضارع أخرب، وقرأ أبو عمرو وحده بفتح الخاء وتشديد الرّاء المكسورة مضارع: خرّب، وهما بمعنى واحد.

د)- البيان والتّفسير:

﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، هُوَ

الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الاَبْصَارِ﴾:

نزلت في قصة بني النضير وهم طائفة من اليهود، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة، يقول الدّكتور وهبة الزّحيلي في ما رواه عن أسباب النّزول: "وروي أنه ﷺ لما قدم المدينة صالح لبني النّضير على ألا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر على المشركين يوم بدر قالوا: إنه النبي المبعوث في التّوراة بالنّصرة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسول الله محمد بن مسلمة، أخا كعب من الرّضاعة فقتله غيلة، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشّام، ولحقت طائفة بخيبر والحيرة، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾".[1]

﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿سَبَّحَ للهِ﴾: من التّسبيح، وهو التّمجيد والتّقديس لله تعالى، وتنزيهه عن كل نقص، وهي افتتاحية سورة الحديد، جاء الفعل بصيغة الماضي لأنه تسبيح شكر عما مضى من نعمة إجلاء بني النّضير. ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة لغير العقلاء تغليبا لأن كل الموجودات تسبح لله بوسائلها الخاصة إما بلسان المقال أو بلسان الحال إجلالا لعظمته وخضوعا لسلطانه، وهو القاهر الغالب في ملكه الحكيم في تدبيره وصنعه وكل ما في الوجود يدل على ذلك ندركه بحسن النّظر والتّأمل.

١- التّفسير المنير: ٢٨/٦٨.

ونلمس مظاهر تلك القوة والحكمة في ما قضى به لبني النّضير من أهل الكتاب إذ لم يوفوا بعهده كما قال: ﴿هُوَ الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

﴿هُوَ الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾: ﴿هُوَ الذِي﴾: تعريف الجزأين يدلّ على القصر، أي الله تعالى لا غيره، ﴿مِن﴾: بيانية و﴿اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم يهود بني النّضير القاطنين بجوار المدينة، والتّنصيص على أنهم من الذين كفروا فيه الدّليل على انحرافهم عن عقيدتهم، وقوله تعالى: ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ اللام للتوقيت، وهي تبين الوقت الذي يبتدئ فيه عمل من الأعمال، ويقصد بالحشر الأول: إخراج الرّسول لهم من ديارهم بعد غدرهم وإجلائهم إلى الشّام وخيبر، وهناك حشر ثان لهم في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وسيتمّ إخراج لهم ثالث من فلسطين بإذن الله.

وسبب ذلك الإخراج كما تقدم في سبب النّزول هو نكثهم لعهدهم مع رسول الله كما هي عادة اليهود، وقد عزموا على اغتياله عندما كان يفاوضهم، ثم حاصرهم وأمرهم بالجلاء عن ديارهم.

قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾، الخطاب للمؤمنين في: ﴿ظَنَنتُم﴾ ثم عطف عليه ظنّ أهل الكتاب لتلاقي الظّنّين على صعوبة إخراجهم لمناعة حصونهم، أي ليس لكم -أيها المؤمنون- عمل في ذلك الإخراج إذ لم تكونوا تتوقعون خروجهم بتلك الكيفية، ولا هم كانوا يتوقعون ذلك إذ غرهم مناعة حصونهم ناسين قوة الله وقدرته في تسليط العذاب عليهم إذ جاءهم من داخلهم مما لم يخطر على بالهم، فاستولى على

قلوبهم الرّعب، قال تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ﴾.

فما تجدي الوسائل البشرية مع قوة الله وقدرته، والنّاس وما يملكون من صنعة، فأعجب لهؤلاء كيف انقلبوا على ما كانوا يغترون به من تلك البيوت والحصون فأخذوا يدمّرونها بأيديهم ويشاركون المؤمنين في تخريبها، وما أروع التّعقيب على هذه الحادثة العجيبة بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

جاء الأمر بالاعتبار مفرّعا على ما سبق، وهو في مكانه المناسب يأخذ المؤمنون العبرة ويتعظون بما حصل لليهود جزاء طغيانهم واغترارهم بقوتهم. والمراد: ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، ذوي الألباب الحصيفة والقلوب الواعية ممن ينتفعون بما تفرزها الحوادث والأيام.

ثم قال تعالى: **﴿وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَآقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**.

﴿لَوْلا﴾: تفيد الشّرط، وهو حرف امتناع لوجود، والجلاء هو خروج جماعة من النّاس من بلدهم إلى بلد آخر، وفعل: ﴿كَتَبَ﴾ بمعنى قضى الله وحكم عليهم، والضّمير ليهود بني النّضير حكم الله عليهم في علمه الأزليّ أن يخرجوا من ديارهم عقابا من الله على ما ارتكبوه من خيانة وغدر برسوله، والمراد أنهم لو لم يجلو عن ديارهم لعذبهم الله بعذاب دنيويّ آخر بالقتل والسّبي، كما فعل بغيرهم من الكفار والمشركين، وذلك غير ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

ثم يذكر الله سبب ذلك فيقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي وقفوا بعصيانهم في شقّ غير شقّ الله ورسوله، وخلاصة ذلك أنّ رسول الله

ذهب إليهم مع ثلة من أصحابه يسألهم المشاركة في دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأ وهما من بني عامر حلفائهم فوعدوا خيرا في الظّاهر وأضمروا الغدر والاغتيال لرسول الله بإلقاء صخرة عليه وهو جالس تحت جدار إحدى بيوتهم فأطلع الله رسوله بالوحي على مؤامرتهم فقام ورجع إلى المدينة ثم أمر بالتهيؤ لحربهم وذلك سنة أربع للهجرة، وكان الرّسول قد أمر بقطع بعض نخلهم إمعانا في التّرهيب فعابوا عليه ذلك ولكن الله أعذرهم في ذلك فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.[1]

واللّينة: الكريمة الجيّدة من النّخيل، كان قطع ذلك النّخل وترك البعض الآخر بأمر الله إمعانا في إذلال اليهود وإغاظتهم. وإذ كان ذلك التّخريب منهيا عنه في الإسلام فقد نزل الوحي يربط الحادثة بإذن الله إذ كانت الموقعة توجّه بأمره، فاحتاج ذلك إلى هذا البيان الذي يطمئن القلوب ويزيل اللّبس، وعلل الله ذلك بإخزاء الفاسقين وإذلالهم، والله أعلم.

بيان معنى الفيء، وحكمه الشّرعي.

أ)- النصّ:

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

١- أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٥٨/٨.

فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: يقال: فاء يفيء، إذا رجع، وأفاءه الله إليه إذا أرجعه إليه، والفيء شرعا ما أخذ من أموال العدوّ من غير قتال، ويقال: أوجف الحصان أو البعير يجف وجفا ووجيفا، إذا حثه على الإسراع في السّير، والرّكاب: الإبل التي تركبه. ﴿مِنْهُمْ﴾: الضّمير يرجع إلى بني النّضير. ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾: أي بإلقاء الرّعب في قلوبهم والغلبة عليهم. ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾: مزيد بيان للجملة السابقة، و﴿أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾: أي البلدان المفتوحة من غير قتال. ﴿فَلِلَّهِ﴾: أي يخصّص قسم من تلك الأموال لله يصرفها كيف يشاء والإمام مفوّض في كيفية توزيعه. ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾: قيل: هو سهم واحد مع سهم الله، ذكر معه تعظيما، ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾: هم قرابة الرّسول من بني هاشم وعبد المطلب. ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾: كَيْ لَا يَكُونَ المال شيئا متداولا بين الأغنياء وحدهم، لا ينال الفقراء منهم شيء. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة مبتدأ.

﴿فَخُذُوهُ﴾: في موقع رفع خبر. ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: بدل من: ﴿لِذِي الْقُرْبَى﴾. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾: الجملة في موضع نصب حال. ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَالذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾: أي سكنوا المدينة وهم الأنصار، في موضع جرّ، أي لـ"الذين"، ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. ﴿وَيُوثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: ﴿يُوثِرُونَ﴾: من الإيثار، أن يختارون غيرهم على أنفسهم في كل نفع ولو كان بهم خصاصة أي فقر. ﴿وَالذِينَ جَآءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: الأرجح هم الذين يأتون من بعد المهاجرين والأنصار وهم مؤمنون إلى يوم القيامة. ﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي حقدا ولا حسدا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً﴾: قرأ الجمهور بنصب ﴿دُولَةً﴾ على أنه خبر: ﴿يَكُونَ﴾. واسمها ضمير عائد إلى: ﴿ما أفاء الله﴾، وقرأه هشام عن ابن عامر وأبو جعفر برفع: ﴿دُولَةٌ﴾ على أن: ﴿يَكُونَ﴾ تامّة، و:﴿دُولَةٌ﴾ فاعله. وقرأ الجمهور: ﴿يَكُونَ﴾ بتحتية في أوّله، وقرأه أبو جعفر: ﴿تَكُونَ﴾ بمثناة فوقيّة جريا على تأنيث فاعله.

د)- البيان والتّفسير:

تكملة لامتنان الله على رسوله وعلى أصحابه في انتصارهم على بني النّضير وبعده بيان ما حلّ بهم من عذاب الدّنيا من تدميرهم لبيوتهم ثم إجلائهم إلى خيبر والشّام، ذكر الله تعالى حكم الأموال التي أخذت منهم وكيف تقسّم وهي تعتبر فيئا، وهو ما أخذ من العدوّ صلحا بغير قتال، وأن ما حكم الله به هو العدل والإنصاف حتى لا تتكدس الأموال في أيدي طائفة من النّاس قال

تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الجملة معطوفة على ما سبق، والفيء شرعا هو ما أخذ من أموال الكفار بدون حرب ولا قتال، أو أخذ صلحا كأموال بني النّضير، أمّا الغنيمة فهي ما أخذ بحرب وقتال، وضمير: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى كفار بني النّضير، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ سيأتي تفصيله في الآية اللاحقة، أي صيّره إليه خاصّة إذ حصلتم عليه بدون قتال، وما تجشمتم فيه مشقة بركوب إبل ولا خيل إذ فتحت حصون بني النّضير صلحا وهي لا تبعد عن المدينة إلا بميلين.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾، ورسوله محمد ﷺ هو ضمن رسله المسلطين على أعدائه بالغلبة والنّصر، وهو قادر على كل شيء فعّال لما يريده، والمعنى: لا حقّ لكم في ذلك المال فهو لله، أعطى التّصرف فيه لرسوله ولولاة الأمور من بعده.

ثم فصّل الله حكم ذلك الفيء من أموال الأعداء فقال: ﴿مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

كون هذه الآية تفصيلا للتي قبلها أم أنها مستقلة بحكمها في الأموال والأفياء التي حصلت للمسلمين عند فتح قرى أخرى، خلاف بين العلماء. وأيا كان الأمر، فإن التّفصيل الوارد فيها لا يتناقض مع الحكم العام الأول المذكور في الآية الأولى، وفي الآية بيان مصارف الفيء من كل ما ردّه الله تعالى للمسلمين من أهل القرى كقريظة وفدك، ووادي القرى، وخيبر، أي ردّه صلحا بغير قتال، هو في تصرّف الرّسول خاصة في حياته ثم في مصالح المسلمين من بعده. وقد خصّ الرّسول المهاجرين وحدهم بأموال بني النّضير وثلاث فقراء من الأنصار.

يقول القطب: "والإمام مفوّض في قسم سهم الله ورسوله وسهم ذي القربى يسوّي بين الغني والفقير والعالم والجاهل والصّغير والكبير والذّكر والأنثى أو يفضل من شاء إرضاء لله، وقد أعطى العباس منه، وله عشرون عبدا يتّجرون له وأعطى فاطمة وصفيّة".[1].

علّل الله ذلك التقسيم لأموال الفيء بقوله: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، وبما أن التّقسيم يشمل عدة أصناف في الآية السّابقة، وأغلبهم من المحرومين في المجتمع بيّن هنا علة ذلك الحكم وهي أن لا يتداول الأغنياء تلك الأموال وحدهم فلا ينال الفقراء منه شيئا، وتداول الشيء هو تعاقبه بين مختلف الأيدي.

إنها القاعدة الكبرى للتنظيم الاقتصادي في الإسلام، إنها الوسطية المعتدلة بين الشّيوعية والرأسمالية المتطرفتين، فهي لا تمنع الملكية الفردية ولكن تضبطها وتحددها بمختلف الضّوابط التّوزيعية للثروة حتى لا تحتكرها جهات معيّنة.

ثم وضع الله القاعدة الثّانية لسلطة التّشريع الإسلامي فقال: ﴿**وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾:

الآية معترضة في البيان التّفصيلي لتقسيم الفيء، جاءت لتخفيف وقع الحرمان من نفوس بعض من حضر محاصرة بني النّضير، وإقناعهم بالرّضى والقبول بحكم الله العادل في تلك القضية، والآية تأخذ الحكم العام في قاعدة التّشريع وتلقيه من مصدر واحد، وهو ما يبلغه الرّسول عن الله قرآنا أو سنة، فالأمة الإسلامية لا تملك أن تخالف ما جاء به الرّسول أصلا جاء به النّصّ التّشريعي أو قياسا على ذلك الأصل، والسّلطة الرّقابية في تنفيذ ذلك هو

١- تيسير التفسير: ١٤/ ٤٣٨.

تقوى الله والخوف من عقابه.

وبعد بيان الحكم الخاصّ بالفيء في عهد رسول الله بيّن الحكم العامّ للمستحقين له من المهاجرين والأنصار ومن يأتي من بعدهم فقال: ﴿**لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ هو بدل من قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فيكون المقصود بأولئك الأصناف الأربعة ممن يصرف لهم الفيء أي ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل، هم هؤلاء الأصناف من فقراء المهاجرين ثم الأنصار ثم من يأتي بعدهم. وبذلك تمّ توزيع الفيء، فكان ذلك الإجراء الخاصّ من الرّسول في توزيع فيء بني النّضير إذ وضعه في المهاجرين خاصة وبعض من فقراء الأنصار، وأما الحكم العام فيكون الفقراء عامّة من الطّوائف الثلاث مهاجرين وأنصار ومن يأتي بعدهم. وقد أحاط الله كل طائفة بهالة من الأوصاف النّدية ترسم لكل واحدة منها صورة مشرقة وضيئة تذكر واقعها وتخلد ذكرها، فقال عن المهاجرين بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ظلما وعدوانا وما لهم في ذلك من ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، وما لهم من قصد إلا السّعي لمرضاة الله وطلب فضله وبذل كل ما لديهم لنصرة دينه، وقد شهد الله لهم بالصّدق والإخلاص وجعل منزلتهم في ذلك لا تدانى فجاء التّعبير بصيغة القصر: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

ثم ثناهم بالأنصار من أهل المدينة فأبرز منزلتهم بما ميزهم من التّضحية والإيثار والمحبة في الله فقال: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

وفعل تبوّأ، معناه اتخاذ مكان ما مباءة يلجأ إليه في كلّ مرة، و﴿الدَّارَ﴾ هي المدينة المنوّرة، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: الضّمير يرجع إلى المهاجرين والمراد أن المتبوئين للمدينة وهم الأنصار قد أخلصوا في إيمانهم ولزموه كلزومهم لديارهم فكأن الإيمان الصّادق وجد من قلوبهم منزلا وسكنا فتمكن فيها واستقرّ كما استقرت أجسادهم في ديار المدينة. ثم خلّد مآثرهم في الكرم والإيثار مما لم تعرف المجتمعات البشرية له مثيلا مما كان يحلم به الفلاسفة والحكماء من تخيل المدينة الفاضلة، وقد حققه الأنصار واقعا معيشا في أعظم صورة كان فيها الحبّ المكين في الله لإخوانهم المهاجرين، كان ذلك الحبّ الوطيد هو الدّافع القوي في تلك المشاركة الحيّة والمسابقة إلى الإيواء ومقاسمة ضرورات الحياة بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وصل بهم إلى حدّ الإيثار، وهو أن تفضل غيرك على نفسك بشيء لك به حاجة بحيث لا تشعر بمضاضة في ذلك ولا تحسّ في نفسك بأي شيء يثير سخطا، بله الحسد والضّيق.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: فالشّح هو المانع من كل خير، وهو المرض الوبيل الذي يقضي على مشاعر الشّفقة والرّأفة ويجفف منابع الرّحمة في النّفس البشرية، ومن حصنه الله من جراثيم ذلك المرض فقد يسّر له سبل الفلاح بما يتطبّع به من الكرم والسّخاء.

﴿وَالَّذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

إنها السّمات المميزة لباقي الأمة الإسلامية في جميع الأوطان والأزمان بعد ذلك الرّعيل الأول الممتاز الذي وصفهم رسول الله بأنه خير القرون، يسير الأخلاف على سنن الأسلاف، وقد رسم الله لهم -أيضا- هذه الصّورة الوضيئة وفق ما قدّر في علمه الأزلّي بأن الخيرية في هذه الأمة لا ينضب معينها

وإن تداولت الأيام بين الناس فحبل الإيمان لا ينقطع ولو رقّ -أحيانا- فإن السّمة الغالبة على هذه الأمة أنها تتوجه إلى ربّها في طلب عفوه ومغفرته وتجعل ذلك مطلبا مشتركا ورجاء عاما يغطّي كل أفراد الأمة في ماضيها وحاضرها، وأولى من ذلك وأكثر إلحاحا أن يطهر الله قلوبها من أي غلّ أو حقد للمؤمنين عامّة ممن ينتمون إلى هذا الدّين طمعا في رأفة الله ورحمته، وليس أفضل لأخيك المؤمن من أن تدعو له عن ظهر غيب.

تلكم هي الصّورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لأجيال هذه الأمة في ماضيها وحاضرها، تواد وتضامن وتكافل وتكامل في السّراء والضّراء، واعتزاز بالانتماء الواحد، صفوفا متراحمة تحت لواء التّوحيد وجهود متظافرة في نصرة دين الله، فهل نحن كذلك اليوم؟.

فلنكن أو لا نكون، والله غالب على أمره، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون، والله أعلم.

تواطؤ المنافقين مع اليهود، وكيف كانت عاقبتهم؟.

أ)- النصّ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ
مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ
جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: بمعنى انظر، الاستفهام للتعجيب: ﴿تَرَ﴾ مجزوم بحذف حرف العلة. ﴿تَرَ﴾: الجملة في موضع نصب حال، و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: هم بنو النضير. ﴿لَئِنْ اخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾: اللام للقسم، ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾: جواب القسم، أي نحن معكم في محنتكم بالنصر والتأييد. ﴿وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾: أي لاَ نُطِيعُ من سألنا التخلّي عنكم. ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾: حذفت اللاّم الموطئة للقسم من: ﴿إن﴾. ﴿لَئِنْ اخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ﴾: لم يجزم فعلا: ﴿يخرجون﴾ و﴿ينصرون﴾ لأنهما جوابا قسمين قبلهما. ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿رَهْبَةً﴾: منصوب على التمييز، أي يخافونكم أكثر مما يخافون الله. ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾: ﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على الحال، ﴿قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾: أي منيعة بالقلاع والحصون. ﴿جُدُرٍ﴾: قيل: اسم جمع جدار، أي الحيطان وذلك دليل على جبنهم. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾: ﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على أنه مفعول ثان لـ"تحسب". ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾: مبتدأ وخبر، ﴿شَتَّى﴾: بمعنى هم متفرقون بعقائدهم وتوجهاتهم. ﴿كَمَثَلِ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: ﴿كَمَثَلِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: مثلهم كمثل. ﴿الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: كبني قينقاع أو أهل بدر. ﴿قَرِيبًا﴾: منصوب على الظّرفية. ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: الوبال: وخامة المرعى تقتل الإبل، شبه به عذاب الله. ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ

خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾: ﴿عَاقِبَتَهُمَا﴾: منصوب في خبر "كان"، و"أن" واسمها وخبرها في موضع رفع اسم: ﴿كَانَ﴾. ﴿خَالِدَيْنِ﴾: منصوب على الحال. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾: الإشارة إلى ما دلت عليه الآية السّابقة. ﴿جَزَآءُ﴾: خبر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جُدُرٍ﴾: قرأه الجمهور بضمتين، جمع: جدار، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿جِدَارٍ﴾، على الإفراد، والمراد الجنس.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان ما حدث لبني النّضير من الجلاء وغنيمة أموالهم، ثم بيان مصارف فيئهم وفيء ما فتحه المسلمون من القرى بعد ذلك، ذكر الله تعالى هنا مواقف المنافقين مع اليهود، وكيف كانوا يوالونهم في السّرّ ويغرّونهم بالوعود الكاذبة، وفي ذلك تحذير للمؤمنين من الانخداع بهم وليعلموا أنّ النّفاق سجية في نفوس هؤلاء الخونة لا يتخلّون عنه مع أي فريق، ولا يبالون بالوسائل الخسيسة في تحقيق غاياتهم، وقد شبههم الله بمراوغات الشّيطان وخداعه لأوليائه عند الشّدة فقال: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجيب من حال المخبر عنه، والخطاب لغير متعيّن، والمتعجب منهم هم المنافقون، كما تذكر الرّواية هم فريق من بني عوف وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، ﴿يقولون﴾: أي في حالة التّجدد والاستمرار، أي يقولون لبني النّضير، وإنما وصفهم الله بالأخوة لهم لأنهم كانوا على نفس التّوجّه في الكفر بسيدنا محمد ﷺ، ولا صلة لها بالنّسب

أو القرابة، كان هؤلاء المنافقون يحرّضون اليهود على الثّبات ومواجهة المسلمين بالقتال ويعدونهم بنصرتهم والوقوف معهم إن هم قوتلوا وبالخروج إن أخرجهم المسلمون من ديارهم، وهم يقولون لهم بتأكيد القسم، ولكن الله تعالى يقول في شأنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (المجادلة:١٤). ولذلك جاءت شهادة الله عليهم هنا بأنهم كاذبون: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَئِنْ اخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾.

والله العليم بطبائع النّفوس يبين زيف تلك الوعود الكاذبة، وإن كرّرها بقولهم: ﴿وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، أي لا نطيع في شأنكم أحدا ممن يخذلنا في نصرتكم، فإذا الواقع في ما قرره الله، فلم يقدم المنافقون يد النّصرة لليهود ولم يساعدوهم في محنتهم بل يكشف الله حقيقة أخرى يحاولون إخفاءها في نفوسهم وهي السّبب الأصيل في ذلك الخذلان فقال: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾.

إمعانا في التّهوين من شأن اليهود وأشياعهم من المنافقين في نفس الرّسول والمؤمنين معه، جاء تقرير هذه الحقيقة التي يعلمها الله في نفوس هؤلاء الكافرين لدعوة الإسلام المناوئين لأتباعه بأنهم في الواقع يخافون المسلمين ويرهبونهم بأشدّ مما يخافون الله، وذلك بسبب أنهم عديمو المعرفة بعظمة الله وقدرته وعزّته وقوّة سلطانه على كلّ ما في الكون، فإنّ القلب الخاشع القوي إيمانه لا يعدل في خشيته لله أحدا من خلقه مهما بلغ من الطّغيان والجبروت، ولا شكّ أن إقرار مثل هذه الحقيقة يقوّي عزائم المسلمين في مواجهة أعدائهم.

وقد تجسّدت تلك الرّهبة في أسلوب قتالهم للمسلمين وقد بيّنه الله بقوله: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: الضّمير المرفوع عائد إلى اليهود وأشياعهم من المنافقين والخطاب للمسلمين، وهم متشابكون مع أعدائهم لا يلقون منهم مواجهة جريئة تدلّ على الشّجاعة والإقدام بل لشدة الرّعب يتخفون في حصونهم المنيعة ويختبئون وراء الجدران، فهم لا يقدرون على قتالكم إلا على تلك الأحوال خوفا وجبنا. ثم شخّص الله حالتهم النّفسية ووضعيتهم الاجتماعية فإذا هي في حقيقتها كما يعلمها الله وبينها للمسلمين تمزق وفرقة وتناحر في القلوب توهن وحدتهم وتفكك شملهم، وإن كانوا يتظاهرون بالتّماسك والوحدة. فإنهم يكيد بعضهم لبعض فيشتدّ النّزاع بينهم لتضارب أهوائهم ومصالحهم، وفي ذلك تحقير لشأنهم واستخفاف، وهو تحذير وتربية للمسلمين من أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء وقد قال الشّاعر:

إن القلوب إذا تنافر ودّها مثل الزّجاجة كسرها لا يجبر

فيا ليت شعري كيف انعكست الأوضاع اليوم في مشاكل المسلمين مع أعدائهم، كيف يواجهوننا بكلمة موحدة وقرارات متفق عليها على المستوى العالمي لتحطيمنا وتشتيت شملنا، ونحن ما نزال نؤجّج الإحن الماضية، ونقضي في شؤوننا بعقلية الطّائفية البغيضة، فاللّهم لطفا بعبادك وأنت عليم بذات الصّدور.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾: فإن إهمال النظر في عواقب الأمور والجهل بسنن الاجتماع يجعل صاحبه كمن لا عقل له، ولم يكن حادث بني النّضير وأشياعهم من المنافقين لم يكن الوحيد في تشخيص ذلك الواقع فقد جرت أحداث مثلها من قبل أشار الله إليها بقوله: **﴿كَمَثَلِ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

إنه حادث بني قينقاع من اليهود أيضا، وقيل: هم كفار قريش في غزوة بدر، غير إن المثلية الشاملة في الأحوال المذكورة السّابقة هي أوفى في بني

قينقاع منها في كفار قريش ببدر، إذ كانت أقرب من حادثة بني النضير في الزّمن وأشبه في الحصار والجلاء وخداع المنافقين لهم، ولكنهم لم يعتبروا.

ثم يضرب الله لهم مثالا آخر مما يجدونه منصوصا عندهم في كتبهم المقدسة، من حال الشّيطان مع الإنسان فقال: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾، فيكون التّقدير كسابقه: مثلهم كمثل الشّيطان.

وضرب الله هذا المثل لعذاب الآخرة كما بيّن ذلك في الآية اللاحقة و"أل" في الشّيطان والإنسان للجنس، وحقيقة إغواء الشّيطان للإنسان قد كررها القرآن بأساليب مختلفة فهو يوسوس للإنسان بأنواع الشّر في الدّنيا حتى إذا انتهى به المطاف إلى يوم الحساب تبرأ منه وتخلى عنه في خداع وجرأة وقال: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم:٢٢).

إنها حقائق مجرّدة من عالم الغيب يربطها الله بالواقع في حادثة بني النّضير، وما موقف المنافقين فيها إلاّ أعوان للشياطين في المكر والخداع، وذلك هو منتهى الشّرّ في شدّة وقعه على النّفوس، ولذلك جاءت هذه الخاتمة المرعبة تلزّ الفريقين في قرن واحد، لتكبّها في نار جهنم جزاء الكفر والظّلم، والله أعلم.

تأكيد الأمر بالتقوى والسعي للآخرة.

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: أكد الأمر بالتقوى مرتين للاهتمام بها وتتمثل في امتثال أوامره واجتناب نواهيه. الغد: كناية عن يوم القيامة وتنكيره للتهويل. وتنكير: ﴿نَفْسٌ﴾ في سياق الأمر يفيد العموم بمعنى: كل نفس. ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: أي تحصيل عمل يكون الانتفاع به في المستقبل. ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: المراد بنسيان الله الإعراض عن دينه بترك توحيد الله وتكذيب رسوله عن عمد، ويكون هذا النسيان على مراتب تنتهي بصاحبها إلى الكفر والشرك. ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أي نسوا حظوظ أنفسهم في أن يقدموا لها خيرا. ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أي المنحرفون عن الصراط السوي، وضمير الفصل يفيد القصر. ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: بين "الجنة" و"النار" طباق، ونفي الاستواء بينهما لبيان أنهما لا يلتقيان في توجّه ولا عمل ولا في صفة من الصّفات، وللتأكيد على بيان البون الشاسع بينهما ذكر المفضّل من الشّيئين و لم يوكله إلى فهم السّامع، كقول السّموءل: فليس سواء عالم وجهول.

ج)- البيان والتفسير:

بعد الامتنان على المؤمنين بما يسّر الله لهم من تربية بني النّضير وإجلائهم

عن قراهم وما أفاءه عليهم من الأموال، وبعد بيان أحوال المنافقين مع اليهود وخيبة أملهم في نصرتهم وتشبيه مصيرهم بمصير أسلافهم من القرى الأخرى توجّه الخطاب الرّباني إلى المؤمنين يأمرهم بالتّقوى شكرا على ما أنعم عليهم من نعم الدّنيا وذكّرهم بالإعداد للآخرة حتى يكونوا من أصحاب الجنة الفائزين وحذرهم من عمل أهل النّار النّاسين لربهم والمنحرفين عن صراطه السّويّ فقال جلّ من قائل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾: إنّه النّداء الحبيب إلى جماعة المؤمنين ليستحيش شعورهم الإيماني ويحملهم على المسؤولية التّضامنية في الالتزام بمقتضيات الإيمان ومن أجلّها وأكثرها تأكيدا في نصوص القرآن الأمر بالتّقوى وهي تعني في الاصطلاح الشّرعيّ أن يفعل الإنسان ما يرضي الله ويجتنب ما يسخطه، فيتخذ بذلك وقاية بينه وبين غضبه وعقابه، وهي حالة انفعالية في قلب الإنسان تجعله يقظا حساسا بجلال الله وعظمته بحيث يتهيّبه أن يكون على حالة يكرهها الله.

وقد قرن الله التّقوى بالإيمان في كثير من الآيات كما رتب عليها كثيرا من النتائج الطّيّبة في حياة الفرد والمجتمع كقوله تعالى:

- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ (الطّلاق: ٢-٣).
- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنَ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطّلاق:٤).
- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (الطلاق:٥).
- ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ (البقرة:٢٨٢).
- ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ١٢٠).

- ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦٢-٦٣).

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: إنها النظرة التقييمية من طرف الإنسان لصفحة أعماله، يتأمل نوعيتها أيها قدّم لغده اليوم الآخر. والتعبير "بالغد" ليوم الحساب والجزاء يوحي بقربه وإن استبعده كثير من النّاس: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (الحاقة:٦-٧). وبذلك التأمّل التقييمي يدرك الإنسان مواقع نقصه ومواطن تقصيره فيتلافاها ما دامت له فسحة في العمر للتوبة والاستدراك. وقبل أن ينبه الله إلى كونه مطلعا على أعمال عباده بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ زاد إرهافا لحساسية التقوى بتكرار أمره بالتقوى لحمل المؤمنين على الدوام عليها ثم أردف ذلك بقوله: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**.

بعد التذكير بأهمية التقوى يأتي التحذير من نسيان الله بمعنى الإعراض عن دينه بترك ما دعاهم إليه من تكاليف عقيدة وعملا وسلوكا، والنهي عن التشبه بالذين نسوا الله هكذا إجمالا بدون تعيين ليتناول كلّ أولئك الذين أعرضوا عن التقوى، ممن أضفى الله عليهم صفة النّسيان في القرآن من كفار ومنافقين ويهود ونصارى فقال في شأن الكفار:

- ﴿الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (الأعراف:٥١).

- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة:٦٧).

وقال في شأن اليهود والنصارى: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ (المائدة:١٣).

وتفرّع عن نسيانهم الله إنساء الله أنفسهم، بمعنى أنه تعالى لم يوفقهم لفهم الهدي الإسلامي والتجاوب مع إرشاداته الحكيمة فلم يعملوا بما يقيهم من عذاب النار. فينسى بذلك إنسانيته بحيث يوردها موارد الفسق والضلال.

فنسيان الله لهم لا يكون إلا بذلك المعنى لأنه تعالى لا يوصف بالنّسيان والغفلة كما قال: ﴿ومَا كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم:٦٤). ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ (طه: ٥٢).

وعلى ذكر الذين نسوا الله يقرّر الله تعالى أنّ هؤلاء هم أصحاب النّار، ويقابلهم بالمؤمنين الذين سلكوا في حياتهم طريق الجنة وينفي تساويهم في كل الأحوال: **﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾**.

فبعد أن بيّن الله أنّ التّقوى هو الزّاد المطلوب للمؤمن على طريق الآخرة، وأنّ الذين نسوا الله هم الذين أخطأهم التّوفيق فانحرفوا عن طريق الهدى والرّشاد جاءت هذه الآية لتبيّن عاقبة كل فريق في وعيد النّار للذين نسوا الله ووعد بنعيم الجنة للذين آمنوا واتقوا، وأنّ الفريقين لا يستويان أبدا ولا يلتقيان أبدا في وسيلة ولا غاية.

وقد حكم بالفوز لأصحاب الجنة في صيغة القصر الإذعاني بضمير الفصل، وتعريف جزأي الجملة، بينما سكت عن الفريق المقابل تحقيرا لشأنه من أن يذكر فهو مفهوم من نفس التّسوية، وذلك من الإيجاز البديع، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُومِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (السّجدة:١٨).

والله أعلم.

عظمة القرآن وعظمة منزّله.

أ)- النصّ:

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: ﴿لَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع يفيد الشّرط، ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾: جواب الشّرط. ﴿خَاشِعًا﴾: منصوب على الحال لأن الرّؤية بصرية، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: أي متشققا من خوف الله وعظمته، فيه توبيخ للإنسان على قساوة قلبه. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: ﴿الْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الحسّ مما لا نراه. ﴿الشَّهَادَةِ﴾: ما نشاهده ونراه ، وبينهما طباق. وهو نعت أو خبر. ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾: القدوس: الطّاهر المنزه عن كل نقص، ﴿السَّلَامُ﴾: أي سلم من جميع الآفات، وسلم الخلق من ظلمه، ﴿الْمُؤْمِنُ﴾: واهب الأمن لعباده أو مصدّق المؤمنين في قولهم وفي شهادتهم يوم القيامة. ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾: الرّقيب على أفعال عباده الحفيظ لكل شيء. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾: أي بالغ الكبرياء والعظمة. قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الجاثية:٣٧).

﴿الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾: ﴿الْبَارِئُ﴾: المنشئ من العدم والذي سوّى الخلق. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾: أي خلق الأشياء على غير مثال مما سبق. ﴿لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾: قيل: هي تسعة وتسعون. ﴿الْحُسْنَى﴾: مؤنث أحسن، وصفت بذلك لأنها دالة على محاسن المعاني التي تظهر في هذا الوجود.

ج- البيان والتّفسير:

بعد تحريض المؤمنين على الاهتمام بما يقدمونه من المبرات لليوم الآخر وتحذيرهم من نسيان الله كما وقع في ذلك الفاسقون أعقب ذلك بتعظيم شأن القرآن ونبّه إلى قوّة تأثيره في الدّلالة على مسالك الخير موبخا الإنسان على قساوة قلبه لعدم تدبّره ثم ختم السّورة مشيدا بعظمة منزل القرآن ذي الأسماء الحسنى والذي يسبّح له الوجود كله في تذلّل وخضوع فقال تعالى: **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

عبّر الله بـ"لو" في فرضية إنزال القرآن على جبل وتصدّعه لقوة تأثيره عليه خشية من الله، وتقدير المعنى: لو كان المخاطب بهذا القرآن جبلا صلدا شامخا وكان ذلك الجبل يفهم الخطاب لتأثر بالقرآن تأثرا بليغا، فكيف بأولئك الذين نسوا الله فقست قلوبهم و لم يتأثروا بمواعظه ولذلك عندما شبه الله قلوب هؤلاء بالحجارة قال: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة:٧٤).

وهذا مثل يضاف للأمثلة المتقدمة في السّورة، وهو يمثل الصّورة الحقيقية للقرآن في قوة تأثيره وقوة سلطانه على النّفوس مهما اشتدّ عنادها ونفورها فقد حفظت السيرة أخبار أئمة الكفر كيف كانوا يسترقون السّمع لسماعه في جنح اللّيل وهم يتسترون ويريّم بعضهم على بعض إذ ينجذبون لسحر بيانه ويعرفون في قرارة أنفسهم أنّه الحقّ الذي لا يمكن أن يقوله بشر، ويقرب من

معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرّعد:٣١).

وجواب الشّرط في هذه الآية مقدر أي: لكان هذا القرآن، فلا عجب في أن تتحقق تلك المعجزة الرّوحية في نفوس كلّ من تجاوبوا واهتز كيانهم للقرآن الكريم وجعلت منهم خير أمّة أخرجت للناس.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: وضرب الأمثال من الأساليب البليغة التي تقرب المعاني الدّقيقة إلى الأفهام وتدفعها إلى التّأمل والتّفكّر.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: السّورة حافلة بذكر اسم الله وضمائره وصفاته، وتأتي في خاتمتها هذه السّلسلة النّورانية من أسمائه الحسنى في ثلاثة مقاطع صدّر اثنان منها بشهادة الوحدانية، وتكرّر في الثّالث الضّمير المنفصل مع لفظ الجلالة، وصار مجموع تلك الأسماء الحسنى خمسة عشر اسما، وهنا بدئت الجملة بضمير الغيبة العائد إلى اسم الجلالة في الآية السّابقة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ويجوز أن يعتبر ضمير الشّأن، وفي الحالين يستفاد منها الحصر.

ووقع التّركيز على الوحدانية؛ لأن مدلول لفظ الجلالة هو المعبود الحق، الذي يستحق العبادة وحده وهو الجامع لصفات الكمال المطلق.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: التّعريف في اللّفظين للاستغراق، والجمع بينهما بالنّسبة لعلم الله الشّامل هو للتفريق بينه وبين علم الإنسان الذي يقتصر على الظّاهر المحسوس، وحتى لا يتوهم المشركون أنه تعالى لا يعلم ما يخفونه وما يسرّون: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزّخرف:٨٠).

﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: صيغة مبالغة من الرّحمة، والحصر جاء على اعتبار أن الرّحمة الحقيقية هي له لا لغيره كما جاء في الحديث: «**جعل الله الرّحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل إلى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».[1] وهما الصّفتان المناسبتان لعموم علم الله وشموله، والاعتقاد بعلم الله ورحمته يجعل المؤمن متعادلا بين الخوف والرّجاء بحسن مراقبته لله في تصرفاته.

﴿هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

تكرّرت شهادة الوحدانية في المقطع الثّاني لأنها الرّكيزة العظيمة لكل الصّفات الأخرى، والصّفات المذكورة في هذه الآية منها ما يتعلق بذات الله مجردة وهي: الملك، القدوس، السّلام، المؤمن.

فالملكية المطلقة الحقيقية هي لله وحده، وهي الملكية المنزهة عن كلّ نقص مما يتصف به ملوك الأرض من ظلم وجبروت وعبادة الشّهوات، ولذلك أعقبها بقوله: قدّوس، أي الطّاهر المنزه عن كلّ عيب، وصفة الطّهر المادية والمعنوية هي من الصّفات التي يجتهد المؤمن في التّحلّي بها، وهي تتطلب رياضة روحية كبيرة.

﴿السَّلاَمُ الْمُومِنُ﴾: صفتان تتقاربان في المعنى، و﴿السَّلاَمُ﴾: مصدر يدلّ على المسالمة الكاملة لأنه تعالى يسالم خلقه من الظّلم والجور، فهو عادل في معاملة الخلق وهو المؤمن، أي يوفر الأمان لجميع الكائنات كما أنه واهب

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨١) الأدب، باب (١٩) جعل الله الرحمة في مائة جزء، رقم ٥٦٥٤: ٥/٢٢٣٦.

الإيمان لمن شاء من عباده، فما أروح للعبد المؤمن أن يتصف بصفة من صفات الله. ثم تأتي الصّفات العلية الفاعلة في الموجودات: المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر.

نلاحظ في هذه الصّفات الأربعة مستلزمات الملك من القهر والغلبة وعزة السّلطان، فالمهيمن يعني الرّقيب، الحفيظ، فلا تتصور عزة الملك بدون رقابة وتمام الإشراف على كلّ أطراف المملكة وعلى أحوال النّاس، فنحن نرى كيف تكون أحوال الجماهير عندما يشعرون بضعف سلطة الدّولة، مما ينشأ عن ذلك من اضطراب الأحوال واستفحال الفوضى، والرّقابة وحسن المحافظة على دواليب الحكم يقتضيان القهر والغلبة وسطوة الحكم وهو جبّار للموجودات كلها على ما أراده من خلقها، فهي تخضع لإرادته ومشيئته وتتصرف وفق سننه الملزمة، وهو المتكبّر، الشّديد الكبرياء في عظمته وجلاله يصغر كل شيء أمامه وقد جمعت هذه الصّفات جانب التّرهيب والتّخويف وجانب الرّجاء والطّمع.

﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعقيب بالتّنزيه لذات الله تعالى.

﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: هذه الصّفات الأخيرة متقاربة في المعنى -أيضا- فالخلق من الصّفات الذّاتية للإله الحق، لا يشاركه فيها أحد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:١٧).

والخلق: هو إيجاد شيء على صورة مخصوصة أي ما نسميه اليوم بالتّصميم، بينما البرءُ هو الإخراج والتنفيذ، والتّصوير هو إعطاء الملامح المميزة للشيء، فالفرق دقيق جدًا بين الألفاظ الثّلاثة قال تعالى: ﴿ هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦). والله وحده يعلم كيف تتدرج الخلقة بين تلك الأطوار، ولا يستطيع الإنسان

مهما بلغ من البحث العلميّ أن يدرك الفروق الجوهرية بين تلك المراحل والأطوار.

﴿لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾: إنها أسماء حسنى في ذاتها لأنها تعظم بعظمة المسمّى، ولله تسع وتسعون اسما من هذه الأسماء كما ورد في حديث أبي هريرة، ويقول العلماء: إنها أكثر من ذلك، والله أعلم.

وتجيء هذه الخاتمة في موضع الحال من ضمير: ﴿لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾، تجيء تسبيحة مجلجلة يتلاقى فيها البدء والختام للسورة الكريمة، وهو ختام مناسب بعد ذكر الأسماء الحسنى؛ لأنّ كلّ متدبّر فيها بخشوع وتأمل يندفع إلى التّسبيح لله وتمجيده مهما يكن زاده من الإيمان والتّقوى، وبأيها دعوت الله فأنت تدعوه بما أثنى به على نفسه، وقد تقدّم في أول السّورة أجر من فضل من قرأ بخواتم هذه السّورة الكريمة، متعنا الله بذلك الفضل، والله أعلم.

تمّت

سورة الممتحنة مدنية، وآياتها ١٣

- بين يدي السّورة الكريمة:

المشهور في تسمية السّورة "الممتحِنة" -بكسر الحاء-؛ لأنها جاءت فيها آية امتحان النّساء اللاّتي يأتين من مكة مهاجرات إلى المدينة كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ (١٠). ورويت تسميتها "الممتحَنة" -بفتح الحاء- أي المرأة الممتحنة، و"أل" للعهد، أي أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، امرأة عبد الرحمن بن عوف، وهذا كتسمية سورة "قد سمع" بالمجادلة على وجه المجاز العقلي.

وهي مدنية بالإجماع، وآياتها ثلاث عشرة آية، وقيل: إن فواتحها نزلت في شأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم فيه ببعض أمر النّبي ﷺ. وتعد الثّانية والتّسعين في تعداد نزول السّور نزلت بعد سورة المائدة، وهي السّتون في ترتيب سور المصحف الشّريف. وتتلخّص محاور السّورة في ما يلي:

أ)- نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وبيان أسباب ذلك.

ب)- ضرب المثل في ذلك بقطيعة إبراهيم لأبيه وقومه.

ج)- بيان كيفية معاملة المسلمين للكفرة الذين لم يقاتلوهم.

د)- امتحان النّساء المؤمنات المهاجرات إلى المدينة والنّهي عن إرجاعهن إلى دار الكفر، مع تعويض أزواجهن المشركين ما أعطوهن.

هـ)- مبايعة النّساء المؤمنات المهاجرات للتعرف بمدى التزامهن بأحكام الدّين.

و)- في ختام السّورة، تأكيد النّهي عن موالاة المشركين.

النهي عن موالاة المشركين، وبيان أسباب ذلك.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ② لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: ﴿عَدُوَّ﴾: يقع للجميع وللواحد والمؤنث على لفظ واحد، وقد يجمع. ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: مفعول ثان لـ"اتخذ"، لم يصرّف لأن في آخره ألفا زائدة. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾: جملة: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ في موضع نصب حال وكذلك الجملة التي بعدها: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾. ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾: الباء زائدة، أي تعاملونهم بالحبّ والودّ وهم أعداؤكم. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾: جملة: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ حال من ضمير: ﴿الذين كفروا﴾. والإخراج: حمل الرّسول والمؤمنين على الخروج من بلدهم. ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾: أي كراهة أن تؤمنوا، فهي في محلّ نصب مفعولا لأجله. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ

جِهَادًا﴾: جملة شرطية جوابها مفهوم مما تقدم. ﴿جِهَادًا﴾ و﴿ابتغاء﴾ منصوبان على المفعول لأجله. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾: السّواء في الأصل الوسط. و﴿سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾: طريق الحق. ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً﴾: ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي يظفروا بكم، حذفت النون للجزم. ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: ﴿يَبْسُطُوا﴾: معطوف على الفعل المجزوم، أي يؤذونكم بالقتل والضرب.

ج) - أوجه القراءة:

﴿يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾: قرأه الجمهور بالبناء للمجهول مخففا، وقرأه عاصم ويعقوب: ﴿يَفْصِلُ﴾ بالبناء الفاعل، وفاعله ضمير عائد إلى الله لعلمه من المقام، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿يفصِّلُ﴾ مشدد الصّاد مكسورة مبنيا للفاعل وقرأه ابن عامر: ﴿يُفَصَّلُ﴾: بضم التحتية وتشديد الصّاد مفتوحة مبنيا للنائب من "فصّل" المشدّد.

د) - البيان والتّفسير:

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُومِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَآ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾:

وفي سبب النّزول قد اتفق المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم فيه بأمر رسول الله وكان حاطب من المهاجرين ومن أهل بدر.

وخلاصة القصة: مأخوذة مما أخرجه الشّيخان وبقية أئمة الحديث عن علي ﷺ قال: بعثنا رسول الله أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب، أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي فقال: ما هذا يا حاطب؟؟... قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرءا ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب فيهم أن اتخذ يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر، فقال النّبي: «صدق». وفيه أنزلت هذه السّورة.

وتتمة القصة: أن عمر ﷺ قال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وقال: لا تقولوا لحاطب إلا خيرا، فأنزل الله تعالى الآية.[1]

قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، إنه النّداء الحبيب للمجتمع المؤمن له الأثر السّحريّ في نفوس المؤمنين يستحيش عواطفهم ويحفّز هممهم وهم يشعرون بتلك العناية الرّبانية في دعوتهم لما يحييهم ويحفظ كيانهم فيستجيبون في تضامن وتعاون. وجاء النهي عن اتخاذ الأعداء في الدّين أولياء تصافونهم المودّة وهم

١- رواه البخاري من حديث علي، كتاب (٦٠) الجهاد والسير، باب (١٣٩) الجاسوس، رقم ٢٨٤٥: ٣/١٠٩٥.

أعدائي وأعداؤكم، وفي إشراكهم بالله في عداوة المشركين لهم مدح ورفع من شأنهم لأن عدوّ صديقك ومحبيك عدوّك كما قيل:

إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام

ثم يبيّن الله سبب ذلك النّهي الشّديد فيقول: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾، إنه تذكير بالجريمة النّكراء لهؤلاء الأعداء وتتمثّل في موقفين:

أ)- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾: أي كفروا بما جاء به الرّسول من هداية القرآن، وهل أوغل في الكفر من جحودهم لذلك النّور الرّباني وهم يعلمون أنّه الحقّ في قرارة أنفسهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).

ب)- ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: أخرجوا الرّسول والمؤمنين، وضمير الجمع يشمل الجميع، من مارس ذلك بالفعل ومن رضي به، وما ذنبكم في ذلك إلا أنكم آمنتم بالله ربّكم؟، إنها قضية العقيدة وحدها كانت الدّافع لذلك الظّلم، فلا عذر ولا بقاء لأية مودّة بينكم وبين المشركين إن كنتم تلقيتم ذلك الأذى منهم جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾:

مزيد بيان فيه توبيخ وتهديد مع التّعجيب، فالتّوبيخ بسبب تسريب تلك الأخبار مما كان يعدّه الرّسول لمناجزة القوم في سريّة تامّة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ تعجيب من أن يحدث ذلك الأمر من بعض المؤمنين والحالة أنهم يؤمنون بأن الله يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، ثم يأتي التّعقيب تهديدا شديدا يتحاشاه المؤمنون الأوفياء مستقبلا إذ جاءت

جملة الشّرط بصيغة المضارع: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾، والمؤمن الوفيّ يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النّار.

وفي التّعليل لما تقدم من التّحذير والتّوبيخ يقول تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

درءا لكل توهّم ينتاب قلوب المؤمنين من توهّم أي حسن ظن في أعدائهم المشركين بإظهار المودّة لهم فإنه تعالى يتدرج في بيان مراقي الأضرار التي تنجم عن ذلك، بأن المشركين لا يدخرون وسعا في أن يوقعوا بالمؤمنين كل ما يملكونه من أنواع الأذى بألسنتهم وأيديهم حتى ينتهوا بهم إلى أفدح الظّلم وهو الكفر والشّرك حين يظفرون بهم، وذلك هو أقصى ما يتمنون، فكيف توالونهم وهم لا يريدون لكم خيرا؟، ولا أبلغ من هذا الأسلوب في استنفار القلوب وتهييجها حتى تأخذ حذرها من كيد أعدائها.

ثم يذكرهم برابطة الدّين والإيمان لتكون أوثق رابطة فيقول: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وجريا مع أحداث قصة حاطب بن أبي بلتعة إذ فعل ما فعل طلبا لقرابة أرحام تحمي أمواله وأسرته، واستعجالا لمنفعة دنيوية فإنه تعالى بدأ بذكر الأرحام وعطف عليه الأولاد لكونهم مدعاة للفتنة وللضعف البشري، فإذا كان في ذلك نفع دنيويّ فإن المؤمن تهون عنده تلك المنافع وهو يستشرف ما عند الله من نعيم الآخرة، فهو يتخذ من الدّنيا مطيّة للآخرة ويقدم لذلك الزاد المطلوب من الإيمان والتّقوى؛ لأنّ غير ذلك من وشائج القربى ومحبة الأولاد لا يجدي نفعا يوم يفرق الله بينكم وبينهم للفصل العدل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧).

قلت: إن في قصة ابن أبي بلتعة والمرأة التي انتدبها لنقل الرّسالة ما يمثل مهمة الجوسسة اليوم، فما هو الحكم الشّرعي في الجاسوس إذا قبض عليه؟.

يقول الدّكتور الزّحيلي: "اختلف العلماء في قتل الجاسوس، فقال مالك والأوزاعي في شأن المعاهد والذّميّ: يجوز قتله، لأنه يصير ناقضا للعهد، وقال الجمهور: لا ينتقض عهد المعاهد بذلك. أما الذميّ فرأي الحنابلة أنه ينتقض عهده، وذهب الشّافعية أنه لا ينتقض عهد الذّميّ بالتّجسّس، إلا إذا شرط عليه انتقاض عهده بذلك، وأما الجاسوس المسلم فقال كبار المالكية: إنه يقتل، وقال الجمهور: لا يقتل بل يعزّره الإمام بما يراه".[1]

والله أعلم

التّأسّي بإبراهيم، وبيان علاقة المسلمين بغيرهم.

أ)- النصّ:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً

١- التفسير المنير: ٢٨/١٢٣.

وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: ﴿قَدْ﴾: للتحقيق، ﴿كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: ﴿لَكُم﴾ خبر ﴿كَانَتْ﴾. ﴿إِسْوَةٌ﴾: اسمها، والأسوة -بكسر الهمزة وضمّها- القدوة التي يقتدى بها. و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: عليه السلام مثل في الإخلاص لله، وهو أبو الأنبياء رفع لواء التوحيد بين قوم وثنيين والمقصود بالذينَ مَعَه إما زوجه سارة وابن أخيه لوط، أو الذين آمنوا من بعده. ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: برآء، جمع بريء، من برئ من الشيء إذا خلا من ملابسته، والمراد الابتعاد من مخالطتهم لأنهم عبدة أوثان. ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾: أي إن تلك البراءة وإظهار البغضاء لقومهم الوثنيين تستمرّ حتى يعلن أولئك الكفار أنهم مؤمنون بالله وحده. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾: استثناء من: ﴿إِسْوَةٌ﴾ منقطع، أي لكم الإقتداء بإبراهيم في براءته من الكفار، وليس لكم فيه اقتداء في استغفاره لهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤). والدّعاء الذي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ يحتمل أن يكون هذا الدّعاء من كلام إبراهيم وقومه، ويحتمل أن يكون تعليما للمؤمنين أن يقولوه. ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: أي إليك رجوعنا يوم القيامة حيث يتقرر مصيرنا. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الآخِرَ﴾: أعيد لتأكيد التحريض و لم تتصل تاء التأنيث بـ﴿كَانَ﴾ لأن تأنيث: ﴿إِسْوَةٌ﴾ غير حقيقي. ﴿لِمَن﴾: بدل من: ﴿لَكُمْ﴾. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: ﴿يَتَوَلَّ﴾: مجزوم بالشّرط، حذفت منه الياء، ﴿يَتَوَلَّ﴾: يعرض عن الحق، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: جواب الشّرط. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾: ﴿عَسَى﴾: من أفعال المقاربة تحذف: "أنْ" بعدها -غالبا- وقد لا تحذف. ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾: في موضع جرّ على البدل من: ﴿الَّذِينَ﴾. أو هو في موضع نصب على المفعول لأجله، أي كراهة أن تبرّوهم، والمعنى: لا ينهاكم عن مودّة هؤلاء. ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾: ﴿ظَاهَرُوا﴾: أي ساعدوا المشركين، ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾: أي تفعلوا الخير بهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِسْوَةٌ﴾: قرأ الجمهور بكسر الهمزة، وقرأها عاصم بضمّها.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان خطأ من يوالي أعداء الله، والإنكار على من والاهم لما يجرّ ذلك من المضارّ على المجتمع المسلم، أعقب الله ذلك بأمره بالتّأسّي بإبراهيم ومن آمن معه في تبرئهم من الكفار ما داموا على كفرهم، ثم استثنى من ذلك التأسّي استغفار إبراهيم لأبيه قبل أن يعلم أنه عدوّ لله.

ثم أخبر الله بأنه قادر على تغيير أوضاع المشركين فيهديهم إلى الإيمان فرخص للمؤمنين أن يصلوا من لم يقاتلهم من الكفار وأن يحسنوا معاملتهم، فقال تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا**

وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُومِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

الخطاب للمؤمنين والبعض منهم يعاني من الضّعف النّفسي أزاء عاطفة القرابة ورعاية المصالح العاجلة كما حدث لحاطب، والله تعالى يعود بهم إلى تلك الدّوحة الإيمانية الباسقة من عهد إبراهيم عليه السلام وهو يمرّ بنفس التّجربة وتتعارض في عاطفته تجاذبات الأواصر، أواصر القربى وأواصر العقيدة الإيمانية في وحدانية ربّه، وليس له من حوله في نفس التّوجّه إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط. فإذا بالثالوث المبارك لا يتردد في تجربته القاسية أن يعلنها صارخة مدوّية، بأنه يتبرّأ مما عليه قومه من الكفر ومن كلّ ما يعبدونه من دون الله، لا في موقف سلبّي من الإنكار فحسب، ولكن مع إظهار العداوة والبغضاء واطّراح حقّ القرابة والانتماء ما داموا على كفرهم، ولا يمكن أن يهادنوهم فيه إلا أن يؤمنوا بالله وحده انتصارا للحق ورفعا لراية الإيمان.

إن للمسلمين رصيدا فريدا من نوعه في تجربة إبراهيم وهم فرع أصيل من تلك الدّوحة الفينانة، فما لهم لا يتأسّون؟. وقد رسم أبوهم معالم الطّريق ووصّاهم بأن يكونوا مسلمين.

﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾: ولهذا الاستثناء موقعه في نفي توهّم استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك، لأن بعض المسلمين كان يجد فيه منفذا للتعبير عن عاطفتهم نحو ذوي قرباهم من المشركين يستغفرون لهم بعد موتهم، فبيّن الله تعالى أن إبراهيم لم يقم بذلك لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه، ولكنه عندما استيقن بأنه مصرّ على الشّرك تبرّأ منه مع سائر قومه، وقد أنزل الله قوله في هذا الشّأن: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ وَالذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَّسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣).

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾: إنه التّخلّي عن واجب النّبوّة نحو أب مشرك والتّسليم المطلق لله وهو يلهج بهذا الدّعاء.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: وحتى القدوة الحسنة مثل هذه الابتهالات من إبراهيم وهو يناجي ربّه ويعلن تمام خضوعه واستسلامه المطلق لإرادة ربّه معتمدا عليه في جميع الأمور عائدا إليه في الدّار الآخرة، ثمّ هو لا يأمن فتنة الذين كفروا إذ يعتبرون تسلطهم على المؤمنين دليلا على أنهم على الباطل، إذ لو كانوا على حق لما تمكنوا منهم، وتلك شبهة يروّجها أهل الباطل حين يظهرون ويتطاولون، ولا ملجأ في ذلك إلا إلى الله، فإن إخلاص الدّعاء يعين على الصّبر عند البلاء.

وفي ختام ابتهالاته يطلب المغفرة والعفو في ما قصّر فيه نحو ربّه فهو القوّي الذي لا يغلب وهو الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

وفي إيراد هذا الدّعاء ضمن قصة إبراهيم تربية عملية للمسلمين أن يردّدوا ذلك الدّعاء تأسّيا بإبراهيم في طلب مرضاة الله، وقد كرّر الحث على التّأسّي به فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

تكرر التّأكيد بلام القسم و"قد"، وجاء قوله: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ بدلا من ضمير المخاطب في ما سبق: ﴿لَكُمْ﴾، فالذي يرجو الله واليوم الآخر هو الذي يتأسّى بعباد الله الصّالحين وينتفع من تجربتهم صلاحا ونفعا وسعادة في الدّنيا والآخرة، ولكن من حاد عن الطّريق، وانسلخ عن ماضيه المجيد فإنه لا يضرّ إلا نفسه، لأن الله غنيّ عن عباده حميد في كل

تصرفاته، وزيد هنا ضمير الفصل: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لتوكيد الحصر الذي أفاده تعريف الجزأين.

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إنه الرّجاء المرتقب الذي يحنّ إليه كثير من المؤمنين أن يجعل الله قطيعتهم لقرابتهم المشركة آيلة إلى مودّة، والفرقة بينهم إلى ألفة بأن يدخلوا في الإسلام فتنتهي تلك المعاناة التي تكون أكثر إيلاما على المرء إذا جاءت من ذوي قرباه كما قال الشّاعر:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

وقد تحقق ذلك بعد فتح مكة إذ انضوى أغلب أهلها تحت لواء الإسلام، والتّذييل بقوله: ﴿وَاللهُ قَدِيرٌ﴾ مناسب لذلك التّحوّل العجيب الذي أحدثه الفتح. وعطف عليه: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر لمن أخطأ ثم أناب إليه بالتّوبة والدّخول في الإسلام ومنهم من كانوا أئمة الكفر كأبي سفيان.

ثم يضع الله القاعدة الأساسية في العلاقة الخارجية بين المسلمين وغيرهم فيقول: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

إنها القاعدة العادلة يتّخذ منها المسلمون أساسا لمعاملتهم مع أعدائهم حين يكونون معاهدين في هدنة مع الإسلام لا يعتدون عليه ولا يعترضون دعوته بسوء: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١). فلا ينقضها إلا وقوع الاعتداء أو توقع الخيانة والغدر، وفي ما سوى ذلك فهي المهادنة والسّلم، بل البرّ والإحسان لحقوق الرّحم

وصلة القربى، وهذه القاعدة اقتضاها موضوع السّورة من النّهي عن موالاة الأعداء إذ يقوم التّصوّر الإسلامي في تحديد العلاقة بين المؤمنين ومخالفيهم على مراعاة العقيدة وحدها، وتطبيق منهج الله في الأرض، أما ما وراء ذلك من الاعتبارات والمنافع الآخرى فلا قيمة لها في أن يتخاصم النّاس عليها.

وقيل في سبب النّزول ما أخرجه البخاري أنّ أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: قدمت أمّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النّبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمّي قدمت وهي مشركة، أفأصلها؟. قال: نعم، صلي أمّك، فأنزل الله الآية: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾.[1]

إنّ هذه الآية قد أخرجت من حكم النّهي عن موالاة المشركين، أخرجت أولئك الذين لم تثبت فيهم تلك الصّفات التي ذكرها الله أنها السّبب في ذلك النّهي وهم الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم بأن كانوا معاهدين كما حدث في صلح الحديبية ومثل بني خزاعة الذين دخلوا في حلف الرسول. وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم من أن تبرّوهم، والبرّ هو حسن المعاملة والإكرام، والقسط: العدل، وذلك يشمل كثيرا من أخلاقيات التّعامل، كصلة الرّحم، وحسن الجوار والضّيافة وإغاثة الملهوف...إلخ.

ثم جاء التّوكيد على التّفرقة بين النّوعين من المشركين بأن النّهي عن الموالاة إنما ينصبّ على الذين تمادوا على عداوتهم المباشرة للمسلمين أو مساعدتهم له بفعل ذلك.

والتّذييل بقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تأكيد للوعيد على موالاة هذا النّوع الأخير لأنه اعتداء على حدود الله، والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث أسماء، باب (٦٢) الجزية والموادعة، ١٧ - باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣٠١٢: ٣/١١٦٢.

حكم النساء المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام.

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: أي اختبروا إيمانهن هل هنّ صادقات فيه؟. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾: جملة معترضة، أي عليكم أنتم أن تتحققوا من إيمانهن بالدّلائل. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: علمتم: أي ظننتم ظنا غالبا بأنهن مؤمنات فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفرة، وكان الرسول يحلّفهنّ على ذلك. ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: ﴿عِصَمِ﴾: جمع عصمة وهو ما يعتصم به من عقد وسبب. ﴿الْكَوَافِرِ﴾: جمع كافرة، أي اللاّتي لم يخرجن مع أزواجهن لبقائهن على الكفر. ﴿وَاسْأَلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَآ أَنفَقُوا﴾: أي ما أنفق كل طرف من المهر. ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا﴾: ذلك بالنّسبة إلى النّساء المرتدات إلى دار

الشّرك، ولم يعط المشركون المهور التي دفعت لهن. ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: أي كانت لكم العقبى بالغلبة والنصر، يعطي الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثل ما انفقوا ويقول ابن عباس: قبل أن تخمّس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تُمْسِكُوا﴾: قرأ الجمهور بضمّ التّاء وسكون الميم وسكون السّين مخففة. وقرأ أبو عمرو بضمّ التّاء وفتح الميم وتشديد السّين مكسورة مضارع: مَسَّكَ، بمعنى أمسك.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تأكيد النّهي عن موالاة المشركين، وإذ كان التّناكح من أوكد أسباب الموالاة فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك، بيّن الله تعالى حكم الشّريعة في ذلك فقال: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.**

يبدو أن مثل تلك الحوادث حدثت بعد صلح الحديبية سنة ست للهجرة، لأن مشركي مكة صالحوا رسول الله على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى من أهل مكة من أصحاب الرّسول فهو لهم، ويعلّق سيّد قطب في ذكر سبب النّزول فيقول: "وقد ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: "على أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا". فلما كان الرّسول والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، وجاءت قريش تطلب ردّهن تنفيذا للمعاهدة، ويظهر أن النّصّ لم يكن

قاطعا في موضوع النّساء، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان ردّ المهاجرات المؤمنات إلى الكفار يفتن في دينهن وهن ضعاف ونزلت أحكام هذه الحالة الدّولية معها تنظيم التّعامل فيها على أعدل قاعدة تتحدّى العدل في ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر، وما فيها من شطط وجور".[1]

قلت: وقد روي أن النّبي ﷺ سألوه إرجاع النساء المؤمنات وطلبوا تنفيذ شروط الصلح، فقال: «**إنما الشّروط في الرّجال لا في النّساء**». قال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، أمر الله بأول إجراء مع المؤمنات المهاجرات وهو اختبارهن بأن يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة في منفعة دنيوية بل ما خرجن إلا حبًا لله ورسوله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾، أي لا يعلم حقيقة إيمانهن إلا الله ويكفي في علم البشر غلبة الظّن بأنهن مؤمنات بحسب الظّاهر، فلا يجوز في تلك الحالة أن يرددن إلى أزواجهن الكفار.

فقد اقتضت حكمة الله أن تستقرّ الأوضاع الأسرية في المجتمع المسلم على أسس العقيدة الإيمانية وتنقطع كل الوشائج الأخرى، لأن الإيمان وحده هو الذي تتجاوب به القلوب وتتولد عنه السّكينة والاستقرار في الحياة الزوجية. وقد اختلف العلماء في كون الأمر بالاختبار للوجوب أم للندب؟؛ لأن الأحكام الأخرى تنبني على نتيجة ذلك الاختبار سلبا وإيجابا. وتلك الأحكام هي:

أ)- ﴿**لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾: كانت الرّوابط الزّوجية في أول الهجرة متروكة للمألوف القائم، فلم يكن يفرق بين الأزواج بسبب اختلاف الدّين، ولكن بعد تبلور المجتمع المسلم بسماته المميزة سيما بعد صلح

١- في ظلال القرآن: ٦٧/٢٨.

الحديبية فقد دعت قواعد التّنظيم الأسريّ إلى تلك المفاصلة الكاملة، فحرمت المسلمات على المشركين.

ب)- ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا﴾: إنه تعويض المشركين الذين فارقتهم أزواجهم المسلمات، تعويض الذي عزموه عليهن من المهور.

ج)- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: أي الخطاب للمؤمنين يبيح الله لهم الزّواج بالمؤمنات المهاجرات متى آتوهن صداقهن، ويبقى الخلاف الفقهي في شرط العدة، وإذ وجبت فكيف تتمّ؟، بثلاثة قروء أم لمجرّد استبراء الرّحم؟.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: صريح في تحريم المشركات الوثنيات دون الكوافر من أهل الكتاب.

د)- ﴿وَاسْأَلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَآ أَنفَقُوا﴾: أي للمسلمين أن يطالبوا بمهور نسائهم إذا ارتددن، كما للمشركين أن يطالبوا بمهور أزواجهم إذا أسلمن -كما تقدم-.

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: الإشارة إلى الأحكام المذكورة أنها الحكم الإلهي العادل في تسوية تلك القضية يربطه الله تعالى بالرّقابة الإيمانية المتيقنة بعلم الله وحكمته.

وهناك حالة خاصة قال تعالى عنها: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، أي على الكفار ردّ مهر المرأة التي تعود إلى دار الكفر، فإذا امتنع أهلها من ردّ حق الزّوج المؤمن، فأصاب المسلمون غنيمة من خصومهم فإن الإمام يعوّض الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا، يعوّضهم من مال الفيء قبل قسمته كما أمر الله.

وأخيرا يعلق الله تلك الأحكام بالأمر بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، فإذا زالت الفوارق الاجتماعية المبنية على الجنس واللّون والنّسب، فإن تقوى الله هي الوشيجة الوحيدة التي تربط بين القلوب وهي مفعمة بالإيمان متمسكة بهدي القرآن، والله أعلم.

مبايعة النبيّ ﷺ للنساء.

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾: ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾: يلتزمن بالطّاعة لك، وهو في موضع نصب حال. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: ومن ذلك وأد البنات ومنه الإجهاض لغير ضرورة تدعو إلى ذلك. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: البهتان والافتراء: الكذب. وقيل: المراد به نسبة المرأة الولد إلى زوج اختلاقا وكذبا. ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾: في موضع نصب حال من ضمير. ﴿يَأْتِينَ﴾. ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: والمعروف هو كل ما لا تنكره النّفس، وفي الدّين: كلّ ما فيه البرّ والتّقوى. والرّسول لا يأمر إلا بالمعروف كالنّهي عن النياحة ولطم الخدود وقصّ الشّعر...إلخ. ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: قيل: هم اليهود، إذ تكررت لهم هذه الصّفة في القرآن. ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: اليأس:

عدم توقع الشّيء، يعني أنهم لا يعملون للآخرة وإن كانوا يؤمنون بها.

ج)- البيان والتّفسير:

بيّن الله لرسوله في هذه الآية كيف يبايع النّساء اللاّتي يريدن الدّخول في الإسلام كيف يبايعهن على الإيمان، وعلى أي الأسس تكون تلك المبايعة فقال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قيل: إنّ الآية نزلت يوم الفتح، فإنه ﷺ لما فرغ من بيعة الرّجال أخذ في بيعة النّساء، وقد أخرج الإمام البخاري عن عروة بن الزّبير أن عائشة ﵂ قالت: إنّ رسول الله كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية فمن أقرت بهذا الشّرط من المؤمنات قال لها رسول الله: قد بايعتك -كلاما-، ولا -والله- ما مسّت يده يد امرأة في المبايعة قطّ، ما بايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك.[1]

بعد أمره تعالى بامتحان المؤمنات المهاجرات -كما تقدم- أكمل ذلك ببيان الأسس والمقومات التي تقوم عليها الحياة الجديدة من أمور الدّين ويلاحظ أنهن كلهن منهيات من الأمور التي كانت تمارس في الجاهلية وذلك على قاعدة التّخلّي قبل التحلّي، وكما أخذ الرّسول هذه المبايعة من النّساء أخذها من الرّجال سواء في بيعة العقبة أو في المدينة بالذات أو بعد فتح مكة، حين جلس على الصّفا يأخذ البيعة من الرّجال كما جلس عمر أسفلها يأخذها من النّساء بأمر من رسول الله كما تذكره الرّوايات.

١- رواه البخاري، كتاب (٦٨) التفسير، باب (٣٦٧) تفسير سورة الممتحنة، رقم ٤٦٠٩: ١٨٥٦/٤.

﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي لا يعلنّ شيئا من الأشياء شريكا لله. والوحدانية لله هي الرّكيزة الأولى في العقيدة الإسلامية علقت عليه هند بنت عتبة بقولها: لما بايعت رسول الله، فقالت: كيف يقبل منا ما لم يقبل من الرّجال؟. تعني إن هذا الأمر ظاهر.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: أي عدم إتيان الحدود، وكلها أمور كانت تمارس في الجاهلية، فلا تجوز لهن السّرقة ولو من مال أزواجهن أو آبائهن أو أمهاتهن وحتى من أولادهن، واستثنى الرّسول هند بنت عتبة ما تأخذه من مال زوجها لنفقة أولادها لأنه كان رجلا شحيحا.

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: بأي شكل من أشكال الزّنى ولو بيدها مما يسمّى بالعادة السّرية، وقد علقت هند على ذلك بقولها: أو تزني الحرّة؟. لأن زنى الحرائر قليل في الجاهلية.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: خوف الفقر أو العار كما كان الجاهليون ينبذون بناتهم، ومن قتل الأولاد أكل الدّواء للإجهاض أو القيام بأي محاولة لفعل ذلك ولو كان الجنين نطفة. وعلقت هند بعد أن عرفها رسول الله من خلال حديث زوجها أبي سفيان، إذ كانت متنقبة خوفا من إساءتها إليه في قتل عمّه حمزة، علقت على قتل الأولاد فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فأنتم وهم أعلم. وتعني بالقتيل ابنها حنظلة إذ قتل في غزوة بدر.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: والبهتان هو الكلام الذي يتحيّر به سامعه إذا ظهر، وهو يحتمل في عمومه عدة أشياء تكون ملفقة ومزوّرة، ومنها ما قيل: أنه اللّقيط الذي تنسبه المرأة إلى رجل من عدة رجال أباحت نفسها لهم، وخصّصه المفسّر أبو مسلم بأنه ممارسة المرأة للسحر، إذ تعالجه بكلتا يديها ورجليها.

﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: وهو يتناول الأمر والنّهي الشّرعيين فكلاهما معروف، والرّسول لا يأمر إلا بالمعروف. غير أن التّنصيص على ذلك يضع القاعدة الأساسية: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد مثّل لذلك في كثير من الأحاديث تتناول منهيات كانت تمارسها الجاهليات كالنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ووصل الشعر أو نتفه.

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أمر الله رسوله بقبول مبايعتهن إذ تمت على هذه المبادئ الشّاملة وأن يضمن لهن الثّواب على الوفاء ويطلب لهن العفو عما سلف. وقيل: إن أول المبايعات من النّساء في المدينة هي أمّ سعد بن معاذ وكبشة بنت رافع وأن عدد النّساء المبايعات أربعمائة وسبع وخمسون امرأة.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: إنه النّداء الختامي من السّورة يؤكد النّهي عن موالاة أعداء الله الذين يطاردهم غضب الله حيثما وجدوا، وقيل: هم اليهود. استنادا على ما وصفهم به القرآن في كثير من آياته، على أن الوصف يأخذ طابع العموم من اليهود وكل من يكون على شاكلتهم في استحقاق لعنة الله وغضبه. وقد نعتهم الله بقوله: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ﴾، فهم لا يؤمنون بها ابتداء أو هم لا يرجون خيرها ولا يحسبون لها حسابها. والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي لنكرانهم البعث من أساسه، فهم يعتقدون بأنّ الموتى قد انتهى أمرهم فلا بعث ولا حساب، وهكذا يتكامل ختام السّورة مع بدئها في التّركيز على المحور الأساسي في السّورة أي: النّهي عن موالاة أعداء الله، والله أعلم.

تمّت

سورة الصّف مدنية، وآياتها ١٤

- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت سورة "الصّف" من عصر الصّحابة لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

وقد تسمّى خلافا للمشهور بسورة: "الحواريّين"، أو سورة "عيسى"، وكلاهما مذكور خلال السّورة.

وهي مدنية عند الجمهور، وآياتها أربع عشرة، وهي السّورة الثّامنة بعد المائة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة التّغابن.

وهي الحادية والسّتون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وتتلخّص محاور السّورة في ما يلي:

أ)- اللّوم والتّحذير من إخلاف الوعد ومن مخالفة القول للعمل.

ب)- الدّعوة إلى القتال في سبيل الله والثّبات فيه.

ج)- البشارة بمحمد على لسان عيسى عليه السلام مع التّحذير من أذى الرّسول وضرب المثل في ذلك بموسى مع قومه.

د)- إرسال محمد بالهدى ودين الحق.

هـ)- التجارة الرّابحة عند الله هي الإيمان والجهاد في سبيل الله.

و)- الإثناء بالمؤمنين الصّادقين مثل الحواريين.

التّنديد بعدم مطابقة الأفعال للأقوال، والدّعوة إلى الثّبات في القتال.

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: ﴿سَبَّحَ﴾: نزّه ومجّد الله، واللام زائدة. ﴿مَا﴾: لغير العقلاء تغليبا للأكثر. ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾: الاستفهام للتأنيب والتوبيخ. ﴿لِمَ﴾: مركبة من لام الجرّ و﴿مَا﴾ الاستفهامية حذف ألفها مع حرف الجرّ للتخفيف أي التوبيخ على الكذب والمغالطة. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾: أي عظم مَقْتًا: منصوب على التمييز. وفاعل: ﴿كَبُرَ﴾ مضمر فيه. والتقدير: كبر ذلك القول. ﴿أَن تَقُولُوا﴾: في موضع رفع بالابتداء أو هو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو أن تقولوا. ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾: محبة الله تعني قبوله للعدل والإثابة عليه. ﴿صَفًّا﴾: في موضع الحال. ﴿كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾: مَرْصُوصٌ: من رصّ البناء، إذا لاءم بين أجزائه، فلا تبقى فيه فرجة، وهو تشبيه مرسل.

ج)- البيان والتّفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

قبل أن نشرع في التفسير التفصيلي لآيات هذا النصّ الكريم نذكر ما ورد في أسباب النزول، وبالخصوص ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس ﷺ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلّنا على أحبّ الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحبّ الأعمال إليه: إيمان بالله لاشك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به وإقرار برسالة نبيه ﷺ فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية".[1]

قلت: تكررت هذه التسبيحة الوجودية لله تعالى في مفتتح بعض السّور، وجاءت بالصّيغ الزّمانية الماضي والحاضر والمستقبل، كما جاءت بصيغة الأمر للدّلالة على أن تلك التسبيحات هي من صميم عقيدة الوجود كله تلازمه في كل وقت فيجب على المؤمنين الحاملين لأمانة التكليف أن يجاهدوا لتركيز تلك العقيدة وأن يقاتلوا المشركين الذين لا يستحيبون لله إذ جعلوا له شركاء في ألوهيته، وقد كتب الله النصرة لدينه ولو كره المشركون، لأن العقيدة التي يدعو إليها هذا الدين الحق هي التي تنسجم مع عقيدة الوجود كله تسبيحا وتمجيدا لله القويّ القاهر والحكيم في نصحه وإرشاده وفي تدبير شؤون خلقه.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾:

النّداء بوصف الإيمان يأتي -غالبا- لأمر مهمّ يتعلق بالمجتمع المسلم، وجاء بعده المستفهم عنه مصدّرا بلام التعليل: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، أي تقولون ما لا تفعلون لأيّ سبب؟. وهو كناية عن اللّوم والتحذير من ذلك، وهو شأن منكر عند الله، ولذلك جاء الذّمّ الصّريح عن ذلك في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ

١- التفسير المنير: ٢٨/ ١٦١. جامع البيان: ٢٣/٣٥٤.

﴿أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، والمقت: هو البغض الشّديد وكون ذلك الممقوت عند الله كبيرا هو لتضخيم جرمه وتهويله، لأنّ خلف الوعد من آية النّفاق كما ثبت في الحديث الصّحيح، وهو يجسّد الأنانية وحبّ الذّات في المتصف به وبالتّالي يضعف الثّقة بين الأفراد والجماعات ويخلّ بالشّهامة والرّجولة، وقد ذمّ الله فريقا من أهل الكتاب يتصفون بذلك فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤). وفي مثل هذا المعنى يقول الشّاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وبعد تلك المقدمة التّهذيبية للمجتمع المسلم تجيء الإجابة على طلب معرفتهم لأحبّ الأعمال عند الله إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾، والصّفّ: كتلة من الأشياء تكون متجانسة متراصّة لا خلل بينها، كصفوف المصلّين، أو الجيش في ميدان القتال، ومحبة الله للشيء تقابل البغض في الآية السّابقة، فكلتا الآيتين تعنيان بالبناء الأخلاقي لضمير المسلم وتكوين شخصيته للقيام بأمانة الدّين في إطار جماعيّ متراصّ الصّفوف موحّد الجبهة في مواجهة كل التّحديات الدّاخلية والخارجية، فإذا استقامت شخصية المسلم على الصّدق والنّزاهة والإخلاص فإنه يمضي ثابت الخطى في تحمّل أعباء نصرة دين الله قتالا وجهادا لأعداء الله ورسوله، والتشبيه لصفوف المقاتلين بالبنيان المرصوص فيه إغراء وتحفيز لمواجهة تلك المواقف التي قد تطرأ فيها لحظات طارئة من الضّعف النّفسي أمام مشاق القتال فلا يعصم المؤمن منها إلا عون الله ومدده الرّوحاني فيسترخص روحه حبّا للشّهادة في سبيل الله وإعلاء كلمته، ولروح الجماعة وتضامن أفرادها أثره القويّ في تحقيق النّصر ودحر الأعداء وقد أخذ أمير الشّعراء معنى الآية في استنهاض عزائم قومه حين قال لهم:

كونوا حائطا لا صدع فيه وصفًا لا يرقّع بالكسالى

تذكير المؤمنين بقصة موسى وعيسى مع بني إسرائيل، ووعد الله بإظهار دينه على الأديان كلها.

أ) - النصّ:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾: التقدير: اذكر يا محمد حين قال موسى لقومه. ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾: وذلك الإيذاء لموسى من طرف قومه كان متعدّد الجوانب ذكر القرآن أنواعا منه، ولعل أشدّه وطأة على موسى ذلك العصيان لأمره عندما أمرهم بالدّخول إلى الأرض المقدسة فأجابوه بقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤). ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾: جملة في موضع نصب حال. ﴿وَقَد﴾: لمعنى التّأكيد لا التّقليل، ودخولها على المضارع: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ لإفادة التّجدّد والاستمرار. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾: ﴿زَاغُوا﴾: من الزّيغ، وهو

الميل عن الحق والهدى، ﴿أَزَاغَ﴾: بمعنى جعلها تميل إلى الضّلال حتى تمكّن من قلوبهم. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾: الجملة معطوفة على سابقتها، ولم ينادهم بـ"يا قوم"، لأنه ليست له فيهم قرابة كموسى. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾: أي من الكتب السّابقة كالتوراة والزّبور. ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَاتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: ﴿مُبَشِّرًا﴾: حال. ﴿بِرَسُولٍ يَاتِي مِنْ بَعْدِي﴾: جملة في موضع جرّ صفة لـ"رسول". ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: مبتدأ وخبر صفة ثانية. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: ﴿جَآءَهُم﴾: أي الرّسول أحمد. ﴿جَآءَهُم﴾: الضمير يعود إلى بني إسرائيل، ويحتمل أن يكون ضمير الرّفع في: ﴿جَآءَهُم﴾ عائدا إلى عيسى عليه السلام. وقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: هو مناط الإيذاء له. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ﴾: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: الاستفهام للإنكار، والافتراء: اختلاق الكذب. ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ﴾: الجملة في موضع نصب حال، و﴿الإِسْلاَمِ﴾: علم للدين الذي جاء به محمد عليه السلام. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: ﴿لِيُطْفِؤُا﴾: الفعل منصوب بـ"أن" مقدّرة، و﴿نُورَ اللهِ﴾: هو دينه وشرعته، وفي الجملة استعارة بتشبيه من أراد إبطال دين الله بمن أراد أن يطفئ نور الشّمس بفمه. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: أي يعليه على جميع الأديان كما قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِنْ بَعْدِي﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء من قوله: ﴿بَعْدِيَ﴾، وقرأه الباقون بسكونها. ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾: قرأ الجمهور بكسر السّين، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾، فعلى القراءة الأولى الإشارة للبيّنات، وعلى الثّانية الإشارة إلى عيسى أو إلى الرّسول. ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بتنوين ﴿مُتِمٌّ﴾ ونصب:

﴿نُورَهُ﴾، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص وخلف بدون تنوين، وجـرّ نورِ: ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾، على إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وكلاهما صحيح.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تحريض المؤمنين على القتال وتأنيب المتخلفين عنه ذكّر الله المؤمنين بإنكار موسى لقومه أذاهم له بعصيانه ومخالفة أمره حين دعاهم إلى قتال الجبارين للدّخول إلى الأرض المقدسة، كما ذكّرهم بقصة عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل حين جاءهم بالمعجزات وبشّرهم بمجيء رسول يأتي من بعده اسمه أحمد، فالعصاة المؤذون للرسولين هم بنو إسرائيل، ثم تخلص إلى التّشنيع على العصاة المشركين الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام، وردّ على محاولتهم إبطال دين الله كمن يريد إطفاء نور الشّمس بفمّه وهيهات قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾.

ورود قصّة موسى وعيسى مع أقوامهما، وكون عيسى عليه السلام حلقة وصل بين موسى ومحمد ﷺ، يصوّر بحق حلقات الرّسالات السّماوية المترابطة وكيف تماسكت وتتابعت متحدة الاتجاه ومتحدة المصدر من ربّ العالمين، تغطي كل منها ما تدعو إليه البشرية من الأخذ بمنهج الله وفق تجاربها واستعداداتها وفق كل زمان ومكان.

بدأ الله بقصّة موسى مع قومه وهو يواجه إذاياتهم المتعددة بإنكار وتوبيخ ويقول لهم في عتاب لطيف: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤذُونَنِي﴾. وهم على يقين من أنه الرّسول الحق إليهم، وتصدير الخبر بـ﴿إِذْ﴾ توجيه لرسول الله بأن يذكّر بذلك قومه تحذيرا لهم من أن يقعوا في ما وقع فيه بنو إسرائيل من العصيان ومخالفة أمر رسولهم، وكم من إذايات تعرّض لها موسى عليه السلام فصبر لها، وقد شهد له رسول

الله بذلك حين قال عنه: «**رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[1]. وفي التّذكير بقصته تسلية لرسول الله في ما يصيبه من كفار قريش وحبّه للمؤمنين على التزام طاعته وقد جاء النّهي صريحا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب:٦٩).

ومع ذلك العتاب اللطّيف كيف كان موقف القوم؟، إنه ما اختاروه من الزّيغ والضّلال من بعدما توفرت لهم دلائل الحق ووضحت سبل الاستقامة على يدي رسولهم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: أي أبقاها على الزّيغ وفق اختيارهم لذلك، إذ فسقوا عن منهج الله فحرموا من وصايتهم على دين الله وانتقلت قوامته إلى غيرهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: أظهر في مقام الإخفاء ليشمل الحكم كل من تحققت فيه صفة الفسق من المذكورين وغيرهم.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾:

الجملة معطوفة على سابقتها في طلب التّذكير، والتّقدير: واذكر يا محمد لقومك حين قال عيسى ابن مريم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ناداهم بانتمائهم إلى جدّهم إسرائيل؛ لأنه لا ينتمي إليهم إلاّ من جهة أمّه مريم عليها السلام، إذ هو من خلق الله لا أب له، وأصل النّسب هو ما يكون من جهة الأب، وفي ذلك النّداء نوع من الاستعطاف لهم في الاعتزاز بأصلهم كما يعتقدون، قدّم نفسه إليهم بصفة رسالة الله لا يغيرها مهما وصفه به النّصارى من البنوّة لله -حاشاه-، واعتبر نفسه

١- رواه البخاري، كتاب (٦١) الخمس، باب (١٩) ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم ٢٩٨١: ٣/١١٤٨.

حلقة وصل مباركة بين الرّسالتين: التّوراة والقرآن، فقد جاءهم بما يؤكد ما في التّوراة ويكملها، كما يحمل بشارة الرّسول الخاتم محمد ﷺ، وهذه البشارة ثابتة بهذا النصّ، وإن جحدها أهل الكتاب وحاولوا إخفاءها بعدما علموا أن الرّسالة الخاتمة انتقلت إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم عليه السلام. ولا أثبت لذلك مما نصّه القرآن وهم يعونه ويعرفونه إذ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وأما ورود الاسم: ﴿أَحْمَدُ﴾ على لسان عيسى بهذه الصّيغة فيقول عنها الإمام ابن عاشور: "ولا يحمل قوله: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ على ما يتبادر من لفظ اسم من أنه العلم المجعول للدّلالة على ذات معيّنة تميزه من بين من لا يشاركها في ذلك الاسم، لأن هذا الحمل يمنع منه، وأنه ليس بمطابق للواقع؛ لأن الرّسول الموعود به لم يدعه النّاس أحمد، فلم يكن أحد يدعو النّبي محمدا باسم أحمد لا قبل نبوءته ولا بعدها ولا يعرف ذلك، وأما ما وقع في الموطأ والصّحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النّبي ﷺ، أنه قال: «**لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر النّاس على قدميّ، وأنا العاقب**»، فتأويله أنه أطلق الأسماء على ما يشمل الاسم العلم والصّفة الخاصة به على طريقة التّغليب". [1]

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

١- التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٨٢-١٨٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: من الضّمير في: ﴿جَآءَهُم﴾ على احتمال عودته إلى الرسولين: عِيسَى وأَحْمَدُ، يبدو من الآيات اللاحقة أنه يعود إلى الرّسول المبشّر: ﴿أَحْمَدُ﴾، و"هم" يعمّ كل المنكرين لرسالته بما فيهم اليهود والنّصارى.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالبراهين الواضحة على صدقه، كانت إجابتهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهي الإجابة المتداولة على ألسنة الكفار لكل الرّسل كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذّاريات:٥٢). وقد كان موقف غالبية أهل الكتاب من الإسلام موقف العداء والكيد منذ ظهوره على يدي رسول الله وصحابته إلى يوم النّاس هذا وبالأخصّ اليهود من بني إسرائيل والشّواهد التّاريخية في ذلك لا تحتاج إلى دليل، والله يندّد على المعارضين لدعوة الإسلام بصفة عامة ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾، إنه الاستنكار والتّوبيخ والوصف بالظّلم الشّديد لأولئك الذين اختلقوا على الله الأكاذيب وجعلوا له شركاء وأندادا والرّسول يدعوهم إلى دين الإخلاص والتّوحيد لله تعالى.

وجاء التّذييل بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جاء بأسلوب الإظهار وبإقحام لفظ "القوم" ووصفهم بالظّلم تيئيسا من إمكانية صلاحهم لأنهم بلغوا حدّا من الفساد حتى أصبح الظّلم من مقوّمات شخصيتهم، وهذا الوصف يعمّ المذكورين وكل من كان على شاكلتهم.

ومن دوافعهم إلى ذلك الظّلم أنهم: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾. لقد حاول أولئك الطّغاة المتعجرفون إطفاء نور الله بأفواههم أي إبطال دعوة الإسلام من التّمكين والانتشار، حاولوا ذلك بالدّسّ والكيد ومثلهم في ذلك كمثل من يحاول إطفاء نور مصباح وهّاج كالشمس بنفخة أفواههم في محاولة يائسة، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾: إنها إضافة تشريفية لدين الإسلام فهو النّور الذي أشرقت شمسه بالهدى ودين الحق فهيهات أن تطفئه

أفواه العبيد المهازيل، فأين إرادتهم من إرادة الله في إتمام ذلك النّور ليصبح حقيقة معيشة في واقع الحياة على يدي رسول الله وصحابته.

فإذا بذلك النّور ينتشر ويعمّ الآفاق، ولو كره الكافرون، وصدق وعد الله، كما بشر بذلك رسول الله حين قال: «**والله ليتمّنّ هذا الأمر حتى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله، والذّئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».[1]

﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾:

جاءت الجملة: ﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ جاءت لتقوية مضمون الجملة السّابقة وأن نور الله يتمثل في هذا الدّين وقد شهد الله بأنه المرسل لرسوله لا غيره إبطالا لما يزعمه المشركون بأنه جاء من عند نفسه. ووصف هذا الدّين بالهدى والحق تعظيم لمكانته وإعلاء لشأنه وهما يتمثلان في القرآن والسّنة النّبوية ففيهما الهدى والرّشاد والحق والصّواب مما يحقق منهج الله في واقع الحياة.

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ تعليل للجملة السّابقة بأن يجعل الله هذا الدّين منتصرا عاليا متقدما على جميع الأديان التي عرفها البشر قديما وحديثا، سيما الدّيانات الكتابية التي شوّهت وحرّفت، فجاء الدّين الإسلامي مصححا ومكملا لها بشهادة الله في هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات، وقد تحقق ذلك الوعد عبر التّاريخ الإسلامي، وما يزال هذا الدّين يغزو القلوب ويقتحم بيوت الخلق في مشارق الأرض ومغاربها بيسر منهجه وحقية منطقه دونما إكراه بالحديد والنّار.

١- التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٨٢-١٨٣. وروى البخاري الحديث من حديث خباب، كتاب (٦٦) فضائل الصحابة، باب (٥٨) ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم ٣٦٣٩: ٣/١٣٩٨.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾: لأن إرادة الله هي القاهرة الغالبة. والمستقبل لهذا الدّين مهما تطاول عليه الحاقدون كما تنبأ بذلك رسول الله حين قال: «**ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار**»[1]، أو كما قال ﷺ، والله أعلم.

التّجارة الرّابحة بالإيمان والجهاد في سبيل الله.

أ)- النصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: الاستفهام للترغيب والتّشويق، وأصل التّجارة تداول البيع والشّراء لأجل الكسب، واستعيرت هنا للعمل الصّالح. ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿تُنجِيكُم﴾: الجملة في موضع جرّ، صفة للتجارة. ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾: الآية جواب لسؤال مقدّر: ما هي هذه

١- رواه أحمد في المسند من حديث تميم الداري، رقم ١٦٩٩٨: ٤/١٠٣.

التجارة؟. فتكون خبر لمبتدأ محذوف، وهي في معنى الأمر، أي آمنوا بالله ورسوله. ودليله جزم: ﴿يَغْفِرْ﴾. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾: في جواب الأمر، وجيء به بصيغة الإخبار ليدل على وجوب الامتثال. ﴿ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُم﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: ﴿مَسَاكِنَ﴾: منصوب بالعطف على ﴿جنات﴾، ﴿طَيِّبَةً﴾: نعته، بمعنى خالصة طاهرة. و﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: أي للإقامة الدائمة. ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: ﴿وَأُخْرَى﴾: إما مبتدأ لخبر محذوف تقديره: ولكم نعمة أخرى. وإما في موضع جرّ معطوف على: ﴿تِجَارَةٍ﴾، تقديره: وعلى تجارة أخرى. ﴿تُحِبُّونَهَا﴾: في موضع جرّ أو رفع وصف. ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي هي نصر، والمراد بالفتح فتح مكة. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾: الحواريون جمع حواري، أي الصّاحب الصّفي، وهو اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الأوفياء وهم اثنا عشر. ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللهِ﴾: ﴿إِلَى﴾: للانتهاء المجازي، أي متجهين إلى الله بنصرة دينه. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾: أي افترق بنو إسرائيل إلى طائفتين مؤمنة بعيسى وكافرة به. اقتتلتا فأيد الله المؤمنين على الكافرين، وقيل إن ذلك وقع بعد رفع عيسى عليه السلام. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: أي غالبين لأعدائهم.

ج- أوجه القراءة:

﴿تُنجِيكُم﴾: قرأ الجمهور بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأه ابن عامر: ﴿تُنَجِّيكُم﴾ بفتح النون وتشديد الجيم، من: نجّاه. ﴿كُونُوا أَنصَارًا للهِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بتنوين: ﴿أَنصَارًا﴾، وقرن اسم الجلالة باللام الجارة، وقرأ الباقون بإضافة: ﴿أَنصَارَ﴾ إلى اسم الجلالة بدون لام، على اعتبار أنصار كاللقب على نحو قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

افتتحت السّورة الكريمة بالحث على الجهاد في سبيل الله إجابة لطلب بعض المؤمنين من الله عندما قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا به، جاءت الافتتاحية تحريضا على الجهاد وأن لا يكون المؤمنون مثل بني إسرائيل في مخالفتهم لموسى وعيسى، ثم كان وعد الله بالتّمكين والنّصر لهذا الدّين فناسب أن يعود السّياق في ختام السّورة إلى التّحريض على الجهاد، ولكن بأسلوب مشوّق مؤثر إذ تضمّن هذا النّص الختامي نداءين ربانيين للمجتمع الإيماني ينهضان به إلى سوق تروج فيه التّجارة الرّابحة في الدّنيا والآخرة فقال جلّ من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ، تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

الله جلّ جلاله يشهر لتجارة رابحة سوقها واحة الإيمان والعقيدة، يروّج لها بأسلوب التّشويق والتّرغيب: ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ﴾، والسّلعة المعروضة في صفقة هذه التّجارة ليس ربحها مالا ولا متاعا، بل هو الإنجاء من عذاب أليم. ومن ذا الذي لا تتوق نفسه إلى تلك النّجاة، والله تعالى هو الكفيل بها؟.

وبعد هذا الاستفهام المشوّق البديع في تصويره وتمثيله تهيّأت الأسماع لمعرفة الجواب بقوله تعالى مبيّنا نوعية تلك التّجارة: ﴿تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: جاء الخبران: ﴿تُومِنُونَ﴾ و﴿تُجَاهِدُونَ﴾ بصيغة المضارع لإفادة الدّوام والاستمرار وهما بمعنى الأمر، فهم أصلا مؤمنون من قبل، ولكن الأمر للثبات والدّوام، والأمر بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس هو مما يقتضيه ذلك الإيمان لإعلاء كلمة الله وحماية دينه، ولا يتحقق الجهاد بالأنفس إلا بتقديم الأموال لإعداد العدّة وتوفير أسباب النّصر. وغالبا ما يقدم ذكر

الأموال في التحريض على الجهاد، ثم يعقب الله على ذلك بمزيد من الترغيب والتحريض فيقول: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فإن العلم بحقيقة الشيء والتأكد من نتائجه الحسنة، يدفع الإنسان إلى مغالبة ضعفه النفسيّ أمام المتاعب والمشاق التي يتعرض لها عند تحقيق الغايات النبيلة.

ويتمثل الخير الموعود به في قوله تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، بدأ الله بالثواب الأخرويّ تعظيما لشأنه وترغيبا في استشرافه والرّغبة فيه لأنه الأغلى والأدوم، وهو يتمثل في:

أ)- ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾: وفي ذلك الفوز الأعظم للمؤمن كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢).

ب)- ومع هذا الأجر الرّوحاني الثّواب الحسيّ من نعيم الجنة الدّائم: ﴿**وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، إنها الرّبح الثّمين في تلك التّجارة، ولتخصيص المساكن الطّيّبة بالذّكر من نعيم الجنة إيحاء مقصود في مثل هذا الترغيب، لأن حبّ تلك المساكن في الحياة الدّنيا هو من أكبر المثبطات للقعود عن الجهاد في سبيل الله كما وردت الإشارة إلى ذلك في سورة التوبة في الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة:٢٤).

وفضل الله ليس له حدود، وعلمه بطبائع خلقه أمر أكيد إذ لم يقصر الخير على النّعيم الأخرويّ بل عطف عليه قوله: ﴿**وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، حسب المؤمن الوفيّ ما ذكره الله في تلك الصّفقة من

الرّبح الأخرويّ من رضوان الله ونعيم الجنة، ولكن الله الخبير بخفايا النّفوس البشرية يمنّي عباده المؤمنين بتحقيق ما يرغبون فيه من النّصر العاجل على أعدائهم وفتح لمختلف البلاد كمكة وغيرها مما قدّره الله في علمه الأزلّي أن يكون ويأمر رسوله بتقديم تلك البشرى للمؤمنين، وذلك كله زيادة في التّرغيب والتحريض لأن الموقف يستدعي ذلك؛ لأن الجهاد على ما يحققه من عزة وكرامة ثقيل على النّفوس كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ثم كان النّداء الرّباني في آخر السّورة تكملة للنداء المتقدم يدعو فيه الله المؤمنين إلى جهاد من نوع آخر إلى نصرة دينه بالمجاهدة والمصابرة في الثّبات والإخلاص فقال: **﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله فَئَامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾**.

إنه النّداء الذي يثير النّخوة ويستفز المشاعر الإيمانية في قلوب المؤمنين وهم ما يزالون يواجهون معاكسة المشركين وأهل الكتاب، فزيادة على مقارعتهم بالسّيف في ميادين القتال، فإن الجهاد الأكبر بالحجة والبرهان ومجاهدة النّفس ومكر الشّياطين تتطلب الصّبر والثبات في نصرة دين الله والتّمكين له في الأرض كي ينتشر ويستقرّ، ومن ثمّ جاء هذا الأمر الإلهي للمؤمنين بنصر دينه ومساندة رسوله وشبه ذلك بنصر الحواريين لدين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام. والحواريّون هم تلامذة عيسى وهم خلّص أتباعه الذين نشروا تعاليمه ووصاياه بعد رفعه، وفي ذلك تمثيل للموقف الذي يجب أن يكون عليه أتباع رسول الله عندما يدعوهم إلى النّصر والتّأييد في جميع الأحوال، وقد تجمّع حول رسول الله من أمثال أولئك الحواريين إخلاصا وثباتا ووفاء كالعشرة المبشرين بالجنة، وكالنّقباء الاثني عشر في بيعة العقبة.

ثم بيّن الله عاقبة أمر الحواريين بما آل إليه أمر بني إسرائيل من الصّراع

والاختلاف ما بين الجماعات المؤمنة برسالة عيسى، والأخرى المنحرفة المغالية في تقديسه أو الكافرة به كاليهود، وفي نهاية المطاف كان النصر للطائفة المؤمنة، والعبرة من هذا الخبر التاريخي هو وعد الله للمسلمين بالنصر والتأييد وظهورهم على أعدائهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

وقد تحقق وعد الله بنصرة دينه حتى غطى رقعة الجزيرة العربية قبل وفاة رسول الله، ثم انداحت دائرة انتشاره فعمّ المشارق والمغارب، والله أعلم.

تمّت

تم بحمد الله الجزء الثالث عشر،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الرابع عشر،

من بداية سور الجمعة.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 518
فهرس الأحاديث 527
فهرس الآثار 532
فهرس الأبيات الشّعرية 534

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

تفسير سورة محمد ﷺ

الآية	العنوان	الصفحة
-	بين يدي السورة	5
03-01	بيان حكم الله على المؤمنين والكفار	7
09-04	تحديد أحكام القتال وما بعده من أحوال الأسرى والقتلى	10
14-10	النظر في آثار الأمم السابقة للتأمل والاعتبار	17
15	صفة نعيم الجنة وعذاب أهل النار	23
19-16	الكشف عن سرائر المنافقين، ودعوة الرسول إلى الثبات على ما هو عليه	28
24-20	نزول الآيات العملية هو المحك الصادق لبيان حال المؤمنين والمنافقين	33
31-25	تصوير حال المنافقين بعد ردّهم وعند قبض أرواحهم والتهديد بكشف أمرهم للرسول والمؤمنين	40
35-32	بيان حال بعض من كفار أهل الكتاب، وحال بعض المؤمنين	46
38-36	تأكيد الحث على الجهاد بالتزهيد في الدنيا والترغيب في الإيمان والتقوى	52

تفسير سورة الفتح

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	59
03-01	فضائل صلح الحديبية على الرّسول وأصحابه	62
07-04	آثار صلح الحديبية على المؤمنين، والمنافقين، والمشركين	67
10-08	مهام النبي ﷺ، وجزاء المبايعين	72
17-11	أحوال المتخلفين عن الحديبية وجزاؤهم	76
19-18	رضوان الله على أهل الحديبية	84
24-20	بشارة المؤمنين بما سيفتح الله به عليهم، وأن يخذل أعداءهم	87
26-25	ذمّ المشركين على موقفهم، وبيان حكمة المصالحة	91
28-27	تصديق رؤيا رسول الله عام الفتح	95
29	أوصاف رسول الله وأصحابه	99

تفسير سورة الحجرات

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	105
01	الآداب الواجبة مع الله ورسوله	107
05-02	أدب الحديث بحضرة الرسول ﷺ	109
08-06	في الآداب العامة: وجوب التثبت من الأخبار	114

10-09 الأخوة الإيمانية، وكيفية الفصل في المنازعات الداخلية ... 122
12-11 آداب حسن المعاملة بين أفراد المجتمع المسلم 127
13 مبدأ المساواة بين الناس 141
18-14 الرّدّ على امتنان الأعراب، وبيان أصول الإيمان 145

تفسير سورة ق

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	151
11-01	الرّدّ الدّامغ على منكري البعث	152
15-12	التذكير بحال المكذّبين الأوّلين	160
22-16	خلق الإنسان وإحاطة علم الله بأحواله	163
35-23	حوار الكافر مع قرنائه، ومصير الفجّار والأبرار	169
45-36	تهديد منكري البعث وتوجيهات إلهية للرّسول ﷺ	175

تفسير سورة الذاريات

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	182
14-01	التأكيد بالقسم على وقوع البعث	182
23-15	جزاء المتقين، والإشادة بمناقبهم في الدنيا	188
37-24	الاعتبار بأحوال الأمم الماضية: 1-قصة إبراهيم مع ضيفه	193

46-38 الاعتبار بأحوال الأمم الماضية: 2- أقوام آخرون كذّبوا رسلهم 201
51-47 الله قوي قاهر، فلا ملجأ منه إلا إليه 204
60-52 تهديد المشركين بالعذاب، والأمر بالتذكير 208

تفسير سورة الطّور

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	214
16-01	وقوع القيامة، وإثبات أحداثها في اليوم الموعود	215
28-17	جزاء المتقين، ونعيم الجنة	222
43-29	الأمر بمتابعة التذكير، وتقريع المشركين بما يدّعون في حقّ الله ورسوله	229
49-44	إعراض الرسول عن مكابرة المشركين، وصبره على كيدهم	236

تفسير سورة النّجم

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	241
18-01	إثبات النبوءة، وبيان ظاهرة الوحي	242
28-19	محاججة المشركين والردّ على أباطيلهم	249
32-29	ترك الأمر لله في جزاء المحسنين والمسيئين، لأنه هو أعلم

بمن خلق 255
54-33 توبيخ المتولّين عن الحقّ، والتذكير بما في صحف إبراهيم
وموسى 261
62-55 الاتعاظ بالقرآن، والتحذير من أهوال القيامة 271

تفسير سورة القمر

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	276
08-01	قرب الساعة، وموقف المشركين منه	277
17-09	التذكير بقصص الأمم الخالية المكذبة بالرسل: 1- قصة قوم نوح عليه السلام	284
32-18	02-03: قصّة عاد وثمود	289
42-33	جزاء المكذبين من قوم لوط وقصّة آل فرعون	298
55-43	توبيخ مشركي قريش، وبيان جزاء المجرمين والمتقين	303

تفسير سورة الرّحمن

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	311
13-01	من النعم الإلهية الدنيوية والأخروية: 1- نعمة القرآن والآيات الكونية	313
25-14	من عجائب خلق الله وأجلّ نعمه	319

36-26 إفناء الكون، وبقاؤه تعالى وحده، وبيان الجزاء على الأعمال في الآخرة..... 324
45-37 الانقلاب الكوني يوم القيامة، وما يعقبه من مشاهد العذاب والنعيم الأعلى والأدنى: 1- مشاهد العذاب 330
61-46 2- مشهد النعيم الأعلى 333
78-62 مشهد النعيم الأدنى في الجنة (مقارنة بين النعيمين) 337

تفسير سورة الواقعة

الآية	العنوان	الصفحة
-	بين يدي السورة	344
12-01	قيام الساعة وأصناف الناس فيها	345
40-13	أنواع النّعيم للسابقين وأصحاب اليمين	350
56-41	أنواع عذاب أصحاب الشمال، وبيان سبب ذلك	358
74-57	أدلّة الألوهية، وإثبات القدرة على البعث.....	363
96-75	التنويه بشأن القرآن وإثبات صدقه، وتقريع المشركين على تكذيبهم واعتقادهم	370

تفسير سورة الحديد

الآية	العنوان	الصفحة
-	بين يدي السورة	379
06-01	الكون كلّه يسبّح لله لأنه الخالق المتصرّف العليم.....	381

12-07 التحريض على الإيمان وعلى الإنفاق في سبيل الله 387
17-13 حال المنافقين يوم القيامة، وتحريض المؤمنين على الحذر من التقصير في الخشوع لذكر الله..... 395
21-18 التنويه بأهل مراتب الإيمان، والتنديد بأضدادهم، وضرب المثل للحياة الدنيا، والترغيب في نعيم الآخرة 401
25-22 تسلية المسلمين على ما يصيبهم، وبيان الغاية من بعثة الرسل..... 407
29-26 بيان وحدة الشرائع في أصولها وجزاء المؤمنين بها..... 414

تفسير سورة المجادلة

الآية	العنوان	الصفحة
-	بين يدي السورة.....	420
04-01	إلغاء عادة الظهار، وبيان كفّارته	421
08-05	وعيد محادّة الله ورسوله، وعلمه تعالى بالخفايا	426
13-09	آداب الجماعة في الحديث والجلوس.....	432
19-14	كشف حقيقة المنافقين وفضح واقعهم، ودفعهم بأنواع التهديدات.....	439
22-20	الوعد بنصر المؤمنين، وتحريم موالاة الأعداء	445

تفسير سورة الحشر

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	450
05-01	إجلاء يهود بني النّضير، وبيان نقمة الله على أعدائه	451
10-06	بيان معنى الفيء، وحكمه الشرعي	456
17-11	تواطؤ المنافقين مع اليهود، وكيف كانت عاقبتهم؟	463
20-18	تأكيد الأمر بالتقوى والسعي للآخرة	469
24-21	عظمة القرآن وعظمة منزّله	473

تفسير سورة الممتحنة

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	479
03-01	النّهي عن موالاة المشركين، وبيان أسباب ذلك	480
09-04	التّأسّي بإبراهيم، وبيان علاقة المسلمين بغيرهم	485
11-10	حكم النّساء المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام	492
13-12	مبايعة النبيّ ﷺ للنّساء	496

تفسير سورة الصّفّ

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	500
04-01	التنديد بعدم مطابقة الأفعال للأقوال، والدعوة إلى الثبات	

في القتال 501
09-05 تذكير المؤمنين بقصة موسى وعيسى مع بني إسرائيل
ووعد الله بإظهار دينه على الأديان كلها 504
14-10 التجارة الرابحة بالإيمان والجهاد في سبيل الله 511

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
أتدرون من السابقون إلى ظل الله	350
أجب أخاك، وأفطر	50
احتجزوا من النّاس بسوء الظّنّ	135
إذا ظننت فلا تحقق	255-134
إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس	310
إذا مات ابن آدم انقطع عمله	266
أعددت لعبادي المتقين	190-27
أفلا أحبّ أن أكون عبدا شكورا	65
التثبت من الله، والعجلة من الشيطان	115
الرؤيا الصالحة جزء من ستّ وأربعين جزءا	96
ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام	343
اللّهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق	448
المؤمن بخير على كلّ حال	120
المسلم أخو المسلم	132
أما معاوية فصعلوك لا مال له	140
أمسك،	74
إن المسلمين أكثروا المسائل	438
أنّ النبي كان معتكفا	134

أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر 151
إنّ أمّتي يدعون يوم القيامة غرًا محجّلين 103
أن تعبد الله كأنّك تراه 191
أن رسول الله ﷺ قد ضم سلمان 133
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبّحات 379
إنّ رسول الله كان يمتحن..... 497
إنّ ركبا من بني تميم..... 107
أنا عبد الله ورسوله، 63
أنا عند ظن عبدي بي..... 135
أنتم أعلم بأمر دنياكم 50
أنزلت هذه الآية يوم الجمعة 435
أنشدك عهدك ووعدك 306
انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ..... 280
إنما الشّروط في الرّجال 494
إنه ليران على قلبي 32
أي المؤمنين أعجب لكم 391
إياكم والظن 136-134
أيها النّاس، إنّ الله قد أذهب عنكم..... 142
بعثت أنا والسّاعة كهذه..... 280-31
بعثنا رسول الله أنا والزبير والمقداد..... 482

تبارك الذي وسع سمعه كلّ شيء 423
ثكلتك أمّك يا معاذ 166
ثلاث لازمات لأمتي 292
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان 121
جعل الله الرّحمة مئة جزء 476
خير ما قلت أنا والنبيّون من قبلي 94
دعوها فإنها منتنة 144
ذكر لنا رسول الله ﷺ 394
رُبّ أشعث أغبر ذي طمرين 130
رحمة الله على موسى 507
سأل أهل مكة النبي ﷺ 280
سبحانك اللهم وبحمدك 240
سورة الواقعة سورة الغنى 445
قال أبو بكر: يا رسول الله 344
قدمت أمّي وهي مشركة 491
قرأ الرسول ﷺ عام فتح مكة 59
قولوا للمشركين: الله مولانا 18
كاد الخيّران أن يهلكا 110
كان ناس من المؤمنين 502
لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات 167

لا بدّ أن نناجز القوم 74
لا تؤذوا عباد الله 136
لا ترجعوا بعدي كفارا 142
لا يستر الله على عبد في الدنيا 136
لا يكن أحدكم إمّعة 443
لا يقيم الرّجل الرّجل 437
لست منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير 112
لصاحب الحق مقال 139
لكلّ شيء عَروس 311
لكن عافيتك أوسع لي 46
لقد أنزلت عليّ آية أحبّ إليّ 59
لما نزلت على رسول الله ﷺ 377
لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. 64
لو اطّلعت إلى الأرض 341
ليبلغنّ هذا الأمر 511
لن يدخل الجنة أحدا عمله 226
له ستمائة جناح 247
لي خمسة أسماء 508
ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ 151
مثل المسلمين واليهود والنّصارى 418

من عيّر أخاه بذنب 132
من قرأ آخر سورة الحشر 450
من قرأ سورة الواقعة 344
من كانت عنده لأخيه مظلمة 139
ناركم جزء من سبعين جزءا 369
نزلت في اليهود والمنافقين 431
نزلت في ثابت بن قيس 110
نزلت في ثابت بن قيس عندما 129
نزلت في عبد الله بن نبتل 441
نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي 108
نزلت في مكة في طريق هجرة الرسول 5
نزلت لما عيّرت بعض أزواج النبي 129
والله ليتمّنّ هذا الأمر 510
ويحك إنه رسول فاستمسك بغرزه 120
يا أيها الناس، إنّ ربّكم واحد 142
يا ذا الجلال والإكرام 339
يا رسول الله، ذهب أهل الدّثور بالأجور 404
يبعث كلّ عبد على ما مات عليه 444

و كان هذا في الجاهلية (ابن عباس) 525

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة
أسألك بالله إلا ما خصصتني (البراء بن عازب)	383
المسلمون عدول بعضهم عن بعض (عمر بن الخطاب)	117
المقصود بهم المهاجرون والأنصار (ابن عباس)	10
إنّ ربيعة وحبيبا ابني عمرو وصفوان (ابن عباس)	430
إن هذا لا يحل لك (أبو محجن)	137
إنكم تعدّون الفتح فتح مكة (ابن مسعود)	61
ذلك عامّ في كل حالة (ابن عباس)	444
ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا (هند بنت عتبة)	498
"ق" اسم لجبل عظيم محيط بالأرض (ابن عباس)	155
لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء (مجاهد)	108
لا يؤسر أحد في الإسلام (عمر بن الخطاب)	117
لهم أعرف بمنازلهم	16
ليس في الآخرة مما عرفناه في الدنيا إلا الأسماء (ابن عباس)	27
ما خفي على رسول الله بعد نزول هذه الآية	45
ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله (عبد الله بن مسعود)	379
ما كنا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية (جابر بن عبد الله)	65
والله لا أرفع صوتي (أبو بكر)	112
وكان هذا في الجاهلية (ابن عباس)	423

هي رأس كل تقوى (ابن عباس) 94
هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع (ابن عباس) 259
يراد به نجوم القرآن (ابن عباس) 373

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
أبي الإسلام لا أب لي سواه	448-126
إذا رمت أن تلقى من النّاس حرمة	443
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	255-135
إذا صافى صديقك من تعادي	483
إذا ما غلام علّني ثم علّني	26
أرى خلل الرماد وميض نار	124
أكنّه حين أناديه لأكرمه	128
إن العيون التي في طرفها حور	336
إن القلوب إذا تنافر ودّها	467
إن تبخلوا فمعاني البخل أربعة	411
إنّ حزنا في ساعة الموت	268
إنما ينقلون من دار غرور	367
ترى الرجل النحيف فتزدريه	130
تريا نهارا مشمسا قد شابه	340
تنشر الماء في الحياض حسانا	340
ثلاثة تنفي عن المرء الحزن	358
حسن الحضارة مجلوب بتطرئة	341
خرجت أجرّ الذيل حتى كأنني	26

خفف الوطء ما أظن أديم 181
خلق الناس للبقاء فضلّت 367
دواؤك فيك وما تشعر 193
ربّ لحد قد صار لحدا مرارا 181
ربّ ورقاء هتوف في الضحى 333
سر إن استطعت في الهواء رويدا 181
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب 181
طبعت على كدر وأنت تريدها 410
ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى 66
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم 292
فإن النار بالعودين تذكى 124
فإن لم يطفها عقلاء قوم 124
فكم تحرّق عود في مقاصرها 16
فمنهن سبقي العاذلات بشربة 406
فيا موت زر إن الحياة ذميمة 55
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد 247
كالبحر يقذف للقريب جواهرا 323
كم يوم بكيت فيه، ولما 268
كونوا حائطا لا صدع فيه 503
لا تحتقر كيد الضعيف، فإنما 130

لا تنه عن خلق وتأتي مثله 503
لبست ثوب العمر و لم أستشر 157
لولا اشتعال النار في ما جاورت 16
ما كل ما يتمنى المرء يدركه 254
متى تجمع القلب الذكيّ وصارما 94
مرء ترى بمجلس السباع خلاء 340
مرمر قامت الأسود عليه 340
من يشتري الخلد إن الله بائعه 394
نرى الأمر بالعلم اليقين تيقنا 229
نزلتم منـــزل الأضياف منا 359
وإذا أراد الله نشر فضيلة 16
وإذا العناية لاحظتك عيونها 236
وإذا رأوني مقبلا عن جنابة 128
والرّبح -يا ناس- مضمون ومدّخر 394
والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على 163
وإن الذي بيني وبين بني أبي 292
وإن زجروا بالنحس طيرا تمرّ بي 292
وتخضب لحية غدرت وخانت 331
وتزعم أنك جرم صغير 193-158
وتزعم أنك جرم صغير 193-158

وتقصير يوم الدّجن والدّجن معجب 406
ودفين على بقايا دفين 181
وسوف أنضو الثوب عني و لم 157
وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة 490
وعادى محبيه لقول عداته 255-135
وقد كان أرباب الفصاحة كلما 342
وكرّي إذا ما نادى المضاف محنّبا 406
ولولا ثلاث هن من لذة الفتى 406
وما ضرّني ما فاتني من نعيمها 21
وما نيل المطالب بالتمنّي 254
ومكلّف الأيام ضدّ طباعها 410
ومن شرط كل شرط جزاء 17
ومهما تكن عند امرئ من خليقة 45
يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما 340

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ(كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف (تجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وبهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من خمسين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

محتوى أجزاء التفسير

- **الجزء الأول:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية 204 من سورة البقرة إلى الآية 175 من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية 176 من سورة آل عمران إلى الآية 26 من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية 27 من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس:** من بداية سورة الأعراف إلى الآية 33 من سورة التوبة.
- **الجزء السادس:** من الآية 34 من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود عليه السلام.
- **الجزء السابع:** من بداية سورة يوسف عليه السلام إلى آخر سورة النحل.
- **الجزء الثامن:** من بداية سورة الإسراء إلى آخر سورة طه.
- **الجزء التاسع:** من بداية سورة الأنبياء إلى آخر سورة الفرقان.

- **الجزء العاشر**: من بداية سورة الشعراء إلى آخر سورة لقمان.
- **الجزء الحادي عشر**: من بداية سورة السّجدة، إلى آخر سورة ص.
- **الجزء الثاني عشر**: من بداية سورة الزمر، إلى آخر سورة الأحقاف.
- **الجزء الثالث عشر**: من بداية سورة محمد ﷺ، إلى آخر سورة الصّفّ.

أيها الأخ المسلم:

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان...

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أُهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك: 0-66-I.S.B.N: 978-9947-845-